تراثنا

مختار الأغاني في الأخبار والتهاني

اختيار

ابن منظور محمد بن مكرم

٦٣٠ هـ — ٧١١ هـ

الجزء السادس

تحقيق

الدكتور طه الحاجري

الدار المصرية للتأليف والترجمة

خرج هـــذا الـكتاب بالتعــاون

مع

معهد المخطوطات العربية بجـامعة الدول العربية

القاهرة

١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

ج ٠ ع ٠ م ٠

حرف العين

عروة بن حزام

هو عُروة بن حزام بن مُهاصر[1] ، أحد بنى حزام بن ضبة بن عبد بن كثير ابن عذرة .

شاعر إسلامى ، أحدُ المتيَّمين الذين قتلهم الهوى ، ولا يعرف له شعر إلا فى عفراءَ بنتِ عمِّه عِقال بن مهاصر .

لما هلك حزام ترك ابنه عروة صغيرا فى حجر عمه عقال ، وكانت عَفراء تِرباً لعروة ، يلعبان جميعا ويكونان معا ، حتى ألف كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه إلفا شديدا ؛ وكان عقال يقول لعروة لما يرى من إلفهما : أبشر فإن عَفراءَ امرأتُك ، إن شاء الله تعالى . فكانا كذلك حتى لحقت عفراء بالنساء ، ولحق عُروةُ بالرجال ، فأتى عروة عمة له يقال لها هِندُ بنتُ مهاصر ، فشكى إليها ما به من حبِّ عَفراء ، وقال لها فى بعض ما يقول : يا عمّة ! إنى لأَكلك[2] وإنِّى منكِ لمُسْتَحْيٍ ، ولكن لم أفعلْ هذا حتى ضِقتُ ذرعاً بما أنا فيه . فذهبت عمته إلى أخيها فقالت له : يا أخى قد جئتك فى حاجة أحب أن تحسن فيها ، فإن الله يأجرك بصلة الرحم فيما أسألك ؛ فقال لها : قولى ، فلن تسأليني حاجةً إلا رَدَدْتك بها ، قالت : تُزَوِّجُ عروةَ ابنَ أخيك ابنتَك عَفراء ، قال : ما عنه مَذهب ، ولا هو دونَ رجلٍ يُرغَب فيه ، ولا بنا عنه رَغبة ؛

---

(١) مهاصر (صححنا) : الأغانى ، (ترجمة عروة ج ٢٠) جمهرة أنساب العرب (أنساب بنى عذرة) ، مهاجر : التيمورية والأزهر ، فى سائر المواضع .

(٢) لا أكلمك : التيمورية والأزهر ، لمكلمك : الأغانى .

ولكنه ليس بذى مال ، وليست عليه عَجَلة . فطابت نفسُ عُروة ، وسكن بعضَ السكون . وكانت أمها سَيِّئة الرأى فيه ، تُرِيد لابنتها ذا مالٍ ووَفر ، وكانت عُرْضَة[1] ذلك جمالًا وكمالًا .

فلما تكاملت سِنّه وبلغ أشُدَّه ، عرف أن رجلا من قومه ذا يسار ومال كثير يخطبها ، فأتى عمّه فقال : يا عم قد عرفت حقّى وقرابتى ؛ وإنى ولدك ، وربيت فى حِجرك ؛ وقد بلغنى أنّ رجلا خطب عَفراء ، فإن أسعفتَه بِطلبته قَتَلْتَنى وسفكت دمى ؛ فأنشُدك الله عز وجل ورحمى وحقى . فرقَّ له وقال : يا بنى أنت مُعدِم ، وحالُنا قريبةٌ من حالك ، ولستُ مخرجَها إلى سواك ، وأمّها قد أبت أن تزوِّجها إلا بمهر غال ، فاضرِبْ[2] واسترزق الله عز وجل . فجاء إلى أمها فلاطفها وداراها ، فأبت أن تُجيبه إلا بما تحتكم عليه[3] من المهر ، وبعد أن يسوق شَطره إليها ، فوعدها بذلك .

وعلم أنه لا تنفعه قَرابة ولا غيرُها إلا المال الذى يطلبونه ؛ فعزم على قَصد ابنِ عمّ له مُوسِر كان مقيما باليمن . وجاء إلى عمِّه وامرأةِ عمّه وأخبرهما بعزمه ، فصوّباه ، ووعداه ألا يحدثا حَدَثاً حتى يعود . وصار فى ليلةِ رَحيله إلى عَفراء ، فجلس عندَها ليلةً هو وجَوارى الحيِّ يتحدثون إلى أن أصبحوا ثم ودَّعها وودَّع الحيّ ، وشَدَّ على راحِلته ، وصَحِبه فى طريقه فَتيانِ من بنى هِلال بن عامر كانا يَألفانه ، وكان حياهم متجاوِرَين ، فكان فى طول سفره ساهياً ، يكلمانه فلا يفهم ، فِكرُه فى عَفراء ، حتّى يردّا عليه القولَ مراراً . حتى لقى ابنَ عمّه ، فعرّفه حاله وما قَدِمَ له ، فوصَله وكساه وأعطاه مائةً من الإبل ، فانصرفَ بها إلى أهله .

---

(١) عرضت : اليتمورية والأزهر .

(٢) فاضطرب : الأغانى .

(٣) تحتكمه : الأغانى .

وقد كان رجلٌ من الشام من أسباب بنى أميّة نزل بحىّ عَفراء ، فنحر وأطعم ووهب ، وكان ذا مالٍ عظيم ، فرأى عَفراء ـ وكان منزله قريباً من منزلهم ـ فأعجبته ، فخطبها من أبيها ؛ فاعتذر إليه وقال له : قد سَمَّيْتُها لابن أخى وهو يعدلها عندى[١] ، وما لها إلى غيره سبيل ، فقال له : إنى أُرغِبك فى المهر ، قال : لا حاجة لى بذلك .
فعدل إلى أمها ، فوافق عندها قبولا لبذله ورغبــة فى ماله ، فأجابته ووعدته ، وجاءت إلى عقال فلامته وصنجته[٢] ، وقالت له : أىُّ خير فى عُروةَ حتى تحبس ابنتى عليه ، وقد جاءها الغنى يطرُق بابها ، ووالله ما ندرى أعروةُ حىّ أم ميت ، وهل ينقلب بخير أم لا ؟ فتكون قد حرمتَ ابنتَك خيراً حاضراً ورزقاً حسناً سنيًّا ، فلم تزل به حتى قال لها : إن عاوَدنى خاطباً أجبتُه .

فوجَّهت إليه : اغدُ عليــه خاطباً . فلما كان من غد نحر جُزوراً عدة وأطعم ووهب ، وجمع الحىَّ معه على طعامه وفيهم أبو عفراء ، فلما طعِموا أعاد القول فى الخِطبة ، فأجابه وزوّجه ، وساق إليه المهر ، وحُوِّلت عَفراءُ إليه ، وقالت قبل أن تدخل عليه :

يا عُرْوَ إنّ القومَ قد نَقَضوا   عهدَ الإلٰهِ وحاولوا الغَدْرَا

فى أبيات طويلة .

فلما كان الليلُ دخل بها زوجُها ، وأقام فيهم ثلاثاً ، ثم ارتحلَ بها إلى الشام ، وعَمَد أبوها إلى قبر عتيق فجدّده وسوّاه ، وسأل الحىَّ كتمانَ أمرها .

وقدِم عُروةُ بعد أيّام ، فنعاها أبوها إليه ، وذهب به إلى ذلك القبر ، فمكث يختلف إليه أياماً وهو مُضْنًى هالِك ، حتى جاءته جاريةٌ من الحىِّ فأخبرته خبرهم ؛

---

(١) وهو يعدلها عذرى : الأزهر والتيمورية .

(٢) كذا فى الأزهر والتيمورية ، وفى الأغانى : واستصحبته ، كأنه بمعنى : جعلته يصحب أى ينقاد .

فتركهم وركب بعض إبله ، وأخذ معه زاداً ونفقة ورحل إلى الشام حتى قَدِمها ، وسأل عن الرجل فأُخبِرَ به ودُلّ عليه ؛ فقصده وانتسب له فى عدنان ، فأكرمه وأحسن ضِيافتَه ؛ فمكث أياما حتى أنسوا به ؛ ثم قال لجارية لهم : هل لك فى يَدٍ تُولِينها ؟ قالت : نعم ، قال : تدفعين خاتَمى هـــذا إلى مَولاتِك عَفراء ، فقالت : سَوْءَةً لك ، أما تَستَحى بهذا[1] القول ؟ فأَمسك عنها ، ثم أعاد عليها وقال لها : ويحكِ ، هى والله بنتُ عمِّى ، وما أحدٌ منا إلا هو أعزُّ الناس على صاحبه من الناس جميعا ، فاطرحى هذا الخاتَم فى صَبوحها[2] ، فإذا أنكرت عليك فقولى لها : اصطبح ضيفُنا قَبلك ، ولعله سقط منه . فرقّت له الأمةُ وفعلت ما أمرها به .

فلما شربت عفراءُ اللبن رأت الخاتَم فعرفته فشهقت ثم قالت: اصدُقينى عن الخبر، فصدَقتها ، فلما جاءَ زوجُها قالت : أتدرى مَن ضيفك هذا ؟ قال : نعم فلان بن فلان العدنانى ، للنسب الذى انتسَبَه له عُروة ، فقالت : كلا والله بل هو عُروة بن حِزام ، ابنُ عمى ، وقد كتمكَ نفسه حياءً منك .

وقيل : بل جاءه ابنُ عمّ له فقال : أتركتم هذا الكلبَ الذى قد نزل بكم هكذا فى داركم يفضحكم ؟ قالوا له : ومن تعنى ؟ قال : عروةُ بن حزام العُذرىّ . ضيفكم هذا ، قال : وإنه لعُروة ؟ بل أنت والله الكلبُ ، وهو الكريم القريب ؛ ثم دعاه وعاتبه على كتمانه إيّاه نفسه ، وقال له : على الرّحب[3] والسعة ، نشدتُكَ الله إن رُمت هذا المكان أبدا . وخرجَ وتركه مع عَفراءَ يتحادثان ، وأوصى خادماً له بالاستماع عليهما وإعادة ما تسمعُه منهما عليه . فلما خَلَوا تشاكيا ما وجدا بعد الفراق، فطالت الشكوى وهو يبكى أحرّ بكاء ، ثم أتته بشرابٍ وسألته أن يشربَه ، فقال :

---

(١) بهذا : الأزهر والتيمورية .

(٢) صحنها : الأغانى .

(٣) بالرحب : الأغانى .

والله ما دخل جَوفى حرامٌ قطّ ، ولا ارتكبته منذ كنت ؛ ولو استحللتُ حراما كنت قد استحللتُه منكِ ، فأنت حظّى من الدنيا ، وقد ذهبت منّى وذهبتُ بعدكِ ، فما أعيش وقد أجمل هذا الرجل الكريم وأحسن ، وأنا مستحيٍ منه ، ووالله لا أقيمُ بعد علمه بمكانى ، وإنى عالم أنى راحل لمنيتى ، فبكى وبكت . وانصرف .

فلما جاء زوجُها أخبرته الخادم بما كان منهما ، فقال : يا عفراءُ امنعى ابنَ عمك من الخروج ، فقالت : لا يمتنع ، هو والله أكرمُ وأشدّ حياءً من أن يقيم بعد ما جرى بينكما ، فدعاه وقال له : يا أخى ! الله فى نفسك ، فقد عرفتُ خبركَ وأنك إن رحَلت تلِفت . والله لا أمنعك من الاجتماع معها أبدا ، وإن شئت لأفارقنّها ولأنزلنّ عنها لك ؛ فجزاه خيرا وأثنى عليه وقال : إنما كان الطمع فيها آفتى[1] والآن فقد يئست وحملت نفسى على اليأس والصبر ، فإن اليأس يسلّى ، ولى أمورٌ لا بدّ من رجوعى إليها ، فإن وجدت بى قوة على ذلك وإلّا عدتُ إليكم ، وزُرتكم حتى يقضى الله فى أمرى ما يشاء . فزودوه وأكرموه وشيّعوه وانصرف .

فلما رحَل عنهم نُكِسَ بعد صلاحه وتماثُله ، وأصابه غَشْى وخَفَقان ، فكان كلّما أغشى عليه ألقَى على وجهه خِماراً لعفراء زوّدته إياه فيفيق .

ولقيه فى الطريق عرّافُ اليمامة فرآه وجلس عنده وسأله عما به ، هل هو خَبَل أم جُنون ؟ فقال له عُروة : ألك علم بالأوجاع ؟ قال : نعم ، فأنشأ يقول :

وما بِىَ من خَبْل وما بى جِنّةٌ ... ولكنّ عمّى يا أُخَىّ كَذوب
أقول لعرّاف اليمامة داوِنى ... فإنّك إن داويتنى لأريب[2]
فوا كبِدًا أمستْ رُفاتًا كأنما ... يلذّعها بالموقِداتِ لهيب[3]

---

(١) آفتى : الأغانى ، منى : الأزهر والتيمورية .
(٢) لطبيب : الأغانى .
(٣) طبيب : الأغانى .

عَشِيَّةَ لا عفراءُ منك بعيــدةٌ ... فتسلو ولا عفراءُ منك قريب
عشيَّةَ لا خلفى مكَرٌّ ولا الهوى ... أمامى ولا يهوَى هَواى غريب
فوالله لا أنساكِ ما هبّت الصَّبا ... وما أعقَبتها فى الرياح جنــوب
وإنى ليغشانى لذكراك فَترةٌ[1] ... لها بين جلدى والعظام دبيب

* * *

وقال يخاطبُ صاحبيه الهلاليين بقضيَّته :

خَليلَىَّ من عَليا هِلالِ بنِ عامر ... بصنعاءَ عوجا اليــوم وانتظرانى
ولا تزهَدا فى الأجر[2] عندى وأجملا ... فإنــكما بى اليـــومَ مُبْتَليان
ألِمَّا على عَفراءَ إنــكما غــداً ... بوَشْك[3] النوَى والبيْن مُعْترفان
فيا واشِـيَىْ عفراءَ ويحــكما بمن ؟ ... وما ؟ وإلى من جئتما تَشِيان ؟[4]
بمَن لوْ أراه عانِيـا لفديتُــه ... ومن لو رآنى عانِيـا لفدانى
متى تــكشِفا عنى القميصَ تَبَيَّنا ... بى الضُّرَّ مِن عَفراءَ يا فتَيان
إذاً تَرَيا لحماً قليــلًا وأعظُماً ... بَلِينَ وقلباً دائمَ الخفقـــان
فقــد تركتْنى لا أعِى لمحدِّثٍ ... حَــديثا وإن ناجَيْتُه ونَجانى
جعلتُ لعرّاف اليمامة حُــكْمَه ... وعرّافِ حَجْر[5] إن هما شَفَيانى
فما تركا مِن حيلة يعرفانها ... ولا شربة[6] إلا وقد سقيانى

---

(١) هزة : الأغانى .
(٢) الذخر : الأغانى .
(٣) بشحط النوادر (ذيل الأمالى ص ١٥٨ ط دار الـكتب المصرية)
(٤) هكذا فى الأغانى ، وهو فى الأزهر والتيمورية مضطرب .
(٥) (نجد) النوادر (١٥٩) .
(٦) فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة : النوادر (ص ١٥٩) .

ورشّا على وجهى من الماء ساعة وقاما مع العوّاد يبتـــدِران
وقالا شفاكَ اللهُ والله ما لنـا بما ضُمِّنَتْ منك الضلوعُ يَدَان
فوَيْـلى على عَفراء وَيْـلًا كأنه على الصدر(١) والأحشاء وَخْزُ سِنان
أحبُّ ابنةَ العُذرى حبًّا وإن نأت ودانيتُ منها غـــير ما تريان(٢)
إذا رام قَلْبِي هَجرها حال(٣) دونَه شفيعانِ من قلبى لها جَدِلان
إذا قلتُ: لا قالا : بَلَى ثم أصبحَا جميعاً على الرأى الذى يَرَيان
فيا ربِّ أنت المستعانُ على الذى تحمّلتُ من عَفراء منـذُ زمان
تحمَّلتُ من عَفْراء ما ليسَ لى به ولا للجبـــال الراسياتِ يدان
كأن قطاةً علِّقت بجنـــاحها على كبدى من شدة الرجفان(٤)
لعمرُكَ إنِّى يومَ بُصرى وناقتى لمختلفا الأهـــواءِ مُصْطَحبان
متى تحملى شَوْقى وشوقَك تظلَعى وما لكِ بالحِمل(٥) الثقيل يدان
ألا يا غُرابَىْ دِمْنة الدار خبِّرا أبِالبَيْن(٦) من عَفراءَ تنتحبان
فإن كان حقا ما تقولان فانهضا(٧) بلحمى إلى وكريكما وكلانى
ولا يَعلَمَنَّ الناسُ ما كان قِصَّتى(٨) ولا يأكلنَّ الطير ما تَذَران

***

---

(١) الـكبد : النوادر (ص ١٦١) .
(٢) ما متدان : الأغانى .
(٣) حال : حيل فى الأزهر والتيمورية . وهذا البيت والذى بعده ليسا فى الأغانى ولا فى النوادر .
(٤) الخفقان : الأغانى .
(٥) بالعبء : النوادر ص ١٥٩ .
(٦) بينا : بالهجر: النوادر ١٦٠.
(٧) فاذهبا : النوادر .
(٨) قصتى : النوادر ، منيتى : الأزهر والتيممورية .

ثم لم يزل مُضْنًى فى طريقه ، حتى مات قبل أن يصل إلى حيِّه بثلاث ليال .

فبلغ عفراءَ خبرُ وفاته ، فجزعت عليه جزعا شديدا وقالت ترثيه :

ألا أيها الركبُ المخبُّون ويحكم ... بحقٍّ نَعَيْتُم عُروةَ بن حزام

فلا تَهنِىء الفتيانَ بعدكَ لذةٌ ... ولا رَجَعوا من غَيْبَةٍ بسلام

وقل للحبالَى لا تُرَجِّينَ غائباً ... ولا فَرِحات بعـــدَه بغُلام

ولم تزل تردِّد هذه الأبيات تندبه بها[1] حتى ماتت بعده بأيام قلائل .

ويقال: إنه لم يعلم بتزويجها حتّى لقى الرُّفقةَ التى هى فيها ، وأنه كان توجَّه إلى عمه بالشام لا باليمن ، فلما رآها وَقَف ودُهِش ، ثم قال :

فمـا هو إلا أن أراهـا فجاءةً ... فأُبهَتَ حتى ما أكادُ أجيب

وأصدُف عن رأيى الذى كنت أرتئى ... وأنسى الذى أزمعتُ حين تغيبُ

ويُظهر قلبى عُـــذرَها ويعينُها ... علىّ فمـالى فى الفؤاد نصيبُ

وقـد عَلِمتْ نفسى مكانَ شفائها ... قريباً ، وهل ما لا ينال قريبُ

حلفتُ بربِّ الساجدين لربِّهم ... خُشوعاً ، وفوق الساجدين رقيب

لئن كان بردُ المـاء حرّان صادياً ... إلىَّ حَبيبا إنها لحبيب

***

وقيل إنه عاد من عند عَفراءَ إلى أهله وقد ضنى ونَحل ، وكان له أخوات وخالة فعالجنه فلم ينفع ، وجاءوه بعرّاف حجر ، وهو أبو نُخيلة أبو طلحة رباح بن أسد مولى بنى يشـكر[2] ليداويه فلم ينفع دواؤه . وكان عروةُ يأتى حياضَ الماء التى كانت إبل عفراء تردها ، فيلصق صدرَه بها ، فيقالُ له : مهلاً فإنك قاتلٌ نفسَك ، فاتّق الله ولا تقتلها ، حـتّى أشرفَ على التلف وأحس بالموت .

---

(١) وتبديها : الأزهر والتيمورية .

(٢) كذا فى الأزهر والتيمورية . وفى الأغانى: وجئن بأبى كحيلة رباح بن شداد مولى بنى ثعيلة .

قال ابن أبى عتيق: إنى لأَسِير فى أرض عُذرة إذا أنا بامرأة تحمل غلاماً جَزلا ليس مثله يُحمل ، فعجبت لذلك حتى أقبلت به فإذا له لحية ، فدعوتها فجاءت ، فقلت لها : ويحك ما هذا ؟ فقالت : هل سمعت بعروةَ بنِ حزام ؟ فقلت : نعم ، فقالت : هذا عروة بن حزام ، فقلت له : أنت عروة ؟ فكلمنى وعيناه تدوران فى رأسه وقال : نعم أنا القائل :

جعلت لعرّاف اليمامــة حكمه ... وعرّاف حجر إن هما شفيانى
وقالا نعم نشفى من الداء كله ... وقاما مع العــوّاد يبتدران
فعفراء أحظى الناس عندى مودة ... وعفراء عنى المعرض المتوانى

***

وذهبت المرأة فما برحت من الماء حتى سمعتُ الصيحة ، فسألت عنها ، فقيل : مات عروة بن حزام .

ولما بلغ عفراءَ خبرُه قالت لزوجها : ياهناه قد كان من خبر ابن عمى مابلغك ، ووالله ما بينى وبينه قط إلا الحسن الجميل ، وقد مات فىّ وبسببى ، ولا بد لى من أن أندبه وأقيم عليه مأتما ، قال : افعلى ، فما زالت تندبه ثلاثا حتى ماتت فى اليوم الرابع. وبلغ خبرهما معاوية بن أبى سفيان فقال : لو علمت بخبر هذين الحرين الكريمين لجمعت بينهما . قال خارجة المكىّ : رأيت عروة بن حزام يطاف به حول البيت فدنوت منه وقلت : من أنت ؟ قال : أنا الذى أقول :

أفى كلِّ يوم أنت رامٍ بلادها ... بعينين إنسانا هما غَرِقان
ألا فاحملانى بارك الله فيكما ... إلى حاضر الروحاء ثم ذرانى

فقلت له : زدنى ، فقال : لا والله ولا حرفا .

قال أبو صالح : كنت مع ابن عباس فى عرفة ، فأتياه فتيان يحملان بينهما فتى

لم يبق منه الصبر إلا خيالا ، فقالا : يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ادعُ له ، فقال : وما به ؟ فقال الفتى :

بنا من جوى الأحزان فى الصدر لوعةٌ   تكاد لها نفسُ الشفيقِ تذوب
ولكنما ابقى حُشاشةَ مِقْوَلٍ[1]   على ما به عُودٌ هناك صليب

* * *

قال : ثم خَفَت فى أيديهم فإذا هو قد مات ، فقال ابنُ عبّاس : هذا قتيل الحب لا عقلَ ولا قَوَد ، ثم ما رأيت ابن عباس سأل الله عز وجل فى عشيته إلا العافية مما ابتلى به ذلك الفتى . وسألنا عنه فقيل : هذا عروة بن حزام .

---

(١) ولكنما أبكى حشاشة معول : الأزهر والتيمورية .

عبد الله القتال

القتّال لقبٌ غَلبَ عليه لتمرده وفتكه[1] ، وهو عبدُ الله بن المُجيب بن المَضْرَحيّ ابن عامر بن الهصار[2] بن كعب بن عبيد[3] بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة ، كنيته أبو المسيَّب ، أمُّه عمرة بنت حذيفة[4] بن عوف بن شداد ابن ربيعة بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب ، وقد ذكرها في شعره وفخر بها فقال :

لقد ولدتنى حُرَّةٌ رَبَعية   من اللاءِ لا يحضُرن فى القيظ دَيْدَنا

كان القتّالُ يتحدّث إلى ابنة عمٍّ له يقال لها « العالية بنت عبيد الله »[5] ، وكان لها أخٌ غائب يقال له « زياد بن عبيد الله » فلما قدم رأى القتال يتحدث إلى أخته ، فنهاه ، وحلف لئن رآه ثانيةً ليقتلَنَّه ، فلما كان بعد ذلك بأيام رآه عندها ، فأخذ له السيف ، وبصُر به القتّال فخرج هاربا وخرج فى أثره ، فلما دنا منه ناشده القتال بالله والرحم فلم يلتفت إليه ؛ فبينا هو يسعى ـ وقد كاد يلحقه ـ وجد القتالُ رمحاً مركوزا ـ وقيل وجد سيفا ، فأخذه ، وعطف على زياد فقتله وقال :

نهيتُ زياداً والمقامةُ[6] بيننا   وذكّرتُه أرحامَ سَعدٍ وهيثم
فلما رأيت أنّه غــيرُ مُنتهٍ   أملتُ له كفّى بلدنٍ مقوّم
ولما رأيت أننى قد قتلتهُ   ندمت عليــه أىّ ساعةِ مندم

---

(١) وفتكه ، الأغانى : وقتله ، الأزهر والتيمورية .
(٢) الهصار ، الأغانى : الهضاب ، الأزهر والتيمورية (الهصان : جمهرة أنساب العرب .
(٣) عبد الله ، الأغانى ، جمهرة أنساب العرب .
(٤) حرفة ، الأغانى .
(٥) عبد الله ، الأغانى .
(٦) المهامه ، الأغانى

وقال فيه أيضا :

نهيت زيادا والمقامة[١] بيننا وذكّرته بالله حولا مجرّما
فلما رأيت أنه غير منته ومولاى لا يزداد إلا تقدّما
أملت له كفّى بأبيض صارمٍ حُسامٍ إذا ماصادف العظم صمّما
بكفّ امرئٍ لم تحذم[٢] الحىّ أمه أخى نَجَداتٍ لم يكن مُتهضّما

***

ثم خرج هاربا ، وأهل القتيل يطلبونه . فمر بابنة عم له تدعى زينب مُتَنحية عن الماء ، فدخل عليها ، فقالت له : ويحك ما دهاك ؟ قال : ألقى علىّ ثيابك ، فألقت عليه ثيابَها وبُرقُعها ؛ وكانت تمسُّ حِنّاء ، فأخذ الحنّاء فلطخ يديه بها ؛ وتنحّت عنه ، وجدّ به الطلب ، فلما دنوا من البيت قالوا له ــ وهم يظنون أنه زينب ــ : أين الخبيث ؟ قال لهم : أخذ كذا[٣] ، لغير الوجهِ الذى يريد أن يأخذه . فلما عرف أن قد بعُدوا أخذ فى وجه آخر ، فلحق بعَماية ، وعمايةُ جبلٌ فاستَتَر فيه ، وقال :

فمن مبلغٌ فِتيان قومى أننى تسمَّيتُ لما شَبّت الحربُ زينبا
وأرخيتُ جلبابى على نَبْت لِحيتى وأبديتُ للناس البَنان المخضّبا

***

فمكث بعَمايةَ زمانا يقال إنه عشر سنين ، يأتيه أخ له بما يحتاج إليه ، وألفه نَمِرٌ فى الجبل ، كان يأوِى معه فى شِعب ، فلما راح النَّمِر إلى الشِّعب على عادته وجد القتّال ، فلما رآه كشَر عن أنيابه ، ودلع لسانه ؛ فجرّد القتال سيفه من جَفنه ،

---

(١) المهامه ، الأغانى .
(٢) لم تحذم : الأغانى : لا يحذف : الأزهر والتيمورية .
(٣) هاهنا ، الأغانى .

فردَّ النمر لسانه ، فشام القتَّال سيفَه ؛ فربض بإزائه ، وأخرج براثِنه ، فنثر القتّال سِهامَه من كنانته ؛ فضرب بيده وزأر ، فأوتر القتّال قوسه ، وانبض بوترها ؛ فسكن النمرُ وألِفه . فكان النمر يصطاد الأروَى ، فيجيء بما يصطاده فيلقيه بين يدى القتال ؛ فيأخذ ما يقوته ، ويلقى الباقىَ للنمر فيأكُلُه . وكان القتّال يخرج فيرمى الوحشَ بنبله ، فيصيب منها الشيء بعد الشيء ، فيأتى به الكهف ، فيأخذ لقوته بعضه ، ويلقى الباقى للنمر ، وكان القتال إذا ورد الماء أقام عليه النمر حتى يشرب ثم يتنحى ، ويرد النمر فيقيم عليه القتّال حتى يشربَ فقال فى ذلك :

ولى صاحبٌ فى الغار بعدكَ صاحبى أبا الجود[1] إلا أنه لا يُملَّل
كلانا عدوٌّ لا يرى فى عدوِّه مهزًّا وكل فى العداوة مُجملُ
إذا ما التقينا كان أنسَ حديثنا صُماتٌ وطَرف كالمعابل أكحل
لنا موردٌ صاف[2] بأرضٍ مَضَلَّة شَريعتُها لأيِّنا جاء أول
تضمنت الأروى لنا بشوائنا كلانا له منها سَديفٌ مخردَل
فأعلمُه فى صَنعة الوُدّ[3] أننى أميط الأذى عنه وما إن يهلِّلُ

***

وكان ابن هبَّار القرشى قد خرج إلى الشام فى تجارة ، فاعترضته جماعة فيهم القتّال الكلابى وغيره ، فقتلوه وأخذوا ماله ، فشاع خبره ، واتُّهم به جماعة من بنى كلاب فأُخذوا وحُبِسوا ، أخذهم عامل مَروان بن الحكم ، فوجههم إليه وهو بالمدينة ، فحبسهم ليبحثَ عن الأمر ثم يقتل قتلةَ ابن هبّار . فلما خشي القتّال أن يعلم

(١) يعدل صاحبا أبا الجون ، الأغانى .
(٢) صاف ، الأغانى : قلب ، الأزهر والتيمورية
(٣) فأعلمه فى صنعة الود ، الأغانى : فأغلبه فى صنعة الزاد ، التيمورية والأزهر .

أمرُه ، ورأى أصحابَه ليس فيهم غَناء ، اغتال السجّان وقتله ، وخرج هارباً من السجن مع نفر كانوا معه .

وأما النمرُ الذي كان يألفه فيقال إن القتَّال كان صالح خصماه عنه ، وأتاه فأخبره بصُلحه القومَ ، وأقبلا من الجبل منحدِرَيْن ، حتى إذا ما أسهلا عرف النمر أنه يريد الذهاب ، فازبأرَّ وانتفخ ، وهاله ذلك حتى خشي على نفسه ، وجعل يمر عن يمينه فلا يشعر به إلا هو عن شِماله ، فبينا هو قدامه إذا هو خلفه ، فلما خشي أن يقتله رماه بسهم فقتله[١] .

وقيل : إن ابن هبّار كان بينه وبين ابن عم له من قريش شيء ، فلما حُبس القتّالُ الكلابي أتاه ابن عم هبّار فقال له : أرأيت إن أنا أخرجتُك أتقتلُ ابن عمّيَ ابنَ هبّار ؟ قال : نعم ، قال : فإني سأرسل إليك بحديدة في طعامك فعالج بها قيدَكَ حتى تفكّه ، ثم البَسه حتى لا يُنكَر عليك ، فإذا خرجتَ إلى الوضوء فاهرب من الحرس فإني جالس لك ومعطيك فرساً تنجو به ، وسيفاً تمتنع به ؛ فإن خلَّصك ذلك وإلا فأبعدَكَ الله . فقال : قد رضيت ، قال : وكان أهلُ المدينة يخرجون المحتبسين إذا أمسَوا للوضوء ومعهم الحرس ، ففعل ما أمره ، وأتاه بالفرس ليخلصه . وآواه حتى أمسك عنه الطلب ، ثم جاءه وأعطاه سيفاً ، فقتل له ابن عمه ابن هبّار ، ووهب له نجيباً فنجا عليه وقال :

تركتُ ابنَ هبّار لدى الباب مُسْنَداً وأصبح دوني شَابَةٌ وأروم
بسيف امرئٍ لا أخبرُ الدهرَ باسمه ولو أجهشَتْ نفسي إلى هُمـوم

وزوّج القتّال ابنتَه أمَّ قيس رَذَاذَ بنَ الأخرَم بن مطرف بن كعب بن عوف ابن عبد بن أبي بكر ، فولدت له أولاداً ثم أعادها .

---

(١) « وأما النمر . . . فقتله » ، ليس هذا الخبر في الأغاني .

وكانت عند القتّال بنتُ ورقاء بن الهيثم بن المصار[١] ، وكان جاراً لأبى الحصر بن الحصر[٢] بن كعب بن عبد الله بن أبى بكر بن كلاب ، وكان لها ضرة عنده يقال لها أم رباح بنت ميسرة بن نصير بن الهضار وهى أم جنوب بنت القتّال ، فخرج القتّال فى سفر له ، فلما آب أقبل حتى أناخ على أهله ، فوجد عند بنت ورقاء جريرَ بنَ الحُصين ، فلما رأى جريرٌ القتّال نهض ، فسأل القتال عنه فقالت له امرأته أم رباح : إن هذا البيت لا نزال نسمع فيه مالا يعجبنا ، فطلق القتّال بنتَ ورقاء وهى حاملٌ فولدت له بعد طلاقها المسيَّب ابنه ، وقال القتال :

ولما أن رأيتُ بنى حُصَين ... بهم حنفٌ إلى الجارات بادى
خلعتُ عِذارها فلهيتُ عنها ... كما خُلع العذارُ من الجوادِ
وقلت لها عليكِ بنى حُصَين ... فما بينى وبينك من عَواد
أناديها بأسفل واردات ... ولدت أبا المسيب من تنادى
فرحت كأننى سيف صقيل ... وعزّت جارة ابن أبى قراد

* * *

ثم إن كلاب بن ورقاء بن أبى حذيفة بن عمار بن ربيعة بن كعب بن عبد الله بن أبى بكر ذبح جزوراً ووضع طعاماً وجمع القوم عليه وقال : كلوا أيها الفتيان فإن الطعام فيكم خير منه فى الشيوخ ، فقال القتّال : أنا والله خير للصبيان منك أرى المرأةَ وقد أعجبت أحدَهم فأطلّقها له ، وفى القوم جرير بن الحصين الذى كان وجده عند امرأته ، فرفع جرير السوط فضرب به أنف القتال ، ثم إنهم أعطوا القتّال حقّه ،

---

(١) الهصان ، الأغانى .
(٢) لبنى الحصين بن الحويرث، الأغانى.

فلم يقبله حتى أدرك ابنهُ المسيَّب وعبدُ السلام ، وقيل حتى أدرك بنوه الأربعة حبيب وعبد الرحمن وعبد الحى وعمير — أمهم ريّا بنتُ مُعن بن عامر بن كعب بن أبى بكر — فحملهم على الخيل حين أظلم الليل ، ثم أتى بهم بنى حُصين فلقى لقاحا لهم ثمانين ، فأسرها وبات يسوقها ، لا يتخلّف منها ناقة إلا عقرها حتى حبسها على الحصباء[1] حين طلعت الشمس ، والحصباء ماء لبنى عبد الله بن أبى بكر ، فحبسها وزجرهم عنها حتى جاء بنو حصين ، فعقلوا له من ضريبته أربعين بكرة وأهدرت الضريبة ، وإنما أخذ الأربعين مكرها ، لأن قومه أجبروه على ذلك .

وكانت لعمِّ القتّال سَرِيّة ، فقال له القتال : يا عمّ لا تطأ هـذه السرية فإنا قوم نبغض أن تلد فينا الإماء ، فعصاه عمه ، فضربها القتّال بسيفه فقتلها فادعى عمُّه أنه قتلها وفى بطنها جنين منه ، فمشى القتال إليها فأخرجها من قبرها وذهب معه بقوم عدول وشق بطنها وأخرج رحمها ، حتى رأوه لا حمل فيه . فـكذبوا عمَّه ، وقال القتّال فى ذلك :

أنا الذى انتشلتها انتشالا ثم دعوت غلمة أزوالا

فصدعوا وكذبوا ما قالا

(١) الحصى ، الأغانى .

عبيد الراعي

هو عُبيد بن حُصين بن معاوية بن جندل بن قطن بن ربيعة بن عبد الله بن الحرث ابن نمير بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة ابن قيس عيلان بن مضر ، وكنيته أبو جَندل ، والراعى لقب غلب عليه لجودة نعته الإبل وكثرة وصفه لها .

شاعر فحل من شعراء الإسلام وكان مفضَّلا مقدَّما ، حتى اعتَنَّ بين جرير والفرزدق ، واستكفَّه جرير ، فأبى أن يكفَّ ، فهجاه ففضحه .

ومدح سعيدَ بن عبد الرحمن بنِ عتّاب بن أسيد بن أبى العيص بن أميَّة فقال :

ألم تسأل بعارِمَةَ الديارَا عن الحىِّ المفارِقِ أينَ سارا
بلَى سـاءلتُها فأبت جواباً وكيف سؤالُك الدُّثرَ[1] القفارا
نرجّى من سَعيد بنى لؤىٍّ أخى الأعياص أنواءً غِزارا
تلقَّى نَوْءهن سِرَار شَهرٍ وخيرُ النَوْءِ مالقِى السِّرارا
خليلٌ تعزُبُ العِلّاتُ عنـه إذا ما حان يومٌ أن يَزارا
متى ما تأتِه ترجُـو نداه فلا بخلًا تخافُ ولا اعتِذارا
هو الرجل الذى نسبت قريشٌ فصار المجدُ منها حيث صارا

* * *

وكان الراعى من رجال العرب ووجوه قومه ، وكان يقال له فى شعره كأنه يعتسف الفلاة بغير دليل ، أى أنه لا يحتذى[2] شعر شاعر ولا يعارضه .

---

(١) الدثر : الدبر ، الأزهر والتيمورية .

(٢) لايحتذى : لا يجتنب ، الأزهر والتيمورية .

[1][قدِمَ جَندلُ بن الراعى على بلال بن أبى بُردة ، وقد مدحه ، وكان يكثر ذكر أبيه ووصفه ؛ فقال له بلال : أليس أبوك الذى يقول فى بنت عمّـه وأمّه وامرأة من قومه :

فلما قضتْ من ذى الأراكِ لُبانة أرادت إلينا حاجةً لانريدها

وقد كان بعد هجاء جرير إياه][1] . مغلَّبا ، فقال له جندل : لئن كان ابن جرير غلبه لما أمسك عنه عجزا ، ولـكنه أقسم غضبا ألا يجيبه إلى سَنَة ، وأينَ أنتَ عن قوله فى عدىِّ بن الرِّقاع :

لو كنتَ من أحدٍ يُهجى هجوتُـكمُ ياابنَ الرِّقاع ولـكن لستَ من أحد

تأبى قضاعةُ أن ترضى لـكم نسباً وابنا نِزارٍ فأنتم بيضة البـــلد

فضحك بلال وقال : أما هذا فصدقت .

لما أنشد عُبيدُ الراعى عبدَ الملك بن مرْوان :

فإن رفعتَ بهم رأساً نَعَشْتَهمُ وإن لَقُوا مثلَها من قابلٍ فسدوا

قال له عبد الملك : فتريد ماذا ؟ قال : تردُّ عليهم صدَقاتِهم فتنعشهم بها ، فقال له عبد الملك : هذا كثير ، فقال : أنت أكثر منه ، قال : قد فعلتُ ، فسلنى خاصّة[2] ، فضحك وقال : قد قضيتُ حاجتى ، قال : سلنى حاجة لنفسك ، قال : ما كنت لأفسد هذه المكرُمة .

وكان جَندلُ بنُ الراعى شاعرا ، وهو القائل :

طلبت الهوى الغَوْرى[3] حتى بلغتهُ وسيَّرت فى نَجْديَّـة ما كفانيا

وقلتُ لحلمى لا تزَعْنى عن الصِّبا وللشَّيبِ لا تَذْعَر علىَّ الغوانيــا

(١) [قدم . . . إياه] ، وقد سقط فى الأزهر والتيمورية ، فاضطرب السياق .

(٢) حاجة تخصك ، الأغانى .

(٣) العذرى ، الأزهر والتيمورية .

وكان جندلُ بخيلا ، وكان له امرأة من بنى عَقيل ، فرآها يوما وقد هُزِلت وتَخَدَّد لحمها ، فأنشأ يقول :

عُقَيْلِيَّة أمّا أعالى عظامها فعُوجٌ وأما لحُمها فقليل[1]

فقالت مجيبة له :

عقيلية حسناء أزرى بلحمها طعامٌ لديك ابنَ الرِّعاء قليل

فجعل جندل يسُبُّها ويضربها ، وهى تقول : قلتَ فأجبتُ ، وكذبتَ فصدقتُ ، فما أغضبك ؟

---

(١) رواية البيت فى الأغانى :

عقيلية ، أما ملاث أزارها فضمم وأما لحمها فقليل

عمّار ذو كُنَاز

هو عمّار بن عمرو بن عبد الأكبر ، يلقب ذا كِناز ، كَمْدانىٌّ صَليبة ، كوفىٌّ لَيِّن الشعر ، ماجن خِمِّير معاقِر للشراب ، حُدَّ فيه مِراراً ، وكان يقول شِعرا ظريفاً يُضحِكُ مِن أكثره ، شديد التهافت[1] حمى السخف ، وله أشياء صالحة .

وكان هو وحمّادُ الرَّاوية ومُطيعُ بن إياس يتنادمون ويجتمعون على شرابهم ، لا يفترقون ، وكلٌّ منهم متّهم بالزندقة .

ونشأ عمّار فى دولة بنى أمية ، ولم يُسمَع له خبرٌ فى دولة بنى العباس ، ولا كان مع شَهْوة الناس لشِعره واستِطابتِهم إياه ـ يَنْتَجِع ، ولا يبرحُ الكوفة لضعفِ بصره وعَشاء نظره .

قال حمّادُ الراوية : استقدمنى هشام بن عبد الملك فى خلافته ، وأمر لى بصِلة سنّيّة ، فلما دخلت عليه استنشدنى للأفوه الأودى :

منّا معاشِرُ لم يبنوا لقَومهم   وإن بنى قومُهم ما أفسدُوا عادوا

فأنشدته إياها ، ثم استنشدنى قول عدى بن زيد :

« أرواحٌ مودِّع أم بُكور » فأنشدتُه فأمر لى بمنزِل وجراية ، فأقمت عنده شهرا ، يسألنى عن أشعار العرب وأيامها ومآثرها وحسن أخلاقها ، وأنا أخبره وأنشده ، ثم أمر لى بجائزة وخِلعة وحملان ، وردّنى إلى الكوفة ، فعلمت أن أمرَه مُقبِل . ثم استقدمنى الوليدُ بنُ يزيد بعدَه ، فما سألنى [عن شىء من][2] الجد إلّا مرة واحدة ، ثم جعلت أنشدُه بعدَها فى ذلك النحو فلا يلتفت إليه ولا يهتزّ

---

(١) التهافت ، الأغانى : التملق ، الأزهر والتيمورية .

(٢) عن شىء من ، الأغانى : على ، الأزهر والتيمورية .

لذكر شىء منه ، حتى جرى ذكر عمّارٍ ذى كِناز ، فتشوقه وسأل عنه ، وما ظننت أن شعرَ عمار شىءٌ يراد ولا يعبأ به . ثم قال : هل عندك من شعره شىء ؟ فقلت : نعم أحفظ له قصيدة ، وكنت لكثرة عبثى بها قد حفظتها فأنشدته :

أصبح الحبلُ مِن سَلا مةَ رثًّا مجذَّذا
حبَّذا أنتِ يا سلا مةُ ألفينِ حبَّذا
ثم ألفينِ مُضعَفيـنِ وألفين هكذا
فى صَميم الأحشاء منِّى وفى القلب قد جَذا
جُذْوَةً من صَبابة تركتْهُ مفلَّذا
أشتهى منكِ منكِ مِنْكِ مكاناً مُجَنَّبَذا
مفعما ذا قبالة بين ركنين رَبَّذا
مُدْغَماً ذا مناكبٍ حسنَ القدِّ محتذا
رابياً ذا مجسّة أخنساً قد تَقَنْفَذا
لم ترَ العينُ مثلَه فى مَنامٍ ولو كذا
تامِكا كالسَّنامِ إذ بزَّ عَنْهُ مقذَّذا
ملء كفَّىْ ضجيعها نال منها تفخُّذا
لو تأمَّلته دُهِشتَ وعاينت جَهْبَذا
طيِّبَ العَرف والمجسَّة واللمسِ هَرمذا
فأجافيه فيه بأيرٍ كمثل ذا
ليتَ أيرى وليت حِرْ كِ جميعاً تآخذا
فآخِذٌ ذا بشقٍّ ذا وآخِذٌ ذا بقعر ذا

ومن مرذول هذه القصيدة :

أنتَ وجداً بها كغْـ ـضٍ جُفوناً على قذى
لم يقل قائلٌ من النـا س كنحو ذا
بحت حبى وصلتـــه صار شعرا مهـــذذا
قول عمّار ذى كِثا ز فيا حسنَ ما احتـذا
علّلانى بذكـرِها واسقيـــانى محـــذّذا
من كُميتٍ مُدامةٍ حبّــذا تلك حبّــذا
أصبح القـــومَ قهوةً فى أباريقَ تحتـــذا
يترك الأذنَ شُربُها أرجُوانا به خُـــذا

***

فضحك الوليدُ حتى استلقى على قفاه ، وصفّق بيديه ورِجليه ، وأمر بالشراب فأحضِر ، وأمرنى بالإنشاد ، فجعلتُ أنشد هذه الأبياتَ وأ كرِّرها عليه ، وهو يشرب ويصفِّق حتى سكِر ، وأمر لى بثلاثين ألف درهم . فتداولت الأيامُ ثم دخلتُ على أبى مسلم ، فاستنشدَنى فأنشدتُه قولَ الأَفْوَه حتى بلغتُ إلى قوله :

تُهدَى الأمورُ بأهل الرُّشدِ ماصلحت(١) فإن تولت فبالأشراف تنقـاد

فقال : أنا ذلك الذى تنقادُ به الناس ، فعلمت أن أمرهم مقبل .

عدنا إلى حديث حمّاد قال : ثم قال الوليد : ما فعل عمّار ؟ قلت : حى كميّت، وقد غُشِىَ بصرُه وضعُف جِسْمه ولا حراك به ، فأمر له بعشرة آلاف درهم . فقلت له : ألا أخبرُ أميرَ المؤمنين بشىء يفعله لا ضررَ عليه فيه ، وهو أحبُّ إلى عمّار من الدنيا بحذافيرها لو سيقت إليه ؟ قال : وما ذاك ؟ قلت : إنه لا يزال ينصرف من الحانات

---

(١) ما صلحت ، الأمالى (٢ : ٢٢٥) : ما صلحوا ، الأزهر والتيمورية .

وهو سكران فيرفعه الشُّرَط فيضرب الحدّ ، وهو لا يدع الشراب ولا يكفّ عنه ، وقد قطع بالسياط ، فتكتبُ بألا يُتعرَّضَ له ، فكتب إلى عامله بالعراق ألا يرفعَ أحدٌ من الحرس عمّارًا فى منكر ولا غيره إلا ضُرِب الرافعُ له حدّين وأُطلِقَ عمّار . فأخذتُ المال وجئت به إليه به فقلت : ما ظننتُ أنّ الله تعالى يكسب أحداً بشعرك خيرا [١] ، ولا يسأل عنه عاقلٌ ، حتى كسبتُ بأوضعِ شعرٍ قلتَه ثلاثين ألفا ، كل ذلك لقلة شكرك يا ابن الزانية ، فقال : هات منها ، فقلت : قد استغنيتَ عن ذلك بما خُصِصْتَ به ، ودَفعتُ إليه العشرة آلاف درهم ، فقال : وصلك الله يا أخى ، وجزاك خيرا ، ولكنّها سببُ هلاكى وقتلى ، لِأَنّى أشربُ بهاما دار معى منها درهم ، وأضربُ أبدا حتى أموت ، فقلت له : قد كفيتُكَ ذلك ، وهذا عهدُ أميرِ المؤمنين ألا تضربَ وأن يُضربَ من يرفعُك حدّين ، فقال : والله إنى لأشدُّ فرحاً بهذا من فرحى بالمال ، فجزيت خيرا من أخ وصديق . وقبض المال ولم يزل يشرب به حتى مات وبقيته عنده .

حضر عمّارٌ مع هَمْدانَ ليقبِض عطاءه ، فقال له خالدُ بنُ عبدالله : ما كنت لأعطيَك شيئا ، قال : ولم ذاك أيها الأمير ؟ قال: لأنك تنفق مالك فى الخمر والفجور ، قال : هيهات ذلك وهل بقى لى أرب فى هذا وأنا الذى أقول :

أيرُ عمّارٍ أصبحَ اليو ... م رِخْوًا قد انكسر
أَلِدَاءٍ يُرى به ؟ ... أم من الهمِّ والضجر ؟
أم به أُخْذَةٌ ؟ فقد ... تُطلِقُ الأُخذةَ النُّشَر
فلئن كان قوّس اليومَ ... أو عضّه الكبر
فلقِدماً مضى ونال ... من اللذّة [٢] الوطر

(١) نقيرا ، الأغانى .

(٢) اللذة ، الأغانى : الحرذا ، الأزهر والتيمورية .

ولقـــد كنت مُنْمِظاً دائماً[1] قائم الذكر
فأنا اليومَ لو رأى الُحورَ عنـــدى لمـــا انتشر
ساقطٌ رأسُـــه على خُصْيتيه به زور
كلما سمتُــه النهـــو ضَ إلى وَكرِه عَثَر

قال : فضحك خالدٌ وأمر له بعطائه . فلما قبضه قضى منه دينَه ، وأصلح حاله ؛ وعاد إلى شأنه ، وقال :

أصبح اليـــوم أيرُ عمَّار قد قام واسْبَطَرّْ
أخَـــذَ الرزقَ فاشتشا ط قياماً من البَطر
فهو اليــــوم كالشَّطا طِ من النَّمظ والأشر
يترك القِرنَ فى المــكرِّ صريعاً وما فَتَر
يَشْرَعُ العَرْدَ للطعا ن إذا انساعَ ذو الحوَر[2]
سَلْمَ نِعمَ الضجيعُ أنتِ له ليـــلةَ الَخصَر
ليـــلةَ البرقِ والرعود مع الغَيْم والَمطَر
ليتَنى قد لقيتُــكم فى خَلاء من البَشَر
فنشَرنا حديثَنَـــا عنـــدكم كلَّ مُنتَشَر
خالياً ليـــلة التِمَا م بسَلْمَى إلى السَّحَر
فهى كالدرَّة النقيَّـ ـة والوجهُ كالقَمر

وكانت لعمَّارٍ امرأة يقال لها دُومة بنتُ رَبَاح ، وكان يكنِّيها أمَّ عمار ، وكانت قد تخلَّقت بخُلُقه فى الشراب والمجون والسَّفَه ، حتى صارت تُدخِلُ الرجال إليها

---

(١) أبدا ، الأغانى .

(٢) يشرع . . . الحور ، الأغانى : قرع العود إذا مطاع ذو الحور ، الأزهر والتيمورية .

وتجمّعهم على الفواحِش ، ثم حجت فى إمارة مَخْرَمة بنِ عمرو ، فقال لها عمّار :

اتق الله قد حَجَجْتِ فتوبى لا يكونَنَّ ما صنعتِ خَبالا
وَيْكِ يادُومَ لا تَدومى على الْخَمْرِ ولا تُدخِلى عليك الرِّجالا
إن بالمصر يُوسُفاً فاحذَريه لا تصيرى للعالَمين نَكالا
قد مَضَى ما مضى وقد كانَ ما كا نَ وأودى الشبابُ منكِ وزالا

* * *

فضربته دُومة ، وخرقت ثيابَه ، ونتفت لحيته ، وقالت : أتجعلُنى غرضاً لشِعرك ؟ فطلَّقها ، واشترى جارية حَسناء فزادت فى أذاه وضَربه غَيْرَةً عليه ، فشكاها إلى يوسف بنِ عُمر ، فوجَّه بحرسٍ فضربُوها ، وكسروا نبيذها ، وغرَّموها ثيابَ عمّار وبلغوا منها الرضى له .

عبد الله بن مصعب

هو عبد الله بنُ مصْعَب بن ثابت بن عبد الله بن الزَبيْر بن العوّام بن خُوَيلد بن أسد ابن عبد العُزّى بن قُصَّى بن كِلاب .

شاعرٌ فصيحٌ خَطيبٌ ، ذو عارِضَة وبيان ، واعتبارٍ بين الرجال وكلام فى المحافل ؛ ونادم أوائلَ الخلفاء من بنى العباس وتولّى لهم أعمالا ، وكان خرجَ مع محمَّد بن عبد الله ابن الحسن بالمدينة على أبى جعفر المنصور فيمن خرج من آل الزبير ، فلما قُتِل محمَّد بن عبدالله بن الحسن استتر مدَّةً يسيرة إلى أن حج أبو جعفر ، وآمَنَ الناسَ جميعاً فظهر .

قال محمد بن أبى فروة : دخلت على المهدى فإذا هو يكتب على الأرض بفحمة قول عبد الله ابن مصعب :

فإن يَحجُبُوها أو يَحُلْ دونَ وصلِها ... مقالةُ واشٍ أو وعيـــدُ أميرِ
فلَنْ يمنعُوا عينىَّ من دائم البكا ... ولن يخرِجوا ما قــد أجنَّ ضميرى
وما بَرِح الواسواس[1] حتى بدَتْ لنا ... بطونُ الهـــوى مقلوبةً لظهور
إلى الله أشكو ما أُلاقى من الهوى ... ومن نَفَسٍ يعتادُنى وزَفـــير

وهو يقول : أحسن والله عبد الله ما شاء . وربما نسبت هذه الأبيات إلى المجنون .

لما ولى عبد الله بن مصعب اليمامة مر بالجوأب ، ماء لبنى بكر بن كلاب[2] ، وهو الذى ذكره النبىُّ صلّى الله عليه وسلم لعائشة . فرأى على الماء جارية منهم ، فهَوِيَها وهَوِيَته فقال فيها شعراً شبَّب بها فيه ، ثم خطبها ، وكانت العربُ لا تُنكِح المرأةَ الرجلَ إذا شبَّب بها قبل خِطبته ، فلم يزوِّجوه ، فلما يئِست منه قالت :

(١) الواشون ، الأغانى .

(٢) لبنى أبى بكر بن كلاب ، الأغانى .

إذا خَدِرَتْ رِجلى ذكرتُ ابنَ مُصْعَبٍ ... فإن قيلَ : عبدُ الله ، خفَّ فتورها
ألا ليتنى صاحبت ركبَ ابنِ مُصْعَبٍ ... إذا ما مطاياه اتلأبَّتْ صُـــدورها
لقد كنتُ أبــكى واليمــــامةُ دونَه ... فــكيف إذا التفَّتْ عَلَيــه قصُورها

وكان لها إخوةٌ شُرُسٌ فقتلوها .

خاصم عبد الله بن مُصْعَب رجلا من ولد عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه بحضرة المهدىّ ، فقال له عبدُ الله بن مُصْعَب : أنا ابنُ صفيَّة ، فقال له : هى أدْنَتْكَ من الظلِّ ، ولولاها لـكنتَ ضاحياً ، وكنت بين الحيّة والعقرب[1] . قال : أنا ابن الحوارىِّ فقال له العُمَرىُّ : بل أنت ابن وَرْدَان المُكارِى ، ويقال إن أُمَّــه كانت تهوى رجلا يُـكارِى الحميرَ يقال له وَردان ، فـكان يُسبُّ بنَسبِه إليه ، وفيه يقول الشاعر :

وتُدعَى حَوَارِىَّ الرسول تخرُّصا ... وأنتَ لوَرْدانِ الحميرِ سَليلُ

فقال : والله لأنا أشبهُ بأبى من التمْرة بالتمْرة والغراب بالغراب ، فقال له العمرى : كذبتَ ، وإلَّا فأخبرنى ما بالُ آل الزُبير ثُطّ اللِحى وأنت ألحَى ، وما بالهم سُمراً جِعادا وأنت أحمرُ سَبْط ، فقال . ألى تقول هذا يا ابن قَتيلِ أبى لؤلؤة ؟ فقال : يا بن قتيل ابن جُرموز على ضَلالة ، أتعيِّرنى أن قتلَ أبى نصرانى ، وهو أمير المؤمنين قائماً يُصلِّى فى محرابه ، وقد قتل أباك رجلٌ مسلم بين الصفَّين يدفعه عن باطل ويدعوه إلى حق ، فأنا أقولُ : رحمَ الله ابنَ جُرموز ؟ فقل أنت : رحم الله أبا لؤلؤة ، ثم أقبل على المهدى فقال : ألا تسمعُ يا أمير المؤمنين ما يقولُه عائذُ الـكلب فى عُمَرَ بنِ الخطاب ، وقد عرفتَ ما كان بينَه وبين أبيك العبّاسِ بن عبد المطلب وابنه عبدِ الله من المودة ، وتعلمُ ما كان بين جدِّ هذا عبدِ الله بن الزبير وبين جَدِّك عبدِ الله بن العباس من العداوة ، فأعزَّ يا أمير المؤمنين أولياءك على أعدائك ، فوثَب رجلٌ من آل طلَحة

(١) كذا فى الأزهر والتيمورية : بين الفوث والحوبة ، الأغانى ، ولعلها : الحوبة .

فقال : يا أميرَ المؤمنين ألا تَكُفّ هذين السفيهين عن تناول أعراضِ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتكلَّم الناسُ بينهما ، وتوسطوا كلامهما وأكثروا ، فأمر المهديُّ بكفِّهما والتفريق بينهما .

وكان عبدُ الله بنُ مصْعَب يلقَّب عائدَ الكلب لقوله :

مالى مرضت فلم يعُدْنى عائدٌ   منكم، ويَمرضُ كلبُكم فأعودُ
وأشدُّ من مرضى علىَّ صدودكم   وصدودُ كلبِكم علىَّ شديدُ

فلقب عائدَ الكلب .

أنشد الأحيحى المهدىَّ قصيدةً مدحه بها ، وكان عبد الله بن مُصعَب حاضراً ، فحسده على إقبال المهدىِّ عليه ، وكان المهدى يحبُّه . فجعل يخاطب المهدىَّ ويحدِّثه فقال له: أمسك فما يشغلنى كلامُك عنه ، فقطع الأحيحى الإنشادَ ، ثم أقبل على المهدىِّ فقال له :

عبدُ مَنافٍ أبو أبُوَّتِنَا   وعبدُ شَمسٍ وهاشِمٌ تؤم
بَحْرانِ خرَّ العوَّام بينهما   فالتطماه والبحرُ يَلتَطِم(١)

فقال له المهدى : كذلك هو ، فدعْ هذا المعنى وعد إلى ما كنتَ فيه . فخجل عبدُ الله ولم ينتفع بنفسه يؤمئذ .

---

(١) فالتطما والبحار تلتطم ، الأغانى .

عمارة بن عقيل

هو عمارة بن عَقيل بن بِلال بن جَرير بن عَطِيَّة الخَطَفى ، كنيته أبو عقيل .

شاعر متقدم فصيح ، شاعرٌ بادِية البصرة ، كان يَزورُ الخلفاء في الدَّولة العبّاسية فيجْزِلون صِلتَه ، ويمدح قوّادهم وكتّابهم فيحظَى منهم بكل فائدة ، وكان النحويون بالبصرة يأخذون عنه اللّغة ، وكان يقال : خُتِمتْ الفصاحةُ في شِعر المحدَثِين بعمارةَ بنِ عَقيل ، وهو أشدُّ استواءً من شعر جرير لأن جريرا أسْقَطَ في شِعره وضَعُفَ ، وما وجدوا لعمارة سَقْطَةً واحدة في شعره .

هجا عمارة بنُ عقيل امرأةً ، ثم أتته في حاجة بعد ذلك فجمل يعتذر إليها ؛ فقالت له : خفض عليك يا أخي ، فلو قتل الهجاء أحدا لقتلك وقتل أباك وجدَّك . وكان عمارة هجَّاء خبيثَ اللسان هجا فَروة بن خَميصة الأسَدى وطال التهاجى بينهما فلم يغلب أحدُهما صاحبَه حتى قُتِلَ فَروة ، وقيل لعمارة : أقتلت فروة ؟ فقال : والله ماقتلتُه ولكني أَقْتَلْتُه ، أى سبَّبت إليه شيئاً قُتِل به . لما أُنشِدَ فَروةُ قولَ عمارة فيه :

ما في السَّوِيَّة أن تجرَّ عليهم وتكونَ يومَ الرَّوْع أولَ صادر

قال : والله ما قتلني إلا هذا البيت ، فلما تكاثرتْ الخيلُ عليه من طى يوم قُتل قيل له : انجُ بنفسك ، قال : كلَّا والله ، لا حققْتُ قول عمارة ، فصبَر حتى قُتِل . وكان أحسنَ الناس وجهاً وقدًّا . وكان فروةُ(١) كثيرَ الظفر في طيء ، كثير العفو عمَّن قدَر عليه منهم ، فقالوا له : والله لا عَرَضْنا لك ، ولا أوصلنا إليك سوءًا فامضِ لطِيَّتك ، قال : فأنا إذًا كما قال ابنُ المراغة :

ما في السوِيَّة أن تجرَّ عليهم وتكونَ يومَ الرَّوع أولَ صادر

---

(١) في الأصل عمارة والتصويب بالهامش .

فلم يزل يحمِي أصحابَه وينْـكِي فى القوم حتى اضطرهم إلى قتله ، وكان جمعُهم مثلَ جمعه أضعافاً .

قال عمارة : رحتُ إلى المأمون ، وكان ربَّما قرَّب إلىّ الشيء مِنَ الشرابِ أشرَبُـه بينَ يديه ، وكان يأمر بكَتْب كثيرٍ مما أقول ، وقال يوماً : كيفَ قلتَ « قالت مفدَّاة » ؟ ونظر إلىّ نظراً منـكرا ، فقلت : يا أمير المؤمنين مفدَّاة امرأتى ، نظرت إلىّ وقد ساءتْ حالى ، قال : فـكيف قُلتَ ؟ فأنشدتُه :

قالت مُفدَّاةُ لما أن رأت أرَقِى ... والهمُّ يعتادنى من طَيْفِه ألمُ[1]

أنهبت[2] مالك فى الأدنين آصرة ... وفى الأباعد حـتَّى حفَّك العَدَم

فاطلبْ إليهم تجدْ ما كنتَ من حَسَنٍ ... تُسْدِى إليهم فقد بانت لهم حُرَم

فقلتُ : عاذلتى أكثرتِ لائمتى ... ولم يمُت حاتمٌ هُزُلًا ولا هَرِم

قال : فنظر المأمونُ نَظَرَ مُغضَب ثم قال : لقد علت هِمتُك أن ترقى إلى هَرِم ، وقد خرج من ماله فى إصلاح قومه .

لما قال عمارة يمدح خالد بن يزيد :

تأبى خلائقُ خالدٍ وفعالُه ... إلّا[3] تجنُّبَ كلِّ أمرٍ عائب

فإذا حضرتَ الباب عند غَدائه ... أذِنَ الغداء لنا برَغمِ الحاجب

لقيه خالدٌ فقال : يا عمارة ، أوجبتَ لك علىّ حقًّا ما حَيِيتُ .

* * *

---

(١) لم ، الأغانى .

(٢) انهبت : الأزهر والتيمورية ، اتيت ؛ الأغانى ، نهبت .

(٣) الا ، الأغانى : أبدا ، الأزهر والتيمورية .

حرف الغين

المعجمة

غياث الأخطل

هو غِياث بن الغَوْث بن الصَّلت بن طارِقة بن سَيْحان بن عَمرو بن الفَدَوْكس ابن عمرو بن مالك بن جُشَم بن بكر بن حَبيب بن عمرو بن غُنم بن تغلب ، وقيل: غِياثُ بن غَوث بن سَلَمة بن طارِقة ، ويقال لسَلَمة سَلَمة اللحَّام .

وكان النعمانُ بن المنذِر بعث بأربعة أرماح لِفرسانِ العرب ، فأخذ أبو بَراء عامرُ ابن مالك رُمحاً ، وسَلَمةُ بن طارقةَ اللحَّام رمحا ، وهو جدُّ الأخطل ، وأسَدُ بن مدركةَ رمحاً ، وعمرُو بنُ مَعْد يكربَ رمحاً .

والأخطلُ لقبُه . قال ابنُ السكِّيت : إن عُتبةَ بن الوَغْل بنِ عبد الله بن عمرو ابن حبيب بن الهِجْرِس بن تيم بن سعد بن جُشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم ابن تغلب حمل حِمالةً ، فأتى قومه فسأل فيها ، فجعل الأخطل يتكلم ، وهو غلام ، فقال عتبة : من هذا الغلامُ الأخطل ؟ فلقِّب بها . وقيل: إن كعب بن جُعَيل كان شاعراً لتغلِب ، فكان لا يأتِي قوماً منهم إلا أكرموه وضربوا عليه قبَّة ، حتى إنه كان تمدُّ له حِبالٌ بين وَتِدَين فتملأ له غنما[1] ، فأتى بنى مالكِ بن جُشَم ففعلوا ذلك له ، فجاء الأخطلُ وهو غلامٌ فأخرج الغنم وطردها ، فسبوّه وردّوا الغنم إلى مواضعها ، فعاد وأخرجها ، وكعبٌ ينظر إليه ، فقال : إن غلامَكم هذا الأخطل ، والأخطل السفيه ، فغلب[2] عليه ولجّ الهجاء بينهما . ومما قال الأخطل فيه :

---

(١) فتملأ له غنما ، الأغانى (٨ : ٢٨٠) : فيملوها ، المخطوطتان .

(٢) فغلب ، الأغانى : فلحق ، المخطوطتان .

سمِّيت كعباً بشرِّ العِظام

فقال كعب : قد كنتُ أقول : إنه لا يقهرُنى إلا رجُلٌ له ذكر ونباهة وثناء وعفة ، ولقد أعددتُ هذين لأن أهجى بهما منذ كذا وكذا ، فغلبَ عليهما هـذا الغلام . وكان الأخطل يُقَرْزِم ـ والقَرْزَمة الابتداء بقول الشعر ـ فقال له أبوه : أ بِقَرْزَمَتِكَ تريد أن تقاوم ابنَ جُعَيل . وضربه ، وجاء ابن جُعيل(١) فقال : من صاحبُ الكلام ؟ فقال له أبو الأخطل : لا تَحفِل به فإنه غلامٌ أخطل ، فقال كعب :

« شاهدتُ هذا الوجهَ غثَّ الجمة »(٢) .

فقال له الأخطل :

« فناكَ كعبُ بنُ جُعَيل أمَّه »

فقال كعب : ما اسم أمِّك ؟ قال : ليلى ، قال : أردت أن تعيذها باسم أمى ، قال : لا أعاذها الله إذن . وكان اسمُ أم الأخطل ليلى ، فسمى الأخطل يومئذ .

وقال الأخطل :

هجا الناس ليلى أمَّ كعبٍ فمزِّقت فلم يبق إلا نَفْنَفٌ أنا راقعه

وقال الأخطل أيضا :

هجانا الُمنْتِنَانِ ابنا جُعَيل وأىُّ الناس يقتُلُه الهِجاء

ولدتم بعد إخوتكم مِنَ أستٍ فهلّا جئتما من حيثُ جاءوا

فانصرف كعب عنهم ولج الهجاء بينهما .

وكانت أم الأخطل من إياد ، واسمها ليلى .

وكان الأخطل نصرانيا من أهل الجزيرة ، ومحله فى الشعر أكبر من أن يوصف ، وهو وجرير والفرزدق طبقةٌ واحدة ، جعلها ابن سلّام أول طبقات الإسلام ،

(١) ابن جعيل ، الأغانى : الأخطل ، المخطوطتان .

(٢) كذا فى المخطوطتين ولعلها : كث الجمة ، وفى الأغانى : شاهد هذا الوجه غب الجمة .

ولم يقع إجماعٌ على أحدهم أنه يفضلهم ، ولكل واحد منهم مزية[1] تفضله على الجماعة. قال أبو عبيدة : جاء رجل إلى يونس فقال : من أشعرُ الثلاثة ؟ قال : الأخطل ، قلنا : من الثلاثة ؟ قال : أى ثلاثة[2] ذكروا فهو أشعرهم . وقيل : كان أكثرَهم عددَ جِياد ليس فيها سقط ولا فحش ، وأشدَّهم تهذيباً لشعره . وقال الأصمعىّ : كان الأخطل يقول تسعين بيتا ثم يختار منها ثلاثين بيتا فيظهرُها . وكان سَلَمَةُ ابن عيّاش يفضِّله على جرير والفرزدق ، وإذا ذكر قال : ومن مِثلُ الأخطل وله فى كل بيت شعر بيتان ؟ ثم ينشد قوله :

ولقد علمت إذا الرياح تناوحت   هَدَجَ الرِّحال تكبُّهن شَمالا
أنا نعجِّل بالعبيط لضيفنا ...   قبل العيال ونقتل الأبطالا

ثم يقول لو قال :

ولقد علمتُ إذا الريا   حُ تناوحت هَدَجَ الرحال
أنا نعجِّل بالعبيط   لضيفنا قبل العيال

لكان شعرا ، وإذا أتمهما[3] كما قال أولا لكان شعراً من رويٍّ آخر .

قال رجل من بنى سعد : كنتُ مع نوح بن جَرير فى ظلِّ شجرة ، فقلت له : قبَحك الله وقبَح أباك ، أما أبوك فأفنى عمره فى مدح عَبد بنى ثقيف ـ يعنى الحجاج ـ وأما أنت فانتحيت قُثَم بن عبّاس فلم تهتد لمناقبه ومناقب آبائه ، حتّى امتدحته بقصرِ بناه ، فقال : والله لئن كنتَ سؤتنى فى هذا الموضع لقد سُؤتُ فيه أبى ، بينا أنا آكل معه يوماً وفى فيه لقمة وفى يده أخرى ، قلت : يا أبتِ أنت أشعرُ أم الأخطل ؟ فجرِضَ بالتى فى فيه ورمى بالتى فى يده ، وقال : يا بنىّ ، لقد سررتنى وسؤتنى ،

---

(١) طبقة ، الأغانى ٨ : ٢٨٢ :
(٢) ثلاثة ، الأغانى : الثلاثة ، المخطوطتان .
(٣) أتمهما : أتمهم ، المخطوطتان .

فأما سرورُك إياى فتعمُّدك لمثل هذا وسؤالُك عنه ، وأما ما سوَّتنى به فذكرك رجلًا قد مات ؛ يا بنى ، أدركتُ الأخطل وله نابٌ واحـــد ، ولو أدركتُه وله نابٌ آخر لأكلنى ، ولـكن أعاننى عليه خصلتان : كِبر سنٍّ وخُبثُ دين .

وقال أبو عمرو : لو أدرك الأخطل يوماواحدا من الجاهلية ما فضلت عليه أحدا .

وسئل حمادٌ الراوية عن الأخطل فقـــال : ما تسألوننى عن رجُلٍ قد حبَّب شعرُه إلى النصرانية .

وقال الأصمعى : قال أبو عمرو : سئل جرير : أى الثلاثة أشعر ؟ فقال : أما الفرزدق فيتكلَّف ما لا يطيق ، وأما الأخطل فأشدنا اجتراءً وأرمانا للفرائص ، وأما أنا فمدينة الشعر . سئل جرير عن الأخطل فقال : أمدح الناس للـكرم وأوصفهم للخمر .

وكان الأخطل يشبَّه بالنابغة لصحة شعره . كان حمّاد يفضِّل الأخطل على جرير والفرزدق فقال له الفرزدق : إنما تفضِّله لأنه فاسق ، فقـــال : لو فضّلتهُ بالفِسق لفضلتُك .

قال الأخطل لعبد الملك بن مَرْوان : زعم ابنُ المراغة أنه يبلُغ مدحك فى ثلاثة أيام ؛ وقد أقمتُ فى مِدحتك « خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا » سنةً ، فـــا بلغتُ كلَّ ما أردت ، فقال لى عبد الملك : فأسمعناها يا أخطل ، فأنشدتُه إياها ، قال: فرأيت عبد الملك يتطاول ، ثم قال : ويحك يا أخطل ! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ ، قلت : أكتفى بقول أمير المؤمنين ؛ وأمر لى بجَفنة كانت بين يديه ، فملئت دراهمَ وألقيت على خلع ، وخرج بى مولى لعبد الملك يقول للناس : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب .

قال هشام بن عَوانة : أُنشد عبد الملك قول كثيرٍ فيه :

فـــا تركوها عَنوة عن مودَّة ولـكن بحدِّ المشرفيِّ استقالها

فأعجب به ، فقال الأخطل : ما قلت لك يا أميرَ المؤمنين أحسنُ منه ، قال : وما قلت ؟ فأنشد :

أهلّوا من الشهر الحرام فأصبحوا مـوالىَ مُلك لا طريفٍ ولا غصبِ

فإنى جعلته لك حقاً ، وجعله لك غصباً ؛ قال : صدقت .

قدِم الأخطل على عبد الملك ، فنزل على ابن سَرْحون كاتبه ، فقال له عبد الملك : على من نزلت ؟ فأخبره ؛ فقال : قاتلك الله ! ما أعلمك بصالح المنازل ، فما تريد أن نرسل لك ؟ قال : دَرْمَك مه دَرْمَكِكُم هذا ولحمٌ وخمرٌ من بيتِ رأس ؛ فضحك عبد الملك وقال له : ويحك ! على أىّ شيء اقتتلنا إلا على هذا[1] ، ثم قال له : ألا تُسلم فنفرضَ لك فى الفيء[2] ونعطيك عشرة آلاف درهم ، قال : فكيفَ بالخمر ؟ قال : وما تصنعُ بها ؟ فإن أولها لمرّ وإن آخرها لسكر ، قال : لئن قلت ذلك إن فيما بين هاتين لمنزلةً ما ملكك فيها إلا كَمُلْقة[3] من ماء الفرات بالأصبع ، فضحك عبد الملك ثم قال : ألا تزور الحجاج ؟ فإنه قد كتب يستزيرك ، قال: أطائع أم كاره؟ قال : بل طائع ، قال : ما كنت لأختار نوالَه على نوالك وقُربه على قربك ، ولا أراكما إلا كما قال الشاعر :

كمبتـاع لمركبه[4] حمـارا تخيره[5] من الفرس الكريم

فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وأمر له بمدح الحجاج فمدحه بقوله :

صرمت أمامة حَبْلَنا ورَعُوم[6] وبدا المجمجَم منهما المكتومُ

(١) « على . . . . هذا » ، الأغانى : على كبر سنك اوسلما إلا على هذا، المخطوطتان .

(٢) فى الفيء ، الأغانى : فى الغين من عطائك ، المخطوطتان .

(٣) كلعقة ، المخطوطتان .

(٤) بمركبه ، المخطوطتان .

(٥) يغيره ، المخطوطتان .

(٦) صرمت لعامة حبلنا ورعوم ، المخطوطتان : صرمت حبالك زينب ورعوم ، الأغانى .

وهما بنتا شُعبة بنِ إياس بن هانئ بن قبيصة ، كان الأخطلُ نزل عليه وهما جاريتان مُكَعِّبان(١) ، ثم نزل عليه بعدَ أن كبرتا فحُجِبتا عنه ، فسأل عنهما فأخبره بكبرهما ، فشبَّب بهما ، والرعُوم هي التي كانتْ عند قُتَيبة بن مُسلم ، وهي التي تزوَّجت في أخماس البصرة محمَّد بن المهلَّب ، وعامرَ بن مسمع(٢) ، وعبَّاد بن الحصين ، وقتيبة بن مسلم(٣) ، وابن الجارود(٤) ، ثم وجه بالقصيدة إلى الحجاج ، وليست من جيِّد شعره .

دخل الأخطل على بِشر بن مَروان وعنده الرّاعي ، فقال له بشر : أنت أشعرُ أم هذا؟ قال : أنا أشعرُ وأكرم ، فقال للرّاعي : ما تقول ؟ قال : أما أشعر منِّي فعسى ، وأما أكرمُ فإن كان في أمّهاته من ولدَت مثل الأمير فنعم . فلما خرج الأخطل قال له رجل : أتقولُ لخال أمير المؤمنين : أنا أكرمُ منك ؟ قال : ويلَك ! إن أبا نَسطوس وضع في رأسي أكؤسا(٥) ، والله ما أعقل معها .

دخل الأخطل على عبد الملك بن مَروان فاستَنْشده فقال : قد يبس حَلقي ، فمُرْ من يسقيني ، فقال : اسقوه ماء ، فقال : شرابُ الحمار ، وهو عندنا كثير ، قال : فاسقوه لبناً ، قال : عن اللبن فُطِمتُ . قال : فاسقوه عسلاً ، قال : شرابُ المريض ، قال : فتريدُ ماذا ؟ قال : خمراً يا أميرَ المؤمنين ، قال : أوَعَهِدتني أسقي الخمر ؛ لا أمَّ لك ، لولا حرمتُك بنا لفعلتُ بك وفعلت . فخرج فلقي فرّاشاً لعبد الملك ، فقال : ويلك ! أميرُ المؤمنين استَنْشَدني وقد صَحِل حَلقي فاسقني شربة خمر ، فسقاه رطلا ، فقال : اعدِله بآخر ، فسقاه رطلاً آخر ، فقال : تركتَهما يعتركان في بطني ، اسقني ثالثا ،

---

(١) مكعبان : محببان ، والمخطوطتان ؛ فخدمتاه ، الأغاني (٨ : ٣٠٢) .
(٢) وعامر بن مسمع ، الأغاني : وعامر بن مسلم ، المخطوطتان .
(٣) وقتيبة بن مسلم ، الأغاني : وقيس بن مسلمة ، المخطوطتان .
(٤) وابن الجارود : وكان يقال لها : الجارود ، الأغاني .
(٥) أكؤسا ثلاثا : الأغاني .

فسقاه ثالثاً ، فقال : تركتَنى أمشى على واحدة ، اعدل مَيْلى برابع ، فسقاه رابعاً . فدخل على عبد الملك فأنشده :

خفَّ القطينُ فراحوا منكَ أوبكروا وأزْعَجَتْهم نوًى فى صَرفها غِيَرُ

فقال له عبد الملك : بل منك . وتطيَّر من قوله . ومرَّ فى القصيدة حتى انتهى إلى قوله :

شُمْسُ العداوة حتى يُسْتَقَادَ لهم وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدروا

فقال عبد الملك: خذ بيده يا غلام فأخرجه ، ثم ألقِ عليه من الخِلَع ما يغمرُه ، وأحسنْ جائزتَه ، ثم قال : إن لكل قوم شاعراً وإن شاعر بنى أميةَ الأخطل .

قال الأخطل : أشعرُ الناس قبيلةً بنو قَيْس بن ثَعْلبة ، وأشعرُ الناس بيتاً آل أبى سُلمى[1] ، وأشعر الناس رجلاً رجل فى قميصى[2] . قال إسحاق بن مرَّار الشَّيْبانى : الأخطلُ عندنا أشعرُ الثلاثة ، فقال له ابن النَّطَّاح : يقال إنه أمدَحُهم ، فقال : لا والله ! ولكن أهجاهم ، من منهما يحسن أن يقول :

ونحن رفعنا عن سلول رماحَنا وعَمْداً رَغِبنا عن دماء بنى نَصْر

قال الجلَّاح بن ضَوْء[3] : دخلتُ حمَّاما بالكوفة وفيه الأخطل ، فقال : ممَّن الرجل ؟ فقلت : من بنى ذُهل ، فقال : أتَروِى للفرزدق شيئاً ؟ قلتُ : نعم ، قال : ما أشعر خليلى ! على أنَّه ما أسرعَ مارجَع فى هِبته ، قلتُ : وما ذاك ؟ قال: قوله :

أبنى غُدانَةَ إنَّنى حَرَّرْتكم فوهبتكم لعطيَّة بن جِعَال
لولا عَطِيَّة لاجتدعتُ أنوفكم من بين ألأمِ أعين[4] وسبال

(١) بنى سلمى ، الازهر والتيمورية .
(٢) رجل فيه قيصى ، الأزهر والتيمورية : وأشعر الناس رجلا فى قميصى ، الأغانى .
(٣) الحلاج بن ضوء ، الأزهر والتيمورية : ضوء بن اللجلاج ، الأغانى (دار الكتب). مصححة عن الجلاح بن ضوء كما جاءت فى الأصول ، والتصحيح عن شرح القاموس .
(٤) آنف ، الأغانى .

وهَبهم فى الأوّل ورجع فى الثانى ، فقلتُ : لو أنكر الناسُ كلّهم هذا ما كان ينبغى لك أنتَ أن تنكرَه ، قال : كيف ؟ قلتُ : هجوتَ زُفَرَ بن الحارث ، ثم خَوَّفْتَ الخليفة منه فقلت:

بنى أمية إنّى ناصحٌ لكم ... فلا يبيتَنَّ فيكم آمناً زُفَرُ
مُفْتَرِشاً كافتراش الليثِ كَلْكَلَه ... لِوَقْعَةٍ كائنٍ فيها له جَزَرُ

ومدحتَ عِكْرِمة بن رِبْعِيّ فقلتُ :

قد كنتُ أُنبَؤُه[1] قَيْناً وأُخْبَرُه ... فاليومَ طُيِّر عن أثوابه الشَرَرُ

ولو أردْتَ المبالغةَ فى هِجائه مازدتَ على هذا ، فقال : أما والله لولا أنّك من من قومٍ سَبَق لى منهم ما سبق لهجوتُكَ هجاءً يدخل معك قبرك . ثم قال :

ما كنتُ هاجِىَ قومٍ بعد مَدْحِهم ... ولا مُلَوِّثَ[2] نُعمى بعد ماتَجِبُ

اخرُجْ عنى .

لما استَنْزَل عبدُ الملك زُفَرَ بن الحارث الكلابىَّ من قرقيسيا ، أقعدَه معه على سريره ، فدخل عليه ابنُ ذى الكَلاع ، فلما نظر إليه مع عبد الملك على السرير بكى ، فقال له : ما يُبكيك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، وكيفَ لا أبكى وسيفُ هذا يقطرُ دماً من دماء قومى فى طاعتهم لك وخِلافه عليك ؟ ثمَّ هو معك على السَّرير وأنا على الأرض؟ فقال له : أجلسه معى لا أن يكون أكرم على منك[3]، ولكن لسانُه لسانى وحديثُه يُعجِبُنى. فبلغت الأخطلَ وهو يَشْرب ، فقال: أما والله لأقومَنَّ فى ذلك مَقاماً لم يقمه[4] ابنُ ذى الكَلاع ، ثم دخل على عبد الملك فلما ملأ عَيْنيه منه أنشد :

---

(١) أحسبه ، الأغانى .

(٢) ولا تكدر ، الأغانى .

(٣) أنى لم أجلسه معى أن يكون أكرم على منك ، الأغانى .

(٤) لم يقم فيه ، الأزهر والتيمورية .

وكَأْسٍ مِثلِ عَيْنِ الدِّيكِ صِرفٍ تُنسِّي الشـــاربين لها العقولا
إذا شَرِبَ الفتى منها ثلاثاً بغير المـاء حاول أن يَطولا
مَشى قُرَشِيَّـةً لا شكَّ فيهـا وأرخى من مآزِره الفضـولا

فقال له عبد الملكِ : ما أخرج هذا منك إلا خُطَّةٌ في رأسك ، قال : أجل يا أمير المؤمنين حينَ تُجلِس هذا عدوَّ الله[1] معك على سَريرك ، وهو القائل بالأمس :

وقد يَنْبُتُ المرعى على دِمَن الثَّرى وتبقَى حَزازاتُ النفوسِ كما هِيا

قال: فقبَض عبدُ الملكِ رِجله ، وضرب بها صَدرَ زُفَر ، فقلبه عن السرير ، وقال : لا أذهب الله حزازات تلك الصدور أبداً[2] ، فقال : أنشُدُك يا أميرَ المؤمنين العهدَ الذي أعطيتَني ، وكان زُفَر يقول : ما أيقنتُ بالموت إلا تلك الساعةَ حين قال الأخطل ما قال .

طلَّق أعرابيٌ زوجتَه فتزوَّجها الأخطل ، وكان الأخطلُ قبل ذلك طلَّق امرأتَه فبينا هي معه إذ ذكرت زوجَها الأوَّل فتنفَّست ؛ فقال الأخطل :

كِلانا على همٍّ يبيتُ كأنَّمـا بِجَنْبَيْه من مَسِّ الفِراش قُروح
على زوجها المـاضي تنُوح وإنَّـني على زَوْجَتي الأخرى كذاكَ أنُوح

قال الأخطلُ لعبد الملك بن المهلَّب : ما نازعتْني نفسي قط إلى مدح أحد منازعتَها إياي إلى مدحكم ، فأعطني عطيةً أنشط[3] بها لساني ، فوالله لأُردِّينكم أرديةً يبقى صقالها إلى يوم القيامة ، قال : أعلمُ أنَّك بذلك مليء ، ولـكنَّـني أخاف أن يبلُغ أميرَ المؤمنين أني أسأل في غُرْم وأعطي الشعراء فأهلك ، ويظنّ أن ذلك مني حيلة . فلما قدم على على إخوته لاموه كلَّ لَوْمٍ فيما فعله فقال : أخبرتُه بعُذرى .

---

(١) عدو الله هذا ، الأغانى .
(٢) أذهب الله حزازات تلك الصدور ، الأغانى .
(٣) تبسط ، الأغانى (٨ : ٢٩٨) .

كان الأخطل يجيء في جُبَّة خَزّ وبرنُس خَزّ ، وفى عنقه سلسلة ذهب فيها صليب من ذهب ، تنفض(١) لحيته خمراً ، ويدخل على عبد الملك بغير إذن .

بينا الفرزدقُ والأخطلُ يشربان بالكوفة ، في إمارة بشر بن مَروان ، إذ دخل عليهما فتىً من أهل اليمامة ، فقالا له : هل تروى لجرير شيئاً ؟ فأنشدهما :

لما وضعتُ(٢) على الفرزدق مِيسَمى وعلى البَعيثِ لقد نكحت الأخطلا

فأقبل الفرزدقُ وقال : يا أبا مالك ، أتراه إن وسَمَنى يتوركُ مع كِبرَ سنِّك؟ ففزع الفتى(٣) وقام وقال : أنا عائذٌ بالله من شَرِّ كما ، فقالا : اجلس لا بأس عليك ! ونادماه بقيّةَ يومهما .

ومما تقدَّم به الأخطلُ على نظرائه أنه كان أخبثهم هجاءً في عَفافٍ عن الفُحش. وقال الأخطلُ : ما هجوتُ أحداً قطّ بما تستحى العذراء أن تُنْشِدَه أباها .

كانت بكرُ بنُ وائل إذا تشاجرت في شَيء تَراضت(٤) بالأخطل . وكان يدخلُ المسجدَ فيقدَمون إليه . فرأيتُه في الجزيرة ، وقد شُكِيَ إلى القَسّ ، فأخذ بلحيته وضربَه بعَصاه ، وهو يَصِيء كما يَصِيء الفَرْخ ، فقيل له : أين هذا مما كنتَ فيه بالكوفة ؟ فقال : يا ابنَ أخى ، إذا جاء الدينُ ذَلَلْنا .

مدح الأخطلُ هشاما فأعطاه خمسَمائة درهم فلم يرضَها ، وخرج فاشترى بها تفّاحا وفرّقه على الصبيان . فبلغ ذلك هِشاماً فقال : قبَحه الله ! ما ضرَّ إلا نفسَه .

أوْفد الحجَّاجُ بنُ يوسفَ وفداً إلى عبدِ الملك فيهم جرير ، فجلس لهم ، ثم أمر بالأخطل فدُعِى به ، فلمّا دخل عليه قال : يا أخطلُ ، هذا سبُّك — يعنى جريراً —

---

(١) تنفض ، الأغانى (٨ : ٢٩٩) : تمصر ، الأزهر والتيمورية .

(٢) لو قد بعثت ، (الأغانى (٨ : ٣٠٠) .

(٣) ففزع (الفتى) ، الأغانى .

(٤) رضيت ، الأغانى (٨ : ٣٠٣) .

فأقبل عليه جرير فقال : أين تركتَ خنازيرَ أمِّك ؟ قال : راعيةً مع أعيار أمِّك وإن أتيتَنا قَرَيْناك منها ، قال : فأقبلَ جريرٌ على عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين إن رائحةَ الخمر لتفوحُ منه ، قال : صدق يا أمير المؤمنين ، وما اعتذارى عن ذلك ! ثم قال :

تَعيبُ الخمرَ وهى شراب كِسْرَى ويَشربُ قومُك العَجَبَ العجابا[1]

منىُّ العبدِ عبدِ أبى سُواج أحقُّ من المدامةِ أن يُعابا[2]

فقال عبد الملك : دَعُوا هذا ، وأَنشِدْنى ياجرير ؛ فأنشدَه ثلاث قصائدَ كلُّها يمدح فيها الحجّاج فأُحفِظ عبدُ الملك وقال : ياجَرير ، إن الله عز وجل لم ينصُر الحجّاج ولكن نصر دينَه وخليفتَه ؛ ثم أقبلَ على الأخطل فقال : أنشِدنى فأنشده :

* خفَّ القطينُ فراحوا منكَ فابتكروا *

معنى قول الأخطل «منّى العبدِ عبدِ أبى سواج» أن أباسُواج ، وهو عبّادبن خَلَف الضّبّي جاور بنى يَربوع ، وكانت له فرسٌ يقال لها بذوة[3] ، وكانت لصُرَدَ بنِ جَمْرَةَ اليَربوعى فرسٌ يقال لها القَضِيب ، فتراهنا عشرين بعشرين ، فسبقت بذوة فظلمه[4] ابن جَمرَة اليربوعىّ حقَّه ومنعه سَبَقَه وجَعل يفجُر بامرأته ، ثم إن أبا سُواج ذهب إلى البحرين يَمتار ، فلما رجع — وكان معجبا بنفسه — جعل يحدُو ويقول :

* يا ليتَ شِعرى هل بَغَتْ من بَعدى *

فسمع قائلًا يقول من خلفه :

* نعم بِعلوى[5] قفاه جعدى *

---

(١) العجيبا ، الأغانى (٨ : ٣٠٦) .

(٢) تعيبا ، الأغانى .

(٣) بذوة ، الأغانى : بذرة ، المخطوطتان .

(٤) فظلمه ، الأغانى : فطلبه ، المخطوطتان .

(٥) بِسكوى ، الأغانى (٨ : ٣٠٧) .

فعاد إلى قَوْله فأجابه بمثلِ ذلك . وقَدِم إلى منزله فأقام به مدّة ، فتغاضب صُرَدُ على امرأةِ أبي سُواج وقال : لا أرضى أو تقدّى من است أبي سُواج سَيْرًا ، فأخبرتْ زوجَها بذلك ، فقام إلى نَعجةٍ له ، وقدّ من باطن استها[1] سيرا فدفعه إليها ، فجعله صُرَدُ بن جَمْرَة في نعله ، وقال لقومه : إذا أقبلتُ وفيكم أبو سُواج فسَلُونى من أين أقبلت ، ففعلوا ، فقال : من ذى بِلِيّان ، وأريد ذا بِلِيّان ، وفى نعلى شِراكان ، من استِ إنسان ،فقام أبوسُواج وكشف[2] ثوبَه وقال: أنشُدكم اللهَهل تَرَوْنَ بأساً ؟ ثم أمر أبو سُواج غلامَين له رَاعِيَين أن يأخُذا أمةً فيتراوحاها ودفع إليهما عُسًّا ، وقال : إن قَطَرتْ منكما قطرةٌ فى غير العُسّ لأقتلنّكما ، فباتا يتراوحانها ويصبّان ما جاء منهما فى العُسّ ، وأمَرها أن يحلُبا عليه حتّى يملآه ؛ ثم قال لامرأته : اسقيه صُرَداً أو لأقتلنّك . واختبأ ، وقال: ابعَثى إليه حتىيأتيَك ، فأتاها علىعادتِه كما كان يأتيها ، فرحّبت به واستبطأته ، ثم قامت إلى العُسّ فناولته إيّاه ، فلما ذاقَه رأى طعماً خبيثاً ، وجعل يتمطّق[3] من اللبن الذى يَشْربه ، وقال : إنى أرى لبنكم خاثراً وأحسب إبلكم رعت السَّعْدان ، فقالت : إنّ هذا من طولِ مُكثه فى الإناء ، أقسمتُ عليك إلّا شَرِبتَه ، فلما وقع فى بطنه وجد الموتَ ؛ فخرج إلى أهْلِه ، ولم يعلم أصحابَه بشىء من أمره . فلما جَنّ على أبى سُواج الليل أمر أهلَه وغِلمانَه فانصرفوا إلى قومه ، وخلّف الفرسَ وكلبَه فى الدار ، فجعل الكلبُ ينبَح ، والفرسُ يَصْهَل ، وذلك ليظنّ القومُ أنَه لم يرحل ، فساروا ليلتَهم والدارُ ليسفيها غيرَه وكلبِه وفرسِه وعُسِّه ، فلمَّا أَصبح ركب فرسَه وأخذ العُسّ ؛ فأتى مجلسَ بنى يَرْبُوع فقال : جزاكم الله خيراً ! لقد أحسنتُم الجِوار وفعلتم ما كنتُم أهلَه ، فقالوا : يا أباسُواج

(١) اليقيها ، الأغانى .

(٢) فطرح ، الأغانى (٨ : ٣٠٨) .

(٣) يتمطق ، الأغانى : يتمطط ، المخطوطتان .

ما بدا لك في الانصراف عنّا ؟ . قال : إن صُرَدَ بنَ جَمْرَةَ لم يكن فيما بيني وبينه مُحسِناً ، وقد قلتُ في ذلك :

إنّ المـنيّ إذا سرَى   في العبد أصبح مُسْمَغدّا

أينال سَلْمَى باطلاً   وخُلِقتُ يومَ خَلقتُ جَلداً

صُرَدُ بن جَمـرة هل لقيـ   ـتَ رثيثة لبناً وعَصْدًا

ألا واعلموا أن هذا القدَح قد أحبَلَ منكُم رجلاً وهو صرد بن جَمْرَة . ثمّ رمى بالعُسّ على الصخرة فانكسر وركَضَ فرسَه ، وتَنَادَوْا: عليكم الرجلَ . فأعجزَهم ولَحِقَ بقومه . فقال في ذلك عَمْرُو بن لَجَأ التَّيْمِيّ :

تُمَسِّح يربوعٌ سِبالًا لئيمةً   بها من مَنيّ العبد رطبٌ ويابسُ

وإيّاه عنى الأخطلُ بقوله :

« ويشربُ قومُك العجب العجيباً »

كان الأخطلُ متمسّكاً بدينه ، وكانت امرأتُه حاملًا ، فمر الأسقف يوماً فقال لها : الحقيه فتمسَّحِي به ؛ فعدَت ، فلم تلحَق إلا ذَنَبَ حِماره ، فتمسّحت به ؛ فرجعت فأخبرته ؛ فقال : هو وذنبُ حماره سَوَاء .

سَمِعَ هِشامُ بنُ عبد الملك الأخطلَ يقول :

وإذا افتقرتَ إلى الذّخائر لم تجِد   ذُخراً يكون كصالح الأعمـال

فقال : هنيئاً لك يا أبا مالك هذا الإسلام ! فقال : يا أمير المؤمنين ، ما زلت مُسْلِما في دِيني .

خرج الفرزدقُ يَوْماً بعض ملوك بني أمية فرُفِع له في طريقه بيتٌ أحمرُ من أَدَم، فسأل عنه فقيل له : الأخطل . فأتاه فقال له : أنزِل ، فلما نزل قام إليه الأخطلُ وهو لا يعرفه إلا أنه ضيف ؛ فقعدا يتحدّثان فقال له الأخطل : ممَّن الرجل ؟ قال : من بني

تميم ، قال : فأنتَ إذاً من رَهْط أخى الفرزدق . فهل[1] تحفظ له شيئا ؟ . قال : نعم كثيراً . فما زالا يتحدّثان ويتناشدان ، ويتعجّب الأخطلُ من حفظه شعر الفرزدق، إلى أن عَمِل فيه الشراب ، وكان الأخطلُ قد قال له : أنتم معشرَ الحنيفيّة لا ترَون أن تشربوا من شرابنا . فقال له الفرزدق : خفِّض عليك قليلًا وهاتِ من شرابك ، فلما عَمِلَت فيه الراح قال : والله أنا الذى أقول فى جرير ، وأنشدَه ، فقام الأخطلُ فقبَّل رأسَه وقال : لا جَزاكَ الله عنّى خيراً لم كتمتَنى نفسَك منذ اليوم ؟ وأخذا فى شرابهما وتناشدها[2] إلى أن قال الأخطل : والله إنك وإيّاى لأشعر منهُ ، ولكن أُوتِيَ من سَيْر الشعر ما لم نُؤتَه ، قلت أنا بيتاً ما أعلمُ أن أحداً قال أهجى منه، قلت :

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلبهمُ   قالوا لأمِّهم بُولى على النار

فلم يرْوِه إلا حُكَماء أهل الشعر . وقال هو :

والتغلَبىُّ إذا تنحنح للقِرَى   حكَّ استَه وتمثَّل الأمثالا

فلم يبق سُقاةٌ ولا أمثالُها إلا رَوَوه فهو أسْيَرُنا شعراً .

---

(١) فقال ، الأغانى (٨ : ٣١٨ .

(٢) وتناشدا ، المخطوطتان .

غَيْـلان الثقفى *

هو غَيْلان بن سَلَمة ، بن مُعَتّب بن مالك ، بن كعب ، بن عمرو ، بن سعد ، ابن عَوف ، بن قَسِيّ ، وهو ثَقِيف ، وأمُّه سُبَيعة بنتُ عبدِ شمس بن عبدِ منافٍ أختُ أُميَّة بن عبد شمس .

أدرك الإسلام وأسلم بعد فتح الطائف . ولم يهاجر ، وأسلم ابنُه عامر قبلَه وهاجر ، ومات فى الشام فى طاعون عَمْواس وأبوه حىّ .

وغَيلان شاعرٌ مقلّ ليس بمعدود فى الفحول ، وبنتُه بادية بنتُ غيلان التى قال هِيتُ المخنَّث لعُمَر بن أمِّ سلمة أمِّ المؤمنين : إن فتح الله عليكم الطائفَ فسَلْ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يهبَ لى[1] بادية بنتَ غيلان ، فإنها كحلاء ، شَموع نَجْلاء خُمصانة هَيْفاء ، إن مشَت تثنَّتْ ، وإن قعدت تبنَّتْ ، وإن تكلَّمتْ تغنَّتْ ، تُقبِل بأربع ، وتدبر بثمان ، وبين فخذيها كالإناء المكفوء[2] .

وغَيلان فيما يقال أحدُ من قال من قُرَيش للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: « لولا أُنزِلَ هذا القُرْآنُ على رَجُلٍ القرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » .

تزوَّج غَيلان بنُ سَلمة خالِدةَ بنتَ أبى العاص، فولدت له عمّاراً وعامرا؛ فهاجر عمّار إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلّم ، فلما بلغَه خبرُه عَمَد خازنٌ كان لغيلان إلى مال له فسرَقه ، وأخرجه من حِصنه فدفنه ، وأخبر غيلانَ أنَّ ابنه عماراً سرَق ماله وهرَب به ، فأشاع ذلك غَيلان وشكاه إلى الناس ، وبلغ خبرُه عماراً فلم يعتذرْ إليه ، وقال :

---

* الأغانى ١٢ : ٤٥ ـ ٤٩ (ط بولاق) .

(١) لك ، الأغانى .

(٢) المكفوء الأغانى : المكفى ، المخطوطتان .

هذا قاله فيّ ليُحاربني إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فوالله لا رجعتُ إليه أبدا ؛ ولم يذكر براءته لأبيه . فلما شاع ذلك جاءت أمه إلى أبيه وقالت[1] له يا غيلان .

إنِّي ما عهدتُ ابني سارقا في صِغَره ولا في كِبَره ، ومع هذا فمالُك كان تحت يدِ خازنك وتحت خَتمه ، فكيف جاء ابني حتى أخَذَه من خزن الخازن ؟ تبيَّن أمرَك فإني أظنُّ أن آفتَك من الخازن ؛ فأنكرَ ذلك إنكاراً شديداً ، وقال : إن خازني لا يكذب ، وقد بلغ عمَّارا هذا الخبرُ ، ولو كان بريئاً لوجَّه يعتذِر وينكرُ ذلك ؛ فقالت له سَيَبِينُ ذلك ، وأقبلَت تبحثُ عن الخبر في ذلك حتى وافت إلى غيلان أمَةٌ لبعض ثقيف ، وامرأته جالسة عنده ، فقالت له : أيُّ شيء لي عليك إن دَلَلْتُك على مالك ؟ قال : ما شئت . قالت : تبتاعني وتُعتِقُني وتُحسِنُ إليّ ، قال : ذلك لك ، فلما سمعت امرأتُه بذلك فرحتْ وسُرَّت ، وقالت : ألم أقل لك إن الخازن دهاك وأخذ مالك ؛ ثم قالت الأمة : أخرج معي . فخرج معها فقالت : إني رأيت عبدك فلاناً قد احْتَفَرها هنا ليلة كذا وكذا ودفن شيئاً ، وإنَّه لا يزال يَمْتَادُه ويتفقَّده في اليوم مرّاتٍ وأُرَاهُ المال الذي اتُّهِمتَ به ابنك . فاحتفَرَ الموضعَ فإذا هو بماله ، فأخذه وشاع الخبرُ أن عبد غَيْلان قد سَرَق ماله واتهم به ابنه وأنه أصابه ؛ وأقبلت أمُّ عمّار على غَيْلان فقالت : لقد ارتكبتَ من ابني أمراً عظيما ، والآن لا بدَّ لي من قتل هذا الغلام ، وإلا فسلِّمه إليّ ؛ فإن أنت لم تفعل لم أقاربْك على ذلك ، واشترى الجاريةَ وأعتقها وأتى بعبدِه فقرَّره فأقرَّ بعد أن ضرَبه ضرباً متلفا وبلغ الخبرُ عمارا فقال : والله لا لقي وجهي وجهَ أبي أبداً ، ولا نظرَ إليَّ عمرَه فيما قصَّر من أمري وقال :

حلفت له[2] بما يقول[3] محمد وبالله إن الله ليس بغافل

---

(١) (خبرته) وقالت ، المخطوطتان .

(٢) لهم ، الأغاني .

(٣) بما يقول ، الأغاني : قولا بحق ، المخطوطتان .

برئت[1] من المال الذى تدعونه[2] أبرِّئُ نفسى أن أُلطَّ بباطل
ولو غيرُ شيخى من مَعدٍّ يقوله تيمَّمتُه بالسيف غـــير مواكل[3]
وكيف انطلاقى بالسِّلاح إلى امرئٍ تبشَّره بى تَبْتَدِرنْ قوابلى

فلما أسلم غيلان خرج عامر وعمّار مغاضبين له مع خالد بن الوليد ، فتوفِّى عامرٌ بعَمواس ، وكان فارسَ ثقيفٍ يومئذ ، وهو صاحب شَنُوءة يوم تَثْليث ، وهو قتل سيِّدهم جابرَ بن سِنان ، أخا دهنه . فقال غيلان يرثى عامرا :

عَينى تجود بدمعها الهتّان سحًّا وتبـكى فارس الفرسان
يا عامُ من للخيل لما أحْجَمت عن شِـــدَّة مرهوبة وطِعان
لو أستطيعُ جعلت منى عامراً بين الضلوع وكلُّ حىٍّ فان
يا عَينُ بكِّى ذا الحزامة عامِراً للخيـل يوم توَاقُفٍ وطِعان
وله بتَثْليثات شَدَّةُ مُعْلِمٍ منـه وطَعنةُ جابرِ بن سِنان

لما أسنَّ غَيلان وكثرت أسفاره مَلَّته زوجته ، وتجنَّت عَليه ، وأنـكر أخلاقها؛ فقال :

يا رُبَّ مثلك فى النساء غريرةٌ بَيْضاء قد صبَّحتها بطلاق
لم تَدر ما تحت الضلوع وغرَّها منى تجمُّل عشرتى وخلاقى

لما حضرت غيلانَ بنَ سلمة الوفاةُ ، وكان قد أحْصَن عشراً من نساء العرب فى الجاهلية ، فقال : يا بَنِىّ ، إنى قد أحسنتُ خِدْمة أموالـكم وأمجدتُ أمهاتـكم ، فلن تزالوا بخير ما غَذَوتُم من كريم وغذا منـكم ؛ فعليـكم ببيوتات العرب فإنها

---

(١) لبرئت ، الأغانى ، المخطوطتان .
(٢) الأغانى ، يدفنونه .
(٣) غــير مواكل ، الأغانى : عمر الاحاول ، المخطوطتان .

مدارج[١] الكرم ، وعليكم بكل رَمكاء مكينة ، أو بيضاء رزينة فى خِدر بيت يتبع ، أو جدّ يرتجى[٢] ، وإيّاكم والقصيرةَ الرَّطْلة ، فإنّ أبغَض الرجال أن يُقاتِل عن إبلى أو يُناضل عن حسبي القصيرُ الرَّطل ، ثم قال :

وحُرَّةِ قومٍ قد تفوَّق فِعلها   وزَيَّنها أقوامهـا فتزيَّنَت
رحلتُ إليها لا تُرَدُّ وسِيلتى   وحُمِّلتُها من قومِها فتحمَّلت

خرج أبو سفيان بن حرب فى جماعة من قريش وثقيف يريدون العراق بتجارة ، فلما ساروا ثلاثا جمعهم أبو سفيان فقال لهم : إنا من مسيرنا هذا على خطر وغدر ، مع قدومنا على مَلِك جبّار لم يأذن لنا فى القدوم عليه ، وليست بلاده لنا بمتجر[٣] ، ولكن أيكم يذهب بالعِير ، فإن أصيب فنحن برآء من دمه ، وإن غنم فله نصف الربح ؟ . فقال غيلان بن سلمة : دعونى فأنا لها . فدخل الوادى فجعل يطوفه ويضرب فروع الشجر ويقول :

فلو[٤] رآنى أبو غيلان إذ حسرت   عنى الأمور إلى أمر له طبق
لقال رَغْبٌ ورَهْبٌ يجمعان معا   حبُّ الحياة وهولُ النفس والشفَق
أما بقيت على مجـد ومكرمة   أو أسوة لك فيمن يهلك الورق

ثم قال: أنا صاحبكم . فدخل فخرج بالعيس وكان أبيض طويلا جعدا فخما جميلا، فلما قَدِم بلاد كسرى تخلّق ولبس ثوبين أصفرين وشهَّر أمره ، وجلس بباب كسرى حتى أُذِن له ، فدخل عليه وبينهما شُبّاكة[٥] ذهب فقال له الترجمان : يقول لك الملك :

---

(١) معارج ، الأغانى .
(٢) جد برتجى ، الأغانى : خدر بيت ينحى، المخطوطتان .
(٣) بمتخـير : المخطوطتان .
(٤) ولو : الأغانى ١٢ : ٤٨ .
(٥) شباكة : سساله ، المخطوطتان . شباك ، الأغانى .

ما أدخلك بلادى بغير إذنى . فقال : قُل له : إنى لستُ من أهل عداوة ، ولا أتيتُك جاسوسا لضد من أضدادك ، وإنما أتيتُك بتجارة تستمتع بها ، فإن أردتَها فهى لك ، وإن رددتَها وأذنت لى فى بَيعها لرعِيَّتك بعتُها ، وإن لم تأذن فى ذلك رددتُها . وإنّه ليتكلم إذ سمع صوت كسرى فسجد . فقال له الترجمان : يقول لك الملك : لِمَ سجدتَ ؟ قال : سمعتُ صوتا عاليا حيث[1] لا ينبغى لأحدٍ أن يرفعَ صوته ، إجلالا للملك ، فعلمت أنه لم يُقدِم على رفع الصوت هنا إلا الملك، فسجدت إعظاما له. فاستحسن كسرى ما فعل وأمر له بمرفقة توضع تحته . فلما أُتِى بها وجد عليها صورة الملك فوضعها على رأسه ، فاستجهله كسرى واستحمقه ، وقال للترجمان : قل له : إنما بعثنا بهذه إليك لتجلس عليها . قال : قد علمت ، ولكننى لما أُتِيتُ بها رأيتُ عليها صورة الملك فلم يكن حقّ صورة الملك أن أجلس عليها ، ولكن حقّها التعظيم ، فوضعتها على رأسى لأنه أشرف أعضائى وأكرمها . فاستحسن فعله جدا .

وقال له الملك : ألك ولد ؟ قال : نعم . قال : أيهم أحبّ إليك . قال : الصغيرُ حتى يكبُر ، والمريضُ حتى يبرأ ، والغائب حتى يؤوب . قال له كسرى : زه ! ما أدخلك علىّ ودَلّك[2] على هذا القول والفعل إلا حظُّك . وهذا فعل الحكماء وأخلاقهم ، وأنت من قوم جُفاةٍ لا حكمة[3] فيهم فما غذاؤك ؟ قال : خبز البُرّ . قال : هذا العقل من البرّ ، لا من اللبن والتمر .

ثم اشترى منه تجارته بأضعاف ثمنها ، وحباه وكساه ، وبعث معه من الفُرس من بَنَى له أُطُماً بالطائف ، فكان أول أطم بُنِى بها .

---

(١) ساقطة فى المخطوطتين .

(٢) ساقطة فى المخطوطتين .

(٣) حكمة ، الأغانى : حلم، المخطوطات.

وقيل : إن كسرى قال لغيلان : خبز البُرّ طعام صحيح ، ولحم الحمل طعام صحيح ، فإذا أكل الرجل صحَّ مِزاجه وإذا صحَّ مِزاجه صحَّ عقله .

لما اسْتُشهِد نافعُ بن غيلان مع خالدِ بن الوليد بدُومة الجندل جزع عليه غيلان وكثر بكاؤه وقال يرثيه :

ما بالُ عيني لا تغمِّض ساعةً … إلا اعترتني عَبرة تغشاني
أرعَى نجومَ الليل عند طلوعها … وَهْناً وهنَّ من الغروب دواني
يا نافعاً من للفوارس أحجمت … عن فارسٍ يعلو ذُرا الأقران
يا نافعاً من للأعادى بعد ما … أُوطِنت دُومة ، أو ليوم طعان[1]
فلو استطعتُ جعلتُ منى نافعاً … بين اللَّهاة وبين عَكْدِ[2] لساني

وكثر بكاؤه عليه ؛ فعوتب على كثرة بكائه فقال : والله لا تسمح[3] عيني بمائها فأضَنّ به على نافع . فلما تطاول العهد انقطع ذلك من فعله فقيل له فيه ، فقال : بَلِى نافعٌ وبلي الجزع ، وفَنِي وفَنِيت الدموع ، واللحاق به قريب .

(١) هذا البيت ليس فى الأغانى .
(٢) عكد ، الأغانى : عقد ، المخطوطتان .
(٣) تسمح ، الأغانى : تسح ، المخطوطتان .

غيلان بن عقبة

هو غَيْلان بنُ عقبةَ بنِ مسعود بن حارثةَ بن عمرو بن ربيعة بن ملكان بن عديّ بن عبد مناة بن أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر ، وقيل : غيلان بن عقبة ابن مسعود بن حارثة بن عمرو بن ربيعة بن ساعدة بن كعب بن عوف بن ثعلبة ابن ربيعة بن ملكان . كنيته أبو الحارث ، وذو الرُّمة لقبٌ لقبّته به مَيَّة ، وهى مَيَّة بنت طلبة بن قيس بن عاصم المنقرى . وكان قد اجتاز بِخِبائها ، وهى جالسة إلى جَنب أمها ، فاستسقاها ماء ، فقالت لها أمها : قومى فاسقيه . وقيل : بل خرَق إداوته لما رآها وقال لها : اخرزى لى هذه . فقالت : والله ما أُحسن ذلك ، وإنى لَخرقاء . والخرقاء التى لا تعمل بيديها شيئا لكرامتها على قومها . فقال لأمها : مُريها أن تسقِيَنى ماء . فقالت أمُّها : قومى يا خرقاء فاسقيه ماء . فقامت تأتيه بماء ، وكانت على كتفه رُمَّة ، وهى قطعة من حبل ، فقالت : اشرب ياذا الرُّمَّة . فلُقِّب بذلك ولقوله :

* أشعثُ باقى رُمَّة التقليد *

وقيل : كان يُصيبه فى صِغَره فَزَع ، فأتت به أمُّه إلى الُحصَين بن عنيزة(١) ابن نُمَيم العَدَوِىّ ، وهو يقرئُ الأعرابَ فى البادية احتسابا ، بما يُقيم لهم من صلاتهم ، فقالت له : يا أبا الخليل ، إن ابنى هذا يُرَوَّع بالليل ، فاكتب له مَعَاذَةً أعلِّقها فى عُنقه . فقال لها : ائتنى برَقّ أكتب لك فيه . قالت : فإن لم يكن فهل يستقيم فى غير رَقّ أن تكتب له فيه . قال : فجيئينى بقطعة جلد ، فأتته بقطعة جلد غليظ . فكتب له فيه مَعاذَةً ، وعلَّقته فى عنقه . فمكث دهرا طويلا . ثم إنها مرت

(١) عبده ، الأغانى .

مع ابنها فى بعض حوائجها بالُحصين ، وهو جالسٌ فى نادى قومه ، فدنت منه وسَلَّمت عليه ، وقالت : يا أبا الخليل أما تسمع شعر غيلان ؟ قال : بلى . فتقدم فأنشده ، والمعاذة مشدودة بيساره فى حبل أسود . فقال الُحصين : أحسن ذو الرمة . فغلبت عليه .

وكان له ثلاثة أخوة : مسعود وجِرفاس[1] وهشام . وكلّهم شعراء . وكان أحدُهم يقول أبياتاً فيبنى عليها ذو الرمة أبياتاً أخر ويُنشدها الناسَ ، فيغلبُ عليها لشهرته بين الناس وتنسب إليه . ومسعود الذى يقول ، يرثى ذا الرُّمَّة ويرثى أوفى بن دلهم وهو ابن عمه :

نعى الركبُ أوفى حينَ آبت ركابُهم　　لعمرى لقد جاءوا بشرٍّ فأوجعوا
نَعَوا باسق الأخلاق لا يخلفونه　　تكاد الجبال الصمُّ منه تصدّعُ
هوى[2] المسجدُ المعمورُ بعد ابن دَلْهَمٍ　　وأضحى بأوفى قومُه قد تضعضعوا
تعزَّيتُ عن أو فى بغيلانَ بعده　　عزاء ، وجفن العين ملآن مترع
ولم يُنْسِنى أوفى المصائبَ بعده　　ولكنَّ نَكْءَ القرح بالقرح أوجع

وأخوه الآخر هشام ، وكان شاعراً ، وهو الذى يقول لذى الرمة :

أغيلانُ ، إن ترجع قوى الوُدِّ بيننا　　فكلُّ الذى ولَّى من العيش[3] راجع
فكن مثلَ أقصى الناس عندى فإننى　　بطول التنائى مثل أخى السوء قانع

خرج ذو الرمَّة وأخوه مسعودٌ يسيران بأرض الدهناء ، فسنحت لهما ظَبية ، فقال ذو الرمة :

أقول لدهناويَّة عوهج جرت　　لنا بين أعلى برقة فالصرائم

---

(١) جرواس ، المخطوطتان .

(٢) خوى ، الأغانى .

(٣) العيش ، الأغانى : الود ، المخطوطتان .

أيا ظبيةَ الوعساء بين جلاجل وبين النقا آأنت أم أمُّ سالم

فقال له مسعود :

فلو تُحسِن التشبيه والنعت لم تقل لشاة النقا : آأنت أم أمُّ سالم

جعلتَ لهـا قَرنين فوق قِصَاصها وظلفين مَشْوِيَّين(٢) تحت القوائم

فقال ذو الرمة :

هى الشِّبه لـولا مِذرواها وأذنها سواء ولولا مَشْقَةٌ فى القوائم

كان ذو الرُّمة كثيرا ما يأتى الحضر فيقيمُ بالـكوفة والبصرة ، وكان طفيليًّا ، وكان مُدوَّرَ الوجه ، حسنَ الشعر جَعدَه ، أقنى ، أنزع ، خفيف العارضين ، أكحل ، حسن الضحك مفوّها . إذا كلّمك كلَّمك أبلغُ الناس ، يضع لسانَه حيث شاء .

اجتمع الناس مرّةً وتحلّقوا على ذى الرمة وهو ينشدهم ، فجاءت أمُّه فاطّلعت من بينهم ، فإذا رجلٌ قاعدٌ وهو ذو الرمة ، وكان دميا شَخْتًا فقالت : استمعوا شِعرَه ولا تنظروا إلى وجهه .

كان الفرزدقُ وجرير يحسُدان ذا الرُّمّة على جَودة شِعره ، وكان أهلُ البادية يعجبهم شعرُه وما أخَّر القومُ ذِكرَه إلا لحداثة سِنِّه وأنهم حسدوه .

قال الأصمعى : ما أعلم أحدا من العشّاق المخضرَمين وغيرهم شكا حبًّا أحسنَ من شكوى ذى الرُّمّة ، مع عِفّة وعقل رصين .

وقال أبو عبيدة : ذو الرمة يخبر فيحسن الخبر ، ثم يرد على نفسه الحجّة من صاحبته فيحسن الرد ، ثم يعتذر فيحسن التخلُّص ، مع حسن إنصاف وعفاف فى الحكم .

قام رجلٌ فى المربِد يعارض ذا الرمة ويهزأ به ، فقال له : يا أعرابىّ ، تشهد بما لم تر ؟ قال : نعم : قال : بماذا ؟ قال : أشهد بأن أباك فعل بأمك .

(١) مسودين : الأغانى .

كان جرير عند بعض الخلفاء فسأله عن ذى الرُّمَّة فقال : أخذ من طريف الشعر وحسنه ما لم يسبقه إليه أحد ، وقال أبو عمرو : خُتِم الشعر بذى الرمَّة ، وختم الرجز برؤبة بن العجّاج . قيل : فما تقول فى هؤلاء الذين بعدهما ؟ قال : كَلٌّ على غيرهم ، إن قالوا حسَناً فقد سُبِقوا إليه وإن قالوا قبيحا فمن عندهم ، وقال حماد الراوية : امرؤ القيس أحسنُ أهل الجاهلية تشبيهاً ، وذو الرمة أحسنُ أهل الإسلام تشبيها ، وكان لذى الرُّمَّة حظٌّ فى التشبيه ليس لأحد من الإسلاميين . قال ابنُ شُبرُمة : سمعت ذا الرمَّة يقول : إذا قلت : « كأنَّ » ولم أجد فقطع الله لسانى .

وكان أوَّل ما قاد الهوى بينه وبين ميَّةَ أن خرج هو وأخوه وابنُ عمّـه فى ابتغاء إبل لهم ، قال ذو الرُمَّة : فبينا نحن نسير إذ وردنا على ماء وقد أجهدَنا العطش ، فعدلنا إلى خِباء عظيم ، فقال أخى وابن عمى : إئتِ الخباءَ فاستَسْقِ لنا فأتيتهُ وبين يدَيه فى رِواقه عجوز جالسة ، فاستسقيت ؛ فالتفتَتْ إلى ورائها فقالت : يامىّ ، اسقِ الغلام . فدخلت عليها فإذا هى تمسح عِلْقَةً لها[١] وهى تقول :

يامن رأى بَرْقاً على يَبْرِينا   زمزم رعـداً وانتحى حنينا[٢]
كأنَّ فى حافتـه[٣] جنيناَ   أو صوتَ خيل ضُمَّرٍ ترديِنا

قال : ثم قامت تصبُّ فى شَـكْوَتى ماء ، وعليها شَوْذَبٌ لها ؛ فلما انحطَّت على القِربة رأيت مُوَلىًّ لم أر أحسن منه . قال : فلهوتُ بالنظر إليها ، وأقبلت تصبُّ فى شَـكْوَتى ، والماء يذهب يميناً وشمالاً . قال : فأقبلت علىَّ العجوز وقالت : يابنىّ : ألهتْكَ مىّ عمـا بعثك أهلكَ له . أما ترى المـاء يذهب يميناً وشمالاً . فأقبلتُ على العجوز فقلت : أما والله ليطولَنَّ هُيامى بها . قال : فملأتْ لى شَـكوتى وأتيت أخى

---

(١) تمسح علقة لها . تسبح علقة لها ، الأغانى ؛ مسح شعر لها ، المخطوطتان .
(٢) عينا ، الأغانى .
(٣) حافاته ، الأغانى .

وابنَ عمى ، ولففتُ رأسى وانْتَبَـذت ناحيةً . وكانت مىّ قد قالت له : لقد كلَّفك أهلك السفر على ما أرى من صِغَرك وحداثة سنِّـك . قال : فأنشأت أقول :

قـــد سَخِرت أختُ بنى لبيد   منِّى ومن سَلم ومن وَليد

رأت غلامَىْ سفرٍ بعيـــد   يدَّرعان اللَّيـــل ذا السدود

* مثل ادِّراع اليَلْمق الجديد *

ثم أتمها ، وأولها :

* هل تعرف المنزل بالوحيد *

ثم بُليتُ بها أهيم فى ديارها عشرين سنة .

قال محمد النوفلى : ضاف[1] ذو الرُّمة زوجَ مىّ فى ليلة ظلماء ، وهو طامع فى ألا يعرفه زوجها فيُدخلَه بيتَه ويَقْرِيَه فيراها ويكلمها ، ففطِن له الزوج وعرفه ولم يُدْخله وأخرج إليه قراه وتركه بالعَراء وراحلته . وقد عرفته مىّ . فلما كان فى آخر[2] الليل تغنى غناء الركبان :

أراجعـــةٌ يا مىُّ أيامُنا الألى   بذى الأثْل أم لا ما لهن رجوع ؟

فغضب زوجُها وقال : قومى فصيحى به : « يا ابن الزانية ، وأىُّ أيام كانت لى معك بذى الأثل » ؟ . فقالت : « سبحان الله ! ضيف ، والشاعر يقول » . فانتضى السيف وقال : « لأضربنَّك به حتى آتِىَ به عليك أو لتقولين » . فصاحت به كما أمرها زوجها . فنهض إلى راحلته فركبها وانصرف مُغْضَباً يريد أن يصرف مودَّته عنها إلى غيرها . فمر بفَلْج . فى رَكب وبعض أصحابه يريد أن يرقع خُفّه ، وإذا هو بجوارٍ خارجات من بيت يُردن بيتا آخر ، وإذا خرقاء فيهنّ ، وهى امرأة من بنى عامر ، وإذا هى جارية حُلوة شَهْلاء ، فوقعت عينُ ذى الرُّمة عليها : فقال لها :

---

(١) ضاف، الأغانى: صادف ، صادق ، المخطوطتان.

(٢) جوف ، الأغانى .

يا جارية أترقعين لهذا الرجل خُفَّه ؟ . فقالت تهزأ به : « أنا خَرقاء لا أحسن أن أعمل » فسمّاها خَرقاء ، وترك ذكر ميّ ، يريد أن يغيظ بذلك ميًّا ، فقال فيها قصيدتين أو ثلاثا ، ثمّ لم يلبث أن مات .

وقيل : بل كانت خَرقاء كحَّالة داوت عينيه فشبَّب بها .

حدّثت جارية لأمّ ميّ قالت : كنّا بأرض الدّهناء وكان رهط ذى الرّمة مجاورين لنا ، فجلست ميَّة ، وهى فتاة حين نهد ثديها أحسنَ من رأيته قط ، تغسل ثياباً لها ولأمّها فى بيت مفرد ، وكان بيتاً رثًّا وقد أخْلَق وفيه خروق ، فلما فرغَت ولبست ثيابها جاءت فجلست عند أمّها ، وأقبل ذو الرمة حتى دخل عليها فسلَّم ثم . نَشَد ضالّته ، وجلس ساعة ثم خرج . فقالت ميَّة : إنى أرى هذا العُذْرِىَّ قد رآنى منكشفةً واطَّلع علىَّ من حيث لا أعلم ، فإن بنى عُذْرة أخبثُ قوم فى الأرض، فاذهبى فقصّى أثَره . قالت: فخرجتُ فأتيتُ مُقامه فقصصت أثره ، حتَّى رأيتُه قد تردَّد أكثر من ثلاثين مرة ، كلّ ذلك يدنو فيطَّلع عليها ثم يرجع على عقبيه . فأخبرتُها بذلك ثم لم تلبث أن جاءنا شعرُه فيها من كل وجه ومكان .

وكان هوى ذى الرمّة مع الفرزدق على جرير ، وذلك لما كان بين جرير وبين ابن لجأ التيمى . وتَيْمٌ وعَدِىٌّ أخوان من الرّباب وعكل أخوهم .

كان لآل قيس بن عاصم المنقرى أمة مولّدة يقال لها كثيرة ، وهى أمّ سهم ابن بردة اللص[1] الذى قتله سنان بن محسن[2] البصرى أيام محمد بن سليمان فقالت كثيرة :

على وجه ميٍّ مسحة من ملاحة وتحت الثيــاب الخزى لو كان باديا
ألم تر أنَّ المـــاء يخبث طعمـــه وإن كان لون الماء أبيض صافيـــا

ونحلتهما ذا الرمة ، فامتعض من ذلك وحلف جهد أيمانه أنه ما قالها

(١) اللبن ، الأغانى ، وفى موضع آخر : سلهمة اللص .
(٢) محسر ، الأغانى .

وقال: « كيف أقول هذا وقدقطعتُ دهرى وأفنيتُ شبابى فى التشبيب بها ومدحها؟ ».
ثم اطلع على أن كثيرَ قالتهما ونحلتهما إياه .

وقف ذو الرمة على ميَّة فى ركب له فسلموا عليها فقالت : « وعليكم السلام إلا ذا الرمة » . فأحظفه ما سمع منها بحضرة القوم فغضب وانصرف وهو يقول :

أيا مَىُّ قد أشمتِّ بى ـ ويحكِ ـ العدا   وقطَّعت حبلا كان يا مىُّ باقيا
فيامىُّ لا مرجوعَ للوصل بيننا   ولكن هجرا بيننا وتقاليا
ألم تر أن[1] الماء يخبث طعمه   وإن كان لون الماء أبيض صافيا

قال محمد بن الحجاج الأسيدى[2] : مررتُ على ميّة وقد أسنّت ، فوقفت عليها وأنا يومئذ شاب فقلت: يا ميَّة ، ماأرى ذا الرمة إلا قد ضيَّع فيك شِعره حيث يقول :

ما أنتَ عن ذكراك ميّة مُقْصِرٌ   ولاأنت ناسى العهدمنها فتذكر
تهيمُ بها ما تستفيق ودونها   حِجاب وأبواب وستر مستَّر

قال : فضحكت ثم قال : « يا ابن أخى رأيتَنى وقد ولَّيتُ وذهبت محاسنى . ورحم الله غَيْلان فلقد قال هذا أيامَ شبابى وأنا أحسن من النار الموقدة فى الليلة القرّة فى عين المقرور ، ولن تبرح حتى أقيم عذره » . ثم صاحت : « يا أسماء ، اخرجى». فخرجت جارية كالمهاة ما رأيت مثلها . فقالت : أما لِمن شبَّب بهذه وهَويها عذر ؟ فقلت : بلى . قالت : والله لقد كنتُ أزمان كنت مثلها أحسنَ منها ، ولو رأيتَنى يومَئذٍ لازدريتَ هذه ازدراءك بى الآن . انصرفْ راشداً .

وكانت مية مسنونة[3] الوجه طويلة الخد[4] شماَء الأنف عليها وَسْم جمال ،

---

(١) ألم ترين ، الأغانى .
(٢) الأسيدى ، الأغانى : الأسدى ، المخطوطتان .
(٣) مسنونة ، الأغانى : مشربة ، المخطوطتان .
(٤) الخد ، الأغانى : القد ، المخطوطتان

وكانت تسمع شِعر ذى الرمة وجعلت لله عليها أن تنحر بدنه يوم تراه . فلما رأته رأت رجلاً دميماً أسود ، وكانت من أجمل النساء ، فقالت : واسوأتاه ! واضيعة بدنتاه ! فقال ذو الرمة :

على وجه مىّ مسحة من ملاحة   وتحت الثياب الخزى لو كان باديا

قال : فكشفت ثوبها عن جسدها وقالت : أشيئاً ترى لا أم لك . فقال :

ألم تر أنّ المـــاء يخبث طعمه   وإن كان لون الماء أبيض صافيا

فقالت : « أمّا ما تحت الثياب فقد رأيته ، وعلمت أن لا شَيْنَ فيه . ولا يبق إلا أن أقول لك هلمّ حتى تذوق ما وراءه . ووالله لاذقتَ ذلك أبدا » فقال :

فواضيعةَ الشعر الذى لجّ وانقضى   بمىّ ولم أملك ضــــلالَ فؤاديا

قال : ثم صلح الأمر بينهما بعد ذلك ، لما غلبه من حبها[1] .

وكان ذو الرمة يكشف نفسها بذلك ويلتم ذلك فقيل له فى ذلك فقال : اكتموا ذلك على فإنه عندنا عيب .

قال رؤبة : كلما قلت شعراً سَرَقه ذو الرمة فقيل له : وما ذاك ؟ . قال : قلت :

* حَىُّ الشهيق ميِّتُ الأنفاس *

فقال :

* يطرحنى بالمهمـــه الأغفال *

كل حنين لينَّ السربال[2]   حى الشهيق ميت الأوصال

فقيل له : قوله أجود من قولك وإن كان سرقه . قال : فذاك أغمُّ لى .

قيل لذى الرمة : إنما أنت راوية الراعى فقال : والله لئن قيل ذلك ما مَثَلى ومَثَلُه

(١) لما كان عليه من حبها ، الأغانى .

(٢) كل حصين لصق السربال ، الأغانى .

إلا شابٌ صَحِب شيخاً فسلك به طريقاً ثم فارقه ، فسلك الشاب بعده شعابا[1] وأودِية لم يسلكها الشيخ قط .

وكان ذو الرمة لا يحسن أن يهجوَ ولا يمدح. وهذا البيت وضع منه ، وقد مدح بلالَ بنَ أبي بردة فقال :

رأيتُ النــاس ينتَجِعون غيثاً   فقلت لصيدحَ : انتجعى بلالا

فلما أنشده قال : لم ينتجعنى غير صيدح يا غلام ؟ أعطه حمل قَتّ لصيدح فأخجله .

قال ابن المعذَّل : قدم ذو الرمة الـكوفة فوقف ينشد الناس قصيدته الحائية حتى انتهى إلى قوله :

إذا غَيّر النأى المحبين لم يـكد   رسيس الهوى من حبِّ ميَّة يبرح

فناداه ابن شبرمة : « يا غيلان ، أراه قد برح » . قال : فشقّ ناقته[2] ، وجعل يتأخّرُبها ويفـكر ، ثم عاد فأنشد :

« إذا غير النأى المحبين لم أجد »

قال : فانصرفت وأخبرت أبى فقال : أخطأ ابن شُبرمة . إنما هذا مثل قوله تبارك وتعالى : ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها . وإنما هو لم يرها ولم يكد .

كان سببُ تشبيب ذى الرمة بخرقاء أنها داوت عينيه ، فقال : « تحـكَّمى لأعطيك ما تختارين » . فقالت : لى بناتٌ أيامَى ، فشبِّب بى أرغب الناس فيهن ، إذا علموا أن فى بقية للتشبيب » ففعل . وقيل : إنه كان كايد بها ميَّة .

نزل رَكبٌ بأبى خرقاء العامرية ؛ فأمر لهم بلبن فشربوا ، وقصّر عن شاب منهم فأعطته خرقاء صَبوحها وهى لا تعرفه ، فشربه وركبوا ومضوا . فقال لها أبوها :

---

(١) سقوبا ، المخطوطتان .

(٢) فاستنق لنا فيه ، المخطوطتان .

« أتعرفين الرجلَ الذى سقيتِه صَبوحَكِ ؟ » . فقالت : « لا والله » . قال : «هو ذو الرمة القائل فيك الأقاويل » . فوضعت يدها على رأسها وقالت : « واسوأتاه ! وابؤساه! » ودخلت بيتها فما رآها أبوها ثلاثا ـ وقيل: إن ذا الرمة شبب بخرقاء وهى بنت ثمانين سنة .

قال محمد بن الحجاج التميمى : لما حججت مررت بمُرّان ، فإذا أنا بغلام أشعث الذؤابه ، قد أورد غنيمات له فجثته واستنشدته فقال : « إليك عنى ، فإنى مشغول » فألححت عليه فقال : « أرشدك إلى بعض ما تحب . انظر إلى ذلك البيت الذى يلقاك فإن فيه حاجتَك . هذا بيت خرقاء صاحبة ذى الرمة » ، فمضيت نحوه فطرحت السلام من بعيد فقيل لى : « إدنُ » فدنوت . فقالت : « إنك لحضَرى فممّن أنت ؟ » . قلت : « من بنى تميم » وأنا أحسَب أنها لا معرفة لها بالناس فقالت : « من أى تميم ؟ » فأعلمتها . فلم تزل تسألنى حتى انتهيت إلى أبى فقالت : « الحجاج بن عمرو ابن زيد ؟ »[1] فقلت : نعم . قالت : « رحم الله أبا المثنّى فلقد كنا نرجو أن يكون خلفاً من عمرو[2] ، فعاجلته المنية شاباً حياك الله يا فتى وقرّبك . من أين أقبلت ؟ » قلت : « من الحج » . قالت : « فما لك لم تمرّ بى وأنا أحدُ مناسِكك[3] ؟ إن حجَّك لناقص ، فأقم حتى تكفِّر بحج أو بعتق[4] قلت : وكيف ذلك ؟ . قالت : أما سمعت قول غيلان :

تمام الحج أن تقف المطايا ... على خرقاء واضعة اللثام

قال : وكانت قاعدة بفناء البيت كأنها قائمة من طولها ، بيضاء شهْلاء فخْمة الوجه

---

(١) ابن عمير بن يزيد ، الأغانى .
(٢) عمير ، الأغانى .
(٣) مناسك الحج ، الأغانى .
(٤) حتى تحج أو تكفر بعتق .

قال : فسألتها عن سنها فقالت : « لا أدرى ، إلا أنى أذكر شمر بن ذى الجوشن أخبر أنه حين قتل الحسين بن على رضى الله عنهما مرّ بنا وأنا جارية ومعه كسوة فقسمها فى قومه » قالت : « وكان أبى قد أدرك الجاهلية وحمل فيها حمالات » . قال : فلما أنشدتنى بيت ذى الرمة قلتُ « هيهات يا عمة ، ذهب ذلك منك » قالت : لا تقل يا بنى ، أما سمعت قول العجيف فىّ :

وخَرقاء لا تزداد إلاّ ملاحةً ولو عُمِّرت تعميرَ نوحٍ وجَلَّت

ثم قالت : « رحم الله ذا الرمة ، فلقد كان رقيق الشعر ، عذب المنطق ، حسن الوصف ، عفيف الطرف ، كامل الظرف » ، فقلت لها : « لقد أحسنت الوصف » فقالت : « هيهات أن يدركه وصف ، رحمه الله ورحم من سمّاه اسمه » . قلت : « ومن سمّاه اسمه ؟ » . قالت : « سيّد بنى عَدِىّ ، الحصَين بن عبدة بن نُعيم » .

قال أبو بكر بن عباس : كنت إذا أصابتنى مصيبة تصبَّرت لها وأمسكت عن البكاء ، فأجد ذلك يشتدُّ علىّ حتى مررت يوماً بالكُناسة فإذا أنا بأعرابىّ على ناقة له ينشد :

خليلىّ عوجا من صدور الرواحل بجرعاء حُزوى فابكيا فى المنازل

لعلّ انحدارَ الدمع يعقِبُ راحةً من الوَجد أو يشفى نَجِىَّ البلابل

فسألت عنه فقيل لى : هذا ذو الرمة . فكنت إذا أصابنى شىء بكيت فأجد بذلك راحة فقلت : قاتل الله الأعرابى ما كان أعلمه وأفصح لهجته .

حدّث رجل من بنى النجار[1] قال : خرجتُ أمشى بالبادية ، فمررتُ على فتاةٍ قائمة بباب خِباء ، فقمتُ أكلمها ، فنادتنى عجوز من ناحية الخباء : « ما يقيمُك على هذا الغزال النجدى ؟ فوالله ما تُصيب منه خيراً ولا ينفعك » . قال : فسمعتّها تقول:

(١) من التجار ، المخطوطتان .

دعيه يا أماه يكن[1] كما قال ذو الرمة :

فإن لم يكن إلا مُعرَّس ساعة ... قليـل ، فإنى نافع لى قليلها

فسألت عنهما فقيل لى : « العجوز خرقاء صاحبة ذى الرمة ، والفتاة ابنتها » .

وتوفى ذو الرمّة فى خلافة هشام وله أربعون سـنة ، ودفن بحُزْوى وهى الرملة التى كان يذكرها فى شعره وهو قاصدٌ هشاماً .

وأنشد ذو الرمة يوماً حلبسَ الأسديَّ شعراً نعت فيه الفلاة نعتا جيّدًا ، فقال له حلبس : إنك تنعت الفلاة نعتاً لا تـكون منيتك إلا بها — وصدر ذو الرمة عن قوم فلما أشرف على الفلاة قال :

وإنّى لعاليها وإنى لخائف ... لما قام يوم الثعلبية حلبس

فيقال : إن هذا آخر شعر قاله . فلما توسط الفلاة نزل عن راحلته فنفرت عنه ، ولم تزل تنفر وعليها طعامُه وشرابُـه ، فـكلّما دنا منها نفرت حتى مات فيقال : إنه قال عند ذلك :

ألا أبلِـغ الرّكبان[2] عنى رسالةً ... أهينوا المطايا ، هُنّ أهلُ هوان

فقـــد تركَتْنى صَيْدح بمضلّةٍ ... لسانى ملتاث مِن الطلوان

فيقال : إنّ ناقته وردت على أهله فى مِياههم وفيها أخوه ، فركبها أخوه وقصَّ أثرها ، فوجد البيتين مكتوبين على قوسه .

وقيل : كانت منيّةُ ذى الرّمّة أنّه اشتـكى النّوطة[3] (غدّة تصيب البعير فى بطنه لا تلبث أن تقتله)[4] فوجمها[5] دهرا وقال :

---

(١) يا أمتاه يكون ، المخطوطتان .

(٢) الفتيان ، الأغانى .

(٣) البوطة ، المخطوطتان .

(٤) غدة مصد الشعر فى مطد لا يلبثه أن يقتله ، المخطوطتان . وليست فى الأغانى .

(٥) فوجمها ، الأغانى : وجعها ، المخطوطتان .

أَلِفتُ كِلابَ الحيِّ حتى عرفْنَنى ومُدَّت مسوح[1] العنكبوت على رجلى

ثم قال لأخيه مسعود : « يا مسعود قد أجدنى تماثلتُ[2] ، وقد خفَّت الأشياء عندنا ، واحتجنا إلى زيارة بنى مروان ، فهل لك [أن] نوافيهم[3] ؟ » قال : نعم . فأرسله إلى الإبل يأتيه منها بلبن يتزوَّده ، وواعده مكاناً . وركب ذو الرمَّة ناقته فقمصت به ، وكانت قد أُعْفِيت من الركوب ، فانفجرت النَّوطة التى كانت به ، وبلغ مَوعِدَ صاحبه وجُهِد . فقال : « أردنا شيئاً وأراد الله شيئاً . وإن العلَّة التى كانت بى انفجرت ، فأعلم أهلى » . ومات . فأتوه وصلَّوا عليه ودفنوه فى رأس حُزوى فى الرملة التى كان يذكرها فى شعره .

وكان حسن الصلاة حسن الخشوع . فقيل له : ما أحسنَ صلاتَك . فقال : إن العبدَ إذا قام بين يَدَىِ الله عزّ وجلّ لحقيق أن يتخشّع .

ولما احتُضِر قال : إنى لست ممن يُدفَن فى الغُموض والوِهاد . قالوا : كيف نصنع ونحن فى رمال الدهناء ؟ قال : فأين أنتم عن كُثبان حُزوى ؟ قال : وهما رملتان مشرفتان على ما حولهما من الرمال . قالوا : وكيف نحفر لك فى رملٍ هائل ؟ قال : فأين الشجرُ والمدَرُ والأعواد ؟ . قال : فصلَّينا عليه فى بطن الماء ثم حملناه وحملنا الشجر والمدَر على الكباش ، وهى أقوى على[4] الصعود فى الرمل من الإبل. فجعلوا قبره هناك ، ودثَّروه بذلك الشجر والمدر ، ودلَّوه فى قبره فأنت إذا عرفتَ موضع قبره رأيته قبل أن تدخل الدهناء وأنت بالدوّ على مَسيرة ثلاث .

---

(١) نساج ، الأغانى .

(٢) عما بليت ، المخطوطتان .

(٣) فهل لك نوافيهم، المخطوطتان، فهل لك بنافيهم ، الأغانى.

(٤) فى ، المخطوطتان .

وكان ذو الرُّمّة حسن العينين حسن النغمة ، إذا حدّثك لم تسأم حديثه ، وإذا أنشد بربر وجَشّ صوتُه ـ وكان ينشد فإذا فرغ من إنشاده قال : والله لأتبعنك (١) بشيء ليس فى حِسابك : سُبحانَ الله ، والحمدُ لله ، ولا إله إلا الله ، والله وأكبر ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

قال عصمة بن مالك : جمعنى وإياه مربع مرةً فقال لى : هَيَا عِصمة ، إن ميًّا مِن مَنقرِ ، ومنقر أخبث حىّ (٢) وأقفاه لأثر ، وأثبته فى نظر ، وأعلمه بشرّ ؛ وقد عرفوا آثار إبلى فهل عندك من ناقة نَزْدَارُ عليها ميّة ؟ فقلت : إى والله ، عنـــدى الجوُذر بنت يمانية (٣) . فقال : علىّ بها . فأتيتهُ بها فركِبَ وردَفتُه . فأتينا حِلّة ميّة والحىُّ خُلوف والنساء فى الرحال ، فلما رأين ذا الرمة اجتمعن إلى مىّ ؟ فأنخنا قريباً وأتيناهن وجلسنا إليهن ، فقالت ظريفة منهن : أنشدنا يا ذا الرمة . فقال لى: أنشدهن ياعِصمة فأنشدتهن قصيدتَه التى يقول فيها :

نظرت إلى أظعان مَىٍّ كأنها ... ذُرا النخل أوأثلٌ تميل ذوائبه
فأسبلت العينـــان والقلب كاتم ... بمُغْرورقٍ نمَّت عليه سواكبه
بكاء فتى خاف الفراق ولم تجل ... جوائلهـــا أسراره ومعاتبـــــه

فقالت الظريفة : فالآن فلتجل . ثم أنشدت حتى أتيت إلى قوله :

إذا نازعتـــــك القولَ ميّة أو بدا ... لك الوجهُ منها أو نضا الدِّرع سالبه
فيا شئتَ من خدّ أسيلٍ ومنطقٍ ... رخـــــيمٍ ومن خلق يعلل جاذبه

فقالت الظريفة : فقد بدا لك الوجه وتنوزع القول ، فمن لنا أن ينضو الدرع سالبه ؟ فقالت لها ميّةُ : قاتلكِ الله ! ما ذا تأتينَ به ؟ . فتضاحكت الظريفة وقالت :

---

(١) لأكسعنك ، الأغانى .

(٢) حى ، الأغانى : عربى ، المخطوطتان .

(٣) الجوذر بنت يمانية ، الأغانى : الجود ربيب ثمانية ، المخطوطتان .

إن لهذين شأنا ، قوموا بنا عنهما ، فقامت وهنّ معها ، وقمتُ وخرجتُ . فمكثت قريباً حيثُ أراهما وأسمع ما ارتفع من كلامهما، فوالله ما رأيتهُ تحرّك من مكانه الذى خلّفته فيه حتى ثاب[1] أوائل الرجال ، فأتيتهُ فقلت : انهض بنا ، فقد ثاب[1] فقام فودّعها وانصرفنا .

(١) بان (فى الموضعين) ، المخطوطتان .

غالب أبو الهندى

هو غالبُ بنُ عبد القُدُّوس بن شَبَث بن رِبْعى . شاعر مطبوع أدرك دولةَ بنى أميَّة ودولة بنى العباس . جَزل الشعر سهل الألفاظ لطيف المعانى ؛ وإنَّما أخمله وأمات ذكره بُعدُه عن بلاد العرب ، ومُقامُه بسجستان وخراسان ، وشَغَفه بالشراب ومعاقرته إيّاه ، وفسقُه وما اشتهر به من فساد الدين . واستَفْرغ شِعْرَه فى صفة الخمر ، وهو أول من وصفها من شعراء الإسلام ، فجعل وصفها قصده . ومن مختار قوله فيها :

سقيتُ أبا المطوَّع إذ أتانى ... وذو الرعَثَاتِ منتصِب يصيحُ
شرابًا يهرب الذّبانُ منه ... ويلثغ حين يشربه الفصيحُ

قال إسحاق بن إبراهيم[1] يومًا ، وقد أنشد شعرًا لأبى الهندىّ فى صِفة الخمر واستحسنه وقرّظه ، وذكر أبا نواس فقال : ومن أين أخذ أبو نواس معانيَه إلّا من هذه الطبقة ؟ وأنا أوجدكم سلخَه المعانى كلها فى شعره . وجعل يُنشِد بيتًا من شعر أبى الهندى ويستخرج الموضع الذى سَرقه أبو نواس منه ، حتّى أتى على الأبيات كلِّها من شعره واستخرجها .

اشتهى أبو الهندىّ الصَّبوح فى الحانة يومًا ، فأتى خمَّارًا بسجستان فى محلَّة يقال لها « كوه زيان » وتفسيره « جبل الخسران » يباع فيها الخمر والفاحشة ويأوى إليها كل زانٍ وبغيّة[2] فدخل إلى الخمّار وأعطاه دينارا وقال له : اسقنى فكال له ، وجعل يشرب حتى سكِر ونام ، وجاء قوم يسلِّمون عليه فصادفوه على تلك الحال ، فقالوا

(١) أهتم ، المخطوطتان : الموصلى ، الأغانى .
(٢) ومغنية ، المخطوطتان .

للخمّار : « الحقنا به »، فسقاهم حتى سكِروا وناموا . وانتبه أبو الهندىّ ،فسأل عنهم، فعرّفه الخمّار خبرهم ، فقال : « هذا وقت السكر ، الآن طاب[1] ؛ أَلحِقنى بهم » . فجعل يشرب حتى سكر ونام . وانتبهوا فقالوا للخمّار : « ويحك ! هذا نائمٌ بعد ؟ » قال : « لا ، قد انتبه فلمَّا عرف خبركم شرب حتى سكِر » فقالوا : « الحقنا به » فسقاهم حتى سكروا ولم يزل ذلك دأبَه ودأبَهم ثلاثة أيام لم يلتقوا وهم فى موضع واحد . ثم تركوا هم الشراب عمداً حتى أفاق ، فلقوه فسلَّموا عليه ــ وهذا الخبر بعينه يروى لأبى نواس ووالِبةَ بن الُحباب ، والصحيح أنه لأبى الهندىّ . وفى ذلك يقول أبو الهندىّ :

نَداَمَى بعد ثالثةٍ تلاقَوا ... يضمُّهم بكوهِ زِيانَ[2] راحُ
وقد باكرتُها فتَركتُ منها ... قتيلًا ما أصابتنى جراحُ
وقالوا : أيُّها الخمّار من ذا ... فقال : أخٌ تخوّنه اصطِباح
فقالوا : هات راحك ألحِقَنَّا ... به وتملَّلوا ثم استراحوا
فما إن لبَّثَتْهم أن رَمَتْهُم ... بحدٍّ سلاحها ، ولها سِلاح
وحان تنبُّهى فسألت عنهم ... فقال : أتاحهم قَدَرٌ مُتاح
رأوك مجــدَّلًا فاستخبرونى ... فحرّكهم إلى الشرب ارتياح
فقلتُ بهم فألحقنى فهبُّوا ... فقالوا : هل تنبَّه حين راحوا
فقال : نعم . فقالوا : ألحِقَنَّا ... به قد لاح للرأئى الصباح
فما إن زال ذاك الدأب منا ... ثلاثا يستهبُّ ويستباح
نبيتُ معاً وليس لنا التقاء ... ببيتٍ ما لنا منـــه براح

---

(١) الآن طاب ، الأغانى : وطبقته ، المخطوطتان .

(٢) رحال ، المخطوطتان .

قال صَدَقة بن إبراهيم البكرى : كان أبو الهندىّ يشرب معنا ، وكان إذا سكِر يتقلَّب تقلّباً قبيحاً فى نومه ، فكنَّا كثيراً ما نشدُّ رجله بحبل طويل ليقدر على القيام للبول وغير ذلك من حوائجه ، فتقلَّب فسقَط من السطح فأمسكه الحبل ، فبقى منكَّسا معلقًّا ، وتخنَّق بما فى جوفه من الشراب ، فأصبحنا فوجدناه ميتاً . فمررتُ بعد ذلك على قبره فوجدتُ عليه مكتوباً من شعره :

إجعلوا إن مِتُّ يوماً كفنى ‏ ‏ ‏ ورقَ الكَرْم وقشر المعصرة[1]

إننى أرجو من الله غـداً ‏ ‏ ‏ بعد شُرْبِ الرّاح حُسن المغفرة

فكان الفِتيانُ يجيئون إلى قبره ، فيشربون ويصبّون القدح إذا انتهى إليه على قبره .

وقيل : إنه خرج وهو سكران فى ليلة باردة مثلجة من حانة خمّار ، فأصابه الثَّلج فى الطريق فقتله ، فوجد ميِّتا على الطريق .

حج نصر بن سيّار وأخرج أبا الهندى معه ، فلما حضرت أيام الموسم قال له : يا أبا الهندىّ ، إنا بحيث ترى وفدَ الله وزوّارَ بيته فهب لى النبيذ[2] فى هذه الأيام واحتكم ، فلولا ماترى ما منعتُك ، فضمِنَ له ذلك وأغلظ عليه فى الاحتكام . فوكل به نصر بن سيار . فلما انقضى الأجل مضى فى السحَر قبل أن يلق نصرا ، فجلس على أكمة يشرف[3] منها على فضاء واسع ووضع بين يديه أداوة وجعل يشرب ويبكى ويقول :

أديروا علىّ الكأسَ إنى فقدتُها ‏ ‏ ‏ كما فقد المفطومُ درّ المراضع

حليفُ مُدامٍ فارق الراحَ روحُه ‏ ‏ ‏ فظلّ عليها مستهِلّ المدامع

---

(١) وقبرى معصره ، الأغانى .

(٢) النصف ، المخطوطتان .

(٣) على أكمة يشرف : على الشرف ، المخطوطتان .

عاتب قوم أبا الهندىّ فى معاقرته الشراب وفسقه فقال :

إذا صلَّيتُ خمساً كلَّ يوم   فإنَّ الله يغفرُ لى فسوقى
ولم أشركْ بربِّ الناس شيئاً   فقد أمسكتُ بالحبل الوثيق
وجاهدتُ العدوَّ ونلتُ مالًا   يبلِّغنى إلى البيتِ العتيق
فهذا الدين ليس به خفاءٌ   دَعُونى من بُنَيّات الطريق

حرف الفاء

فريدة

هما اثنتان ، أكبرهما مولَّدة نشأت بالحجاز ، ثم وقعت إلى آل الربيع(١) فعلَّمت الغناء فى دُورهم ، ثم صارت إلى البرامكة ، فلما قُتِل جعفرُ بن يحيي هربت ، فطلبها الرشيد فلم يجدها . ثم صارت إلى الأمين ، فلما قُتِل خرجت فتزوجها الهيثم بن بشار(٢) فولدت له ابنهَ عبد الله ، فلما مات تزوجها السندى بن الحَرَشِيّ ، وماتت عنده .

والأخرى ، وهى التى عليها الترجمة ، جاريةُ عمرو بن بانة ، أهداها إلى الواثق ، وكانت من الموصوفات المُحسنات ، ورُبِّيت عند عمرو بن بانة مع صاحبة لها اسمها « خِلّ » ، وكانت حَسَنة الوجه ، حسنة الغناء ، حادَّة الفِطنة والفَهم .

قال عمرُو بنُ بانة غنَّيتُ الواثقَ يوماً :

قلت حِلًّا فاقبلى(٣) معذرتى ... ما كذا يجزى محبًّا(٤) من أحبّ

فقال لى : « تقـدمْ إلى الستارة فألقِه على فريدة » ، فدنوت منهـا فألقيته عليها فقالت : « هو حل أو خل كيف هى ؟ » فعلمت أنها سألتْـنى عن صاحبتِها فى خفاء من الواثق .

---

(١) إلى الربيع ، المخطوطتان .
(٢) مسلم ، سلم ، الأغانى .
(٣) خلا فاقبلن ، المخطوطتان .
(٤) محب ، الأغانى .

قال محمد بن الحارث : كانت لى نَوبة فى خِدمة الواثق فى كلِّ جمعة . إذا حضرت النوبةُ ركبتُ إلى الدار ، فإن نَشِط إلى الشراب أقمتُ عنده ، وإن لم ينشَط انصرفت . وكان رسمُه الا يحضُر أحدٌ منّا إلا فى يوم نَوْبته ، فإنى لفى منزلى فى غير يوم نوبتى إذا برسل الخليفة قد هجموا علىَّ وقالوا لى : « احضر » فقلت : «الخير ؟» . قالوا : «الخير» . قلت : « إنّ هذا يوم لم يُحضِرنى فيه أمير المؤمنين قط ، ولعلكم غَلِطتم » . قالوا : الله المستعان لا تطوِّل وبادر ، فقد أَمَرنا ألا ندعَك تستقرُّ على الأرض » . فداخلنى فزعٌ شديد وخِفت أن يكون سعى بى ساع ، فتقدمتُ بما أردت وركبتُ حتى وافينا الدار . فذهبتُ لأدخلَ على رسمى من حيث كنت أدخل فمُنِعت ، وأخَذَتْ بيدى الخدمُ فعدلوا بى إلى مَمرّات لا أعرفها ، فزاد ذلك فى جزعى ؛ ثم لم تزل الخَدَم يسلمونى إلى خَدَم حتى أفضيتُ إلى دار مفروشة بالوشْى المنسوج مُلْبَسة الحيطان[1] ثم أفضيتُ إلى رِواق أرضُه وحيطانُه ملبسة مثل ذلك ، والواثقُ فى صدره على سرير مرصَّع بالجوهر ، وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، وإلى جانبه فريدةُ جاريتُه ، عليها مثلُ ثيابه وفى حِجرها عود . فلما رآنى قال : « جودت والله يامحمدُ . إلينا » . فقبَّلتُ الأرض ثم قلتُ : « يا أمير المؤمنين ، خير » . قال : « خير . طلبتُ ثالثا يؤنسنا فلم أر أحقَّ بذلك منك . فبحياتى بادِرْ وكلْ شيئاً وعجِّل إلينا » فقلت : « والله يا سيِّدى قد أكلتُ وشربتُ أيضا » . قال : « فاجلس » . فجلستُ ، فقال : « هاتوا لمحمد رِطلًا فى قدح » فأحضر ذلك واندفعت فريدة تغنى :

أهابُكِ إجلالًا ، وما بكِ قدرةٌ ... علىَّ ، ولكن ملء عينٍ حبيبُها

وما هجرتكِ النفس يا لَيْلَ أنها ... قَلَتْكِ ، ولا أنْ قلَّ منكِ نصيبُها

فجاءت بالسِّحر ، وجعل الواثق يجاذبها[2] ، وفى خِلال ذلك يغنِّى[3] الصوت

(١) ملبسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب ، الأغانى .

(٢) يجاوبها ، المخطوطتان .

(٣) تغنى ، الأغانى .

بعد الصوت وهى تغنى(١) وأنا أغنى فى خلال غنائهما(٢) ، فمرَّ لنا أحسنُ يومٍ مر لأحدنا(٣) . فإنا لكذلك إذ رفع الواثق رجله فضرب بها فى صدر فريدة ضربة تدحرجت منها من على السرير إلى الأرض ، وتفتّت(٤) عودها ومرت تعدو وتصيح ، وبقيتُ أنا كالمنزوع الروح ، ولم أشكّ فى أن عينه وقعت علىّ ، وقد نظرتُ إليها ونظرت إلىّ ، فأطرقت إلى الأرض متحيِّراً أتوقع القتل ، فإنى لكذلك إذ قال لى : « يا محمد » ، فوثبتُ فقال : ويحك ! رأيتَ أعجب مما تهيأ لنا ؟ » فقلت : « ياسيدى الساعةُ تخرج روحى ، فعلى من أصابنا بالعين لعنةُ الله . فما كان السببُ لذلك ؟ الذنبِ ؟ » . قال : « لا والله ، فكرتُ(٥) فى أن جعفراً يقعُد غداً هذا المقعد ، وتقعد معه فريدة كما هى قاعدة معى ، فلم أُطِق الصبر ، وخامرنى ما أخرجنى إلى مارأيت » فسرِّىَ عنى وقلت : « بل يقتلُ الله جعفراً ، ويحيا أميرُ المؤمنين أبداً » ، وقبلتُ الأرض وقلت : « ياسيدى : الله الله ، إرحمنا(٦) ومُرْ بردِّها » فقال لبعض الخدم : « جىء بها » . فلم يكن أسرعَ من أن خرجَتْ وفى يدها عود ، وعليها غيُر الثياب التى كانت عليها ، فلما رآها جذبها إليه وعانقها ، فبكت وبكى ، واندفعتُ أنا فى البكاء . فقالت : « ماذا يا مولاى ؟ وبأىِّ شىء استَوجبت هذا ؟ » . فأعاد عليها ما قاله لى وهو يبكى وهى تبكى فقالت : « سألتُك يا أمير المؤمنين إلاَّ ضربتَ عنقى الساعة ، وأرحتَنى من الفكر فى هذا ، وأرحتَ قلبك من الغمّ(٧) بى » .

---

(١) وهى تغنى ، ليست فى نص الأغانى .

(٢) غنائها ، الأغانى .

(٣) أحسن ما مر لأحد ، الأغانى .

(٤) وبقى ، المخطوطتان .

(٥) ذكرت ، المخطوطتان .

(٦) ارحمها ، الأغانى .

(٧) الهم ، الأغانى .

وبكيـــا . ثم مسحا أعينهما ورجَعتْ إلى الغنــاء ، وأومى إلى خدم وُقوف فى شىء لا أعرفه ، فمضَوا وأحضروا أكياساً فيها عَيْن ووَرِق ، ورُزَما فيها ثياب كثيرة، وجاء خادم بدُرج ففتحه ، وأخرج منه عِقداً ما رأيت قط مثل جوهره ، فألبسها إيّاه ، وأُحضِرت بَدْرة فيها عشرة آلاف درهم فجُعلت بين يدىّ ، وخمسة تخوت فيها ثياب ؛ وعدنا إلى أمرنا وإلى أحسن ما كنا فيه . فلم نزل كذلك إلى الليل ، وتفرّقنا. وضرب الدهرُ ضَرَباته ، ووُلِّى المتوكِّل ؛ فوالله إنى لفى منزلى يوم نَوْبتى إذ هجم علىّ رسُل الخليفة ، فلم يُمهلونى حتى ركبتُ ، فصرت إلى الدار فأدخلت والله الحجرة بعينها ، وإذا المتوكل فى الموضع الذى كان فيه الواثق ، على السرير بعينه وإلى جانبه فريدة ، فلما رآنى قال : « ويحك! أما ترى ما أنا فيه من هذه ؟ أنا منذ غُدْوَةٍ أطالبها بأن تغنّى فتأبى على » . فقلت لها : « ياسبحان الله ! تخالفين سيدَك وسيدَنا وسيد البشر ، بحياته غنّى . فاندفعت تغنّى :

مقيـــم بالمجازة[1] من قَنَوْنَا وأهلُك بالأُحَيْفِر فالثِّمــاء
فلا تَبعَد ، فـكلُّ فتى سيـأتى عليه الموت ، يطرُق أو يغَادى

ثم ضربتْ بالعود الأرض ، ورمَتْ بنفسها عن السرير ، ومرّت تعدو وهى تصرخ : « واسيدّاه ! واسيدّاه ! » فقال لى : « ويحك ما هذا ؟ » . فقلت : «والله لا أدرى ياسيدى » . قال : «فما ترى ؟» . قلت : « أرى أن أنصرف أنا ، وتحضُرَ هذه ومعها غيرُها ، فإن الأمر يؤول إلى مايريد أمير المؤمنين » . قال : « فانصرف فى حفظ الله تعالى » . فانصرفتُ ، ولم أدر ما كانت القصّة .

(١) المجازة ، الأغانى : المجاور ، المخطوطتان .

فُلَيْحُ بن العَوْراء[1]

رجل من أهل مكة ، مولًى لبنى مخزوم ، لم يعرف اسمُ أبيه ، وهو أحد مُغنِّى الدولة العباسيّة ، له محلّ كبير ، وموضع جليل فى صِناعته .

وكان المهدىّ يسمع المغنّين من وراء الستارة ، يحضُرون مجلسه ولا يرون له وجها ، إلا فُلَيحَ بن العوراء ، فإن عبد الله بن مُصعب كان يُرَوِّيه شعره يغنِّى فيه فى مدائحه المهدىّ ، ودسّ فى أضعافها بيتين يسأله فيهما أن ينادمه ويَسأَل فُليحا أن يغنيهما فى أضعاف أغانيه ، وهما :

يا أمينَ الإله فى الشّرق والغر ... ب على الخلق وابنَ عمِّ الرسول
مجلساً بالعشىِّ عنــدك فى الميـ ... دانِ أبغى ، والإذنَ لى فى الوصول

فغناه فليح إياهما ، فقال المهدىّ للفضل بن الربيع : « يا فضل ، أجب عبد الله إلى ماسأل ، فأحضِرْه مجلسى إذا حضره أهلى وموالىّ وجلستُ معهم ، وزده على ذلك أن ترفع بينى وبين رَاوِيته فُليح الستارة » فـكان فليح أوّلَ مغنٍّ غـنَّى معه[2] فى مجلسه .

قال محبوب[3] بن الهَفْتِىّ : دعانى محمد بن سليمان بن على فقال : قد قَدِم فُليح من الحجاز ، ونزل عند محمد بمسجد عتّاب[4] ، فصِر إليه ، فأعلمه أنه إن جاءنى قبل أن يدخل إلى الرشيد خلعتُ عليه خِلعةً سريّة من ثيابى ، وأعطيتُه خمسةَ آلاف

---

(١) فليح بن أبى العوراء ، الأغانى .
(٢) عاين وجهه ، الأغانى .
(٣) محبوب ، الأغانى : محمود ، المخطوطتان .
(٤) عند مسجد ابن رغبان ، (ابن عتاب) ، الأغانى .

درهم . فضيتُ إليه فأخبرتُه بذلك ، فأجابنى إليه إجابةَ مسرور نشيطٍ[1] له ؛ وخرج معى وعدل إلى حمّام كان بقُربه ، ودُعى القيِّم وأعطاه درهمين ، وسأله أن يجيئه بشىء يأكله ونبيذ يشربه ؛ فجاءه برأس كبش مجلى[2] ، ونبيذ دوشابىّ غليظ ردىّ . فقلت : « لا تفعل » وجهـدتُ به ألا يأكل ولا يشرب إلا عند محمد بن سليمان ؛ فلم يلتفت إلىّ ، وأكل من ذلك الرأس وشرب من ذلك النبيذ الغليظ ، حتى كادت نفسه تخرج[3] ، وغـنّى وغـنّى القيّم معه مليًّا ، ثم خاطب القيِّمَ بما أغضبه ، وتلاحيا وتواثبا ؛ فأخذ القيّم شيئا فضرب به رأسه فشجّه حتى جرى دمه ، فلما رأى الدم على وجهه اضطرب وجزِع ، ثم قام وغسل جرحه ، وعالجه بصوفة مُحرَقة وزيت ، وعَصَبه واعتمّ ، وقام معى . فلما دخلنا على محمد بن سليمان فى داره ، ورأى الفرشَ والآلة ، وحضر الطعام فرأى طِيبه ، ورأى النبيذ وآلته ، ومُدَّت الستائر وغنَّت الجوارى ، أقبل علىّ وقال : « يا محمود[4] ، سألتُك بالله أيُّهما أحقُّ بالعربدة : مجلسُ الأمير أو مجلسُ القيم ؟ » فقلت : « وكأن لا بدّ من عربدة » . فقال : « والله لا بدَّ لى منها ، فأخرجتُها من رأسى هناك » . فقلت : « أمّا على هذا الشرط فالذى فعلتَ أجْوَد » فسألنى محمد عما كنا فيه فأخبرتُه ، فضحِك ضَحِكا كثيرا وقال : « هـذا الحديث أطيب من الغناء » وخلع عليه وأعطاه خمسة آلاف درهم .

قال فُلَيح : كان بالمدينة فتى يعشَق ابنةَ عمّ له ، فوعدته أن تزوره ، وشكا إلىّ أنها تأتيه ولا شىء عنده ، فأعطيتُه دينارا للنفقة ، فلما زارته قالت له : « من يُلهِّينا ؟ » قال : « صديق لى » ووصفنى لها ، ودعانى ، فأتيتُه . فكان أول ماغنَّيتُه

---

(١) بشرط ، المخطوطتان .

(٢) برأس كأنه رأس عجل ، الأغانى .

(٣) حتى طابت نفسه ، الأغانى .

(٤) يا مجنون ، الأغانى .

فى شِعر السُّلَيك بن السُّلَكة السعدى(١) :

مِن الخَفِرات لم تفضَح أخاها ولم ترْفَع لوالدها الشَّنارا

كأن مجامعَ الأردافِ منها نقاً درَجت عليه الريحُ هارا

يعافُ وِصال ذاتِ البذْل قلبى وأتّبع المنَّعة النَّوارا

فقامت إلى ثوبها فلبسته لتنصرف ، فتعلّق بها وجَهِد الجهدَ فى أن تقيم فلم تفعل ، وانصرفت . فأقبل على يلومنى فى أن غنَّيتُها هذا الصوت فقلتُ : « ما هو شىء اعتمدتُ به(٢) مساءتك ، ولكنه شىء اتَّفق » . فلم نبرَحْ حتى جاء رسولُها إلى الفتى ، ومعه ألفُ دينار فدفعها إلى الفتى ، وقال : « تقول لك ابنةُ عمِّك : هذا مَهرى ، فادفعْه إلى أبى واخطبنى » ففعل وتزوَّجها .

---

(١) الجعدى ، المخطوطتان .

(٢) اعتمدت عليه به ، المخطوطتان .

الفضل أبو النجم

قال أبو عمرو الشيباني : اسمه المفضَّل . وقال ابن الأعرابي : اسمه الفضل بن قُدامة ابن عُبَيد الله بن عبد الله بن الحارث بن إلياس[1] بن عَوْف بن ربيعة بن مالك ابن ربيعة بن عِجْل بن لُجَيم بن صَعب بن عليّ بن بَكر بن وائل بن قاسِط بن هِنْب بن أَفْصى بن دُعْمِيّ بن جَدِيلة بن أسد بن ربيعة بن نزار .

من رُجَّاز الإسلام الفحول المتقدِّمين ، فى الطبقة الأولى منهم . وكان أبلغ فى النعت من العجَّاج .

قال أبو عبيدة : ما زالت الشعراء تقصِّر بالرجّاز ولا تنتصف منهم ، حتى قال أبو النجم :

* الحمدُ لله الوهوبِ المُجْزِل *

وقال العجّاج :

* قد جَبَرَ الدينَ الإلهُ فجبر *

وقال رؤبة :

* وقاتِم الأعماق خاوى المُخْتَرَق *

فانتصفوا منهم .

وُجِد فى أخبار أبى عمرو الشيبانى أن فِتياناً من بنى عجل قالوا لأبى النجم : «هذا رؤبةُ بالمِرْبَد يجلس فيُنشِد شعره، فتجتمع إليه الناسُ وفتيانٌ من بنى تميم ، فما يمنعك من ذلك ؟ » . قال : « أفتحبّون هذا ؟ » . قالوا : « نعم » . قال : « فأْتُونى بعسٍّ من نبيذ » ، فأتوه به ثم نهض فقال :

---

(١) إياس ، المخطوطتان .

إذا شربت(١) أربعاً عَرفتنى ثم تجشَّمتُ الذى جشّمتــنى

فلما رآه رؤبة أعظمه وقام له عن مكانه ، وقال : « هذا رجّاز العرب » وسألوه أن ينشدهم فأنشدهم .

* الحمد لله الوَهُوب المُجزِل *

وكان إذا أنشد أزبد ووحشَ بثيابه(٢) ، (أى رمى بها) ـ ، وكان من أحسنِ الناس إنشاداً . فلما فرغ منها قال رؤبة : هذه أمُّ الرَّجَز . ثم قال : يا أبا النجم قد قرَّبت مرعاها إذ جعلتها بين(٣) رجل وابنه . يُوهِمُ عليه رؤبةُ أنه حيث قال :

تبَقّلت من أوّل التبقُّل بين رِماحَىْ مالكٍ ونَهْشَل

أنه يريد نَهْشَل بن مالك بن حَنْظَلة بن زيدِ مَناَة بن تميم . فقال له أبو النجم : هيهات ! إنما أريدُ مالكَ بن ضُبَيعة بن قيْس بن ثعلبة بن عُـكابة بن صَعب ابن علىّ بن بكر بن وائل . ونَهْشل قبيلة من ربيعة ، وهؤلاء يرْعون الصَّمَّان وعرض الدَّهناء . وسبب ذكر هاتين القبيلتين ، (يعنى مالك ونهشل) . أنَّ دماءً كانت بين بنى دَارِم وبنى نَهْشل وحروباً فى بلادهم ، فتحامى جميعُهم الرَّعْىَ فيما بين فَلْج والصَّمَّان مخافةَ أن يُعَـيِّروا بشرٍّ ، حتى عفا كلؤه وطال . فذكر أن بنى عجل جاءت لعزِّها(٤) إلى ذلك الموضع فرعته ، ولم تخف من هذين الحيَّين ، ففخر به أبو النجم وقال ما قال . ويدلُّ على ذلك قول الفرزدق :

أرتَع بالأحياء سعدُ بنُ مالكٍ وقد قتلوا مَثْـنًى بظِنّة واحد
فلم يبق بين الحيِّ سعدِ بن مالك ولا نَهْشَلٍ إلا دماءُ الأساود

---

(١) اصطبحت ، الأغانى .

(٢) ووحش ، الأغانى . وحسر ، المخطوطتان .

(٣) من ، المخطوطتان .

(٤) لعزها ، الأغانى : أباعرها ، المخطوطتان .

قال الأصمعي : قيل لبعض رواة العرب : من أرجزُ الناس ؟ . قال : بنو عِجل ، ثم سَعدُ بن زيد الأغلب ، ثم العجّاج ، ثم أبو النجم ، ثم رؤبة .

خرج العجّاج محتفِلا ، عليه جُبّة من خَزّ وعمامة من خزّ ، على ناقة له قد أجاد رَحْلها حتى وقف بالمربد والناس مجتمعون ، فأنشدهم قوله :

* قد جَبَرَ الدِّينَ الإلٰه فجبر *

وذكر فيها ربيعةَ وهجاهم . فجاء رجل من بكر بن وائل إلى أبي النجم وهو في بيته فقال : أنت جالسٌ وهذا العجّاج يهجونا في المِربد ، قد اجتمع عليه الناس! فقال : صف لي حاله وزيّه الذي هو فيه . فوصف له فقال : « ابْغِنى جملا طحانا قد أُكثِر عليه من الهِناء » . فجاء بالجمل إليه ، فأخذ سراويله فجعل إحدى رجليه في السراويل ، واتّزر بالأخرى ، وركب الجمل ، ودفع خِطامه إلى من يقوده ، وانطلق حتى أتى المربد . فلما دنا من العجّاج قال : اخْلَع خِطامه فخلعه ، وأنشد :

* تذكَّر القلبُ وجهلًا مّا ذكر *

فجعل الجملُ يدنو من الناقة يتَشَمَّمُها[1] وتباعد عنه العجّاج لئلا يفسد ثيابَه ورَحْله بالقَطِران ، حتى بلغ إلى قوله:

* شَيْطانُه أنثى وشَيْطانى ذَكَرْ *

فعلق الناس هذا البيت وهرب العجاج منه .

كان أبو النجم عند عبد الملك بن مروان ــ أو سليمان ولده ــ يوماً ، وعنده جماعةٌ من الشعراء ، وكان الفرزدق منهم ، وجاريةٌ واقفة على رأس سليمان أو أبيه عبد الملك تَذُبُّ عنه فقال: من صَبَّحني بقصيدة يفتخر فيها ، وصدق في فخره ، فله هذه الجارية.

---

(١) يتشممها ، الأغانى : ليثبها ، المخطوطتان .

فقالوا : نعم[١] . فقاموا على ذلك ثم قالوا : إنّ أبا النجم يغلبنا بمقطَّعاته ، يعنون الرجز . فقال : « إنى لا أقول إلا شعراً مقصَّدا » ، فقال من لَيْلته قصيدته التى فخر فيها ، وهى التى أوَّلها :

* عَلِق الفؤادَ حبائلُ الشعثاء[٢] *

ثم أصبح فدخل عليه بين الشعراء ، فأنشده حتى بلغ إلى قوله :

مِنّا الذى رَبَع الجيوشَ لصُلبه[٣] عشرون وهو يُعَدّ فى الأحياء

فقال له عبد الملك : قِفْ . إن كنت صدقتَ فى هذا البيت فلا نُريدُ ما وراءه ، فقال الفرزدق : أنا أعرف منهم ستة عشر ، ومن وَلَد وَلَدِه أربعة كلُّهم قد رَبَع . فقال عبد الملك أو سليمان : وَلَدُ وَلَدِه هم وَلَده ، ادفع إليه الجاريةَ يا غلام . فغلبهم يومئذ .

ويقال : إن عبد الملك قال للفرزدق : إذا أقررتَ له بستةَ عشرَ ، فقد وهبتُ له أربعة . ووهب له الجارية .

بعث الجنيد[٤] بن عبد الرحمن المرى إلى خالدِ بن عبد الله القَسرى بسبىٍ بيض من الهند ، فجعل يَهَب أهلَ البيت ، كما هو للرجُل من قُريش ، ومن وجوه الناس ؛ حتّى بقيت منهن واحدة جميلة كان يدّخرها ، وعليها ثياب من خزّ[٥] . فقال لأبى النجم : « هل عندك فيها شىء حاضر ، وتأخذها الساعة ؟ » قال : « نعم ، أصلحك الله » . فقال العُريان بن الهيثم النَّخَعى : « كذب ما يقدر على ذلك » .

(١) فقالوا نعم ، زيادة ليست فى نص الأغانى .
(٢) علق الهوى بحبائل الشعثاء ، الأغانى .
(٣) لظهره ، الأغانى .
(٤) الحميد ، المخطوطتات .
(٥) ثياب أرضها قوطنان ، الأغانى .

وكان على شُرَط عبد الله بن خالد . فقال أبو النجم :

عَلِقتُ خَوْدًا من بناتِ الزُّطِّ ذَاتَ جَهازٍ مُضْغَطٍ مُلَطِّ

رابِى الَمجَسِّ جَيِّدِ المَحَطِّ يقول من رآه قَطْنِى قَطِّ

كأنّه قُطٌّ على مِقَطِّ إذا بدا منه الّذى تُغَطّى

كأنَّ تحت ثوبها المنعَطِّ شَطًّا رَمَيْتَ فوقَه بِشَطِّ

لم يَعْلُ فى البَطْنِ ولم ينحطّ فيه شِفَاءٌ من أذَى التَّمَطِّى

كهامَةِ الشَّيْخِ اليَمَانى الثَّطِّ

وأومأ بيده إلى هامة العُريان . فضحك خالد وقال للعُريان : « هل تراه احتاج إلى أن يُرَوِّىَ فيها » . قال : « لا والله ! ولكنه مَلْمُون بن مَلعون » .

ورد أبو النجم على هشام بن عبد الملك فى الشعراء ، فقال لهم هشام : « صِفُوا إبلا فقطِّروها[1] وأورِدُوها وأصدِروها، حتّى كأنى أنظر إليها » . فأنشدوه وأنشده أبو النجم :

* الحمد لله الوهوب المجزل *

حتى بلغ إلى ذكر الشمس فقال :

* فهى على الأفق كعين . . . . *

وأراد أن يقول : « الأحول » ، فذكر حَوَلَ هِشام ، فلم يتمَّ البيت ، وأُرْتِجَ عليه . فقال هشام : « أجز » . فقال : « كعين الأحول » ، ومر فى القصيدة . فأمر به هشام فوُجِئت عنقه ، وأُخرِج من الرَّصافة ، وقال لصاحب شرطته : « إياك يا ربيع أن أرى هذا » . فكلَّم وجوهُ الناس صاحبَ شُرطته أن يقرَّه ففعل ، فكان يُصِيبُ من فضول أطعمة الناس ، ويأوى المساجد . ولم يكن بالرصافة أحدٌ

(١) فقبظوها ، المخطوطتان .

يُضيف إلا سليمانَ[1] بن كَيْسان الكلبي وعمرو بن بسطام التَّغلَبي . قال أبو النجم : فكنت آتى سليمانَ فأتغدَّى عنده ، وآتى عمراً فأتعشَّى عنده ، وآتى المسجدَ فأبيت فيه . قال : فاهتمَّ هشامٌ ليلةً وأمسى لَقِسَ النفس ، فأراد محدِّثا يحدِّثه ، فقال الخادمِ له : ابْغِنى محدِّثا شاعراً أعرابياً أهوج يروى الشعر ، فخرج الخادم إلى المسجد فإذا هو بأبى النَّجم ، فضربه برجله وقال : « أجب أمير المؤمنين » . قال . قلت : « إنى رجل غريب أعرابى » . قال : « إيّاك أبغى . أتروى الشعر ؟ » . قلت : « نعم وأقوله » . فأقبل بى حتى دخلنا القصر وأغلق الباب ، فأيقنت بالشرّ . ثم دخلتُ على هِشام فى بيتٍ صغيرٍ ، بينَه وبين نسائه سِتْرٌ رقيق ، والشمعُ بين يديه تَزْهَر . فلما دخلتُ قال لى هشام : « أبو النجم ؟ » . قلت : « طريدكَ » . قال : « إجلس » ، فسألنى وقال : « أين كنت تأوى وأين منزلُك ؟ فأخبرته فقال . « ومن أين كنتَ تطعم ؟ » قلت : « كنت أتغدَّى عندهذا وأتعشَّى عندهذا » قال : « وأين كنت تبيت ؟ » قلت : « فى المسجد حيثُ وجدنى رسولُكَ » . قال : « وما لك من الولد والمال ؟ » قلت : « أمّا المالُ فلا مالَ لى . وأمّا الولد فلى ثلاثُ بنات وبنىٌّ يقال له شَيْبان » فقال : « هل أخرجت من بناتك أحدا ؟ » قلت : « نعم ، زوَّجتُ اثنتين ، وبقيت واحدةٌ تجمِزُ فى أبياتنا كأنها نعامة . قال : « وما وصَّيتَ به الأولى ؟ » ، وكان اسمُها بَرَّة ، قال : قلت :

أوصيتُ من بَرَّةَ قلبا حُرّا ... بالكلب خيراً والحماةِ شرّا

لا تسأمى ضرباً لها وجَراً ... حتّى ترى حُلْوَ الحياة مُرّا

وإن كَسَتْكِ ذهبا ودُرّا ... والحىَّ عُمِّيهم بشرٍّ طُرّا

فضحك هشام ، وقال : « ما قلت للأخرى ؟ » قال : قلت :

سُبِّى الحماةَ وابهتى عليها ... وإن نأت فازدلفى إليها

(١) سليم ، الأغانى .

وأوجِعى بالفِهر رُكْبَتَيْها ويبِّضى بالقَرْعِ ناظِرَيها
ومِرْفَقَيها واضربى جَنبَيْها وظاهِرِى النُّذْر لها عليها
لا تُخبرى الدَّهرَ به ابنَتَيها

فضحك هشام حتى بدت نواجذُه ، وسقط على قفاه ، وقال : « ويحك ! ماهذه الوصيَّةُ كوصيَّة يعقوب لولده » . فقال : « ولا أنا كيعقوبَ يا أميرَ المؤمنين » قال: « فما قلت للثالثة » . قال : قلت :

أوصيكِ يا بنتى ، فإنى ذاهب أوصيكِ أن تحمَدكِ القرائبُ(١)
والجارُ والضيفُ الكريم الساغبُ لا يرجع المسكينُ وهو خائب
ولا تَنِى أظفارُكِ السلاهبُ مِنهنَّ فى وجه الحماةِ كاتبُ
والزوج إن الزوج بئسَ الصاحِبُ

قال : « فكيف قلت هذا ولم تتزوَّج ؟ وأىّ شىء قلتَ فى تأخر زواجها ؟ » قال قلت :

كأنَّ ظلَّامةَ أختَ شَيْبان يَتيمةٌ ، ووالداها حيَّان
الرأسُ قَمْلٌ كلُّه وصِئْبان غيرَ بِقاعٍ يبتغيها الصِّبيان
وليس فى الساقيْن إلا خَيْطان تلك التى يَفْزَعُ منها الشَّيْطان

فضحك هشام حتى ضحك النساء لضَحِكه ، وقال للخصىّ : « كم بقى من نفقتك؟ » قال : « ثلاثمائة درهم(٢) » . قال: أعطِه إياها ليجعلَها فى رِجل ظلَّامة مكان الخيطين .

دخل أبوالنجم على هشام بن عبد الملك، وقد أتت عليه سبعون سنة فقال له هشام: « ما رأيك فى النساء ؟ » قال: « إنِّى لأنظرُ إليهن شَزْراً وينظرن إلى خَزْرًا » ،

---

(١) هذا البيت ساقط فى المخطوطتين .
(١) دينار ، الأغانى .

فوهب له جارية ، وقال « اغْدُ عليّ فأعلِمني ما كان منك » . فلمّا أصبح غدا عليه فقال له : « ما صنعتَ ؟ » . قال : « ما صنعتُ شيئاً ولا قدرتُ عليها وقلت :

نظرتُ فأعجبَهـا الذى فى دِرعها من حُسْنه ونظرتُ فى سِرباليا
فرأت لها كَفَلًا ينوء[1] بخَصْرها وَعْثاً روادفه وأجثَمَ جاثِيا
ورأيتُ منتشِر العروق[2] مقلّصا رِخْواً مفاصلُه وجلداً باليا
أدنى له الرَّكَبَ الحليق كأنَّما أُدنى إليه عَقاربا وأفاعيا

فأمر له هشام بجائزة .

قال هشامٌ لأبى النجم : « حدثنى يا أبا النجم » . قال : « عنّى أو عن الناس؟ » قال : « لا بل عنك » . قال : « إنى لما كبرتُ عَرَض لى البول ، فوضعت عند رجلى شيئاً أبول فيه ، فقمتُ فى الليل نخرج منى صوت فتشدَّدت ، ثم عدت نخرج منى صوت آخر ، فعدتُ إلى فِراشى فقلت : يا أم الخيار هل سمعتِ شيئاً ؟ . قالت : لا ، ولا واحدةً منهما » . وأم الخيار هذه هى التى يقول فيها :

قد أصبحتْ أمُّ الخيار تدَّعى علىَّ ذنباً كلّه لم أصنع

مدح أبو النجم الحجّاج برَجَز يقول فيه :

ويلُ أمِّ دُور عِزَّة ومَجْد دُورِ ثقيفٍ بسَواء نجد
أهل الحصون والخيول الجُرْدِ

فأعجب الحجاج رجزه فقال : « حاجتَك » . فقال : « تُقطِعُنى ذا الخَيْس[3] » . فوجَم لها وسكت ، ثم دعا بكاتِبه فقال انظرُ ذا الخيس ما هو ؟ فإن هـذا الأعرابىّ سألنيه ، فما هو ؟ لعلّه نهرٌ من أنهار العراق » فسألوا عنه فقيل: وَادٍ فى بلاد عجل ،

(١) يميل ، الأغانى .
(٢) العجان ، الأغانى .
(٣) ذا الجبنين ، الأغانى .

أعلاه خَشَفة وأسفله سَنجة ، وتخاصم فيه هو وبنو عمٍّ له . فقال : « اكتبوا له به » . فأهلهُ به إلى اليوم .

قال الأصمعى : أخطأ أبو النجم فى أشياء أخذت عليه ، منها قولُه ، يصف فَرَسَه وقد أجراه فى حَلْبة :

* تَسْبحُ أُخراه ويَطْفُو أوَّلُه *

وهو إذا سبَحَت أُخراه كان حِمارُ الكُساح أسرعَ منه ، وإنَّما يوصف الجواد بأنه تسبح أُولاه وتلحق أخراه . قال الأصمعى[1] : ورأيت فرسه هذا فقومته بسبعين درهما .

(١) عبارة الأصمعى فى الأغانى : « وحدثني أبى أنه رأى فرسه هذا فقومه بسبعين درهما » .

فَضَالةُ بن شَرِيك

هو فَضالةُ بن شَرِيك بن سلمان بن خُوَيلد بن سَلَمة بن عامرٍ مُوقِدِ النار بن الحَرِيش بن نُمَيرِ بن الحارث بن ثَعْلبة بن دُودَان بن أَسَد بن خُزَيمة بن مُدرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نِزار .

شاعِرٌ فاتِكٌ صُعلوكٌ مخضَرم أدرك الجاهليَّة والإسلام ، وكان له ابنان شاعران، أحدُهما فاتِك ، والآخر عبدُ الله الواردُ على عبدالله بن الزُّبير ، والقائلُ له : إنَّ ناقَتى نَقِبَ خُفُّها ودَبِرت . فقال له : ارْقَعها بِسِبْتٍ واخْصِفْها بهُلْبٍ وسِرْ بِها البَرْدَيْن . فقال له : إنِّى جئتُك مسْتَحمِلًا ولم آتك مسْتَوصِفاً ، فلعن الله ناقةً حملتنى إليك . فقال له ابنُ الزبير : إنَّ وراكبهَا . فانصرف وهو يقول :

أقولُ لغِلْمَتى شُدُّوا رِكابى ... أُجاوِزْ بَطنَ مكَّةَ فى سَوَاد

فما لى حينَ أقطعُ ذاتَ عِرقٍ ... إلى ابن الكاهِليَّة من مَعاد

سيُبعِدُ بيننا نصُّ المطايا ... وتعليقُ الأَدَاوَى والمَزاد

أرى الحاجاتِ عند أبى خُبَيبٍ ... نَكِدْنَ ولا أُمَيَّةَ فى البلاد

فإن وليتْ أميةُ أبدأوكم ... سميدع . وارى الزناد

من الأعْياصِ أو من آل حربٍ ... أغرُّ كغُرَّة الفرَس الجواد

فلما وُلِّى عبدالملك طلب فَضالة فوجده قدمات ، فأمر لورثته بمائة ناقة تحمل وقرها تمراً وبرًّا ، وأما فاتك فكان سيداً جواداً وله يقول الأُقَيشِرُ يمدحه :

وفد الوفودُ فكنتَ أفضل وافدٍ ... يافاتكُ بنَ فَضالة بنِ شَرِيك

مرَّ فَضالة بن شَرِيك بعاصمِ بن عمر بن الخطاب وهو بالمدينة ، فنزل فلم يَقره شيئاً ولم يبعث إليه ولا إلى أصحابه بشىء ، وقد عرَّفوه بمكانهم ، فارتحلوا عنه .

والتفت فَضالةُ إلى مَوْلًى لعاصم وقال : قل له : « أما والله لأطوِّقنَّك طوقاً لا يبلى » .
وقال يهجوه :

ألا أيُّها الباغي القِرى لست واجداً ... قِراكَ إذا ما بتَّ في دار عاصم
إذا جئتَه تبغي القِرى بات نائماً ... بطيناً وأمسى ضَيفُه غير طاعم
فدع عاصماً إذ لا فَعَالَ[1] لعاصمٍ ... إذا حُصِّل الأقوامُ أهلَ المكارم
فتًى من قريش لا يجودُ لسائلٍ[2] ... ويحسَب أنَّ البخلَ ضربةُ لازم
ولولا يدُ الفاروق قلَّدتُ عاصماً ... مطوَّقةً يُحدَى بها في المواسم
فليتك من جَرْم بن زَبَّانَ أو بني الـ ... فُقَيم أو النَّوكى أبانِ بن دَارِم
أُناسٌ إذا ما الضَّيْفُ حلَّ بيوتَهم ... غدا جائعاً عَيمان ليس بنائم

فلما بلغت أبياتُه عاصماً استعدى عليه عمرو بن سعيد بن العاص ، والى المدينة ، فهرب فَضالة ، فلحق بالشام ، وعاذ بيزيدَ بن معاوية ، وعرَّفه ذنبه وما يتخوَّف منه من عاصم ، فأعاذه . وكتب إلى عاصم يخبره أن فَضالة استجار به ، ويحبُّ أن يهبَه له ، ولا يذكر لمعاوية شيئاً من أمره ويضمن له[3] ألّا يعود لهجائه فقبل ذلك عاصم وشفع يزيد فيه، فقال فضالة يمدح يزيد بن معاوية :

إذا ما قُريشٌ فاخرت بقديمها ... فخرتَ بمجدٍ يايزيدُ تليد
بمجدِ أمير المؤمنين ولم يزل ... أبوكَ أمينُ الله غيرَ بليد
به عَصَم اللهُ الأنام من الرَّدى ... وأدركَ تَبْلًا من معاشرَ صيد
ومجدِ أبي سفيان ذي الباع والنَّدى ... وحَرْبٍ وما حربُ العُلا بزهيد
فمنْ ذا الذي إن عدَّدالناسُ مجدَه ... يجيء بمجدٍ مثلِ مجد يزيد

---

(١) إذ لا فعال ، المخطوطتان : اف الأفعال ، الأغاني .
(٢) بنائل ، الأغاني .
(٣) ويضمن له ، الأغاني : ويخبره ، المخطوطتان .

كان عبد الله بن الزبير قد ولَّى عبدَ الله بنَ مُطيع بن الأســـود بن فَضْلة بن عُبَيد الــكوفةَ ، فطرده عنها المختارُ بن أبي عُبَيــد حين ظهر ، فقال فَضالةُ يهجو ابن مطيع :

دعا ابنُ مطيعٍ للبِياَع فجئتُه إلى بَيعةٍ قلبي بهـا غيرُ عارف

فمدَّ يداً(١) خَشْناءَ لمـا لمستُهـا بِـكَفِّى لم تُشْبِه أكفَّ الخلائف

معوَّدةً حمل الهراوَى لِقَومهـا فَرُوراً(٢) إذا ما كان يومُ التسايُف

---

(١) فقرب لى ، الأغانى

(٢) نزورا ، المخطوطتان .

الفضل بن العباس

هو الفَضْل بن العبّاس بن عُتْبَة بن أبي لهب ، واسمه عبد العُزَّى بن عبد المطّلب ابن هاشم بن عبد مناف . أحدُ فصحاء بني هاشم وشعرائهم المذكورين وكان شديد الأُدمة ، ولذلك قال :

طَرِب الشيخ ولا حينَ طرب — وتصابى ، وصِباَ الشيخ عَجَب
وأنا الأخضرُ من يعرفني — أخضرُ الجلدة من بيت العرب
من يساجِلْني يساجِلْ ماجداً — يملؤ الدلوَ إلى عَقْد الكَرَب
إنّما عبد مناف جوهر — زيَّنَ الجوهرَ عبدُ المطلب
كلُّ قوم صِيغَةٌ من فِضّة — وبنو عبد مناف من ذهب
نحن قومٌ قد بنى الله لنا — شرفاً فوق بُيوتات العرب
بنبيٍّ الله وابنَي عمِّه — وبعبّاس بن عبد المطَّلب
شاب رأسي ولِداتي لم تَشِب — بعد لَهْوٍ وشبابٍ ولَعِب

وهو هاشميّ الأبوين . أمُّه بنت العباس بن عبد المطلب ، وإنَّما أتاه السوادُ من قِبَل جدّته وكانت حَبَشِيَّة .

كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم زوَّج عُتبة إحدى بناته ، فلما بعثه الله تعالى نبياً أقسمت عليه أمُّ جميل أن يطلِّقها ، فجاء إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فوقف عليه فقال: يا محمد ، أشهد من حَضَر أني كفرتُ بربِّك ، وطلقت ابنتك ؛ فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث الله عليه كلباً من كلابه فيقتله ؛ فبعث الله عليه أسداً فافترسه ، وقيل : لما نزلَ قولهُ تعالى « والنَّجْمِ إذَا هَوَى » قال عُتبة بن أبي لهب للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : أنا كفرت بربِّ النجم إذا هوى ، فدعا عليه رسول الله

صلى الله عليه وسلم . فلما خرج إلى الشـــام فى رَكْب فيهم هَبَّار بن الأسود ، حتى إذا كانوا بوادى الغاضِرة ، وهو وادٍ مسبع ، نزلوا ليلًا فافترشوا صفًّا واحداً ، فقال عتبة : « أتريدون أن تجعلونى حَجْرَة ؟ لا والله ، لا أبيتُ إلا وسْطكم » فبـات وسطهم . قال هبّار : فماأنْبَهَنى إلا السَّبُع وهويشمّ رءوسَهم رَجُلًا رجلا ، حتّى انتهى إليـه ، فالتقت أنيابُه فى صُدغه ؛ فصاح : يا قوم ، قتلنى قتلنى ، دعونى أستقمت به . فأمسكوه ، فلم يلبَثْ أن مات فى أيديهم .

مرّ الفضلُ بالأحوص وهو يُنشد ، وقد اجتمع عليه الناس ، فحسده ، فقال له : « يا أحوص[١] ، إنك لشاعر ولـكنك لا تعرف الغريب[٢] ولا الإعراب » . قال : « بلى ، والله إنى لأبصر الناس بهما . فأسألك[٣] ؟ » قال : « نعم » . قال :

« ماذاتُ حَبْلٍ يراها الناسُ كلُّهم ... وَسْط الجحيم فلا تخفَى على أحد
كلُّ الحبالِ حبالِ الناس من شَعَرٍ ... وحبلُها وَسْطَ أهل النار من مَسَد

فقال له الفضل بن العباس :

ماذا أردتَ إلى شَتْمى ومَنْقَصتى ؟ ... ماذا أردتَ إلى حَمَّالة الحطب ؟
ذَكرتَ بنتَ قُروم سـادةٍ نُجُبٍ ... كانت حليلةَ شيخ ثاقِب النسب

وانصرف عنه .

كان الحزين الدِّيلى مُغرًى بالفضل وبهجائه ، فمرّ بالفضل يوم جمعة ؟ وعنده قومٌ يُنشِدهم ، فقال له الحزين : « أتنشد الشعر والناس يروحون إلى الصلاة ؟ » فقال له : « ويحك ياحزين ! أتتعرّض لى كأنك لا تعرفنى ؟ » قال : « بلى ، والله إنى لأعرفك ويعرفك معى كل من يقرأ سورة ﴿ تبت يدا أبى لهب ﴾ » ثم قال :

---

(١) الأحوص ، المخطوطتان .
(٢) العرب ، المخطوطتان .
(٣) قال فأسألك ، المخطوطتان .

إذا ما كنتَ مفتخراً بجَدٍّ   فعرِّج عن أبى لَهَبٍ قليلا
فقد أخزى الإلٰـه أباك دهراً   وقلَّد عِرسه حبـلا طويلا

فأعرض عنه الفضل وتـكرّم عليه[1] .

قدِم الوليدُ بن عبد الملك حاجًّا وهو خليفة ، فدخل عليه الفضلُ بن العباس بن عتبة ، فشكا إليه كثرةَ العيال ، وسأله فأعطاه مالاً وإبلًا ورقيقاً . فلمّا مات الوليد وَلِيَ سليمان ، فحجّ ، فأتاه الفضل فسأله فلم يعطه شيئا ؛ وكان الوليد فرض له فريضةً يُعطاها فى كل سنة ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ، فشاربُ الريح » فقـال : « وما شارب الريح ؟ » قال : « حمارى ، افرض له شيئاً » : ففرض له خمسة فأخذها ، ولم يكن يطعمه شيئا .

وكان الفضل بخيلا ثقيلَ البدن ، وكان كلّما أراد أن يمضىَ فى حاجة له استعار مركوباً ، فطال ذلك عليه وعلى أهل المدينة من فعله ، فقال له بعضُ بنى هاشم : « أنا أشترى لك حمارًا تركبه وتستغنى عن العارية » ، ففعل وبعث به إليه ، فـكان يستعير سَرْجاً إذا أراد أن يركبه ؛ فتواصى الناس بألا يعيرَه أحـدٌ سرجاً فلما طال ذلك عليه اشترى سرجا بخمسة دراهم ، وقال :

ولما رأيت المـال يألف أهـله   وصان ذَوِى الأخطار أن يتبذّلوا
رجعتُ إلى مالى فعاتبت بعضه   فأعتبنى[2] إنى كذلك أفعـل

وقال للّذى اشترى له الحمار : « إنّى لا أطيق عَلَفه ، فإمَّا أن تبعث بعَلَفِه أو رددتَه » فـكان يبعث بعَلَفه كلّ ليلة ، ولا يَدَعُ هو أيضا أن يطلب من كلِّ أحد ما يشترى علفاً له ، فيبعث به ، فيعلفه التبن دون الشعير ، حتى هُزِل وعطِب . فرفع

---

(١) عن جوابه ، الأغانى .

(٢) فعاتبنى ، المخطوطتان .

الحزين الكنانى إلى ابن حزم رقعة[1] كتب فيها قصّة حمار الفضل اللّهبى ، وشكا فيها أن يركبه ويأخذ عَلَفه وقَضيمهُ من الناس ، فيبيعُ الشعير ويعلفه التبن ، ويسأل أن يُنصِفَ منه ؛ فضحك منه وقال : لئن كنتَ مازحاً إنى لأظنك صادقاً ، فأمر بتحويل حمارِ الفضل إلى اصطبله ، ليعلِفَه ؛ فكان إذا أراد ركوبه دُفِعَ[2] إليه وأعاده.

ومن شدَّة بخله أنه أتى عليَّ بن عبد الله بن عباس لما حجَّ ، مسلِّماً عليه فى منزله ، فقال له : « كيف أنت . وكيف حالك ؟ » قال : « بخير نحن فى عافية » ، قال[3] : « هل لكَ من حاجة ؟ فقال الفضل : لا والله . ولكنّى أشتهى هذا العِنب ، وقد أغلاه علينا هؤلاء العُلوج » . فغمز غلاماً له ، فذهب فأتاه بسَلَّة عظيمة من عِنب ، فجعل يغسل عنقوداً عنقوداً ويناوله ، فقال له : « برَّتك رَحِم » .

كان إسحاقُ بن عيسى بن عليّ والىَ البصرة ، فاجتمع عنده وجوه أهل البصرة ، وقد كانت فيهم بقيَّة حسنة فى ذلك الدهر ، فأفاضوا فى ذكر بنى هاشم وما أعطاهم الله من الفضل بنبيِّه صلى الله عليه وسلم ؛ فمن مُنشِد شعراً ، ومن متحدِّث حديثا ، وذاكرٍ فضيلةً من فضائل بنى هاشم . فقال محمد النوْفلى : قد جمع هذا الكلامَ الفضلُ بن العباس اللَّهَبى فى قوله :

مابات قومٌ كرامٌ يدّعون يداً ... إلا لقومى عليهم منّةٌ ويدُ

نحن السَّنام الذى طالت شَظِيَّته ... فما يخالطُه الأدواء والعَمَد

يعنى : من صلَّى صلاتنا ، وذبح ذبائحنا ، عرَف أن لرسول الله صلّى الله عليه وسلم يداً عليه ، بما هداه الله عزّ وجلّ للإسلام به ، ونحن قومُه ، فتلك منّة لنا على الناس ، والشَّظِيَّة الشظى . ومنه قول دُريد بن الصِّمّة :

---

(١) قصة ، المخطوطتان .

(٢) دفعه ، المخطوطتان .

(٣) ساقطة فى المخطوطتين .

سليم الشَّظَى عَبْلُ الشَّوَى شَنِجُ النَّسا   أمينُ القُوَى نَهْدٌ طويلُ المقلَّد

والمَمَد داء يصيب البعير فى مؤخَّرة سَنامة إلى عَجُزه فلا يلبثُ أن يقتلَه .

خرج علىٌّ بن عبد الله بن عباس بالفضل اللهبى إلى عبد الملك بن مروان بالشام ، فخرج عبد الملك يوماً رائحاً على نجيبٍ له ، ومعه حادٍ يحدُو به ، وعلىّ بن عبد الله يُسايره على نَجيبٍ له ، ومعه الفضلُ على نَجيب . فحدا حادى عبد الملك فقال :

يأيها البَكْرُ الذى أراكا   عليك سهلَ الأرض فى ممشاكا
ويحكَ ! هل تعلمُ من علاكا   إن ابنَ مَرْوان على ذُراكا
خليفة الله الذى امتطاكا   لم يَعْلُ بَكْراً مثلُ من علاكا

فعارضه الفضلُ اللهبى ، يحدو بعلىٍّ بن عبد الله بن عباس ، فقال :

يأيها السائلُ عن علىّ   سألتَ عن بدرٍ لنا بدرىٍّ
مقدَّمٍ فى الخير أبْطَحىٍّ   أغلبَ فى العلياء غالِبىّ
ولِبِنَ الشيمةِ هاشمى   جاء على بَكر له مَهْرىّ

فنظر عبدُ الملك إلى علىّ فقال : « هذا مَجنونُ آلِ أبى لَهَب ؟ » قال : « نعم » . فلمّا أعطى قريشاً مرّ به اسمُه فحرمه وقال : « يُعطيه علىّ » .

وقيل : إن سليمان بنَ عبد الملك حجَّ فى خلافة الوليد ، فجاء إلى زمزم فجلس عندها ، ودخل الفضلُ اللَّهَبى يستَقى ، فجعل يَرْتجز ويقول : « يأيها السائل عن علىّ » الأبيات وزاد فيها :

زمزمُ ، يابوركتِ[1] من رَكىٍّ   بوركتِ للساقى وللمَسْقىٍّ

فغضب سليمان وهمَّ بالفضل ، فكفَّه عنه علىٌّ بن عبد الله ، ثم أتاه بقَدَحٍ فيه نبيذ من نبيذ السِّقاية ، فأعطاه إياه وسأله أن يشرب به ، فأخذه من يده كالمتعجِّب ،

---

(١) زمزمنا بوركت ، الأغانى .

ثم قال : « نعم إنه يستحب » . ثم وضَعَه من يده فلم يشربه ، فلما وَلِى الخلافة وحجَّ لقيه الفضل ، فلم يعطه شيئاً .

كان الحارثُ بن خالد المخزومى يحسُد الفضلَ على شعره ، ويعاديه ، لأن أبا لهب جدَّ الفضل كان قامر جدَّه العاصىَ بن هشام على ماله فقَمَره ، ثم قامره على رقِّه وعبوديته فقَمَره ، فاستلمه قِناً ، وبعثَه يوم بدرٍ مقاتِلا عنه ، فقتله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وكان إذا أنشد شيئاً من شعره يقول : « هذا لابن حمَّالة الحطب » فقال الفضل فى ذلك :

ماذا تحاول من شتمى ومَنْقَصَتى ... ماذا تعــيِّر من حمَّالة الحطب
غرَّاء سَائلةٌ فى المجــد غُرَّتها ... كانت حليلة شيخ ثاقب النسب
أما أبوكَ فعبــدٌ لستَ تنكره ... وكان مالـكه جدى أبو لهب
النبْعُ عِيــدانُنا والمجدُ شِيمتنا ... لسنا كقَومك من مَرْخٍ ومن غَرَب

لما وفد عمرُ بن أبى ربيعة على عبد الملك بن مروان أدخل عليه ، فاستنسبه[1] فانتسب ، فقال له :

« لا أنعم الله بقَينٍ عينا ... تحية السخط إذا التقينا

ألست القائلَ لا أمّ لك ! :

نظرتُ إليها بالمحصَّب من مِنًى ... ولى نظر لولا التحرُّج عارم
فقلت : أشمسٌ أم مصابيح بِيعة ... بدت لك خلف السجفِ أم أنت حالمُ
بعيدة مَهوى القُرْط إمَّا لنوفلٍ ... أبوها وإما عبد شمس وهاشمُ
ومدَّ عليها السِّجف يوم لقيتُها ... على عجلٍ تُبَّاعُها والخــوادم
فلم استَطِعْها غير أن قد بدا لنا ... عشيَّة راحت كفُّها والمعــاصم
معاصمُ لم تَضرِبْ على البَهْمِ بالضُّحى ... عصاها ووجهٌ لم تَلُحه السمائم

(١) فنسبه ، المخطوطتان . وفى الاغانى : فسأله عن نسبه .

قاتلك الله ! ما الأمك ! أما كانت لك فى بنات العرب مندوحة عن بنات عمِّك » . فقال عمر : « بئست والله يا أمير المؤمنين هـذه التحيَّة لابن العم ، على شحط الدار ونأى المزار » . فقال عبد الملك : « أتراك مُرتَدِعاً عن ذلك ؟ » فقال : « إنى إلى الله تائب » . فقال عبد الملك : « إذن يتوب الله عليك ، ويحسن جائزتك ؛ ولـكن أخبرنى عن مُنازعتك للفضل اللهبى فى المسجد ، فقد أتانى[1] نبأ ذلك ، وكنتُ أحبّ أن أسمعه منك » . فقال عمر : « يا أمير المؤمنين ، بينا أنا جالسٌ فى المسجد فى جماعة من قريش إذ دخل علينا الفضل بن عباس ، فسلّم وجلس ، ووافقنى وأنا أتمثَّل بهذا البيت :

واصبح بطنُ مكة مُقشَعِرًّا كأنَّ الأرض ليس بها هِشام

فأقبل علىَّ فقال : يا أخا بنى مخزوم ، والله إن بلدةً تَبَحْبَح بها عبد المطلب ، وبُعِثَ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، واستقرَّ بها بيتُ الله عز وجل ، لحقيقة ألا تقشَعِرَّ لهشام . وإنَّ أشعرَ من هذا وأصدق قولُ القائل :

إنما عبدُ منافٍ جوهر زيَّن الجوهرَ عبدُ المطلب

فأقبلتُ عليه فقلت : يا أخا بنى هاشم ، وإنَّ أشعرَ من صاحبك الذى يقول :

إن الدليـلَ على الخيراتِ أجمعِها أبناءُ مجتمَع الخيرات[2] مخزومِ

فقال لى : أشعرُ والله من صاحبك الذى يقول :

جبريل أهدى إلى[3] الخيرات أجمعها أبنـاء[4] هاشم لا أبنـاء مخزوم

(١) أنبأنى ، المخطوطتان .
(٢) مخزوم للخيرات ، الأغانى .
(٣) لنا ، الأغانى .
(٤) إذ أم ، الأغانى .

فقلت : غلبني والله . ثم حملني الطمعُ في انقطاعه على مخاطبته فقلت : بل أشعرُ منه الذي يقول :

أبنـــاء مخزوم الحريق إذا حرّكته تارةً ترى ضَرَما
يخرج منه الشّرار مَعْ لهب من حاد عن حَرِّه فقد سلما

فوالله ما تلعثَم أن أقبل عليّ بوجهه ، ثم قال : يا أخا بني مخزوم ، أصدقُ من صاحبك الذي يقول :

هاشمُ بحرٌ إذا طمى وسما أخمد حرّ الحريق مضطرّ ما
فاعلمْ ، وخير المقال أصدقُه ، بأنّ من رام هاشماً هُشِما

فتمنّيت[1] والله يا أمير المؤمنين أن الأرضَ ساخت بي ، ثم تجلّدت فقلت : يا أخا بني هاشم ، أشعرُ من صاحبك الذي يقول :

أبناء مخزومَ أنجُمٌ طلعت للناس تجلُو بنورها الظُلَما
تجودُ بالنَّيْل قبل مَسألةٍ[2] جُودا هنيئاً وتضرب القُحما

فأقبل على كأسرع من اللَّحظ ، فقال : أشعر من صاحبك وأصدق الذي يقول :

هاشمُ شمسٌ بالسعد مَطلعها إذا بَدَت أخفت النجوم مما
اختار ربِّي منها النبيَّ فمن قارعها[3] بعد أحمد قُرِعا

فاسودّت الدنيا في عيني ، وانقطعت ، فلم أُحِر جواباً ، ثم قلت : يا أخا بني هاشم إن كنت تفخر علينا بالنبي صلى الله عليه وسلم فما تسعنا مفاخرتُك . فقال : كيف لا أمّ لك ! والله لو كان منك لفخرت به عليّ . فقلت : صدقت وأستغفِر الله فإنه

---

(١) فتيقنت ، المخطوطتان .
(٢) تسأله ، الأغاني .
(٣) نازعها ، المخطوطتان .

موضع الفخار . وداخلني السرورُ لقطعه الكلام ولئلا ينالني عَقَدٌ[١] عن إجابته فأفتضح . ثمّ إنه ابتدأ المناقضة فأفكر هُنَيهة ثم قال : قد قلتُ مالا بدَّ لك من الاستماع ، فقلت : هاتِ ، فقال :

نحن الذين إذا سما لفخارهم ذُو الفخر أقعدَه هناك القُعْدُد
فافخر بنا إن كنت يوما فاخرا تَلْقَ الأُلَى فخروا بفخرك أُفرِدوا
قل ياابن مخزوم لكلِّ مفاخرٍ منا المباركُ ذو الرسالة أحمد

فَحُصِرت والله وتبلَّدت ، وقلت : إن لك عندى جواباً فأنظِرنى فأفكرتُ مليًّا ثم أنشدت :

ماذا يقولُ ذَوُو الفخار هنا لكم هيهاتَ ذلك ؟ هل يُنال الفرقَد[٢]
لا فخرَ إلا قد علاه محمَّدٌ فإذا فخرتَ به فإنى أشهَدُ
أنْ قد فَخَرتَ وفُقتَ كلَّ مفاخرٍ وإليكَ فى الشرفِ الرفيع المَعْمَد
ولنا دَعائمُ قد بناها أوّلٌ فى المكرُمات جرى عليها المولدِ
من رامها حاشَى النبيّ وأهلَه بالفخر غَطْمَطَه الخليجُ المُزْبِد
دَعْ ذا ورُح لغناء خَوْدٍ بَضّة مما نطقتَ به وغنَّى مَعبدُ
مع فِتْيةٍ تندَى بطونُ أكفِّهم جُوداً إذا هرّ الزمانُ الأنكد
يتناولون سُلافةً عانِيَّةً طابت لشاربها فطاب المقعدُ

فوالله ، يا أمير المؤمنين ، لقد جاوبنى بجواب كان أشدّ على من الشعر . قال : يا أخا بنى مخزوم ، أريك الثريّا وتريني القمر ؟ (أدلّك على الأمر الغامِض وأنت لم تبلغ أن ترى الأمر الواضح)، أتخرجُ من المفاخرة إلى شُرب الخمر ؟ فقلت : أماعلمت

(١) عوز ، خور ، الأغانى ، وليس بشىء .

(٢) جعل هذا البيت فى الأغانى من تمام قول الفضل .

أن الله تعالى يقول فى الشعراء « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » . فقال : صدقت ، وقد استثنى الله عز وجل قوماً منهم ، فقال « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » ، فإن كنتَ مؤمناً دخلت تحت الاستثناء واستحققْتَ العقوبة بدعائك إليها ، وإن لم تكن منهم فالشِّرك بالله عليك أعظمُ من شرب الخمر . قلت : أصلحك الله ، لا أجد للمستخذى شيئاً أصلح من السكوت فضحك وقال : «أستغفرُ الله . وقام عنى » .

فضحك عبدُ الملك حتى استلقى على قفاه ، وقال : يا ابن أبى ربيعة أما علمتَ أن لبنى عبد المطّلب ألسنةً لا تطاق ؟ إرفع حوائجك . فرفعتُها فقضاها ، وأحسن جائزتى ، وصرفنى .

الفَضْل الرَّقاشى

هو الفضلُ بن عبد الصّمد ، مولى رَقاش ، وهو من ربيعة . وكان مطبوعاً سهلَ الشعر نقىّ الـكلام . وقد ناقَضَ أبا نُواس وفيه يقول أبو نواس :

وجدنا الفضلَ أكرمَ من رقاشٍ ... لأنّ الفضلَ مـــولاه الرسول

أراد أبو نواس بهذا نفيَه عن ولائه ، وذهب أبو نواس إلى قوله صلى الله عليه وسلّمَ : أنا مَوْلى من لا مولى له ، وقيل : إن الرقاشيّ من العجم من أهل الرّى ، ومدح الرشيد وأجازه .

وكان منقطعا إلى آل بَرْمك وأغْنَوه عن سواهم وغَنِىَ بهم ، وكانوا يصولون به على الشعراء ويُرَوُّون أولادهم أشعاره فيهم ، ويدونون القليل والـكثير منها تعصُّبا له ، وحفظا لخدمتــه ، وتنويهاً باسمــه ، وتحريكاً لنشاطه ؛ فحفظ ذلك لهم . فلما نُـكِبوا صار إليهم فى تَحبِسهم ، فأقام معهم مــدّة أيامهم ، يُنشِدُهم ويُسامِرهم ، إلى أن ماتوا ، فرثاهم فأكثر ، ونَشَر محاسنَهم وجودَهم ومآثرهم فأفرط ، حتى نَشَر منها ما كان مطويًّا ، وأذاع منها ما كان مستوراً . وكان كالموقوف لمديح صغيرهم وكبيرهم . ثم انقطع إلى طاهر بن الحسين ، وخرج إلى خُراسان فلم يزل بها معه إلى أن مات .

وكان مع تقدُّمه فى الشِّعر ماجناً خليعاً متهاوناً فى مُروءته ودينه . وقصيدته التى يُوصى فيها بالخلاعة والمُجون مشهورةٌ سائرة فى الناس ، مبتذَلة فى أيدى العامّة والخاصّة ، وهى التى أولها :

أوصى الرقاشىُّ إلى إخوانه ... وصيَّةَ المخمور فى نُدمانه

ورأيت هذه القصيدة بعينها بخط الجاحظ ، فى شعر أبى نعامة ، فى جملة قصيدة طويلة يهجو فيها جماعة ، ويأتى فى وسطها بقصيدة الرقاشى .

ولما قال أبو دُلَف العجْلىّ :

ناوِلينى الدِّرع[1] قد طا ل عن الحرب جِمامى
مِن لى شهران مذلم أرم قوما بحِمام[2]

قال الرقاشىّ يعارضه :

جَنِّبِينى الدِّرع قد طا ل عن القَصْفِ جِمامى
وا كْسِرِى المِطْرَد البيْـ ـض وأثنِى بالحسام
واقـذِفى فى لُجّة البحر بقَوْسى وسِهامى
وبتُرْسِى وبرمحى وبسَرْجى ولجامى
فبحسبى أن ترَيْنى بين فِتْيانٍ كرام
سادةٍ راحوا مجدِّيـ ـن على شُرب[3] المدام
واصْطِفاقِ العُود والنايا ت فى جُنح[4] الظلام
ثم خلِّ الطّعنَ والضر ب لأجسادٍ وهام
لشقىٍّ قال : قد طا ل عن الحرب جِمامى

لما توفى العباس بن محمد بن خالد بن برمك والرشيد بالرّصافة ، كان فى يوم جمعة ، وحضر الرشيد والمأمون ، وأخرجت المضاربُ إلى مقابر البرامكة بباب البَرَدان ، وفُرِشَ للرّشيد فى مسجدٍ هناك . وجاء الرشيد فى الحَلَق والأعلام والحراب ، فصلّى

---

(١) الرمح ، الأغانى .
(٢) بسهام ، الأغانى .
(٣) حرب ، الأغانى .
(٤) جوف ، الأغانى .

عليه ، ووقف على قبره حتى دُفن . فلما خرج يحيي ومحمد من قبره قبّلا يَدَى الرشيد وسألاه الانصراف ، فقال : لا ، حتى يُسوَّى عليه التراب . ولم يزل قائما حتى فُرِغ من أمره ، وعزّاهما، وهمّ بالركوب ، فقال الرّقاشي يرثى العباس :

أتحسَبُنى باكرتُ بعــدك لذّةً أبا الفضل ، أوزَفَّتْ عن عاتقٍ سِترا

ولما قتل جعفرُ بنُ يحيي وصُلِب اجتاز الرقاشيُّ وهو على الجِذْع ، فوقف يبكى وأَنْشَد :

أمـا والله لولا خوفُ واشٍ وعينٌ للخليفة لا تنام
لطُفنا حَول جِذعك واسْتَلمنا كما للنّاس بالحَجَر استلام
فما أبصرتُ قبلك يا ابنَ يحيي حساماً قدّه السيفُ الحسام
على المعروف والدنيا جميعاً ودولةِ آل برمكٍ السلام

فكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى الرشيد فأحضره وقال له : ما حملَك على ما قلت ؟ » قال : « يا أميرَ المؤمنين ، كان إلىّ محسناً ، فلمّا رأيته على الحال التى هو عليها حرّكنى إحسانه ، فما ملكتُ نفسى حتى قلتُ ما قلت » . قال : « فكم كان يُجرى عليك ؟ » قال : « ألفَ دينارٍ فى كل سنة » . قال : « فإنّا قد أضْعَفناها لك » .

كان ابنُ درّاج عثمانُ الطُّفَيلىُّ كثيرَ التطفيل فقيل له يوما : إن فلاناً وفلاناً قد اشتروا رءوسا ودخلوا البستان ، فأقبل يُحضِر عَدْواً خوفا من فوتهم ، فوجدهم قد كوّموا العِظام ، فوقف عليهم ينظر ، ثم استعْبَر ، وتمثّل بقول الرقاشى :

آثار رَبْـعٍ قَدُما أعيى جَوابى صَمَما
سحّت عليه دِيَمٌ بمائها فانهدَما
كان لسُعدى عـلَماً فصار وَحْشا رِمَما
أيام سُعدى سَقَمٌ وهى تُداوِى السَّقَما

وكان عثمان هذا يلزم(١) سعيدَ بن عبد الكريم الخطَّابى ، أحدَ ولَد(٢) زيد ابن الخطاب . فقال له : « إنى أصونك(٣) وأضَنٌّ بك عما أنتَ فيه من التطفيل ، ولى وظيفةٌ رَاتِبةٌ كل يوم ، فالزَمْنِى(٤) فكن مدعواً ، أصلحُ لك ممّا تفعل » . فقال : « رحمك الله ! أين يُذهب بك ، أين لذّة الجديد ، وطيب التنقّل كلَّ يوم من مكان إلى مكان ؟ وأين هو نَيْلُكُ(٥) ووظيفتك من احتفال العُرس ؟ وأين ألوانك من ألوان الوليمة ؟ » قال : « فأمّا إذ أبيتَ ، فإذا ضاقت عليك المذاهب ، فإلى فيئة لك(٦) » قال : « أما هذا فنعم » .

وقال هذا الخطّابى(٧) لابن درّاج : « كيف تصنع بأهل العُرس إذا لم يدخلوك ؟ » قال : « أنوح على بابهم فيتطيَّرون من ذلك فيُدخِلونى » .

صار ابن درّاج هذا يوماً إلى باب علىّ بن زيد ، وكان يكتب للعباس بن المأمون، فحجبه الحاجب وقال : له « ليس هذا وقتك ، وقد رأيت القوّاد محجوبين ، فكيف يؤذن لك أنت ؟ » فقال : « ليست سبيلى سبيلَهم ، لأنه يحبُّ أن يرانى ويكره أن يراهم » . فلم يأذن له . فبينما هما على ذلك إذا خرج علىُّ بن زيد فرآه ، فقال : « ما منعك يا أبا سعيد أن تدخل ؟ » قال : « منعنى هذا البغيض » فالتفت إلى الحاجب فقال : « بلغ من بُغضِك أنك تحجُب هذا ؟ ثم قال : « يا أبا سعيد ، ما أهديت إلى من النوادر ؟ » قال: مرّت بى جِنازة ومعى ابنى هذا ، ومع الجنازة

---

(١) يكرمه ، المخطوطتان .

(٢) ولدى ، المخطوطتان .

(٣) زيادة عن الأغانى يقتضيها السياق .

(٤) يكرمنى ، المخطوطتان .

(٥) نيلك ، الأغانى : ينال ، المخطوطتان

(٦) فإلى فيئة لك ، الأغانى : ساقطة فى المخطوطتين .

(٧) الخطابى هذا ، الأغانى .

امرأة تبكيه وتقول : « يذهبون بك إلى بيت لا فِراشَ فيه ولا وطاء ، ولا ضِيافةَ ولا غطاء ، ولا خبز فيه[1] ولا ماء » فقال لى ابنى : « يا أبت إلى بيتنا واللهِ يذهبون بهذه الجنازة » قلت : « وكيف ذلك ؟ » قال : « لأن هذه صفةُ بيتنا » . فضحك علىَّ وقال : « قد أمرتُ لك بثلاثمائة درهم » فقال : « قد وفَّر الله عليك نِصفها ، على أن أتغدَّى معك » . وكان عثمان مع تطفيله أكيَس الناس ، فقال له على : « هى كلُّها عليك موفَّرة ، وتتغدى معها » .

وعثمان بن درّاج هو القائل :

لذَّةَ التطفيل دومى وأقيمى لا تريمى
أنتِ تشفينَ غليلى وتسلِّين همومى

دخل الرقاشىُّ على بعض أمراء البصرة ، فقال له : « لقد أصبح خِضَابُك قانياً » قال : « لأنى أصبحت له معانيا » ، قال : « وكيف تفعل به ؟ » قال : « أنعم الحِنَّاء عجناً وأجعل ماءه سخنا وأروِّى شَعْرى قَبله دُهْناً ؛ فإن ثبت أقنى ، وإن لم يثبت أغنى » .

(١) خرقة ، المخطوطتان .

فند أبو زيد

مولى عائشة بنتِ سعد بن أبى وقَّاص ومنشؤه المدينة ، وكان خليعاً متهتّكا يجمع بين الرجال والنساء فى منزله ، وكذلك يقول ابن قيس الرقيّات :

قل لفَنَد يشيِّع الأظعانا طال ما سرَّ عيشنا وكفانا
صادراتٍ عَشِيَّةً من قديد وارداتٍ مع الضحى عُسفانا
زوَّدتنا رقيّة الأحزانا يوم جازت حُمولها السكرانا

وبفند يضرب المثل فى الإبطاء . فإن عائشة أرسلته يجيئها بنار ، فخرج لذلك ، فلقى عِيرا خارجةً إلى مصر فخرج معهم ، فلما كان بعد سنة رجع ، فأخذ نارا ، ودخل على عائشة وهو يعدو ، فسقط وقد قرب منها فقال : تَعِسَت العَجَلة . فقال بعضُ الشعراء فى رجلٍ ذُكِر بمثل هذه الحال :

ما رأينا لسعيدٍ مثلا إذ بعثناه يجى بالمشمله
غير فَندٍ بعثوه قابِسا فثوى حولا وسبَّ العجله

وكان سعدٌ قد ضرب فندا أبا زيد ضرباً مبرِّحاً ، فحلفت عائشة لا تكلمه أبدا ، وكانت خالته ، فصار إليه سعدٌ طاعةً لخالته فوجده وَجِعا من ضربه ، فسلَّم عليه ، فجعل وجهه إلى الحائط ولم يكلِّمه ، فقال له : « أفند ، إن خالتى حلَفت ألا تكلِّمنى حتَّى ترضى ، ولست ببارح حتَّى ترضى عنى » فقال : « أما أنا فأشهد أنك مَقيتٌ سَمِج مُبغَّض . وقد رضيتُ عنك على هذه الأحوال لتقوم عنى ، وتريحَنى من وجهك والنظر إليك » . فقام من عنده فدخل على عائشة فأخبرها بما قال له فند ، فقالت له : « قد صدق ، وأنت كذلك » ورضيت عنه . وكان سعدٌ مضطرب الخلق سَمِجاً .

كان معاوية يستعمل مَرْوان بن الحكم على المدينة سنة ، ويستعمل سعيد بن العاص سنة ، وكانت ولايةُ مروان شديدة يهرب فيها أهل الدّعارة والفسق ، وولاية سعيدٍ ليِّنة يرجعون إليها . فبينا مَرْوان يأتى المسجد وفى يده عُكّازه ، وهو يومئذ معزول ، إذ بفَند بين يديه ، فوكزه بالعكازة وقال له : « ويلك ! هيه ! قل لفند يشيِّع الأظعانا . أتشيِّع أظعان الفساد لا أمَّ لك إلى أهل الريبة ؟ ستعلم ما يحلُّ بك منى » فالتفت إليه فَنْد وقال : « نعم أنا ذاك . سبحان الله ! ما أسمجك والياً ومعزولا ! » . فضحك مروان وقال : « تمتَّع فإنما هى أيام قلائل ثم تعلم ما يمرُّ بك منِّى » .

حلف الفضول

كان سببُ حِلف الفضول أن رجلا من أهل اليمن قَدِم مكّة ببضاعة له ، فاشتراها رجلٌ من سهم ، فلوى الرجلُ حقَّه ، فسأله متاعَه فأبى عليه ، فقام فى الحجر فقال :

يال قُصَىٍّ لمظلومٍ بضاعته ... ببطن مكّة نائى الدار والنَفَر

وأشْعَثٍ مُحرمٍ لم يقض حرمته ... بين المَقام وبين الركن والحَجَر

أقائم من بنى سهم بذمّتهم ... أم ذاهب فى هلاكٍ مالُ معتمِر

إن الحرامَ لمنْ تَمَّت حرامته ... ولا حرام لثوب الفاخر المذر

وقال بعضهم : إن قيس بن شَيْبة السُلَمى باع متاعاً من أبىّ بن خلف ، فلواه وذهب بحقِّه ، فاستجار برجل من بنى جُمح فلم يقم بجواره فقال :

يال قُصىٍّ كيف هذا فى الحرم ... وحرمة البيت وأعلاق الكرم

أظلَمُ لا يُمنَع عنِّى من ظَلَمَ

فبلغ الخبر عباسَ بنَ مِرداس ، فقال :

إن كان جارُك لم تَنفعك ذمّتُهُ ... وقد شرِبت بكأسِ الذلِّ أنفاسا

فأتِ البيوتَ وكن من أهلها صددا[1] ... لا يَلْقَ ناديهم فُحشا ولا باسا

وثَمّ كن بفِناء البيت معتَصِماً ... تلق ابنَ حرب وتلق المرء عبّاسا

قَرْمَىْ قريشٍ وحلَّا فى ذوائبها ... بالمجد والحزم ما حازا وما ساسا

ساقى الحجيج وهذا ياسر فلج ... والمجد يورَث أخماساً وأسداسا

وقام العباس وأبو سفيان حتى ردا عليه متاعه . واجتمعت بطون قريش فتحالفوا

---

(١) سددا ، المخطوطتان .

فى دار عبد الله بن جُدْعان وشهد الحِلْفَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم . وقال قومٌ من قريش : هذا والله فَضْلٌ من الحِلف ، فَسمِّى حِلفَ الفضول ، وكان قبل البعثة .
وقال أيضاً رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه : شهدتُ حِلفاً فى دار عبد الله بن جُدعان لم يزده الإسلام إلا شدّة ، ولو دُعيتُ له اليوم لأجبت ، ولا أحبُّ أنى نقضته ولو أن لى حُمر النعم . وصَنَع عبدالله بن جُدعان فى ذلك اليوم طعاماً عظيماً . وكان سنُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك خمسا وعشرين سنة .

واجتمع بنو هاشم وأسد وزهرة وتيم وتحالفوا على ألا يُظلَم أحدٌ بمكّة ، قريبٌ ولا غريبٌ ولا حرٌّ ولا عبدٌ ، إلّا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقِّه ، ويردُّوا إليه مظلَمته من أنفسهم ومن غيرهم ، وأن يكونوا جميعاً على الظالم ومع المظلوم ، حتى يأخذوا مظلَمته منه ، شريفاً كان أو وضيعاً ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ثم عَمدوا إلى ماء زمزم فجعلوه فى جَفنة ، ثم بعثوا به إلى البيت ، فغُسلت منه أركانُه ، ثم أتوا به فشربوه ، ثم انطلقوا إلى العاص بن وائل ، وكان قد أخذ بضاعة تاجر ولواه بحقه ، فقالوا له : « ما نفارقُك حتى تؤدِّىَ إليه حقَّه » . فأعطى الرجل حقه . ومكثوا كذلك لا يَظلِم أحدٌ أحداً بمكة إلا أخذوا له حقَّه ، وكان عُتبة بن ربيعة بن عبدشمس يقول : « لو أنَّ رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل فى حلف الفضول » عتبا لهم .

وقيل : إنما سُمِّى حلفَ الفضول لأنه كان فى جُرهُم رجال يردُّون المظالم ، وحلفوا على ذلك ، يقال لهم : الفَضْل وفضالة وفضال ومُفضِل ، فسمِّى بذلك .

خرج الحسين بن علىّ رضى الله عنهما من عند معاوية وهو مُغْضَب ، فلقِىَ ابن الزُّبَير ، فذكر له الحسين أن معاوية قد ظلمه فى حقٍّ له ، وقال له الحسين : أخيِّره فى ثلاث خصال والرابعة الصَّيْلَم : أن يجعلك أو ابنَ عمر بينى وبينه ، أو يقرَّ بحقِّى ويسألنى فأهبَه له ، أو يشتريَه منى . فإن لم يفعل فوالذى نفسى بيده لأهتفنّ بحِلف

الفُضول . فقال ابن الزبير : فوالذى نفسى بيده لئن هتفتَ به وأنا قاعدٌ لأقومنَّ ، أو قائما لأمشِيَنَّ ، أو ماشيا لأشتدنَّ ، ثم لآتينَّك حتى تَفْنَى روحى مع رُوحك أو يُنصِفَك . قال: وذَهَب ابن الزبَير إلى معاوية فقصَّ عليه الخبر وقال : « قد جئتُك فى ثلاثِ خِصال والرابعة الصيلم » . فقال معاوية : « لا حاجةَ لنا فى الصَّيلم » . قال : « فإنى لقيتُه مُغضَبا » ، قال : «هاتِ الثلاث» فأخبره بها ، ثم أخبره بالرابعة، وقال لمعاوية كما قال للحسين إنه إن دُعِى إلى حِلف الفُضول أجابه . فقال معاوية : « لا حاجةَ لنا بهذا » . ثم اشترى الحقَّ من الحسين رضى الله عنه .

وكان بنو سَهْم قد زاد ظلمهم قبلَ هذا الحِلف ، وأعظَمَ الزبَير بنُ عبد المطلب ذلك ، وقال : يا قومُ ، إنى أخشى أن يُصيبَنا مثلُ ما أصاب الأمم السابقة من ساكنى مكة . فمشى إلى ابن جُدعان ، وهو شَيخُ قريشٍ يومئذ ، فأخبره بظُلم بنى سَهم وبَغيهم وما كان أصاب بنى سهم من إحراق المقاييس منهم ، وهم قَيْس ومَقيس وعبدُ قيس بصاعقة ، ومنه موتُ الركب الذين وردوا من الشام ؛ فإن ركباً منهم وردوا من الشام ، فنزلوا بماء يقال له القطيمة ، فصبُّوا فَضْلة خمرٍ لهم فى إناء وشربوا ثم ناموا ، وبقيت منه بَقِيَّة ، فكرع منها حَيَّة أسودُ ثم تقيَّأ فى الإناء ، وهبَّ القومُ فشربوا منه ، فماتوا عن آخرهم . فأذكره هذا ومثلَه وخوفَه من وقوعه ، فكان حِلفُ الفضول .

فُرات بن حِبّان العِجْلى

أَسَره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى سَرِيّة بعد بدر . وذلك أن قريشاً قالت: « قد عوّر علينا محمّد متاجرنا ، وهو على طريقنا ، وإن أقمنا بمكّة أكلْنا رءوس أموالنا » . فقال ربيعةُ بن الأسود : « أنا أدلكم على رجل يسلك بكم النجديَّة ، لو سلكها مغمضاً لاهتدى » . وأتاهم بفُرات بن حِبَّان ، فخرج بهم فى الشّتاء ، فسلك بهم على ذات عِرق ، ثم خرج إلى غمرة . وأتى الخبرُ إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى العِير مال كثير وآنِيَةٌ من فضّة حملها صفوان بن أمية . فأرسل إليها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم زيدَ بن حارثة ، فاعترضها وظفر بالعير ، وأفلت أعيانُ القوم فكان الخمسُ عشرين ألفاً ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقسم الأربعةَ الأخماسِ على السرية ، وأتى بفُرات بن حِبّان أسيراً ، فقيل له : إن أسلمت لم تُقتل . فلما دعا به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أسلمَ فأرسله . ففى ذلك يقول حسّان ابنُ ثابت لقريش ، حين تركت الطَّرِيق المسلوك ، واستأجرت فُراتَ بن حبّان دليلا :

إذا سلكت حُورانَ من رمل عالج فقولا لها : ليس الطريقُ هنالكِ
دعوا فَلَجات الشام قد حِيل دُونها بضَرْبٍ كأفواه العِشَارِ الأوارك

كتبَ إبراهيمُ بن هِشام إلى هِشام بن عبد الملك : « إن رأى أميرُ المؤمنين ، إذا فرغَ من دَعوة أعمامه بنى عبد مناف ، أنْ يبدأ بدعوة أخواله بنى مخزوم » . فكتب إليه : « إن رَضِى بذلك آلُ الزُّبير فعلت » ، فلما فرغ من إعطاء بَنى عبدِ مناف نادى مُنادِيه بنى مخزوم ، فناداه عُثمانُ بن عُروة :

إذا سلكت حُواران من رمل عالجٍ فقولا لها : ليس الطريقُ هنالكِ

فنادى مُنادِيه بنى أسَد بن عبد العزّى ، ثم مضى على الدعوة .

قال علىٌّ رضى الله عنه ، قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم لفُرات بن حِبّان يوم الخندق ، وكان عيناً للمشركين فأمر بقتله فقال : إنى مُسلِم فقال : إن منكم من نتألّفه على الإسلام ونكِلُه إلى إيمانه ، منهم فُرات بن حِبّان .

فضل الشاعرة

جارية مولَّدة من مولَّدات البصرة، وأمُّها من مولَّدات اليمامة. وُلِدت ونشأت في دار رجل من بني عبد القيس، وباعها بعد ما أدَّبها، فاشتُرِيت وأهديت إلى المتوكِّل، وكانت هي تزعُم أن الذي باعها أخوها، وأن أباها وطئ أمَّها فولدتها منه، وأن بنيه من غير أمها تواطئوا على بيعها ولم تكن تُعْرَف بعد أن أعتِقت إلا بفَضْل العبديَّة. وكانت حَسَنة الوجه والِجسم والقوام، فصيحةً أديبة سريعةَ البديهة، مطبوعة في قول الشعر، لم يكن في نساء زمانها أشعرُ منها، من أحسنِ الناس وَجْها وخَلْقا وخُلُقاً.

وكانت فضلُ لرجل نخَّاسٍ يقال له حُسْنَويْه، فاشتراها محمدُ بن الفرَج أخو عُمَر بن الفرَج الرخَّجيّ، وأهداها للمتوكِّل، فكانت تجلِس للرجال، وتأتيها الشعراء. فألقى عليها أبو دُلَف:

قالوا: عشِقتَ صغيرةً، فأجبتهُم ... أشهى المَطِيِّ إلىَّ ما لم يُركَبِ

كم بينَ حبَّة لؤلؤ مثقوبةٍ ... نُظِمت وحبَّة لؤلؤ لم تُثقَبِ

فأجابته:

إن المطيَّة لا يلَذُّ ركوبُها ... ما لم تُذلَّل بالزمام وتُركَب

والدرُّ ليس بنافعٍ أصحابَه ... إن لم يؤلَّف للنِّظام ويُثقَبِ

لما دخلت فَضل على المتوكِّل يومَ أهديت له قال[1] لها: «أشاعرةٌ أنتِ؟». قالت: «كذلك زَعَم من باعني واشتراني»، فضحك المتوكِّل وقال: «أنشدينا شيئاً من شعرك»، فأنشدته:

---

(١) فقال، المخطوطتان.

استقبلَ الأمرَ[1] إمامُ الهدى   عامَ ثلاثٍ وثلاثينا
خِلافةٌ أفضت إلى جعفرٍ   وهو ابنُ سَبْعٍ بعدَ عِشرينا
إنا لنرجو يا إمامَ الهُدى   أن تَملكَ الأمر ثمانينا
لا قَدَّس الله امرأً لم يقل   عنـــد دُعائى لك : آمينا

فاستحسَن الأبيات ، وأمر لها بخمسين ألف درهم ، وأمر عَرِيباً فغنَّت بالأبيات.

ومن شعر فضل :

الصبرُ ينقص والغَرامُ يزيد   والدار دانيةٌ وأنت بعيـــدُ
أشكُوك ، بل أشكو إليك ، فإنَّه   لا يستطيعُ سِـــواها المجهود
إنى أعوذُ بحُرمَتى بك فى الهوى   من أن يُطاوَع فى هواى حسود

وكتبَ إليها بعضُ من كان يجمعُه وإياها مجلس الخليفة ، يطلعها على حبِّه لها :

ألا ليتَ شِعرى فضلُ هل تذكُرينَنى   فذكراكِ فى الدنيـا إلىَّ حَبيبُ
وهل لى نصيبٌ فى فؤادك ثابتٌ   كما لكِ عندى فى الفؤاد نصيب
فلست بموصولٍ فأحيـا بزَوْرَةٍ   ولا النفسُ عند اليأسِ منك تطيب

فكتبت إليه :

لَعمرُ إلٰهى إنَّنى بكَ صبَّة   فهل أنتَ يا من لا عُدِمت نصيب[2]
لِمَن أنت منه فى الفؤاد مصوَّر   وفى العينِ نصبُ العين حين تَغيب
فثِقْ بِوداد أنت مُظهِر مثـله   على أنَّ بى سُقما وأنتَ طبيب

قالت بنانُ الشاعرة : اتَّــكأ المأمونُ على يدى وعلى يد فَضل الشاعرة ، وجعل يمشى بيننا ، فقال فى بعض حَديثه : « أجيزا قولَ الشاعر :

تعلَّمتُ أسبابَ الرضى خوفَ سُخطها   وعلَّمها حبِّى لها كيف تغضَب »

(١) الملك ، الأغانى .
(٢) مثيب ، الأغانى .

فقالت فَضل :

تصـــدُّ وأدنو بالمودَّة جاهداً … وتبعُد عنِّى بالوصال وأقرب

فقلت أنا :

وعندى لها العُتْبَى على كلِّ حالة … فما منه لى بدٌّ ولا عنه مذهب

ألقى بعض أهل الأدب على فَضل يوماً :

ومُسْتَفتِحٍ بابَ البلاء بنظرةٍ … تزوَّد مِنها قلبُه حَسْرة الدَّهر

فقالت مجيبةً له ، وأحسنت :

فوالله ما يدرى : أتدرى بما جَنَت … على قلبه ، أم أهلكَتْه وما تدرى

قال علىّ بن الجهم : كنتُ يوماً عند فضل ، فلَحَظتُها لَحظةً استرابت منها ، فقالت مُسرعةً ولم تتوقف :

يا ربَّ رامٍ حسنٍ تعرّضه … يرْمِى ولا يشعُر أنى غرضُه

فقلت مجيباً :

أىُّ فتًى لحظُك ليس يُمرِضُه … وأىُّ عَقْد محكَم لا ينقضُه

فضحكت وقالت : « فى غير هذا الحديث حَدِّثنا » .

قال إبراهيمُ بن المدبّر : كانت فضل أحسنَ خَلْق الله خطًّا ولفظاً ، وأبلغَه فى مخاطبة ، وأفصحَه فى محاوَرة . فقلتُ يوماً لسعِيد بن حُمَيد الكاتب : « أظنُّك يا أبا عثمان تكتب لفَضْل رِقاعَها وتفيدُها وتُخرِّجها ، فقد أخذَت نحوَك فى الكلام، وسلكت سَبيلك » ، فقال لى وهو يضحك : « ليتَها تسلم منى لا آخذ منها كلامها ورسائلها ![1] والله يا ابن أخى لو أخذ أفاضِلُ الكتَّاب وأماثلُهم عنها لما استَغْنَوْا عن ذلك » .

---

(١) كذا فى المخطوطتين ، وفى الأغانى (ترجمة سعيد بن حميد) : لأخذ كلامها ورسائلها .

خرجت قبيحةُ إلى المتوكِّل فى يوم نوروز ، ومعها عُودٌ وفى يدها كأس بِلَّور فيه شراب فقال لها : « ما هذا ؟ فديتك ؟ » قالت : « هذا هَديَّتى فى هذا اليوم ، عرَّفك الله بركته » ، فأخذَه من يدِها وإذا على خدها مكتوبٌ « جعفر » فشرِب الكأسَ ، وقبّل خدها . وكانت فضلُ واقفةً على رأسه فقالت :

وكاتبةٍ فى الخدِّ بالمسك جعفرا ... بنفسى سوادُ المِسك مِنْ حيثُ أثّرا
لئن أثَّرت بالمِسك سَطراً بخدِّها ... لقد أودَعت قلبى من الحبِّ أسطُرا
فيا مَن مُناها فى السَّريرة جَعْفَر ... سَقَى الله من سُقْياَ ثناياكِ جَعفرا

فاستحسنه ، وأمر عَريباً فغنت فيه .

قال المتوكِّل يوماً لعلىِّ بن الجهم: «قل بيتاً ، وطالبْ فضل الشاعرة أن تجيزه».

فقال علىٌّ : أجيزى يا فضل :

لاذَ بهـا يشتـكِى إليها ... فلم يجدْ عنـدَها مَلاذا

فأجابته :

ولم يزل ضارعاً إليهـا ... تَهطِل أجفـانُه رَذاذا
فعـــاتبوه فزاد عِشقاً ... فمات وجدا ، فـكان ماذا

فطرب المتوكل وقال : « أحسنتِ وحياتى يا فضل » ، وأمر لها بألفى دينار[1] ، وأمر عَرِيباً فغنَّت الأبيات .

---

(١) بمائتى دينار ، الأغانى .

حروب الفجار

هذه الحروب كانت بين قُريش وبين قَيْس عَيْلان فى أربعة أعوام مُتوَاليات ، ولم يكن لقريشٍ فى أوَّلها مدخل .

فأمَّا الفِجار الأوَّل فكانت الحربُ فيه ثلاثة أيام ، ولم يُسمَّ باسمٍ لشهرته .

وأما الفِجارُ الثانى فكان أعظمها ، لأنهم استحلُّوا فيه الحَرَم ، وكانت أيّامه يومَ نَخلة ، وهو الذى لم يشهده رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم منها وشَهِد سائرَها . وكانت الرؤساء فيه حربَ بن أميَّة فى القَلْب ، وعبدَ الله بن جُدعان وهِشامَ بن المغيرة فى المُجَنِّبَتَين[1] ثم يومَ سَمطة ، ثم يومَ عكاظ ، ثم يوم الحرَّة[2] .

وكان أوّلُ الفِجار أن بدرَ بن مَعْشر الغِفارى ، أحدَ بنى غِفار بن مالك بن ضَمْرة ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، كان رجلاً مَنِيعا مُسْتطيلا بمَنَعة ، ورد عُكاظ[3] فاتَّخذ مجلساً بسوق عكاظ وقعد فيه ، وجعل يتبجَّح على الناس ويقول :

نحن بنو مُدرِكَةَ بنِ خِندف ... من يطعنوا فى عَينه لا تطرف
ومن يكونوا قومَــه تغطرف ... كأنهم لجّة بحرٍ مُسدف

وبدرُ بن مَعْشر باسطٌ رجله يقول : « أنا أعزُّ العرب ، فمن زعم أنَّه أعزُّ منى فليضرِبها بالسّيف فهو أعزُّ منى » فوثب رجلٌ من بنى نَصرِ بن مُعاوية يقال له الأحمرُ بن مازِن بن أوْس بن النَّابغة ، فضربه بالسيف على ركبته فأندرها وقال : « خذها إليكَ أيها المخندِف » وهو ماسكٌ سيفَه . وقام أيضا رجلٌ من هوازن فقال:

---

(١) الجيش ، المخطوطتان .

(٢) الجزيرة الحبرة ، المخطوطتان .

(٣) بمنعته على من ورد عكاظ ، الأغانى .

أنا أبو دهمان(١) ذو التغطرُف   بحر بحورٍ زاخرٌ لم يـنزف
نحن ضَربنا رُكبَةَ المخندِف   إذ مدَّهــا فى أشهُرِ التعرف

ثم كان اليومُ الثانى من الفِجار الأول ، وكان سببُه أن شبَّاناً من قريش وبنى كِنانة ، كانوا ذوى غُرامٍ وشَرّ ، رأوا امرأةً جميلة من بنى عامر ، وهى فى سوق عُـكاظ فى دِرع ، وهى فُضُل عليها برقع لها ، وقد اكْتَنَفَها شبابٌ من العرَب وهى تحدِّثهم . فجاء الشبابُ من كِنانة وقريش فأطافوا بها وسألوها أن تُسفِر ، فأبت ؛ فقام أحدُهم فجلس خلفَها وحل طَرْفَ دِرعها وشدَّه إلى فوقِ حُجْزَتِها(٢) بشَوكة ، فلما قامت انـكشَفَ دِرعها عن عَجُزها ودُبُرها ، فضحكوا وقالوا : مَنَعَتْنا النظرَ إلى وَجْهِها وجادت لنا بالنَّظر إلى دُبُرها ، فنادت : يا آل عامر ! فثارُوا وحمَلوا السِّلاح ، وحملتْه كِنانة واقْتَتَلوا قِتالًا شديداً ، ووقعَتْ بينهم دِماء ، فتوسَّط حربُ بن أميَّة واحتمل دماءَ القوم ، وأرضى بنى عامرٍ عن مُثلة صاحِبَتِهم .

وكان اليومُ الثالثُ من الفِجار الأوَّل ، وسَبَبُه : أنَّه كان لرجلٍ من بنى جُشَم ابن بَـكر بن هَوَازِن دَينٌ على رجل من كِنانة ، فلواه به ، وطال اقتِضاؤه له ، فلم يعطه شيئاً فلما أعياه وافاه الجُشَمىُّ فى سوق عُـكاظ بِقرْد ، ثم جعل يُنادى : « من يبيعُنى مثل هذا الرُّبَّاح بمالٍ على فلان الـكِنانى » رافعاً صَوْتَه ؛ فلما طال نداؤه بذلك ، وتَعْيِيرِه كنانةَ ، مرَّ به رجلٌ منهم ، فضرب القِرْدَ بسَيْفه فقتله ، فهتَف الجُشَمى: يا آل هوازن ! وهتَف الـكنانىُّ: يا آل كنانة ! فاجتمع الحيَّان واقتتلوا حتى تحاجَزوا ولم يكن بينهم قَتْلَى ، وكفُّوا وقالوا : « فى رُبَّاح تُريقون دِماءكم وتَقْتُلون أنفسكم؟! » وحمل ابنُ جُدعان ذلك مِن ماله بينَ الفريقين .

ثم كان الفِجارُ الثانى . وأوَّلُ أيام حروبه يومُ نخلة ، وبينه وبين مَبْعَث النبىِّ

---

(١) همدان ، الأغانى .

(٢) عجزها ، المخطوطتان .

صلّى الله عليه وسلم ستٌّ وعشرون سنة . وكان الذى هاج حربَها أن البرّاض بن قيْس ابن رافع ، أحَد بنى ضَمْرة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة ، كان سكّيراً فاسقاً خلعه قومُه وتبرّأوا منه ، فشرب فى بنى الدِّيل فخلعوه ، فأتى مكّة ، فأتى قريشاً ، فنزل على حَربِ بن أميَّة فحالفه ، فأحسن حربٌ جِواره ، وشرب بمكّة حتى همّ حربٌ بخلعه ، فقال لحرب : « إنّه لم يبق أحدٌ من قومى الّا خلعنى سِواك ، وإنَّك إن خَلَعْتنى لم ينتَصِر لى[1] أحد بعدَك ، فدَعْنى على حِلفك ، وأنا خارجٌ عنك » ، فتركه فخرج فلَحِق بالنُّعمان بن المنذِر بالحيرة . وكان النُّعمانُ يبعثُ إلى سوق عُكاظ فى وقتها بلَطيمة يُجيزها له سيِّد مُضَر ، فتُباع ويُشتَرى له بثمنها الأَدَم والحرير والوكاء والحِذاء والبرود من العَصْب والوَشْى والمسَيَّر العَدَنىّ . وكانت سوقُ عُكاظ فى أوّل ذى القَعْدة ، فلا تزال قائمةً يُباع فيها ويُشتَرى إلى حضور الحج ، وكان قيامها فيما بين نَخْلة والطائف ، عشرة أميال ، وبها نَخْلٌ وأموال لثقيف . فجهّز النُّعمان لَطيمتَه وقال : « من يجيزُها ؟ » قال البَرّاض : « أنا أجيزها على بنى كنانة » فقال له النعمان : « أنا أريد رجلا يجيزُها على أهل نجد » ، فقال عُروة الرحَّال بن عُتبة بن جعفر بن كلاب ، وهو يومَئذ رجلٌ من هوازن : « أنا أجيزها ، أبيتَ اللعن » . فقال له البَرّاض : « وعلى بنى كنانةَ تجيزُها يا عُروة ؟ » قال : « نَعم ، وعلى النّاس كلهم . أو كلبٌ خليع يُجيزُها ؟ » . ثم شخص عروةُ بها وشَخَص البرّاض ، وعروةُ يرى مكانَه ولا يخافُه على ما صنع ، حتّى إذا كان بين ظهرى غَطفان إلى جنب فَدَك ، بأرض يُقال لها : أُوَارة ، قريب من الوادى الذى يقال له تيمن ، نام عُروة فى ظلّ شجرة ، ووجد البرّاض غَفلته فقتله ، وهرب فى عَضاريط الركّاب فاستاقها ، وقال البرّاض فى ذلك :

وداهيةٍ يُهالُ الناسُ مِنها ... شَدَدْتُ لها بنى بكر ضُلوعى

---

(١) لم ينظر إلى ، الأغانى .

هتكتُ بها بيوتَ بنى كِلابٍ   وأوْضَعتُ المواليَ بالضُروع
جمعتُ له يدىَّ بنَصل سيفٍ   أفــــلَّ فخرَّ كالجِذع الصَّريع

وكانت أمُّ عروةَ الرحَّال نفيرة بنتُ أبى ربيعةَ بن نَهْشل بن هِلال بن عامر ابن صعصعة ، وقال لبيد يحرِّض على الطَّلب بدم عُروة :

أبلــغْ إن عَرَضتَ بنى نُمَير   وأخوالَ القتيــل بنى هلال
بأن الواخد الرحَّال أضحى   مقيما عنــد تيمن ذى الظلال

ثم إن البرَّاض لقى بشرَ بن أبى خازم فقال له : « هذه القلائصُ لك، على أن تأتىَ حربَ بن أميَّة وعبدَ الله بن جُدعان وهشاماً والوليدَ بن المغيرة تُخَبِّرهم بأن البرَّاض قتل عروةَ الرحَّال ، فإنِّى أخاف إن يسبقْ الخبرُ إلى قَيْس أن يكتموه حتى يقتلوا به من قومك رجلًا عظيما » فقال له : « ومن يؤمِنُك أن تـكون أنت ذلك القتيل ؟ » قال : « فإنَّ هوازن لا ترضى أن تَقْتُل بسيِّدها رجلًا خليعاً طريداً من بنى ضُمرة » ، ثم مرَّ بهما الُحلَيس بن يزيد ، أحدُ بنى الحارث بن عبد مناة ، وهو يومَئذٍ سيِّدُ الأحابيش من بنى كنانة ، والأحابيشُ بنو الحارث بنِ عبد مناة وبنو نفاثة بن الدِّيل وبنو لَحْيان من خُزاعة والقارة ، فقال لهم الُحليس: « مالى أراكم هنا » فأخبره الخبر، ثم ارتحلوا وكتموا الخبر ، وكانت العربُ إذا قَدِمت عُـكاظاً دفعت أسلحتها إلى ابن جُدعان ، حـتَّى إذا فرغوا من أسواقهم وحَجِّهم ردَّ عليهم سلاحهم إذا ظعنوا ، وكان سيِّدًا حليماً مُثريا من المال . فجاءه القومُ وأخبروه خبر البرَّاض وقتل عروة الرحَّال ، وأخبروا حربَ بن أميَّة وهشاماً والوليدَ ، فجاء حربٌ إلى عبد الله بن جُدعان فقال له : احبِسْ قِبَلَكَ سِلاحَ هوازن . فقال له ابن جدعان : « أبالغدرِ تأمرنى يا حرب ؟ فوالله لو أعلم أنه لا يبقى منها سيفٌ إلا ضُرِبتُ به ولا رمحٌ إلا طُعِنتُ به ما أمسكتُ منها شيئا ؛ ولـكن لـكم مائةُ سيفٍ ومائةُ درعٍ ومائةُ رمحٍ من مالى تستَعينُون بها » ثم صاح ابنُ جُدعان فى الناس : « من كان له قِبَلى سِلاحٌ فليأتِ

ليأخذَه » فأخذ النـاسُ أسلحَتَهم ، وبعث ابن جُدعان وحربٌ وهشامٌ والوليدُ إلى أبى بَراء أنَّه قد كانت بعد خروجنا حرب ، وقد خِفنا تعاظُمَ الأمر ، فلا تنـكروا خروجَنا . وساروا راجِعين إلى مكّة . فلما كان آخرُ النهار بلغ أبا البَراء قتلُ البرّاض عروةَ فقال : « خدعنى حربٌ وابن جُدعان » وركب فيمن حضر عُـكاظًا من هوازن فى أَثَر القوم ، فأدركهم بنخلة ، فاقتتلوا حتّى دخلت قريشٌ الحرم وجنَّ عليهم الليل ، فـكفّوا . ونادى الأدرمُ بن شُعيب أحدُ بنى ربيعة بنِ عامر ابن صعصعة : « يامعشر قُريش، ميعادُ ما بيننَا هذه الليالى من العام المقبِل بعكاظ » ، وكان رؤساءُ قريش حربَ بن أميَّة وعبدَ الله بن جُدعان وهشامَ بن المغيرة . وكان رؤساءُ قيس يومئذ عامرَ بن مالك ملاعبَ الأسنَّة على بنى عامر ، وبراءَ بن عُمَير على فَهم وعُدوان ، ومسعودَ بن وهب على ثقيف ، وسُبَيْـع بن ربيعة النَّصرى على بنى نصر بن معاوية ، والصِّمَّةَ بن الحارث وهو أبو دُرَيد على جُشَم ، وكانت الرايةُ مع حربِ بن أميَّة ، وهى راية قصىّ التى يقال لها العُقاب . وقال فى ذلك خِداش بن زُهير :

يا شدَّةً ما شدَدْنا غـيرَ كاذبةٍ على سَخِينةَ لولاالليلُ والحَرَمُ
إذ يتقَّينا هشامٌ بالوليد ولولا أنا ثَقِفْنا هِشاماً سالت الخدم
بين الأراك وبين المرج تبطحهُم زُرق الأسنَّة فى أطرافها شَمم
فإن سمعتُم بجيشٍ سالكٍ شرفاً أوبطنَ مرٍّ فأخْفُواالجرسَ واكتتموا

ثم قدم البرّاض ملتزما للَّطيمة فـكان يأكلها . وكان عامرُ بن يزيدَ بن الملوَّح الـكنانىُّ نازلًا فى أخوالِه بنى نُمَير بن عامر ، وكان ناكحًا فيهم فهمَّ بنو كلاب بقتله، فمنعه بنو نُمَير ، ثم شَخَصوا به حتى نزل فى قومه .

فلما كان اليومُ الثانى من الفِجار الثانى ، وهو يومُ سِمطة ، تجمَّعت كنانةُ وقريشُ بأسرها وبنو عبدمناف والأحابيش ، فأعطت قريش رؤساءَ القبائل أسلحةً تامَّة

وأعطى عبدُ الله بن جُدعان خاصَّة من ماله مائة رجل من كنانة أسلحة تامَّة وأداة ، وجمعت هوازنُ وخرجت ، ولم تخرج معهم كلابٌ ولا كعب ، ولا شهد هذان البطنان من أيَّام الفِجار إلا يومَ نخلة مع أبي براء . وكان القومُ جميعاً متساندِين ، على كلِّ قبيلةٍ سيدُهم ، وكان على بنى هاشم وبنى المطلب الزُّبَيْرُ بن عبد المطلب ، ومعهم النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم . فسبقَت هوازنُ قريشاً فنزلت سمطة من عُكاظ ، وظنُّوا أن كِنانة لن توافيهم ، وأقبلت قريشٌ فنزلت من دون السهل[1] ، وجعل حربٌ بنى كنانة فى بطن الوادى ، وقال لهم : « لا تبرحوا مكانكم ولو أبيحت قريش » وكانت قريش من وراء الجبل ، وكان عبدُ الله بن جُدعان وهشامُ بن المغيرة فى المجنبتين وحربٌ فى القلب ، وكانت الدائرةُ فى أوّل النهار لكِنانة ، فلما كان آخر النهار تداعت هَوازن وصَبَروا واستحرَّ القَتل فى قريش ، فلما رأى ذلك بنو الحارث من كِنانة ، وهم فى بَطن الوادى مالوا إلى قُريش وتركوا مكانَهم فلما استحرَّ القتل بهم قال أبو مُساحق بلعاء بنُ قيس لقومه بنى بكر : « الحقوا برخم » ، وهو جبل ففعلوا ، وانهزم النـاسُ ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيرُ فى فئةٍ إلَّا انهزم من يحاذيها ، فقال حربُ بن أميَّة وعبدُالله بن جُدعان : « ألا ترَوْنَ إلى هذا الغلام ، ما يحملُ على فئةٍ إلا انهزمت » .

ثمَّ كان اليومُ الثالث من الفِجار وهو يومُ العَبْلاء ، وكانت الهزيمة على كنانة .

ثم كان اليومُ الرابع من الفِجار ، يومُ عكاظ ، فالتقوا فى هذا الموضع على رَأس الحَوْل ، وقد اجتمع بعضُهم لبعض ، وحمل يومَئذ عبدُ الله بن جُدعان ألفَ رجل من بنى كنانة على ألف بعير ، وخشِيت قريشٌ أن يجرى عليها مثلُ ما جرى فى يوم العَبْلاء ، فقيَّد حربٌ وسفيانُ وأبو سفيان بنو أميَّة بن عبد شمس أنفسَهم ، وقالوا : لا نبرحُ حتَّى نموت مكاننا ، وكان على أبى سفيانَ يومئذٍ درعان قد ظاهر بينَهما ،

(١) السيل ، الأغانى .

وقيل: إن أبا سفيان وحدَه قيَّد نفسه ، فسمَّوا هؤلاء الثلاثةَ العنابس ، وهي الأُسْد، واحدها عَنْبَسَة ، واقتَتَل الناسُ يومَئذٍ قتالا شديداً ، وثبت الفريقان ، حتى همَّت بنو بكر بن عبد مناة وسائر بطون كنانة بالهرب ، وكانت بنو مخزوم تلى بنى كنانة، فحافظت حِفاظاً شديداً ، وكان أشدَّهم يومئذٍ بنى المغيرة ، فإنهم صبَروا وأبلوا بلاء حسناً ، فلما رأت ذلك بنو عبد مناة تذامروا ، فرجَعوا واقتتلوا قتالا شديدا ، وحمل بلعاء بن قَيس يومئذ وهو يقول :

إن عكاظا ماؤنا نخلّوه　　　وذا المجاز بعد أن نحلّوه

وحملت قريشٌ وكنانة على قيْس من كل جانب ، فانهزمت قيس كلها ، وكان مسعود بن معتِّب الثقفى قد ضرَب على امرأته سُبَيعة بنتِ عبد شمس بن عبد مناف خِباءً وقال : « من دخله من قريش فهو آمن » فجعلت توسّع فى خِبائها ليتَّسع ، فقال لها : « لا تتجاوزى خِباءكِ ، فإنى لا أُمضى لكِ إلا ما أحاط به الخباء » ، فأحفظها ذلك وقالت : « أما والله إنى لأظنُّنك أن ستَودُّ أنى لو زدت فى توسيعه » . فلما انهزمت قيس دخلوا خِباءها ، مستجيرين بها ، فأجارَ لها حربُ بن أميَّة جيرانَها ، وقال لها : «ياعمّة ، من تمسَّك بأطناب بيتِك أو دار حولَه فهو آمن » فنادت بذلك ، فاستدارت قيسٌ بخبائها حتى كثُروا جدا ، ولم يبقَ أحدٌ أراد نجاةً إلا دار بخبائها ، فقيل لذلك الموضع : « مَدَار قَيس » وكان يضرب به المثل ، فتغضَّبت قيس منه ، وقال ضِرار بن الخطَّاب الفِهرى فى ذلك :

ألم تسألِ النَّاس عن شأننا　　　ولا يثبتُ الأمر كالخابر
غداةَ عُكاظَ إذ استكملت　　　هوازنُ فى كفِّها الحاضر
وجاءت سُلَيمٌ تهزُّ القنا　　　على كل سَلْهَبةٍ ضامر
وجئنا إليهم على المضمَرات　　　بأرْعَنَ ذى لجب زاخر
فلما التقينا أذقناهم　　　طعانًا بسُمر القنا العاثر

ففرّت سُلَيم ولم يصبروا وطارت شَعاعًا بنو عــامر
وفرت ثقيفٌ إلى لاتِها بمنقلَب الخائبِ الخــاسِر

ثم كان اليوم الخامس وهو يوم الُحرَيْرة ، التقوا على رأس الحول بالحريرة ، وهى حرّةٌ إلى جنب عكاظ ، ورؤساؤهم على حالهم ، إلا بلعاء بن قيس فإنه مات ، وصار أخوه مكانَه على عشيرته ، فاقتتلوا ، فانهزمت كِنانة وقُتل يومئذ سفيانُ بن أميَّة ، وثمانيةُ رهطٍ من بنى كنانة ، قتلهم عثمان بن راشد[1] من بنى عَمْرو بن عامر ، وقتل ورقاء بن الحارث ، أحدُ بنى عمٍّ ابن عامر من بنى كنانة ، خمسةَ نفر ، وقال خِداشُ بن زُهَير فى ذلك :

لقــد بلَوكُم فأبلوكم بــلاءهم يومَ الُحرَيرة ضرباً غـير مكذوب
إن تُوعدونى فإنى لابنُ عمِّكمُ وقد أصابوكمُ منــه بشؤبوب
وإن عثمان قــد أردى ثمانية منكم وأنتم على خُـبر وتجريب
وإن ورقاء قد أردى أبا كنف وابنَىْ إياس وعَمْراً وابن أيوب

ثم تداعَوا إلى الصلح على أن يَدى من عليه فضل فى القتل الفضل إلى أهله .

وكان ممن قتل فى حرب الفِجار من قريش العوّام بن خُويلد ، قتله مرّة ابن مُعَتب ، وقتل حزام بن خُويلد ، وأُحَيحَة بن الُجلاح ، ومَعْمَر بن حبيب الجمحى ، وجُرح حربُ بن أميَّة ، وقتــل من قيس الصِّمَّة أبو دُريد ، قتله حفص[2] بن الأحنف . ثم رَضُوا بأن يعدّوا القتــلى فيبدوا من فَضَل ، وكان الفضلُ لقيس على قريش وكنانة ، فاجتمعت القبائل على الصُلح ، وتعاقدوا الا يَعرِض بعضهم لبعض ، فرهن حربُ بن أميَّة ابنَه أبا سفيان ، ورهن الحارث بن دارةَ ابنه النضر ،

---

(١) أسد : الأغانى .

(٢) جعفر ، الأغانى .

وغيرهم حتى وديت[1] الفضول ، ويقال : إن عتبة بن ربيعةَ تقدَّم يومئذ فقال : « يامعشرَ قريش ، هلمّوا إلى صِلة الأرحام والصلح » قالوا : « وما صلحُكم ؟هؤلاء أصحابنا موتوَرون » فقال : « نَدِى قتلاكم ونتصدَّق عليكم بقتلانا » فرضُوا بذلك ، فسادَ قومَه يومئذ إلى أن قُتِل . فلما رأت هوازن رهائنَ قريشٍ فى أيديهم رَغِبوا فى العفو فأطلقوهم .

ولم يشهد الفِجارَ من بنى هاشم إلا الزُّبير بن عبد المطلب ، وشهد النبيُّ صلى الله عليه وسلم سائرَ الأيام إلا يومَ نخلة ، وكان يناول عمَّه وأهله النبل ، وهو ابن ثمانية وعشرين سنة وقيل : أربع عشرة سنة ، وسئل النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن مَشهده يومئذ فقال : « ما يسرنى أن لم أشهدْه ، لأنَّهم تعدَّوا على قومى . عرضوا عليهم أن يدفعوا إليهم البرَّاض صاحبهم فأبوا ذلك » ، ولما انهزمت قيسُ خرج مسعود بن معتِّب لا يعرِّج على أحد حتى أتى سُبَيعة بنتُ عبد شمس زوجتَه ، فجعل أنفَه بين ثديَيْها وقال : « أنا بالله وبك » . فقالت : « كلا ! زَعَمت أنك تملأ بيتى من أسرى قومى . إجلس فأنت آمن » ، وقالت أُمَيمة بنتَ عبد شمس ترثى ابنَ أخيها أبا سفيان ابن أميَّة ، ومن قُتِل من قومها . وأمها هجر بنت عُبَيْد بن دواس بن كلاب ، وكانت عند حارثة بن الأرقم بن هلال بن فالج بن ذكوان السلمى . وولدت له أمَيْمة بنت حارثة .

أبى ليلُك أن يذهب ... ونِيطَ الطرفُ بالكوكب
ونجمٌ دونه النسرات[2] ... بين الدَّلو والعقرب
وهذا الصبحُ لا يأتى ... ولا يدنُو ولا يقرب
لفقد عشيرةٍ منّا ... كرامِ الخِيم والمذهب

---

(١) أديث ، المخطوطتان .
(٢) الأهوال ، الأغانى .

أمال عليهم دهرٌ حديدُ النـاب والمِخلب
فحلّ بهم وقــد أمِنوا فلم يقصُر ولم يشطب
وما عنـــه إذا ما مال لا منجَى ولا مَهرب
ألا ياعينُ فابكيهم بدمعٍ منــك مستغرب
فإن أبكى فهمْ عِزّى وهمْ رُكني وهم منكِب
وهم أصْـــلى وهم فَرعى وهم نَسَبى إذا أُنسب
وهم مَجدى وهم شرَفى وهمْ حِصْنى إذا أَرهب
وهم رُمْحى وهم تُرسى وهم سَيْفى إذا أَغضب
وكم مِن قائلٍ منهم إذا ما قال لم يكذب
وكم من ناطــقٍ منهم خطيبٍ مِصقَع مُعرِب
وكم من فـارسٍ منهم كمىٍّ مُعْــلَمٍ مِحرب
وكم من مِـدْرَهٍ منهم أديبٍ حــوَّلٍ قلّب
وكم من جَحْفل فيهم عظيمِ النـار والموكب
وكم من حضرم فيهم نجيب ماجـــد منجب

حرف القاف

قيس المجنون

هو قيْسُ بن الملوّح بن مُزاحِم بن قيس بن عدىّ بن ربيعة بن جَعدة بن كعب ابن رَبيعة بن عامِر بن صَعْصعة . وقيل : إنّ اسمه مهدىّ ، والصحيح أنّه قيس ، لقول ليلى صاحبته فيه :

ألا ليت شعرى والخطوبُ كثيرةٌ مـتَى رحلُ قيسٍ مستقلٌّ فراجـــع

وقال الأصمعى : لم يكن مجنوناً ولـكن كانت به لوثة كلَوثةِ أبى حية النميرى .

قال أيوب بن عُبَاية : سألتُ بنى عامر بطناً بطناً عن مجنون بن عامر فما وجدتُ أحدا يعرفه، قال ابن راب : قلتُ لرجلٍ من بنىعامر : « أتعرفُ المجنون، وتروى من شعره شيئاً؟» فقال : «أو قد فرَغْنَا من شِعر العقلاء حـتّى نروِىَ أشعار المجانين. إنهم لكثير » فقلت : « ليس هؤلاء أعنى ، إنما أعنى مجنونَ بنى عامر الشاعرَ الذى قتله العشق»(١). فقال: «هيهات! بنوعامر أغلظأ كباداً من ذلك، إنمايكون هذا فىاليمانيَة الضِّعافِ قلوبُها ، السخيفةِ عقولُها ، الصَّعلةِ رءوسُها ، فأما نزارٌ فلا». قال المدائـنِىّ : المجنـــون المشهورُ بالشِّعر بين الناس ، صاحب ليلى ، قيسُ بن مُعاذ ، من بنى عامر، ثم من بنى عُقَيل ، أحدِ بنى نُمير بن عامر بن عُقَيل . ومنهم رجل يقال له : مهدىٌّ ابن الملوّح من بنى جَعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

قال ابن الـكلبىّ : حديثُ المجنون وشعرُه وضعه فـتًى من بنى أميّة كان يهوى

---

(١) الصعلة ، الأغانى : الصعبة ، جميع النسخ .

ابنةَ عمٍّ له يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون ، وقال الأشعارَ التى يَرويها الناس للمجنون ونسبها إليه .

قال أبو عمرو الشيبانى : حدَّثنى رجل من أهل اليمن أنه رآه وسأله عن اسمه ونسبه ، فذكر أنه قيس بن الملوّح وحدَّث أن أباه مات قبل اختلاطه ، فعقَر على قبره ناقتَه ، وقال فى ذلك يرثيه :

عقرتُ على قبر الملوّح نـاقتى ... بذى السَّرح لما أن جفَتْه أقاربه[1]
وقلت لها : كونى عَقِيراً فإنَّـنى ... غداً راجلٌ أمشى وبالأمس راكبه[2]
فلا يُبْعِدَنْكَ الله يا ابن مُزاحِم ... فـكلٌّ بكأس الموت لا بدَّ شاربُه[3]
فقد كنت طلّاع النِّجاد ومعطىَ الـ ... جياد وسيفاً لا تُفَلُّ مضاربه[4]

وليلى صاحبةُ المجنون هى لَيْلى بنتُ سَعد بن مَهْدِىّ بن ربيعـــة بن الَحريش ابن كعب بن ربيعة بن عامِر بن صَعْصعة ، وكانت من أجمل الناس ، وأظرف النساء ، وأحسنِهن جسما وعقلا ، وأفضلِهن أدبا ، وأملحِهن شـكلا ، ومن شعره فيها :

أخذن محاسنٍ كلَّ ما ... ضنَّت محاسِنُه بحُسنه
كاد الغزالُ يكونها ... لولا الشَّوَى ونشوزُ قَرنه

قال الأصمعى : سألتُ أعرابيًّا من بنى عامر بن صعصعة عن المجنون العامرىّ ، فقال : « عن أيِّهم تسأل ؟ فقد كان فيهم جماعةٌ رُموا بالجنون فمن أيِّهم تسأل » ؟ . فقلت : « عن الذى كان يشبِّبُ بليلى » . فقال : « كلهم كان يشبِّب بليلى » . قلت : « فأنشدنى لبعضهم » . * فأنشدنى لمزاحم بن الحادث المجنون :

(١) الأقاربه ، الأغانى .
(٢) راكب ، الأغانى .

* بدء سقط فى نسخة كبريلى *

(٣) شارب ، الأغانى .
(٤) هذا البيت ليس فى نص الأغانى .

ألا أيُّها القلب الذى لجَّ هائما وليداً بلَيْلَى لم تقطَّع تمائمُه
أفق ، قد أفاق العاشقون وقد أتَى لك اليومَ أن تلقى طبيباً تلائمه
أجِدَّك لا تُنسيكَ ليلى ملمَّة تلمُّ ولا عهداً يطول تقادمه

قلت : « أنشدنى لغيره منهم » ، فأنشدنى لمُعاذ بن كُلَيب المجنون :

ألا طال ما لاعبتُ ليلى وقادنى إلى اللَّهو قلبٌ للحِسان تَبُوع
وطال امتراء الشوقِ عينىَ كلَّما نَزَفْتُ دموعا تَسْتَجِدُّ دموع
وقد طال إمساكى على الكَبِد التى بها من هوَى ليلى الغداةَ صُدوع

قلت : « فأنشدنى لغير هذين منهم » ، فأنشدنى لمهدىٍّ بن الملوح :

لوَ انَّ لك الدُّنيا وما عُدِلت به سواها ولَيْلَى بائن عنك بَينُها
لكنت إلى ليلى فقيراً ، وإنما يقود إليها ودَّ نفسِك حَينُها

فقلت له : « فأنشدنى لمن بقى من هؤلاء » ، فقال : « حسبك ! فوالله إن فى واحدٍ من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم » .

قال ابنُ الأعرابى : كان مُعاذ بن كُلَيب مجنونا ، وكان يحبُّ ليلى ، وشاركه فى حبِّها مزاحمُ بن الحارث العُقَيْلى فقال مزاحم يوما لمعاذ:

كِلانا يا معاذُ يحبُّ ليلى بِفىَّ وفيكَ من لَيلى الترابُ
شَرِكتُك فى هوَى من كان حظِّى وحظُّك من مودَّته العذابُ
لقد خَبَلت فؤادَك ثم ثنَّت بقلبى فهو مخبولٌ مُصابُ

فلما سمع هذه الأبيات التُبِس وخُولط عقله . وقيل : بل سَمِع فى الليل هاتفاً يهتف بهذه الأبيات فكانت سببَ جنونه .

وقال عوَانة : إن المجنون اسم مستعار لا حقيقة له ، وقال الجاحظ : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فى ليلى إلا نسبوه إلى المجنون ، ولا شعراً هذا سبيلُه قيل فى لُبنى

إلا نسبوه إلى قيس بن ذَرِيح ، وقال عَوانة : ثلاثة لم يكونوا قط ولا عرفوا في الوجود : ابنُ أبي العَقِب صاحبُ قصيدة الملاحم ، وابن القِرِّيَّة ، ومجنون بني عامر .

قال اسحاق أنشدتُ أيّوب بن عَبايَة هذين البيتين :

وخَبَّرْتُماني أن تَيْماءَ منزلٌ   لليلى إذا ما الصَّيفُ ألقى المراسيا

فهذي شُهور الصَّيف عنا قد انقضت   فما للنَّوى ترمى بلَيْلَى المراميا

وسألتُه عن قائليهما ، فقال: « جميل » . فقلتُ : « الناسُ يروونهما للمجنون ». فقال : « ومن هو[1] المجنون؟ » ، فأخبرته ، فقال : « ما لهذا حقيقة ولاسمعت به». قلت : « فهل معهما غيرها ؟ » قال : « نعم » ، وأنشدني :

وإنِّي لأخشى أن أموتَ فُجاءَةً   وفي النفس حاجات لليلى[2] كما هيا

وإني لينسيني لقاؤكِ كلَّمـا   لقيتُك يوماً أن أبثَّك ما بيا

وقالوا : به داءٌ عَياءٌ أصابه   وقد علمت نفسي مكانَ دوائيا

وكان المجنون يهوَى ليلى بنتَ مَهديّ بن سَعد بن مَهديّ بن رَبيعة بن الحَرِيش ابن كَعب بن رَبيعة بن عامِر بن صَعْصَعة ، وكنيتُها أمّ مالك ، وهما حينئذٍ صبيَّان ، فعلِق كلٌّ واحـدٍ منهما صاحبَه وهما يرعَيان مواشيَ أهلهما ، فلم يزالَا كذلك حتى كَبِرا فحُجِبت عنه . ويدل على ذلك قوله:

تعلَّقت ليلَى وهي ذاتُ ذؤابةٍ   ولم يبدُ للأتراب من ثديها حَجْمُ

صغيرين نرعَى البَهْمَ يا ليتَ أنَّنا   إلى اليوم لم نَكْبَر ولم تكْبَر البَهم

بينا ابن ليلى[3] يؤذن يوما إذ سمع الأخضرَ الُجدِّي من دار العاص بن وائل

(١) ومن هو ، الأغاني : وما هما و ، المخطوطتان .
(٢) إليك ، الأغاني .
(٣) ابن مليـكة ، المخطوطتان .

يُنشِد هذين البيتين ، فأراد أن يقول : « حيَّ على الصلاة » فقال: « حيَّ على البَهم »، حتى سمعه أهلُ مكّة ، فغدا يعتذر إليهم .

وكان سببُ عشق المجنون ليلى أنَّه أقبل ذات يومٍ على ناقةٍ له كريمة ، وعليه حُلَّتان من حُلَل الملوك ؛ فمرَّ بامرأةٍ من قومه يقال لها : « كريمة » ، وعندها جماعةٌ من النساء يتحدثْنَ وفيهن ليلى ، فأعجبهُنَّ جمالُه وكمالُه ، فدعونَه إلى النزول والحديث، فنزل وجعل يحدثُهُنَّ ، وأمر عبداً له كان معه ، فعقَر لهن ناقتَه ، وظل يحدثهنَّ باقي يومه . فبيناً هو كذلك إذ طلع عليهم فـتًى فى بُردة من بُرُود الأعراب يقال له : « مُنازِل » يسوق مِعزًى له ، فلما رأينه أقبلنَ عليه وتركن المجنون ، فغضِب وخرج من عندهن وأنشأ يقول :

أأعْقِرُ من جرّا كريمة[1] ناقتى ... ووَصْلِىَ مقرونٌ بوَصل مُنـازِل

إذا جاءَ قَعْقَعْنَ الُحلىَّ ولم أكن ... إذا جئتُ أرضَى صوتَ تلك الخلاخل

متى ما انْتَضَلْنا بالسِّهام نَضَلْته[2] ... وإن يَرْمِ رشقاً دونها فهو قاتلى

فقال له الفتى : هلمَّ نتصارع أو نتناضل . فقال له : إن شِئتَ ذلك فقم إلى حيثُ لا تراهنَّ ولا يرَيْنَك ، ثم ما شئتَ فافعل . فلما أصبح لبس حُلَّتَه وركب ناقةً له أخرى ، ومضى متعرِّضا لهنَّ ، فألفى لَيلى جالسةً بفِناء بيتها ، وقد علق حبُّه بقلبِها وهَـوِيته ، وعنـدها جُوَيْريات يتحدثْنَ معها . فوقف وسلَّم ، فدعونه إلى النزول وقلن له : « هل لكَ فى محادثة من لا يشغله عنك مُنازلٌ ولا غيره » . قال : « إى لعمرى ! » فنزل وفعل مثل فعله بالأمس . فأرادت أن تعلم هل لها عنـده مثلما له عندها ، فجعلت تُعْرِضُ عن حديثه ساعةً بعد ساعة ، وتحدِّث غيره . وكان قد عَلِق بقلبه مثلُ حبِّها إياه ، وشغَفَته واستملحها ، فبينا هى تحدِّثه إذ أقبل فـتًى من الحىِّ

---

(١) حر الـكريمة ، المخطوطتان .

(٢) فضلته ، المخطوطتان .

فدعَتْه وسارَّته سِرارًا طويلا ، ثم قالت له : « انصرف » ، ونظرت إلى وجه المجنون قد امتُقِع وتغيَّر لونه وشق عليه فعلها ، فأنشأت تقول :

كِلانا مظهرٌ للنّاس بغضاً … وكلٌّ عند صاحبه مَكينُ
تبلِّغنا العيونُ بما أردنا … وفى القلبَيْنِ ثَمَّ هوى دَفِينُ (١)

فلما سَمِع البيتَين خرَّ مَغْشِيًّا عليه ، ثم أفاق فاقدا عقله بعد أن نضحوا الماء على وجهه ، فكان لا يلبس ثوباً إلا خرقه ، ولا يمشى إلّا عارياً ، ويلعب بالتراب ، ويجمع العظامَ حوله ، وإذا ذُكِرت له ليلى أنشأ يحدِّث عنها عاقلًا لا يخطئُ . وترك الصلاة ، فإذا قيل له : مالَكَ لا تصلِّى ؟ لم يردَّ حرفا ؛ وكان يحبَسُ ويقيَّد فيعضُّ لسانَه وشفتيه فيخلَّى سبيلُه فيهيم .

ولما شُهِر أمرُ المجنون ولَيْلَى ، وتناشَدَ الناس أشعارَه فيها ، خطبها وَبذَل فيها خمسينَ ناقةً حمراء ؛ وخطبها وَرْدُ بنُ محمَّد وبذل لها عشراً من الإبل وأرْعيها ، فقال أهلها : « نحن مخيِّروها بينكما ، فمن اختارت تزوجته » ودخلوا إليها وقالوا : « لئن لم تختارى وَرْدًا لنمثلنَّ بك » ، فقال المجنون :

ألَا ياليلَ إن مُلِّكْتِ فينا … خيارَكِ (٢) فانظرى كيف الخيارُ
ولا تستبْدِلِى منِّى بديلًا … ولا بَرَماً إذا حُبَّ القتارُ
يُهرْوِلِ فى الصغير إذا رآه … وتُعجِزُه الملمَّاتُ الكِبارُ
فمثلُ تأيُّمٍ منه نِكاحٌ … ومثلُ تحوُّلٍ منه افتِقارُ

فاختارت وردًا فتزوجته على كُرهٍ منها .

(١) بعدالبيتين، فى « المخطوطتان » بيت ليس فى أصل الأغانى ، وهو :

وأسرار الملاحظ ليس تخفى … وقد تغرى بذى اللحظ العيون

والإشارة بعد إلى بيتين اثنين . على أن هذا البيت ورد فى الأغانى، فى موضع آخر مع البيت الأول.
(٢) خيارك ، الأغانى .

قال عثمانُ بن عِمارة بن خُرَيم الأسدى[1] : خرجت إلى أرض بنى عامر لألقى المجنون ، فدُلِلْتُ على محلّه ، فلقيتُ أباه شيخاً كبيراً ، وحوله إخوة المجنون مع أبيهم رجالًا فسألتُهم عنه فبكوا ، وقال الشيخ : والله لهو آثرُ عندى من هؤلاء جميعاً ، وإنّه عَشِق امرأةً من قومه ، والله ما كانت تطمعُ فى مِثْله ، فلمّا فشا أمره وأمرها كره أبوها أن يزوِّجها إيّاه من بعد ما ظهر من أمرهما ، فتزوَّجها غيره . وكان أوَّلَ ما كلِف بها يجلس إليها فى نَفَرٍ من قومها ، فيتحدَّثان كما يتحدَّث الفِتيان إلى الفتيات ، وكان أجملَهم وأظرفَهم وأرواهم لأشعار العرب ، فيُفيضون فى الحديث إفاضةً فيكون أحسنهم إفاضة ، فتعرضُ عنه وتقبلُ على غيره ، وقد وقع له فى قلبها مثلُ ما وقع لها فى قَلبه ، فأقبلت عليه يوما وأنشدته :

كلانا مُظهِرٌ للناس بغضاً وكلٌّ عند صاحِبه مكين

الأبيات . فخر مغشيًّا عليه واختُلِط عقله .

كان مروان بن الحكم قد ولى عمرَ بنَ عبدِ الرحمن بن عَوْف صَدقاتِ بنى كعب وقُشَير وجَعدة والحَرِيش وحَبيب وعبدِ الله ، فنظر إلى المجنون قبل أن يستحكِمَ جنونُه ، فكلّمه فأُعجِب به ، وسأله أن يخرجَ معه فأجابه إلى ذلك . فلما أراد الرَّواح جاءه قومُه فأخبروه خبرَه وخبرَ ليلى ، وأنَّ أهلَها استعدَوا السُّلطان عليه ، فأهدرَ دمه إن أتاهم ، فأضربَ عما وعده به ، وأمر له بقِلاص ، فلما عَلِم بذلك وأُتِى بالقِلاص ردَّها عليه ، وانصرف . وقيل : إنّه هو الذى سأل عُمَرَ بن عبد الرحمن أن يخرج به ، وقال : أكونُ معك فى هذا الجمع الذى تجمَعُه غداً ، وأتجمَّل فى عشيرتى بك ، وأفخرُ بقربك ، فجاءه رَهْطُ ليلى وأخبروه بقِصَّته ، وأنه لا يريد التجمُّل به وإنما يريد أن يدخُل عليهم بيوتَهم ، ويفضحَهم فى امرأةٍ منهم يهواها ،

---

(١) المرى ، الأغانى .

وأنهم شكوه إلى السلطان فأهدر دمه ؛ فأعرض عنه ، وأمر له بالقِلاص فردَّها عليه.
وقال فى ذلك :

رَدَدْتُ قلائِص القُرَشِيِّ لمـا   بدا لى النقضُ منـه للعهود
وراحوا مُقصِرين وخلَّفونى   إلى حُزنٍ أعالجُه شديدِ

ورجع آيِساً ، فصار إلى حالته الأولى . فلم تزل تلك حالُه ، إلا أنَّه غير مستوحِش ، إنَّما يكون فى جَنَبات الحىِّ منفرداً عارياً ، لا يلبس ثوبا إلا خرَّقه . يهذى ويخطِّط فى الأرض ، ويلعب بالتراب والحجارة ، ولا يجيب أحداً سأله عن شىء . فإذا أحبّوا أن يتكلَّم أو يثوبَ إليه عقله ذكروا له ليلى ، فيقول : « بأبى هى وأمِّى » ، ثم يرجع إليه عقلُه ، فيخاطبونه فيُجيبهم ؛ ويأتيه أحداثُ الحىِّ فيحدِّثونه عنها ويُنشدونه الشعر ، فيجيبهم جواباً صحيحا ، ويُنشدهم أشعاراً قالها ؛ حتّى سعى إليهم فى السنة الثانية ، بعد عُمَر بن عبد الرحمن ، نَوْفَلُ بن مُساحِق ، فنزل مجمعا من تلك المجامع ، فرآه يلعَبُ بالتراب وهو عُريان ، فقال لغلامٍ له : « يا غلام ، هات ثوبا » ، فأتاه به فقال لبعضهم : « خذ هذا الثوبَ فألقه على ذلك الرجل » فقال : « أتعرفُه جُعِلتُ فداكَ ؟ » قال : « لا » . قال : « هـذا ابنُ سيِّد الحىِّ . لا والله ما يلبس الثياب ، ولا يَزيدُ على ما تراه من فعله الآن ، وإن طُرِحَ عليـه شىء خرَّقه . ولو كان يلبسُ ثوباً لكان فى مال أبيه ما يكفيه » . قال : « فحدِّثنى عن أمره » . فدعا به وكلَّمه ، فجعل لا يعقِل شيئاً يكلمه به ؛ فقال له قومه : إن أردت أن يُجيبَك جواباً صحيحاً فاذكر له ليلى ، فذكرها له وسأله عن حبه لهـا ، فأقبلَ عليه يحدِّثه بحديثها ، ويشكو إليه ، ويُنشِد شعرَه فيها . فقال له نوفَل : « الحبُّ صيرك إلى ما أرى ؟ » قال : « نعم وسينتهى بى إلى أشدَّ ممـا ترى » ، فعجب منه وقال : « أتحب أن أزوِّجكها ؟ » قال : « نعم . وهل إلى ذلك سبيل ؟ » قال : « انطلق معى حتّى أَقْدَمَ على أهلها بك ، وأخطبها عليك ، وأرغِّبهم فى المهر لها » . قال :

«أتُراك فاعلا؟» قال : « نعم » . قال : « انظر ما تقول » قال : «لك عليَّ أن أفعلَ بك ذلك » . ودعا له بثيابٍ فألبسه إيّاها ، وراح معه المجنون كأصحِّ أصحابه ، يحدِّثه ويُنشِده . فبلغَ ذلك رهطَها فتلقَّوه بالسلاح وقالوا له : « يا ابنَ مُساحِق ، لا والله لا يَدخُل المجنونُ منازلنا أبداً أو يموت ، وقد أهدر السُلطان لنا دمَه » . فأقبلَ بهم وأدبر ، فأبَوا . فلما رأى ذلك قال للمجنون : « انصرف » ، فقال له المجنونُ : « والله ما وَفَيت لى بالعهد » . قال له : انصرافُك بعد أن أيأسنى القومُ من إجابتِك أصلَحُ من سَفكِ الدماء ، فقال المجنون :

أيا ويحَ من أمسى تَخَلَّجَ[1] عقلُه ... فأصبحَ مذهوباً بـه كلّ مذهب

خليّا من الُخلّانِ إلا معذِّراً ... يضاحِكُنى من كان يهوَى تجنُّبى

إذا ذُكِرتْ ليلَى عَقَلتُ وراجعَتْ ... روائعُ عقْلِى من هَـوًى متشعِّب

تجنَّبتُ ليلى أن يلجَّ بىَ الهــوى ... وهيهاتَ ! كان الحبُّ قبل التجنّبِ

ألا إنمـا غادرتِ يا أمّ مالك ... صدًى أينما تذهَبْ به الريحُ يذهب

قال ابنُ سلّام : لو حلفتُ أن مجنونَ بنى عامر لم يكن مجنوناً لصدَقتُ فى ذلك ، ولكنه قولُه لما تزوّجت ليلى ، وأيقن باليأس منها ، ألم تسمع إلى قوله :

« أيا ويحَ من أمسى تَخَلَّجَ عقله »

الأبيات .

روى الكلبىُّ أن أبا المجنون وأمّه ورجالَ قومه وعشيرتِه اجتمعُوا إلى أبى لَيْلَى ، فوعظوه وناشدوه الله والرحم . وقالوا له : « إنَّ هذا الرجُلَ هالِك ، وقبلَ ذلك فهو[2] أقبح من الهلاك بذهاب عقله ، وإنّك فاجعٌ به أباه وأهله ، فنَشَدْناك الله والرحم أن تفعلَ ذلك؛ فوالله ما هى أشرفُ منه ولا مالُك مثلُ مال أبيه ، وقد حكَّمك

(١) تجلجل ، المخطوطتان وفى نص الأغانى : تخلس .

(٢) فنى ، الأغانى .

فى المهر وإن شئت أن يخلع[1] نفسَه إليكَ من مالِه فعـل » ، فأبَى وحلَف بالله وبالطلاق من أمِّها ألا يزوِّجَه إياها أبداً وقال : « أفضَحُ نفسى وعَشِيرتى وآتِى ما لم يأتِه أحدٌ من العرَب وأَسِمُ ابنَتى بمِيسَم فَضيحة ؟ » فانصرفوا عنه . وخالفهم لوَقتِه فزوَّجها رجلًا من قومه ، وأدخلها عليه ، فما أمسى إلا وقد بنى بها — وبلغه الخبرُ فيئس منها حينئذ ، وزال عقله جملة ، فقال أهلُ الحىِّ لأبيه : « احجُجْ به إلى مكَّة ، وادعُ الله له ، ومُرْهُ أن يتعلَّق بأستار الـكعبة ، فنسأل الله أن يعافِيَه مما به ، ويبغِّضها إليه ، فلعلّ الله أن يخلِّصه من هذا البلاء » فحجَّ به أبوه ، فلما صاروا بمِنًى سمع صائحاً فى الليل يصيح : « يا لَيْلَى » ! فصَرخ صرخةً ظنّوا أن نفسَه قد تلِفَت ، ووقع مغشِيًّا عليه ، فلم يزل كذلك حتّى أصبح ، ثم أفاق حائل اللَّون ذاهلًا ، وأنشأ يقول :

عرضتُ على قلبى العزاءَ فقال لى : ... مِن الآنَ فايأسْ لا أعزّكَ من صَبْرِ
إذا بانَ من تهوَى وأصبح نائياً ... فلا شىءَ أجدى من حلولك فى القبر
وداعٍ دعا إذ نحنُ بالخَيْفِ من منًى ... فهيَّج أطرابَ الفُؤاد وما يـدرى
دعا باسم ليـلى ضلَّلَ الله عقلَه ... وليلى بأرضٍ عنه نائيةٍ قَفْرِ

ثم قال له أبوه : « تعلَّق بأستار الـكعبة ، وسَل الله أن يُعافيكَ من حبِّ ليلى » ، فتعلق بأستار الـكعبة وقال : « اللّهم زدنى لليلَى حبًّا وبها كلفاً ، ولا تُنسِنى ذكرها أبداً » . فهام بها حينئذ واختُلِط فلم ينضبط ، فكان يهيم فى البَرِّيَّة مع الوحش ، لا يأكلُ إلا ما ينبت فى البَرِّيَّة من بقل ، ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت مناهِلها . وطال شَعرُ جسده ورأسه وألِفَته الوحوش فكانت لا تنفر منه ، وجعل يهيم حتى يبلُغَ حدود الشام ، فإذا ثاب إليه عقلُه سأل من يمرُّ به من أحياء العرب

---

(١) يخلع ، الأغانى : معقل ، المخطوطتان .

عن نجد ، فيقال له : « وأين أنتَ من نجد ؟ قد شارفتَ حدودَ الشام . أنت فى موضع كذا » . فيقول : « فأرونى وِجهةَ الأرض والطريق » ، فيرحمونَه ويَعرِضون عليه أن يحملوه ويكسوه فيأبى ، فيدلّونه على طريق نجد فيتوجه نحوه .

قال أبو مسكين : خَرَج منّا فتى حتّى إذا كان ببئر مَيْمونٍ إذا جماعةٌ فوق تلك الجبال ، وإذا معهم فتًى أبيضُ طُوَالٌ جَعْدٌ كأحسن من رأيتُ من الرجال ، على هُزال منه وصُفرة ، وإذا هم متعلِّقون به . فسألتُ عنه فقيل لى : هذا قَيْسُ المجنون ، خرج أبوه يَسْتجِير له بالبيت ، وهو على أن يأتىَ به قبرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدعوَ له هناك ، لعلّ ، أن يكشف ما به ، فإنه يصنع بنفسه صنعاً يرحمه منه عدوُّه . ويقول : « أخرِجونى لعلّى أتنسم صَبَا نجد » فيخرجونه ، فيُتَوَجَّه به نحو نجد . ونحن مع ذلك نخافُ أن يُلقِىَ نفسَه من الجبل ، فإن شئتَ دنوتَ منه فأخبرتَه أنّك أقبلتَ من نجد ، فدنوتُ منه ، وأقبلوا عليه فقالوا : « يا أبا المهدىّ ، هذا الفتى أقبل من نَجْد » فتنفّس نَفَساً ظننت أن كبده قد انصدعت ، ثم جعل يسألنى عن وَادٍ وادٍ ، وموضعٍ موضعٍ ، وأنا أخبرُه وهو يَبكى أحرَّ بكاء وأوجعه للقلب ، ثم أنشأ يقول :

ألا ليتَ شعرى عن عُوارِضَتَىْ قَنًا ... لطول الليالى . هل تغيَّرتا بَعْدى
وهل جارتانا بالبَتِيلِ إلى الحمى ... على عَهدنا أم لم يدوما على العهد
وعن عُلْويَّات الرياح إذا جرت[1] ... بريح الخُزامَى هل تهبُّ على نجد
وعن أُقْحُوانِ الرَّمل ما هو فاعلٌ ... إذا هو أسْرى ليلةً بثرًى جَعْد
وهل انفُضَنَّ الدهرَ أفنانَ لِمَّتى ... على واضحِ المَتْنَيْنِ مُنْدَاِقِ الوَخْد
وهل أسمعنَّ الدهرَ أصوات هَجْمةٍ ... تحدَّرُ[2] من نَشْزٍ خصيب إلى وَهْدِ

(١) جرت، الأغانى : بدت ، المخطوطتان.
(٢) تحدر ، الأغانى : تطلع المخطوطتان .

حدث العتبي قال : مرّ المجنون ذاتَ يوم بزوج ليلى ، وهو جالس يصطلى فى يوم شاتٍ ، وقد أتى ابنَ عمٍّ له فى حاجة بحيِّ المجنون ، فوقفَ عليه وأنشد :

بربِّك هل ضممتَ إليك ليلى قُبيلَ الصبح أو قبّلت فاهـا
وهل رفّت عليك ذُؤابتاهـا رفيفَ الأقحوانة فى نداهـا

فقال له : « اللهم إذ حلفّتنى فنعم » . قال : فقبض المجنونُ بكلتا يديه قبضتين من الجمر ، فما فارقهما حتى خرّ مَغْشِيًّا عليه ، وسقط الجمرُ مع لحم راحتيه ؛ وعضّ على شَفَتِه فقطعها ، وقام زوجُ ليلى مغموماً بفعله ، متعجباً منه ، ومضى .

قيل : إنّ أهل المجنون خرجوا به معهم إلى وادى القُرى قبل توحُّشه ليمتاروا ، خوفاً عليه أن يضيع ويهلك ، فمرّوا فى طريقهم بِجَبَلَىْ نَعمان ، فقال له بعض فِتيان الحىّ : « هذا جبلا نَعمان ،وقد كانت ليلى تنزل بهما » . قال : « فأى الرياح تأتى من قِبلهما ؟ » قالوا : « الصَّبا » ، قال : « فو الله لا أريمُ هذا الموضعَ حتى تهبّ الصَبا » . فأقام ومَضَوا فامتاروا لأنفسهم ، ثم أتوا إليه فأقاموا معه ثلاثاً حتى هبت الصَّبا ، ثم انطلق معهم ، وأنشأ يقول :

أيا جَبَلَىْ نَعمان بالله خلِّيـا سَبيلَ الصَّبا يخلصْ إلىّ نسيمُها
أجدْ بردها أوتشفِ منى حرارةً على كَبِدٍ لم يبقَ إلا صميمُهـا
فإن الصَّبا ريح إذا ما تنسَّمت على نَفْسِ مهمومٍ تجلَّت همومُها

ولما منع أبو ليلى وعشيرتُه المجنونَ من تزويجه بها ، كان لا يزال يغْشى بيوتَهم ويهجم عليهم ، فشكَوْه إلى السلطان ، فأهدر دمهلهم ، فأخبروه بذلك فلم يرْعَه وقال : « الموتُ أروَحُ لى ، ليتهم قتلونى » ، فلمّا علموا بذلك ، وعلموا أنه لا يزال يطلب غِرَّةً منهم ، حتى إذا تفرّقوا دخل دارهم ، فارتحلوا عنها ، وأبعدوا ، وجاء المجنونُ عَشيَّةً فأشرف على دارهم ، فإذا هى بلاقع ، فقصد منزل ليلى الذى كان بيتُها فيه ، فألصق صدره به ، وجعل يمرّغ خدّيه على ترابه ويبكى ويقول :

أيا حَرَجاتِ الحيِّ يوم ترحّلوا بذى سَلَمٍ لا جادكنّ ربيع
وخَيْماتكِ اللاتى بمنعَرجِ اللِّوى بَلِينَ بِلًى لم تَبْلَهنّ ربوع

وذُكِر أن ليلى وعدته قبل أن يُختلط أن تستزيره ليلةً إذا وجدت فُرْصَةً لذلك، فمكث مدّةً يراسلها فى الوفاء وهى تعِدُه وتسوِّفُه فأتى أهلَها ذات يوم والحىُّ خلوف، فجلس إلى نسوةٍ من أهلها حَجْرَةً منها، حيثُ تسمع كلامَه، فحادثهنّ طويلا ثم قال: « ألا أنشدكنّ أبياتاً أحدثتُها فى هذه الأيام » قلن: « بلى » فأنشدهنّ:

ياللرِّجال لهمّ بات يعرونى مستطرَفٍ وقديم كاد يبلينى
مَن عاذِرى من غريمٍ غير ذى عُسُر يأبى فيمطُلُنى دَيْنى ويَلوينى
لا ينكر البعضَ[1] من حقّى فيجحدَه ولا يحدِّثنى أنْ سَوْفَ يقضينى
وما كشُكْرِىَ شكرٌ لو يوافِقُنى ولا مُناىَ سواه لو يوافينى[2]
أطعتُه وعصيتُ الناسَ كلَّهم فى أمرِه وهواه وهو يعصينى
خَيرى لمن يبتغى خيرى ويأمُلُه من دون شرِّى وشرى غيرُ مأمون
وما أشاركُ فى أمرى أخا ضَعفٍ ولا أقول أخى من لا يُوَاتينى

فقلن له: « ما أنصفَكَ الغريمُ الذى ذكرتَه » . وجعلن يتضاحكن، وهو يبكى، فاستحيت ليلى منهنّ ورقّت حتى بكت وقامت إلى بيتها وانصرف هو .

وكان للمجنون ابنا عمٍّ يأتيانه فيحدِّثانه ويسألانه ويؤنسانه، فوقف عليهما يوماً وهما جالسان، فقالا له: « يا أبا المهدىّ، ألا تجلس؟ » فقال: « لا بل أمضى إلى منزل ليلى فأتوسَّمُه وأرى أثرها فيه، فأشفى بعضَ ما فى صدرى » ، فقالا له: « فنحن معك » . فقال: « إذا فعلتما فكرّمتمانى[3] وأحسنتما » فقاما معه حتى أتى

(١) لا يبعد النقد، الأغانى .
(٢) يوافينى، الأغانى: يواتينى، المخطوطتان .
(٣) أكرمتما، الأغانى.

دار ليلى ، فوقف فيها طويلا يتتبّع آثارَها ، ويقف فى موضعٍ موضعٍ ويبكى ، ثم قال :

يا صاحبىَّ ألمّا بى بمنزلةٍ قد مرَّ حينٌ عليها أيُّما حينِ
إنى أرى رَجَعات الحبِّ قاتلتى وكان فى بَدئها ما كان يكفينى
لا خيرَ فى الحبِّ ليست فيه قارعةٌ كأنَّ صاحبَها فى نَزع مَوْتونِ
إن قال عُذّالُه : مهلًا فلان لهم قال الهوى: غيرُ هذا القولِ يَعنينى
ألقى من الحبِّ تارات(١) فيقتلُنى وللرجاء بشاشاتٌ فتحيينى

قيل لقيس بن الملوح قبل أن يُخالَط : ما أعجبُ شىء أصابك فى وَجدك بليلى ؟ قال : طرقتنا ذاتَ ليلة أضيافٌ ولم يكن عندنا لهم أُدْم ، فبعثنى أبى إلى منزل أبى ليلى ، وقال : « اطلُب لنا منهم أُدْماً » ، فأتيتُه فوقفت على خبائه وصِحت به ، فقال لى : « ما شأنك ؟ » فقلتُ : « طرقتنا أضياف ولا أدم لنا ؛ فأرسلنى أبى أطلب منك أدماً » ؛ فقال : « يا ليلَى ، أخرجى إليه ذلك النِّحْىَ فاملئى له إناءه من السمن » ، فأخرجَته ، ومعى قَعْب ، فجعلت تصبُّ السمن لى فيه وتتحدث ، فألهانا الحديث وهى تصبّ السمن وقد امتلأ القَعْب ، ولم نعلم جميعاً وهو يسيل حتى استَنْقَعَت أرجُلُنا من السمن.

قال : وأتيتهم مرَّة ثانية أطلبُ نارا وأنا متلفّع ببُرد لى ، فأخرجت لى ناراً فى عُطْبَة فأعطَتْنيها ، ووقفنا نتحدّث ، فلما احترقت العُطْبَة خرقتُ من بُردى ، وجعلت النار فيها ، فكلما(٢) احترقت خرقتُ أخرى وأذكيت بها النار حتى لم يبقَ من البُرد إلا ما وارى عَورتى ، وما أعقل ما أصنع .

---

(١) اليأس تارات ، الأغانى .
(٢) فلما ، المخطوطتان .

ومن شعره فيها :

أمُستقبِلِي ريحُ(١) الصَّبا ثم شائق ... ببرد ثنـــايا أمِّ حسَّان شائقُ
كأنَّ على أنيـابها الخمرَ شجَّها ... بماء الندى من آخر الليل غابِقُ
وما ذقته إلا بعيـني تفرسا ... كما شِيمَ فى أعلى السحابة بارق

وقيل : إن هذه الأبيات لنُصَيب .

قال إبراهيم بن سعد الزُّهرى : أتانى رجل من عُذْرة لحاجة ، فجرى ذكر العشق والعشَّاق ، فقلت له : « أنتم أرقُّ قلوباً أم بنو عامر ؟ » ، فقال : « إنا لأرَقُّ الناس قلوباً ، ولـكن غلبتنا بنو عامر بمجنونها » .

ومن شعره فيها :

طمعتُ بلَيْلَى أن تريعَ وإنمـا ... تقطِّـع أعناقَ الرجال المطامعُ
وداينتُ ليلى فى خلاء ولم يكن ... شُهودٌ على ليلى عُدُول مَقَانِع

قال محمد بن سلام : قضى عُبَيْدُ الله بن محمد بن الحسَن بن الحرِّ العنبرى على رجل من قومه قضيةً أوجبها الحـكم ، فظنَّ العنبريُّ أن عبيدَ الله تحامل عليه ، فانصرف مُغضَباً ، ثم لقيه فى طريق فأخذ بلجام بَغلته ، وكان شديدا أيِّدًا ، فقال له : إيه يا عُبيدَ الله :

طمعتُ بليلى أن تريع وإنَّمـا ... تقطِّـع أعنـاق الرجال المطامع
وداينت ليلى فى خلاء ولم يكن ... شهود على ليلى عدول مقانع(٢)

فقال له عبيدُ الله : خلِّ عن البغلة نخلِّاها .

قال يونس(٣) النحوى : لما اختُلِط عقل المجنون قيسٍ ، وترك الطعام والشراب ،

---

(١) نفح ، الأغانى .

(٢) البيت ، فى الأغانى ، بعد : « فقال عبيد الله » .

(٣) أبو يونس ، المخطوطتان .

مضت أمُّه إلى ليلى فقالت : « إنَّ قيساً قد ذهب عقله وترك المطعم والمشرب ، فلو جئته وقتاً لرجوتُ أن يثوب إليه بعض عقله » ، فقالت ليلى : « أما نهاراً فلا ، لأنِّى لا آمَن قومى على نفسى ، ولكن ليلًا » ، فأتته فقالت : « يا قيسُ ، إن أمَّك تزعُم أنك قد جُننتَ من أجلى، وتركت المطعم والمشرب ، فاتَّق الله وابق على نفسك »، فبكى وقال :

قالت : جُننتَ على رأسى ، فقلت لها   الحبُّ أعظم مِمَّا بالمجانين

الحبّ ليس يفيق الدهرَ صاحبُه   وإنما يصرَعُ المجنونُ فى الحين

قال : فبكت معه ، وتحدّثوا حتى كاد الصبح أن يسفر . ثم ودَّعته وانصرفت . فكان آخر عهده بها .

قال القَحْذَمىّ : لما قال المجنون :

خليلىَّ لا والله لا أملكُ الذى   قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا

قضاها لغيرى وابتلانى بحبِّها   فهلَّا بشىء غيرِ ليلى ابتلانيا

سُلِب عقلَه . وقيل : إنه لما قال هذا البيتَ مرض[1] . وقيل : إنه لما قال البيتين نُودِى فى الليل : « أنت المتسخِّط لِقضاء الله والمتمرِّض أحكامَه » فأحس عقله فتوحّش منذ تلك الليلة ، وذهب مع الوحش على وجهه ، وقيل : إنه سمِّى المجنون لِقوله :

ما بالُ قلبك يا مجنونُ قد خُلِعا   فى حُبِّ مَنْ لا ترى فى نَيْله طمعا

الحبّ والودّ نيطا بالفؤاد لها   فأصبحا فى فؤادى ثابِتَين معا

وقال الأصمعى : لم يكن مجنوناً ولكن جنّنه العشق ، وأنشد له :

يسمّونَنى المجنونَ حين يرونَنى   نعم ، بى من ليلى الغداةَ جنون

---

(١) برص . الأغانى .

وقال العُتبى : إنما سُمِّى المجنونَ لقوله :

يقول أناسٌ : علَّ مجنونَ عامرٍ يروم سلُوّا ، قلت : أنَّى لما بِيا

وقد لامنى فى حبِّ ليلى قرابتى أخى وابنُ عمِّى وابنُ خالى وخاليا

يقولون : ليلى أهلُ بيت عداوةٍ بنفسىَ ليلى من عدوٍّ وماليا

ومن قوله فيها :

ألا ليتَ ليلى أطفأت حرّ زَفرةٍ أعالُجها لا أستطيع لها ردّا

إذا الريح من نحو الحِمى نَسَمتَ لنا وجَدتُ لمجراها ومَنْسِمِها بردا

على كبدٍ قد كاد يبدى بها الهوى ندوباً ، وبعض القوم يحسَبنى جَلدا

ويروى هذا البيت الثالث لابن هرمة .

وكان المجنون كَلِفاً بمحادثة النساء صبًّا بهن ، فبلغه خبرُ ليلى وبعثت له ، فصبا إليها وعزم على زيارتها ، فتأهّبَ لذلك ، ولبِس أفخر ثيابه ، ورجَّل جُمَّته ، وارتحل ناقةً كريمة برَحلٍ حسن ، وتقلّد سيفه ، وأتاها فسلّم فردّت ، وتحادثا وكلّ واحد منهما مقبل على صاحبه حتى أمسيا ، ثم انصرف إلى أهله فبات بأطول ليلة ، ثم عاد إليها لما أصبحَ فلم يزل عندها حتى أمسى فانصرف إلى أهله ، واجتهد أن يُغمِض فلم يقدر على ذلك ، فذلك حيث يقول :

نهارى نهارُ الناس حتى إذا بدا لى الليلُ هزّتنى إليكِ المضاجع

أقضّى نهارى بالحديث وبالمُنى ويجمَعُنى والهمّ بالليل جامع

لقد ثبتت فى القلب منك محبّةٌ كما ثبتت فى الراحتينِ الأصابعُ

قال : وأدام زيارتَه لها ، وترك من كان يأتيه فيتحدَّث إليه غيرَها . وكان يأتيها فى كلّ يوم فلا يزال عندها نهارَه أجمعَ وينصرف ، فخرج ذات يوم يريد زيارتَها ، فلما قَرُب من منزلها لقيته جارية عَسْراء ، فتطيَّر منها ، وأنشأ يقول :

وكيف ترجّى وصلَ ليلى وقد جرى ... بجَدِّ القُوى والوصلِ أعسرُ كاسر[1]
صَدِيعُ العصا صَعبُ المرام إذا انتحى ... لوصلِ امرئ جُذَّت لديه الأواصر

ثم صار إليها فى غدٍ فحدّثها بقصّته وطِيَرته وأنه يخاف تغيّر عهده، وشكا وبكى، فقالت: «لا تَرُعْ؛ حاشَ لله من تغيّر عهدى، لا يكون ذلك أبداً» فحدّثها بقيةَ يومه، ووقَع فى قلبها منه ما وقع فى قلبه لها، فجاءها يوماً فحدّثها فأعرضت عنه، وأقبلت على غيره بحديثها. تريد بذلك مِحنَته وأن تعلَم ما فى قلبه لها، فجزع جزعاً شديداً عُرِف عليه، فلما خافت عليه أقبلت عليه كالمسِرَّة له وقالت:

كلانا مُظهِرٌ للناس بغضا ... وكلٌ عند صاحبه مَكين

الأبيات المتقدمة. فسُرِّى عنه، وعَلِم ما فى قلبها، وقالت: «إنّما أردت أن أمتحنك والذى لك عندى أكثرُ من الذى لى عندك، وأُعطِى الله عهداً إنْ أنا جالستُ بعد يومى هذا رجلًا سواك، حتى أذوق الموت، إلا أن أُكْرَه عليه» فانصرف عَشيّةً وهو أشدُّ الناس سروراً وأقرُّهم عينا، وأنشأ يقول:

كأنَّ هواها تاركى بمَضَلَّة ... من الأرض؛ لا مالٌ لدىّ ولا أهلُ
ولا أحدٌ أُفضِى إليه وصيّتى ... ولا صاحبٌ إلا المطيّة والرحلُ
محاحبُّها حبَّ الأُلى كنَّ قبلها ... وحلَّت مكاناً لم يكن حُلَّ من قبل

لما حُجِبت ليلى عن المجنون خطبها جماعة فلم يرضهم أهلُها، وخطبها رجل من ثَقِيف مُوسِر فزوّجوه، وأخفَوا ذلك عن المجنون، ثم نُمِى إليه طرَف منه لم يتحقّق، فقال:

دعوتُ إلهى دعوةً ماجهلتُها ... وربى بما يُخفِى الضميرُ بصيرُ
لئن كان يُهدَى بَرْدُ أنيابها العُلى ... لأفقرَ منّى إننى لفقير
وقد شاعت الأخبارُ أن قد تزوّجت ... فهل يأتينّى بالطلاق بشيرُ

(١) حاسر، الأغانى.

وجعل يمرّ ببيتها ولا يسأل عنها ، ولا يلتفت إليها ، ويقول إذا جاوزه :

ألا أيُّها البيتُ الذى لا أزورُه ... وقد حلّه شخص إلىّ حبيب
هجرتُكَ إشفاقاً وزرتُك خافياً ... وفيك علىّ الدهرَ منك رقيب
سأستَعْتب الأيّام فيك لعلَّهـــا ... بيوم سرور فى الزمان تؤوب

وقال فيها أيضا :

ألا إن ليلى العامريَّة أصبحت ... تقطَّعُ إلا من ثَقيفٍ حبــالُها
هم حَبَسوها محبِسَ البُدنِ وابتغى ... بها المالَ أقوام ، ألَا قلَّ مالُها

وبلغه أن أهلها يريدون نقلها إلى الثقفى ، فقال :

كأنَّ القلبَ ليلة قيـــل يُغْدَى ... بليـــلى العامريّة أو يُراح
قطاةٌ عـــزّها شَرَكٌ فبـــاتت ... تجاذِبُه وقد عَلِق الجنـــاح

ولما نقلت إلى الثقفىّ قال :

طربتُ وشاقتـــنى الحمولُ الدوافع ... غداةَ غدا(١) بالبين أسفعُ نازع
شَحَافاه نَعبـــاً بالفِراق كأنَّه ... جَريبٌ(٢) سَليب نازحُ الدار جازعُ
فقلتُ بلَى ! قد بيَّن الأمرُ فانصرف ... وقد راعنــا بالبَيْن(٣) قبلَك رائــع
سُقِيتَ سِماماً من غُرابٍ ، فإنَّــنى ... تبيَّنتُ ما خبَّرتَ مذ أنتَ واقــع
ألم تر أنّى لا محبٌّ ألومُه ... ولا ببديلٍ بعدهم أنــا قــانع
ألم تر أن الحىَّ(٤) فى رَوْنق الضحى ... بحيثُ انحنَتْ بالهَضبتين الأجارع

---

(١) دعا ، الأغانى .
(٢) غريب ، المخطوطتان .
(٣) بالأمر ، المخطوطتان .
(٤) دار الحى ، الأغانى .

وقد يتنآءى الإلفُ من بعد قُربه ... ويصدَع ما بين الخليطين صادع
وكم من هوًى أو جيرةٍ قد ألفتهم ... زماناً فلم يمنعهم البينَ مانع

لما حج أبو المجنون بابنه ليدعو الله له فى الموقف أن يعافيَه ، كان معه ابن عمه زيادُ ابن كعبٍ بن مُزاحم ، فمرّ بحمامة تدعو على أيكة فوقف يبكى ، فقال له زياد : « أيُّ شىء هذا ؟ ما يبكيك ؟ سِرْ بنا حتى نلحق الرُّفقة » فقال قيس :

أألنْ هتفتْ يوماً بوادٍ حمامة ... بكيتَ ولم يَعذِرْكَ بالجهل عاذر
دعت ساقَ حرٍّ بعد ماعَلَت الضحى ... فهاجت لىَ الأحزان أن ناح طائر
تغنّى الضحى والصبح فى مُرجَحِنَّة ... كِثافِ الأعالى تحتهــا الماء حائرُ
يقــول زيادٌ إذ رأى الحىَّ هَجَّروا ... أرى الحىَّ قدساروا ، فهل أنت سائر
وإنى وإن غالَ التقادمُ حاجـــتى ... مُلِمٌّ على أوطـان ليـلى فنـاظرُ

كان المجنونُ وليلى وهما صبيَّان يرعيانِ غنماً لأهلهما ، عند جبلٍ فى بلادهما يقال له : التَّوباد ، فلما ذهب عقلُه ، وتوحَّش كان يجىء إلى ذلك الجبل فيقيم فيه ، فإذا تذكّر أيام كان يُطيف به هو وليلى جَزِع واستوْحَش فهام على وجهه ، حتى يأتِىَ نواحِىَ الشام ، فإذا ثاب إليه عقله رأى بلادًا لا يعرفها فيقول للناس : « بأبى أنتم أين التَّوباد ، جبلٌ فى أرض بنى عامر ؟ » فيقالُ له : « وأين أنت من أرض بنى عامر ؟ أنت بالشام عليْكَ بِنَجم كذا فأُمَّه » فيمضى على وجهه نحو ذلك النجم ، حتّى يقع بأرض اليمن ، فيرى بلاداً لا يعرفها ، وقوما ينكرهم ، فيسألهم عن التَّوباد من أرض بنى عامر ، فيقولون له : « وأين أنت من أرض بنى عامر ؟ عليك بنجم كذا » فلا يزال كذلك حتّى يقع على التَّوباد . فإذا رآه قال :

وأجهشتُ للتَّوباد حين رأيته ... وكـبَّر للرحمن حين رآنى
وأذْرَيتُ دمعَ العين لمـا عرفتُه ... ونادى بأعلى صَوْتِه فـدعانى
وقلت له : قد كان حولَكَ جيرَةٌ ... وعهدى بذاك الصَّرم منذ زمان

فقال: مَضَوا واستَوْدَعوكَ ديارَهم ... ومَن ذا الذى يبقى على الحَدَثان
وإنى لأبكى اليومَ من حَذَرى غداً ... فِراقَك والحيَّان يأتلفان[١]

قال هارون بن موسى : قلت لعبد العزيز[٢] بن طلحة المخزومى : من أشعرُ من قال شعراً فى منى عرفات ؟ فقال : أصحابُنا القُرشيون . ولقد أحسن المجنونُ حيثُ يقول :

وداعٍ دعا إذ نحنُ بالخَيْفِ من مِنًى ... فهيَّج أطراب الفؤاد وما يدرى
دعا باسم لَيْلى غيرُها فكأنَّما ... أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

ومما قال قيس أيضا فى ليلى ـ وقيل : كانت كنيتها أم عمرو :

أبى القلب إلَّا حبَّها عامريَّةً ... لها كُنيةٌ عمرو وليس لها عمرو
تكاد يدى تندَى إذا ما لمستُها ... وينبُتُ فى أطرافها الورقُ الخُضر

ومن شعره فيها :

وأحبِسُ عنكِ النفسَ والنفسُ صبَّةٌ ... بذكرِك[٣] والممشى إليك قريبُ
مخافةَ أن يسعَى الوُشاة بظِنَّة ... وأحرُسكم أن يَسْتَريب مُريب
لقد جعلتُ نفسى ـ وأنت اجترمْته ... وكنت أعزَّ الناس ـ عنكِ تطيبُ
فلو شئتِ لم أَغْضَبْ عليك ولم يزَلْ ... لكِ الدهرَ منِّى ما حييتُ نَصيب
أمَا والذى أبلى السرائرَ كلَّها ... ويعلمُ ما يبـــدو بها ويَغيب
لقد كنتِ ممن تصطفى النفس خُلَّةً ... لها دون خُلَّان الصفاء حُجوب

قال أبو الحسن اليَنْبعى : بينا أنا وصديقٌ لى من قريش نمشى بالبلاط إذا ظِلَّ فى القمر ، فسمعتُ إحداهن تقول : « هو هو » ، فقالت لها الأخرى : « إى والله إنه لهو » ، فدنت منِّى ثم قالت : « يا كَهل ، قل لهذا الذى معك :

(١) مجتمعان ، الأغانى .
(٢) لعبد العزيز ، المخطوطتان : لغرير ، الأغانى .
(٣) بذكراك ، الأغانى .

ليسَت لياليك فى خَاخٍ بعائدة كما عهدتَ ولا أيامُ ذى سَلَمِ

فقلت : « أجب ، فقـد سمعت » . فقال : « قد والله قُطِع بى وأُرتِج علىّ فأجب عنى » فقلت :

فقلتُ لهـا يا عزّ كل كبيرةٍ إذا وطِّنت يوماً لها النفسُ ذلّت

ثم مضينا حـتّى إذا كنا بمفـترق طريقين مضى الفتى إلى منزله ، ومضيتُ إلى منزلى ، فإذا أنا بجُوَيرية تجذِبُ ردائى(١) ، فالتفتُّ فقالت لى : « المرأة التى كلّمتها تدعوك » فمضيتُ معها حـتّى دخلتُ داراً واسعة ، ثم صرتُ إلى بيتٍ فيه حصير ، وثنَت لى وسادةً فجلست عليها ، فقالت لى : « أنت المجيب ؟ » قلت : « نعم » . قالت : « ما كان أفظّ جوابك وأغلظه » فقلت : « ما حضرنى غيرُه » فسكتت ، ثم قالت : « لا ، والله ، ما خلق الله خلقاً أحبَّ إلى من إنسان كان معك » . فقلت : « أنا الضامن لك عند ما تحبّين » فقالت : « هيهات أن يقع بذلك وفاء » . فقلت : « وأنا الضامن ، وعلىّ أن آتيك به الليلة القابلة » قال : فانصرفت فإذا الفتى ببابى فقلتُ ، « ما جاء بك ؟ » قال : « ظننتُ أنها سترسل إليك ، وسألتُ عنك فلم أعرف لك خبراً ، فظننتُ أنك عندها ، فجلستُ أنتظرك » فقلت له : « قد كان الذى ظننتَ وقد وعدتُها أن أمضىَ بك إليها فى الليلة المقبلة » ، فلما أصبحنا تهيَّأْنا ، ولما جاء الليل رُحنا إليها ، فإذا بها منتظِرةٌ لنا ، فدخلنا الدار فإذا رائحةٌ طيبة ، ومجلسٌ قد أعِدّ ونُضِّد ، فجلسنا على وسائد قد ثُنِيت لنا ، وجَلستْ مليًّا ثم أقبلت عليه معاتبةً ، وقالت :

وأنتَ الذى أخْلَفْتَنى ما وعدتَنى وأشمتَّ بى من كان فيك يلومُ

وأبرزتنىِ للنّاس حتّى تركتَنى لهم غرضـــاً أُرمَى وأنت سَليم

فلو كان قولٌ يـكلِم الجسمَ قد بدا بجسمِىَ من قولِ الوُشاة كلُوم

(١) تحدث ورائى ، المخطوطتان .

ثم سكتت وسكت الفتى هنيهةً ثم قال :

غَدرتِ فلم أغْدِر وخُنتِ فلم أخُن ... وفى بعض هــذا للمحبِّ عزاء
جَزيتُك ضِعفَ الوُدِّ ثم صَرمتنى ... فحُبُّك من قلبى إليــكِ أداء

فالتفتت إلىّ وقالت : « ألا تسمع مايقول ؟ قد أخبرتُك » ، فغَمَزتُه : أن كُفَّ . فــكفّ ثم أقبلتْ عليه ، فقالت :

تجاهلتَ وصْلى حين لَجّت عَمايتى ... فهلا صرمتَ الحبل إذ أنا أبصرُ
ولى من قُوى الحبل الذى قد قطعتَه ... نصيبٌ وإذ رأيى جميــعٌ موفّر
ولــكنَّما آذَنْت بالصَّرم بغتةً ... ولستُ على مثل الذى جئتَ أقدر

فقال :

لقد جَعَلتْ نفسى ـ وأنت اجترمتِه ... وكنتِ أعزَّ الناس ـ عنكِ تطيب

قال : فبــكت ثم قالت : « أو قد طابت نفسك ؟ لا ، والله ما فيك بعد هذا خير » ، ثمّ التفتت إلىّ وقالت : « قد علمتُ أنَّك لا تفى بضمانك ولا يفى به عنك » .

قال الَهيْثَم بن عدىّ : إن رهطَ المجنون اجتازوا فى نُجْعةٍ لهم بحىِّ ليلى ، وقد جمعتهم نجعة ، فرأى أبياتَ أهلِها ولم يقدر على الإلمام بهم ، وعدل أهلُه إلى وِجهة أخرى ، فقال المجنون :

لعمرُكَ إن البيت بالقِبَل الذى ... مررتُ ولم أُلمِمْ عليــه لشائقُ
وبالجِزْع من أعلى الُجنَيْنَة منزلٌ ... فَسيحُ المدَى قلبى به متضايِق
لعمرُكَ إن الحبَّ يا أمَّ مالكٍ ... بِقَلْبى ـ يرانى اللهُ منه ـ لَلَاصِقُ
يضمُّ عليه الليلُ أطرافَ حبكم ... كما ضمَّ أزرار القميصِ البنائق
وماذا عَسَى الواشون أن يتحدّثوا ... سِوى أن يقولوا : إنَّـنى لك عاشق
نعم صَدَق الواشون ، أنت حبيبَةٌ ... إلىَّ وإن لم تصفُ منك الخلائق

دخلت ليلى على جارة لها من عُقَيْل ، وفى يدها مِسواكٌ تستاك به ، فتنفّست

ثم قالت: « سقى الله من أهدى لى هذا المِسواك » ، فقالت لها جارتها : « ومن هو ؟ » قالت : « قيسُ بن الملوَّح ، وبكت ، ثم نزعت ثيابها تغتسل ، فقالت : « ويحه ! لقد عَلِق منى بما أهلكه ، من غير أن يستحق(١) ذلك ، فنشدتُك الله ، صدَق فى صفتى أم كذب ؟ » فقالت : « لا ، والله ، قد صَدَق » . وبلغ المجنونَ ذلك ، فبكى وأنشأ يقول :

نُبِّئتُ ليلى وقد كنا نبخِّلها ... قالت : سقى المزنُ غيثاً منزلا خَرِبا
وحبَّذا راكبٌ كنَّا نهش له(٢) ... يُهدِى لنا من أراك الموسِم القُضُبا
قالت لجارتها يوما تسائلها ... لما استحَمَّت وألقَتْ عندها السَّلَبا
يا عمرَكِ الله إلّا قلتِ صادقةً : ... أصادقاً وصف المجنونُ أم كَذِبَا

حدّث رجل من بنى عامر قال : مُطِرنا مطراً شديداً فى ربيع ارتبعناه ، ودام المطر ثلاثاً ، ثم أصبحنا فى اليوم الرابع على صَحْوَةٍ ، وخرج الناسُ يمشون على الوادى ، فرأيتُ رجلا جالسا حَجْرَة وحدَه ، فقصدتُه فإذا هو المجنون ، جالسٌ وحده يبكى ، فوعظته وكلمته طويلا ، وهو ساكت ، ثم رفع رأسه إلىّ فأنشدنى بصوت حزين لا أنساه أبدا وحرقته :

جرى السيلُ فاستبكانى السيل إذ جرى ... وفاضَت له من مقلتىَّ غُروب
وما ذاك إلَّا حينَ أيقنتُ أنه ... يمرُّ بوادٍ أنتِ منه قريب
يكون أُجاجا دونكم فإذا انتهى ... إليكم تلقَّى طيبكم فيطيب
أظلُّ غريبَ الدار فى أرضِ(٣) عامر ... ألا كلّ مهجور هناك غريب
وإنَّ الكئيبَ الفردَ من أيمَنِ الحمى ... إلىّ وإن لم آتِه لحبيب

---

(١) استحق ، الأغانى .
(٢) به ، الأغانى .
(٣) أم ، المخطوطتان .

فلا خيرَ فى الدنيا إذا أنتَ لم تَزُر   حبيباً ولم يطربْ إليك حبيبُ

وأول القصيدة :

ألا أيُّها البيتُ الذى لا أزوره   وهِجرانه منّى إليــــه ذنوب
هجرتُك مشتاقاً وزرتك خائفاً   وفيك علىّ الدهرَ منك رقيب
سأستَعطفُ الأيّام فيك لعلّهـا   بيــومِ سرورٍ فى هواك تُثيب
وأفرِدت إفرادَ الطريدِ وباعدت   إلى النفس حاجاتٌ وهنّ قريب
لئن حال ناسٌ دون لَيلى لرُبّمـا   أتى اليَأسُ دون الأمر وهو قَرِيب
ومَنّيْتِنى حَتّى إذا ما رأيتِنى   على شَرَفٍ للنـاظرين يُرِيبُ
صَدَدتِ وأشمتِّ العدوّ بصرمنـا   أثابك يا ليـــلى الجزاء مُثِيبُ

مرّ المجنونُ فى بعض توحُّشه ، فصادف حىّ ليلى راحلًا ، ولقيها فجْأةً ، فعرفها وعرفته ، فصُعِق وسقط على وجهه ، وأقبل فتيانٌ من حىٍّ ليلى فأخذوه ومسحوا الترابَ عن وجهه ، وأسندوه إلى صدورهم ، وسألوا ليلى أن تقف له وَقفة ، فرقَّت لما به ، وقالت : « أمّا هــذا فلا يجوز أن أفتَضِح به ، ولــكن يا فلانةُ ــ ودعت أمة لها فقالت ــ : اذهَبى إلى قيسٍ فقولى له : ليلى تقرأ عليك السلام ، وتقول لك : أَعززِ علىّ بما أنت فيــه ، ولو وجدتُ سبيلًا إلى شفاء دائك لوقيتُك بنفسى منه » فمضت الوليدة إليه فأخبرته بقولها ، فأفاق وجلس وقال : « أبلغيها السلام وقولى لها : هَيهات ! إن دائى ودوائى أنت ، وإن حياتى ووفاتى فى يديك ، ولقد وكَّلت بى شقاء لازما وبلاء طويلا » ثم بكى وأنشأ يقول :

أقول لأصحابى: هى الشمس. ضوءها   قريبٌ ولــكن فى تناولها بعـــد
لقد عارضَتْنى الريحُ منها بنفحةٍ   على كبدى من طِيب أرواحها بَردُ
فما زلتُ مغشيًّا علىّ وقد مضت   أناةٌ وما عندى جواب ولا ردّ
أقلَّب بالأيدِى وأهـــلى بِعَوْلةٍ   يفدُّوننى لو يستطيعون أن يَفدوا

ولم يبقَ إلا الجلدُ والعظمُ عارياً ولا عظمَ لى إن دام ذاك ولا جِلد

أدُنياىَ مالى فى انقطاعى وغفلتى (١) إليك ثوابٌ منـك دَيْنٌ ولا نَقد

عِديني ــ بنفسى أنتِ ــ وعداً فربَّما جلا كُربة المـكروب عن قلبه الوَعدُ

وقد يُبتلى قـــومٌ ولا كبليَّتى ولا مثلَ جَدِّى فى الشقاء بكم جَدّ

غَزَتْــنى جُنود الحبِّ من كل جانبٍ إذا كان من جُند قفُول أتى جند

وقيل : كان سبب توحُّش المجنون أنه كان يوما بضَرِيَّة جالسا وحده إذ ناداه مُنادٍ من الجبل :

كلانا يا أخىّ يُحبُّ ليــلى بفِىَّ وفيك مِن ليلى الترابُ

لقد خَبَلت فؤادَك ثم باتت (٢) بقلبى فهـــو مهموم مصاب

قال : فتنفس الصُّعَداء ثم غُشِى عليه ، وكان هذا سببَ توحُّشه فلم يره أحد حتى وجده نوفل بن مساحق ، قال : قدمتُ البادية فسألت عنه فقيل لى : توحَّش وما لنا به عهد ، ولا ندرى أين هو صار . فخرجتُ يوماً للصيد ومعى جماعة من أصحابى ، حتى إذا كنت بناحية الحِمَى إذ نحن بأراكة عظيمة قد بدا منها قطيعٌ من الظباء ، فيها شخصُ إنسان يُرى من خلل تلك الأراكة ، فعجب أصحابى من ذلك ، فعرفتُه وأتيته ، وعلمتُ أنه المجنون الذى خُبِّرتُ عنه ، فنزلتُ عن دابَّتى وتخففت من ثيابى ، وخرجتُ أمشى رويداً حتَّى أتيت الأراكة ، فارتقيت حتى صرتُ إلى أعلاهـا ، وأشرفتُ عليه وعلى الظباء ، وإذا به قد تدلَّى الشعر على وجهه ، فلم أكد أعرفُه إلا بعد تأمُّل شديد ، وهو يرْتَعِى من ثمر تلك الأراكة ، فرفع رأسه فتمثلت ببيتٍ من شعره :

أتبكى على ليلى ونفسُك باعدت مكانَك من ليلى وشِعبا كما معا

---

(١) وغربتى ، الأغانى .

(٢) ثنت ، الأغانى .

قال : فنفرت الظباء ، واندفع فى باقى القصيدة ينشدها ، فما أنسى نغمتَه وحُسنَ صوته يقول :

فمــا حسنٌ أن تأتِيَ الأمرَ طائعاً وتجزعَ أن داعى الصبابة أسمعا

بكَتْ عينىَ اليُسرى فلما زجرتُها عن الجهل بعد الحـلم أسْبَلَتا معا

وأذكرُ أيّام الحِمى ثم أنثنى على كَبِدى من خَشْيةٍ أن تصدّعا

فليستْ عَشِيَّاتُ الحِمَى برواجعٍ إليك ولـكن خـلِّ عينك تدمعا

ثم سقط مغشيا عليه فتمثَّلتُ بقوله :

يادار ليلى بِسقْطِ الحيِّ قد درست إلا الثُّمامَ وإلا مَوْقِدَ النــــار

ماتفتأُ الدهرَ من ليلى تموت كذا فى موقــــفٍ وقفتَه أو على دار

قال : فرفع رأسه إلى وقال لى : « من أنتَ حيَّاك الله ؟ » فقلت : أنا نوفل بن مُساحق » فحَيَّانى ، فقلت له : « ما أحدثتَ بعدى ؟ » فأنشدنى :

ألا حُجِبَتْ ليلى وآلى أميرُها علىّ يميناً جاهــدا لا أزورُها

وأوعدنى فيها رجالٌ أبــوهمُ أبى وأبوها خُشِّنَتْ لى صدورُها

على غير جُرمٍ غـير أنى أحبُّها وأن فؤادى رَهنُها وأسيرها

ثم سنحت له ظباء فقام يعدو فى إثرها حتى لحقها فضى معها .

ومن شعره فيها :

أعدُّ الليالى ليلةً بعد ليــلةٍ وقد عشتُ دهرا لا أعــدُّ اللياليا

أرانى إذا صلَّيت يَمّمتُ نحوها بوجهى وإن كان المصلَّى ورائيــا

وما بىَ إشراكٌ ولـكنّ حبَّهــا مكان[1] الشجى أعيى الطبيب المداويا

أحبُّ من الأسماء ما وافق اسمَها وأشبهَه أوكـان منه مُدانيا

وخبَّرتمانى أن تيماءَ مـــنزلٌ لليلى إذا ما الصَّيف ألقى المراسيا

---

(١) كعود ، الأغانى (وفى بعض النسخ : للمان) .

فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت ... فما للنوى ترمى بليلى المراميا
ولو كان واشٍ باليمامة بيته ... وبيتى بأعلى حضرموى[1] اهتدى ليا
وماذا لهم لا أحسن الله حفظهم ... من الحظ فى تصريم ليلى حباليا
فأنتِ التى إن شئتِ أشقيتِ عيشتى ... وإن شئتِ بعد الله أنعمت باليا
أمضروبة ليلى على أن أزورها ... ومتخذ ذنباً لها أن ترانيا
هى السحر إلا أن للسحر رقية ... وإنى لا ألفى لسحرى راقيا

قال الهيثم : مر المجنون بوادٍ فى أيام الربيع وحمامه يتجاوب ، فقال :

ألا يا حمام الأيك مالك باكياً ... أفارقت إلفا أم جفاك حبيب
دعاك الهوى والشوق لما ترنمت ... هتوف الضحى بين الغصون طروب
تجاوب وُرقاً قد أرنت بصوتها[2] ... فكلٌ لكلٍ مُسعِد ومُجيب

وقيل : إن رجلاً من بنى جَعدة كان أخا وخلا للمجنون ، مر به وهو جالس يخط فى الأرض ويعبث بالحصى ، فسلم عليه وجلس عنده وأقبل يخاطبه ويعظه ويسليه ، وهو ينظر إليه ويعبث بيده كما كان يعبث ، وهو مفكر قد غمره ما هو فيه ، فلما طال خطابه إياه قال له : « يا أخى ما علمتُ أنك تكلمنى فاعذرنى ، فإنى كما ترى مذهوبٌ بى مشترك اللب » . وبكى ثم أنشد :

وشُغِلتُ عن فهم الحديث سوى ... ما كان منكِ فإنه شغلى
وأديم لحظ محدثى ليرى ... أن قد فهمتُ وعندكم عقلى

كان زوج ليلى وأبوها خرجا فى أمرٍ طرق الحى إلى مكة ، فأرسلت ليلى أمةً لها إلى المجنون فدعته لها ، فأقام عندها ليلةً وأخرجته فى السحر ، وقالت له : « صر إلى فى كل ليلة ما دام القوم سَفْرا » ، فكان يختلف إليها حتى قدموا ، وقال فيها فى آخر ليلة لقيها وودعته :

---

(١) هكذا فى الأصل . ولعلها «حضرموت»

(٢) أذن لصوتها ، الأغانى .

تمتّع بليلى . إنما أنت هامةٌ   من الهام يَدنو كلّ يومٍ حِمامها
تمتّع إلى أن يرجعَ القوم إنهم   متى رجَعوا يَحرُم عليك كلامُها

حدَّث بعضُ بني عُقَيل قال : قيلَ للمجنون : « أيُّ شيء رأيتَه أحبُّ إليك؟ » قال : « ليلى » . قالوا : « دَعْ ليلى فقد عرفنا حالها عندك، ولكن سواها » . قال : « واللهِ ما أعجبني شيء قطّ فذكرتُ ليلى إلا سَقط من عيني ، وأذهبَ ذكرُها بشاشتَه عندي ، غير أني رأيتُ ظبياً مرّة فتأمّلته ، وذكرتُ ليلى فجعل يزداد في عيني، ثم إنه عارضه ذئبٌ وهرَب منه وتبعه ، حتّى اختفيا عني ، فوجدتُ الذئبَ قد صرَعه وأكل بعضَه فرميتُه بسهمٍ فما أخطأ مقتله ، وبقرتُ بطنه فأخرجت منه ما أكل ، ثم جمعتُه إلى بقيَّة شِلوه فدفنتُه ، وأحرقت الذئب ، وقلت في ذلك :

أبى الله أن يبقى لحيٍّ بشاشَةٌ   فصبراً على ما شاءه الله لي صبراً
رأيت غزالًا يرتعي وسْطَ روضةٍ   فقلت : أرى ليلى تراءت لنا ظُهرا
فياظبيُ كلْ رغداً هنيئاً ولا تخف   فإنّك لي جارٌ ولا ترهبِ الدّهرا
فما راعني إلا وذئبٌ قد انتحَى   فأعلَق في أحْشائه النابَ والظُّفرا
فبوّأتُ سهمي في كَتُوم غمَزْتُها   فخالطَ سهمي مهجة الذئبِ والنّحرا
فأذهب غيظي قتلُه وشفى الجوى   بقلبي . إن الحرّ قد يدرِكُ الوِترا

وبلغ المجنون قبل توحّشه[١] أن زَوْجَ ليلى ذكره وقال : « أو بلغَ من قدر قَيْس بن الملوّح أن يدَّعي محبَّة ليلى ويفوه باسمها[٢] ؟ » فقال ليغيظه بذلك:

فإن كان فيكم بعلُ ليلى فإنّني   وذِي العرش قد قبَّلت ليلى ثمانيا
وأشهدُ عند الله أني رأيتُها   وعشرونَ منها إصبعاً من ورائيا

(١) توجعه ، المخطوطتان .
(٢) ويذوه ، الأغاني .

أليس من البلوى التى لاشوى(١) لها ... بأن زُوِّجت كلباً وما بُذِلت ليا
ألا أيها الركبُ اليمانون عرِّجوا ... علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
أسائلكم هل سالَ نَعمانُ بعدنا ... وحَبَّ إلينا بطنُ نَعمان واديا
ألا يا حمامَىْ قصرِ وَدَّانَ هِجتُما ... علىَّ الهوى لما تَغَنَّيتُما ليا
وأبكيتُمانى وسْطَ أهلى ولم أكن ... أبالى دموعَ العين لو كنتُ خاليا
فوالله إنى لا أحبُّ ، لِغَيْرِ أن ... تحُلَّ بها ليلى ، البِراقَ الأعاليا
ألا يا خليلى حُبُّ ليلى بجشِّمى ... حِياضَ المنايا أو مصيبى(٢) الأعاديا
ويا أيها العُمَريَّتان تجاوَبا ... بلَحْنيكما ثم اسجَعا عَلِّلانيا
فإن أنتما استَطْرَبتُما أو أردتُما ... لحاقاً بأطراف(٣) الغضا فاتبعانيا

خرج المجنونُ فى عِدَّة من قومه يريدون سفرا ، فمرّوا فى طريقٍ متشعِّب وِجهتين : إحداهما ينزِلُها رهطُ ليلى وفيها زيادةُ مرحلة ، فسألهم أن يغدوا(٤) معه إلى تلك الوجهة ، فأبوا ومضى وحدَه وقال :

أأترُكُ ليلى ليس بينى وبينَها ... سوى ليلةٍ إنى إذاً لصبور
هَبونى امرأً منكم أضلَّ بعيرَه ... له ذِمَّةٌ إن الذِّمام كبير
وللصَّاحبُ المتروكُ أعظمُ حرمةً ... على صاحب من أن يضلَّ بعير
عفا الله عن ليلى الغَداةَ فإنَّها ... إذا وَلِيَت حكماً على تَجُور

كان المجنونُ ذات ليلة جالسا مع أصحاب له من بنى عمِّه ، وهو والهٌ يتلظَّى ويتململ ، وهم يعظونه ويحادثونه ، إذ هتفت حمامةٌ فى سَرحة كانت بإزائهم ، فوثب قائماً وقال:

---

(١) شفاء ، المخطوطتان .
(٢) مقيدى ، الأغانى .
(٣) بأطراف ، الأغانى (وفى بعض النسخ : بأطلال) : باحلال ، المخطوطتان .
(٤) يغدلوا ، الأغانى .

لقد غرَّرتْ فى جُنح ليلٍ حمامةٌ   على إلفها تبكى ، وإنى لنائمُ
كذبتُ وبيتِ الله لو كنتُ عاشقاً   لما سبقَتنى بالبُكاء الحمائمُ

ثم بكى حتى سقط على وجهه مغشيًّا عليه ، فما فاق حتى حَمِيتْ عليه الشمس من غد .

لما أراد زوجُ ليلى الرحيلَ بليلى إلى بلده بلغ المجنونَ أنّه غادٍ بها فقال :

أمزمعةٌ للبين ليلى ولم تَمُتْ   كأنّك عما قد أظلَّك غافل
ستعلمُ إن شطّتْ بهم غُربةُ النوى   وزالوا بليلى أن لبَّك زائل
وأنّك ممنوعُ التصبّرِ والعزا   إذا بَعُدت ممَّن تحبُّ المنازل

ذكر ابن الأعرابى أن نِسوةً جلسنَ إلى المجنون ، فقلن له : « ما الذى دعاك إلى أن أحْلَلْتَ بنفسك ما ترى فى هوى ليلى ، فإنَّما هى امرأةٌ من النساء ؟ هل لك فى أن تصرِفَ هواكَ عنها إلى إحدانا ، فنساعِفَك ونُجزيكَ بهواك ، ويرجعَ إليك ما عزَب من عقلك وجسمك ؟ » فقال لهن : « لو قدرتُ على صرف الهوى عنها إليكُنَّ لصرفتُه عنها وعن كل أحد بعدها ، وعشت فى الناس سويًّا مستريحا » . فقلن له : « فما أعجبك منها ؟ » قال : كلُّ شىء رأيتُه وشاهدتُه وسمعتُه منها أعجبنى ، والله ما رأيت منها شيئاً إلا كان فى عينى حسناً ، وبقلبى عَلِقا ، ولقد جَهِدتُ أن يقبُح منها شىء عندى أو يسمجَ أو يعابَ لأسْلُوَ بِه عنها فلم أجد » . فقلن : « فصفها لنا » ، فقال :

بيضاء خالصة البياض كأنها   قمرٌ توسَّط جنحَ ليلٍ مُبْرَد
مَوسومةٌ بالحسن ذاتُ حواسِدٍ   إن الجمالَ مَظِنَّة للحسَّد
وترى مدامعُها ترقرقَ مقلةٍ   سوداء ترغب عن سواد الإثمِد

قال رجل من عشيرة المجنون : « إنى أريد الإلمام بحىِّ ليلى ، فهل تُودِعُنى إليها شيئاً ؟ » قال : « نعم : قِفْ بحيث تسمعُك ، ثم قل :

اللهُ يعلم أن النفس قد هلكت ... باليأس منك ولكنى أُعَنِّيها
منَّيْتُكِ النفسَ حتى قد أضرَّ بها ... وأبصرت خُلُفاً مما أُمنِّيها
وساعةٌ منك ألهوها وإن قَصُرَت ... أشهى إلىّ من الدنيا وما فيها »

فمضى الرجل ولم يزل يترقَّب خَلوة حتى وجدها ، فوقف عليها ثم قال : « ياليلى ، لقد أحسن الذى يقول :

اللهُ يعلم أن النفس قد هلكت ... باليأس منك ولكنى أعنِّيها »

وأنشدها الأبيات ، فبكت بكاء طويلا ، ثم قالت : « أبلغه السلام وقل له :

نفسى فداؤُكَ لو نفسى ملكتُ إذاً ... ما كان غيرُك يحويها(١) ويرضيها
صبراً على ما قضاه الله فيكَ على ... مرارةٍ فى اصطبارى عنك أخفيها »

فأبلغه الفتى البيتين ، وأخبره بحالها ، فبكى حتى سَقط على وجهه مَغْشِياً ، ثم أفاق وهو يقول :

عجبتُ لعُروةَ العذرىِّ أضحى ... أحاديثاً لقوم بعد قوم
وعروةُ مات موتاً مستريحاً ... وها أنا ميِّتٌ فى كل يوم

سأل الملوَّحُ أبو المجنون رجلًا قدِم من الطائف أن يمرَّ بالمجنون ويجلس إليه ، ويخبرَه أنه لقِىَ ليلى وجلس إليها ، ووصفَ له صفاتٍ منها ومن كلامها يعرفها المجنون ، وقال له : « حدِّثه بها ، فإذا رأيته قد اشرأبَّ لحديثك واشتهاه فعرفه أنك ذكرته لها ، فوصفتَ ما به فشتمتْه وسبَّته ، وقالت : إنه يكذِب عليها ويشهِّرها بفعله ، وأنها ما اجتمعت معه قطّ كما يصف » . ففعل الرجلُ ذلك وجاءه وأخبره بلقائها فأقبل عليه وسأله عنها فأخبره ، وهو يزداد نشاطاً ، ويثوب إليه عقله ، إلى أن أخبره بسبِّها إياه وشتمها له ، فقال وهو غير مكترثٍ بما حكاه عنها :

تمرُّ الصَّبا صفحاً بساكن ذى الغَضَا ... ويصدعُ قلبى أن يَهُبَّ هُبوبها

(١) يجزيها ، الأغانى .

إذا هبَّت الريح الشَّمال فإنما ... جواى بما يهدى إلى جَنوبها
قريبةُ عهد بالحبيب ، وإنَّما ... هوى كلِّ نفسى أين حلَّ حبيبها
وحسبُ الليالى أن طرحنَك مَطرحاً ... بدار قِلًى تُمسى وأنتَ غَريبها
حلالٌ لليلى شتمُنا وانتقاصُنا ... هنيئاً ومغفورٌ لليلى ذنوبها

وقال المجنون :

كأن لم تكن ليلى تزار بذى الأَثْل ... وبالسِّدر من أجزاع وَدّان والنخل
صَديقٌ لنا فيما نرى غير أنَّها ... ترى أن حبِّى قد أحلَّ لها قتلى

خرج رجلٌ إلى ناحية الشام والحجاز وما يلى تَيماء والسراة وأرض نجد فى طلب بغية له ، وإذا هو بخَيْمة قد رُفعت له ، وقد أصابه المطر ، فعدَل إليها وتنحنح ، وإذا امرأة كلَّمته وقالت له : « انزل » ، فنزل وراحت إبلُهم وغنمهم فإذا أمرٌ عظيم ، فقالت : « سَلُوا هذا الرجلَ من أين أقبل ؟ » فقلت : « من ناحيةِ نجد وتهامة » ، فقالت : « أدخل أيها الرجل » ، فدخلتُ إلى ناحيةٍ من الخيمة ، فأرخت بينى وبينها ستراً ثم قالت لى : « ياعبدَ الله أيَّ بلاد نجدٍ وطئت؟ » فقلت : « كلها». قالت : « فَبِمَن نزلتَ هناك؟ » قلت : « ببنى عامر » ، فتنفَّست الصُّعَداء ، ثم قالت : « فبأيِّ بنى عامر نزلت ؟ » قلتُ : « ببنى الحَرِيش » ، فاستعْبَرت ثم قالت « هل سمعتَ بذِكر فتىً منهم يقال له : قيسُ بن الملوَّح ، ويلقَّب بالمجنون ؟ » فقلت : « بلى والله ، وعلى أبيه نزلت ، ولقد نظرتُ إليه يهيمُ فى تلك الفيافى ، ويكونُ مع الوحش لا يعقل ولا يفهم ؛ إلا أن تُذكَر امرأةٌ يقال لها : ليلى ، فيسكنُ وينشدُ أشعاراً فيها » قال : فرفعت الستر بينى وبينها فإذا فِلقةُ قمر لم ترعينى مثلَها ، فبكت حتى ظننتُ أن قلبها قد انصدع ، فقلت : « أيها المرأة ، اتقى الله فما قلتُ بأساً » فمكثتْ طويلاً على تلك الحال من البكاء ثم قالت :

ألا ليت شعرى والخطوبُ كثيرةٌ ... متى رحلُ قيسٍ مستقِلٌّ فراجع

بنفسيَ من لا يستقـلُّ برحْله ومن هو إن لم يحفظِ اللهُ ضائع

ثم بكت حتى سقطت مغشيًّا عليهـا ، فقلت لهـا : « من أنتِ يا أمةَ الله ، وما قصتّك ؟ » قالت : « أنا ليلى صاحبتُه ، المشئُومة عليه ، غير المواسية له » فما رأيتُ مثلَ حزنها ووجدها عليه .

رُوِى أن شيخاً من بنى مرَّة قال : خرجتُ إلى أرض بنى عامر لألقى المجنون ، فدلّونى على فتى من الحىِّ صديق المجنون وقالوا : إنه لا يأنَس إلا بالمجنون ، ولا يأخذ أشعارَه عنه غيرُه . فأتيتُه فسألتُه أن يدلَّنى عليه فقال : « إن كنتَ تريدُ شعره فـكلُّ شعر قاله أمسِ عندى ، وأنا ذاهبٌ إليه غداً ، فإن كان قال شيئاً أتيتُك به » فقلت : « بل تدلُّنى عليه » فقال : « اطلبه فى هذه الصحارى ، فإذا رأيته فادنُ منه مستأنساً ، ولا تُرِه أنك تهابُه ، فإنه يتهدَّدك ويتوعَّدك أنْ يرميَك بشىء ، فلا يروِّعك ، واجلس صارفاً بصرَك عنه ، والحظْه أحياناً ، فإذا رأيتَه قد سكن من نِفاره فأنشده شعرا غَزِلًا ، فإن كنتَ تروى شيئاً من شعر قيسِ بن ذَريح فأنشِده إياه ، فإنه يُعجَب به » . فطلبتُه يَوْمى إلى العصر ، فوجدته جالساً على رملٍ قد خط فيه بأصبعه خطوطا ، فدنوتُ منـه غير منقبِض ، فنفر منى نفورَ الوحش من الإنس ، وإلى جانبه أحجارٌ فتناول حجراً ، فأعرضتُ عنه ، فمكث ساعةً كأنه نافِر يريد القيام ، فلما طال جلوسى سكَنَ وأقبلَ يخطُّ بأصبعه ، فأقبلتُ عليه وقلت له : « أحسَنَ والله قيسُ بن ذَريحٍ حيث يقول :

ألا يا غرابَ البين ويحك نَبِّنا بعلمك فى ليلَى فأنت خَبير
فإن أنت لم تُخبِر بشىء علمتَه فلا طِرتَ إلا والجناح كسير
ودُرت بأعداء حبيبُك فيهم كما قد ترانى بالحبيب أدور »

فأقبل علىّ وهو يبكى ، وقال : أحسَنَ والله ، وأنا أحسنُ منه قولًا حيثُ أقول :

كأن القلبَ ليلةَ قيل يُغدَى بليـلى العامريَّةِ أو يُراح

قطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتت ... تجاذِبه وقد عَلِق الجنــاح
فلا بالليــل تألفُ فى مبيت ... ولا فى الصّبح كان لها براح

قال : فأمسكت عنه هُنيهة ، ثم أقبلتُ عليه فقلت : أحسنَ قيسُ بن ذَرِيح حيث يقول :

وإنى لمُفْنٍ دمعَ عينىَّ بالبكا ... حِذاراً لما قد كان أو هو كائن
وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلةٍ ... فراقُ حبيبٍ لم يَبِن وهو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيَّتى ... بكفَّيك إلا أن مَن حَانَ حائن

قال : فبكى حتى ظننت أن نفسه قد فاضت ، ورأيتُ دموعه قد بلّت الأرض والرملَ الذى بين يديه ، ثم قال : « أحسَنَ لعمرُ الله ، وأنا أشعرُ منه حيثُ أقول :

وأَدْنَيتِنى حتى إذا ما سَبَيْتِنى ... بقولٍ يحلُّ العُصمَ سَهل الأباطح
تناءيتِ عنِّى حيث لا لىَ حيلةٌ ... وخلَّفتِ ما خلَّفت بين الجوانح

ثم سنحت له ظبيةٌ فوثب يعدو خلفها حتى غاب عنِّى ، وانصرفت . وعدتُ من غدٍ فطلبتُه فلم أجده ، وجاءت امرأةٌ كانت تضع له الطعام ، فنظرتُ إلى الطعام فوجدتُه بحاله ؛ فلما كان فى اليوم الثالث غدوتُ وجاء أهله معى فطلبناه يومَنا فلم نجده ، وغَدَوْنا فى اليوم الرابع نستقرى أثَرَه فوجدناه فى وادٍ كثيرِ الحجارة خَشِن ، وهو ميِّتٌ بين تلك الحجارة ، فاحتمله أهله فغسَّلوه وكفَّنوه ودفنوه . فلم تبقَ فتاةٌ فى بنى جَعدة ولا بنى الحَرِيش إلا خرجت حاسِرَةً صارخةً عليه تندُبه ، واجتمع فتيانُ الحىِّ يبكون أحرَّ بكاء ، وينشجون أشدَّ نَشيج . وحضَرهم حىُّ ليلى معزِّين وأبوها معهم ، فكان أشدَّ القوم بكاءً وجزعاً عليه ، وجعل يقول : ما علمتُ أنَّ الأمر يبلغُ كلَّ هذا ، ولكنِّى كنت امرأً أعرابيًّا أخاف مِنَ العار وقبحِ الأحدوثة ما يخافُه مثلى ، وزوّجتُها وخرجَت عن يدى ، ولو علمتُ أن أمره يجرى

على مثل هذا ما أخرجتُها عن يده ، ولاحتملتُ ما كان عليّ فى ذلك ، فما رُئىَ يومٌ كان أكثرَ باكٍ وباكيةً على ميّت منه يومئذ ، وروى أنّهم بيناَ هم يقلّبونه وهوميّت إذ وجدوا خِرقةً فيها مكتوب :

ألا أيها الشيخُ الذى ما بِنا يرضَى ... شَقِيتَ ولا هنيِّت من عيشك الخفْضا
شَقِيتَ كما أشقيتَنى وتركتَنى ... أهيمُ مع الهلّاك لا أطعم الغمضا
كأن فؤادى فى مخاليب طائرٍ ... إذا ذُكِرتْ ليلى تشدُّ به قبضا
كأن فِجاجَ الأرض حَلْقةُ خاتِم ... علىَّ فما تزداد طولًا ولا عَرضا

قال بعض القُشَيْريِّين : مررتُ بالمجنون وهو مشرِفٌ على وادٍ فى أيامّ الربيع ، وذلك قبلَ أن يُختَلَط ، وهو يتغنَّى بشعرٍ لم يُفهم ، فصحتُ به : « يا قيسُ ، أما تشغلُك ليلى عن الطرَب والغناء » ، فتنفَّس نفساً ظننتُ أن حيَازيمه قد انقدّت ، ثمّ قال :

وما أُشرِفُ الأيْفاعَ إلا صَبابةً ... ولا أُنشِدُ الأشعارَ إلا تداوِيا
وقد يجمعُ اللّٰه الشتيتين بعد ما ... يظنّان كل الظن أن لا تلاقيا
لحا اللّٰه أقواماً يقولون : إنّنى ... وجدتُ طَوالَ الدّهر للحبّ شافيا

اجتاز قيسُ بن ذَريح بالمجنون وهو جالسٌ وحده فى نادى قومه ، وكان كلٌّ واحدٍ منهما مشتاقاً إلى لقاء الآخر ، وكان المجنونُ قبل توحُّشه لا يجلس إلا منفرداً ، ولا يحدِّث أحداً ، ولا يردُّ على متكلِّم جواباً ، ولا على مسلِّمٍ سلاماً ؛ فسلم عليه قيسُ بن ذريح فلم يردَّ عليه السلام ، فقال له يا أخى : « أنا قيسُ بن ذريح » ، فوثب إليه فعانقه وقال : « مرحباً بك يا أخى ، أنا واللّٰه مذهوبٌ بى ، مُشْتَرَكُ اللُّب ، فلا تلمنى » . فتحدّثا ساعةً وتشاكيا وبكيا . ثم قال له المجنون : « يا أخى ، إن حىّ ليلى قريبٌ منا ، فهل لك أن تمضىَ إليها وتبلغها عنى السلام » ، فقال : « أفعل » . فمضى قيسُ بن ذريح حتّى أتى ليلى فسلّم وانتسب ، فقالت له : « حيّاك اللّٰه ! ألك

حاجة ؟ » قال : « إن ابنَ عمِّك أرسلني إليك » ، فأطرقت وقالت : « ما كنتَ أهلًا للتحيَّة لو علمتُ أنك جئتَ رسولَه ، قل له عنِّي : أرأيتَ قولَك :

أبت ليــــلةٌ بالغَيْل يا أمَّ مالك بــكم غير حبٍّ صادقٍ ليس يكذب

الا إنمــــا أبقيتِ يا أمَّ مالك صدى أينما تذهَبْ به الريحُ يذهب

أخبرْني عن ليلة الغَيْل . أيّ ليلةٍ هي ؟ وهل خلوتُ معَكَ قطُّ في الغَيل أو غيره ، ليــلا أو نهاراً ؟ » فقال لها قيس : « يا ابنةَ عمّ ، إنَّ الناسَ تأوَّلوا قوله على غير ما أراد ، فلا تــكوني منهم ؛ إنَّما أخبر أنه رآكِ ليلة الغَيْل فذهبتِ بقلبه ، لا أنَّه عــَني السوء » . قال : فأطرقَتْ طويلًا ودموعُها تجرى وهي تــكفكفها ، ثم انتحبت حتى قلتُ : تقطَّعت حيازيمُها . ثم قالت : « أقرِ ابنَ عمِّي السلامَ وقل له : بنفسي أنتَ واللّه ، إن وَجْدي بك لفوقَ ما تَجِد ، ولــكن لا حيلة لي فيك » فانصرف قيسٌ إليه ليخبَره فلم يجده .

مرَّ المجنونُ بعد اختلاطه بليلى تمشي في ظاهر البيوت بعد فقدٍ لها طويل ، فلمــا رآها بكى حتى سقط على وجهه مغشيًّا عليه ، فانصرفَتْ خوفًا من أهلها أن يَلْقَوها عنده ، فمــكث مليًّا فلما أفاق قال :

بكى فرحاً بليــلى إذ رآها محبٌّ لا يرى حَسَناً سواها

لقد ظفِرتْ يداه ونال مُلــكاً لئن كانت تَراهُ كما يَراهــا

قيس بن الخطيم

هو قَيْسُ بن الَخطيم بن عَدِىّ بن عمرو بن سُود بن ظَفَر . وكنيتُه أبو يزيد ، أنْشدَ ابنُ أبى عَتيق قولَ قيس بن الخطيم :

بين شكُول النساء خِلقَتُها حَذْواً فلا جَبْلَةٌ ولا قَضَفُ

فقال : لولا أن أبا يزيد قال : حَذْواً ما درى الناسُ كيف يحشون هذا الموضع .

حدَّث أبو عبيدة عن محمّدبن عَمّار بن ياسِر ، وكان عالماً بحديث الأنصار ، قال: كان من حديث قَيس بن الَخطيم أن جدَّه عدىَّ بن عمرو قَتَله رجلٌ من بنى عامر بن صعصعة، يقال له : مالِك، وقتل أباه الَخطِيم بنَعدىّ رجلٌ من بنىحارثة بن الحارث ابن الخزرج يقال له : مالك ، اغتاله فقَتَله ، وقيل : إن الَخطِيم قتله رجلٌ من عبد القيس ممن يسكن هَجَر . وكان قيسٌ يوم قُتِل صغيراً ، وقُتِل الَخطيمُ قبل أن يثأر بأبيه عدىٍّ ، فخشِيَتْ أمُّ قيسٍ على ابنها أن يخرجَ فيطلبَ بثأر أبيه وجده فيهلِك ، فعمدَت إلى كوم تراب عند باب دارهم فوضعت عليه أحجاراً ، وقالت لقَيس : هذا قبرُ أبيك وجدِّك ، فكان قيسٌ لا يشكّ فى ذلك . ونشأ أيِّداً شديد الساعدين ، فنازع يوماً فتًى من فِتيان بنى ظفَر ، فقال له ذلك الفتى : «لو جعلتَ شدَّة ساعدَيك على قاتلى أبيك وجدِّك لكان خيراً من أن تخرجهما علىّ » . قال : « ومن قاتلُ أبى وجدِّى ؟ » قال : « سل أمَّك تخبرْك » فأخذ السيفَ فوضع قائمه على الأرض وذُبابَه بين ثَدْيَيه ، وقال لأمِّه : « أخبرينى من قَتَل أبى وجدِّى » . قالت : ماتا كما يموت الناس ، وهذان قبراهما بالفِناء » ، قال : « والله لتخبرِنَّنى من قتلَهما أو لأتحاملنّ على السيفِ حتى يخرُجَ من ظهرى » . فقالت « أما جدُّك فقتله رجلٌ من

بنى عَمرو بن عامر بن ربيعة يقال له مالك ، وأما أبوك فقتلَه رجلٌ من عبد القَيس ممن يسكُنون هَجَر » . فقال : « والله لا أنتهى حتى أقتُلَ قاتلَ أبى وجـدى » . قالت : « يا بنىَّ ، إن مالـكاً قاتلَ جدِّك من قوم خِداش بن زُهير ، ولأبيك عند خِداشٍ نعمة هو لهـا شاكر ، فأته فاستشره فى أمرِك ، واستَعِنْه يُعِنْك » ، فخرج قيسٌ من ساعتِه حتى أتى ناضِحه وهو يسقى نخله ، فضرب الحبلَ بالسيف فقطعه ، فسقطت الدَّلو فى البئر ، وأخذ برأسِ الجمل فحمل عليه غِرارتين من تَمْر وقال : « من يكفينى هذه العجوزَ ؟ يعنى أمَّه ، فإن مِتُّ أنْفَقَ عليها من هذا الحائط حتّى تموت، ثم هوله، وإن عِشتُ فمالى عائدٌ لى ولَهُ منه ما شاءَ أن يأكل من تمره » فقال رجلٌ من قومه « أنا لها » ، فأعطاه الحائطَ ، ثم خرج يسأل عن خِداش بنِ زهير حتى دُلَّ عليه بمرِّ الظَّهْران ، فأتى خِباءه فلم يجده فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافُه ، ثم نادى امرأةَ خِداش : « هل من طعام ؟ » فاطَّلعت عليه ، فأعجبها جماله ، وكان من أحسنِ الناس وَجهاً فقالت : « والله ماعندنامن نُزُل نرضاه لَك إلا التمر » ، فقال : «لا أبالى ، أخْرِجى ما كان عندك » ، فأرسلتْ إليه بقباعٍ فيه تَمر ، فأخذ منـه تمرة فأكل شِقَّها ، وردَّ الشقَّ الباقى فى القُباع ، ثم أمر بالقُباع فأدخل على امرأة خِداش ، ثم ذهب لبعضِ حاجاتِه. فرجع خِداشٌ فأخبرته امرأتُه خبرَ قيس فقال : « هـذا رجلٌ متحرِّم بنا » وأقبل قيسٌ راجعاً ، وهو يأكل مع امرأته رُطَبا ، فلما رأى خِداشٌ رَحْلَه وهو على بعيره قال لامرأته: «هذا ضيفك؟» قالت : «نعم» قال « كأنَّ قدمَه قدمُ الخطيم صديقى اليَثْربىّ» . فلما دنا منه قَرَعَ الظلَّةَ بسِنان رُمحه واستأذن ، فأَذِن له خداش ، وقال : « أدخل » فدخل ، فنسَبَه فانتَسب ، وأخبره بالذى جاء له ، وسأله أن يُعينَه ويشيرَ عليه فى أمره ، فرحَّب به خِداش وذكر نعمة أبيه عنده ، وقال : « إنّ هذا الأمرَ ما زلت أتوقَّعُه منذ حين ، فأما قاتل جدِّك فهو ابن عمَّة لى وأنا أُعينُك عليه ، فإذا اجتمعنا فى نادينا جلستُ إلى جَنْبه وتحدثت معه ، فإذا ضربتُ فخذه فثِبْ إليه فاقتله

قال قيس : فأقبلتُ نحوَه حتى قمتُ على رأسه لمّا جالسه خِداش ، فحين ضرب فَخِذه ضربتُ عنقَه بسيفٍ يقال له ذو الُخرصَيْن ، فثار إليَّ القومُ ليقتلونى ، فحال خِداشٌ بينهم وبينى وقال : « دعوه فإنه والله ما قَتَلَ إلا قاتل جدِّه » ثم دعا خِداشٌ بجَمَل من إبله فركِبَه وانطلَق مع قيس إلى العَبْدىِّ الذى قتل أباه ، حتى إذا كان قريبا من هَجَر أشار عليه خِداشٌ أن ينطلق حتى يسأل عن قاتِل أبيه ، فإذا دُلَّ عليه قال له : « إن لصًّا من لصوص قَوْمِك عارضنى فأخذ متاعى ، فسألتُ عن سيِّد قومه فدُللتَ عليك ، فانطلِق معى حتَّى تأخذ متاعى منه » فإن اتَّبعك وحدَه فسبيلُ ذلك [1] ، وإن خرج معه غيرُه فاضْحَك ، فإن سألكَ : « ممَّ ضحِكُك ؟» فقل : « إن الشريفَ عندنا لا يصنَعُ كما صنعت إذا دُعِى إلى اللصوص من قومه ، وإنما يخرجُ وحدَه بسَوطه دون سيفه ، فإذا رآه اللصُّ أعطاه كلَّ شىء أخذَه هيبة له ، فإن أمر أصحابه بالرجوع فسبيلُ ذلك ، وإن أبَوْا إلَّا أن يمضوا معه فأْتِنى به فإنى أرجو أن نَقْتُله ونَقْتُلَ أصحابه فنزل خِداشٌ تحت ظلِّ شجرة ، وخرج قيس حتى أتى العبدىَّ فقال له ما أمره خداش ، فأحفظه وأمر أصحابه فرجعوا ، فمضى مع قيس . فلما طلع على خِداش قال له : « اخترْ يا قيس : إما أن أعينَك وإمَّا أن أكفِيَك » فقال : « لا أريدُ واحدةً منهما ، ولكن إن قَتَلَنى فلا يَفُتْك » ، ثم نازله فطعنه قيس بالحربة فى خاصرته فأنفذها من الجانب الآخر ، فمات مكانَه ؛ فلما فرغ منه قال له خِداش : « إنَّا إن فررنا الآن طلبَنا قومُه ، ولكن ادخل بنا إلى مكانٍ قريب من مقتله ، فإن قومه لا يظنُّون أنك قتلتَه وأقمت[2] قريباً منه ، ولكنَّهم إذا افتقدوه اقتصُّوا أثره ، فإذا وجدوه قتيلًا خرجوا فى أثَرِنا هنالك من كل وَجه ، فإذا يَئِسوا رجعوا » قال : فدخلا فى داراتٍ من رمل هنالك ، وفقد العبدىَّ قومُه فاقتصّوا أثره فوجدوه قتيلا ، فخرجوا يطلبونهما

---

(١) فستنال ما تريد منه ، الأغانى .

(٢) ولا أقمت ، المخطوطتان .

فى كلِّ وَجه ثم رجعوا ، فكان أمرُهم على ما قال خِداش . وأقاما مكانَهما أياماً ثم خرجا ، فلم يتكلَّما حتى أتيا منزل خداش ، ففارقه عنده قيسُ بن الخطيم ورجع إلى أهله . فى ذلك يقول قيس :

تذكَّر ليلى حسنَها وصفاءها ... وبانَتْ فما إن يَستطيع لقاءها

ومثلُكِ قد اصْبَيْتُ ليس بكَنَّةٍ ... ولا جارةٍ أفضت إلىَّ خِباءها

ثأرت عديًّا والخطيمَ ولم أُضِع ... وَديعةَ آباء(١) جُعلتُ إزاءها*

ضربتُ بذى الخرصَين ربقة(٢) مالك ... وأبتُ بنفسٍ قد أصبتُ شفاءها

وساعدنى فيها ابن عمرو بن عامر ... خداشٌ وأدَّى نِعمة وأفاءها

طعنت ابنَ عبد القيس طعنةَ ثائرٍ ... لها نَفَذٌ لو لا الشُّعاع أضاءها

ملكتُ بها كفِّى فأنهرت فَتْقَها ... يرى قائمٌ من دونِها ما وراءها

قال أَنس بن مالك : جلسَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم فى مجلسٍ له ليس فيه إلا خَزْرَجىّ ، ثم استَنْشَد قصيدة قَيْس بن الخطيم :

* أتعرفُ رسماً كاطِّراد المذاهب *

فأنشده بعضُهم إيَّاها ، فلما بلغ إلى قوله :

أجالِدُهم يوم الحديقة حاسِراً ... كأن يدى بالسيف مِخراقُ لاعب

فالتفت إليهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم فقال : « هل كان كما ذكَر ؟ » فشهد له ثابتُ بن قيس بن شمّاس الخزرجىّ ، وقال : والذى بعثَكَ بالحقِّ يا رسول الله ، لقد خرج إلينا يوم سابِع عُرسه عليه غِلالَةٌ ومِلْحفة مُوَرَّسة فجالدنا كما ذكر .

قال مُصعب : لم يكن بينهم فى هذه الأيام حرب إلا فى يوم بُعاث ، فإنه كان عظيما ، وإنما كانوا يَخْرجون فيترامَوْن بالحجارة ويتضاربون بالخشب .

(١) وصية أشياخ ، الأغانى .
* آخر السقط فى نسخة كوبريلى .
(٢) رقبة ، المخطوطتان .

قال الزبير وأنشدت محمد بن فَضَالة هذا البيت :

أجالِدُهم يوم الحديقة حاسِراً كأن يدى بالسَّيف مِخراق لاعب

فضحك وقال ، : « ما اقتتلوا يومئذٍ إلا بالرطائب والسعف » .

وهذه القصيدة من خيار شعر قيس بن الخطيم .

قال حسّان بن ثابت : قدم نابغة بنى ذُبيان السوق ، فنزل عن راحلته ، ثم جثا على ركبتيه واعتمد على عصاه ، ثم أنشد :

عرفت منازلا بِعُرَيْتِنَاتٍ فأعلى الجِزع للحىِّ المِبنِّ(1)

فقلت:هلك الشيخ . ورأيته تَبِع قافيةً منكرة . ويقال : إنه قالها فى موضعها ، فمازال يُنشِد حتى أتى على آخرها ، ثم قال : « ألا رجلٌ ينشد ؟. » فتقدَّم قيسُ بن الخطيم فجلس بين يديه وأنشد:

* أتعرفُ رسماً كاطِّراد المذاهب *

حتى فرغ منها فقال : « أنت أشعرُ الناس » وقيل : إنه قال له : « أنت أشعر الناس يا ابنَ أخى ؛ » لمّا أنشده نصفَ البيت خاصَّة : «أتعرِفُ رسماً كاطراد المذاهب» قال حسَّان : « فداخلنى منه ما يداخِل ، وإنّى فى ذلك لأجدُ فى نفسى قوَّةً عليهم ، ثم تقدمتُ فجلست بين يديه فقال : أَنْشِد فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم » ، قال : وكان يعرِفنى فأنشدتُه ، فقال : أنت أشعرُ الناس .

وكان قيس بن الخَطِيم مقرونَ الحاجبين أدعج العَينين أحمّ الشفتَين برّاق الثنايا كأن بينها برقاً ، ما رأته حليلةُ رجل قطّ إلا ذهب عقلُها .

قال حسّان بن ثابتٍ للخنساء : أُهجِى قيسَ بن الخطيم ، فقالت : « لا أهجو أحدا حتى أراه » ، فجاءته يوماً فرأته فى مَشْرَفة ملتفاً بكساء له ، فنَخَسَتْه برِجلها وقالت : « قم » ، فقام فقالت : « أدبِر » ، فأدبَرَ . ثم قالت : « أقبل » ، فأقبل

(1) للحى المبن ، الأغانى : بالخيف المبين ، جميع النسخ .

قال : « والله لـكأنَّها تتعرَّض عبداً لتشتريه » ثم عاد إلى حاله نائما فقالت : « والله لا أهجو هذا أبداً » .

وكانت عند قَيس حَوَّاء بنت يَزيد بن سِنان بن كُرز بن زَعُوراء ، فأسلمت ، وكانت تـكتُم قيسَ بن الخطيم إسلامَها ، فلما قدِم قيسٌ مكّة عرض رسـولُ الله صلّى الله عليه وسلّم عليه الإسـلام ، فاستَنْظره قيس حتى يقدَم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة ، فسأله رسولُ الله صلى الله عليـه وسلّم أن يجتنب زوجَتَه حوَّاء وأوصاه بها خيرا ، وقال له : « إنها قد أسلمت » ، ففعل قيس ذلك وحفظ وصيَّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فبلغ رسولَ الله صلّى الله عليـه وسلّم ذلك فقال : وَفَى الأُدَيْعِـج .

قال أبو الفرج المصنف : *أحسَب هذا غلَطا من رُواته ، وأنّ صاحبَ هذه القصّة قيسُ بن شمّاس ، وأما قيسُ بن الخطيم فقُتل قبل الهجرة .

روى المفضَّل أن حربَ الأَوْس والخزرج لـما هدأت تذكَّرت الخزرجُ قيسَ ابن الخطيم ومكانتَه فيهم فتوامروا وتواعدوا قتله ، فخرج عشيَّة فى مُلاءَتين من منزله، يريد مالا له بالشَّوْط حتى مر بأُطُم بنى حارثة فرُمِى من الأُطُم بثلاثة أسهُم ، فوقَـع أحدُها فى صدره ، فصاح صيحةً أسمَعها رهطه فجاءوه ، فحملوه إلى منزله ، فلم يروا(١) إلا أبا صَعْصَعَة يزيدَ بن عوف بن مُدْرِك النجّارىّ ، فاندسَّ إليه رجلٌ من رهط قيسٍ حتى اغتاله فى منزله ، فضربَ عُنقه واشتمل على رأسه ، فأتى به قيسا وهو بآخِر رَمَق ، فألقاه بين يديه وقال : « يا قيس ، قد أدركتُ بثأرك » فقال : عَضَضْتَ بأيْرِ أبيك إن كان غيرَ أبى صَعْصَعَة » ، فأراه الرأس ، فلم يلبث قيسٌ بعد ذلك أن مات .

---

* بدء سقط آخر فى نسخة كبريلى .

(١) فلم يروا له كفئا ، الأغانى .

وكان قيسُ قد شبَّب بعَمرة بنت رَوَاحة وقيل : بعَمْرَة بنت صامِت بن خالد ، زوجة حسَّان بن ثابت ، فقال فيها :

* أجدّ بعَمْرَة غُنْيانُها *

لأن حسَّان بن ثابت ذكر ليلى بنتَ الخطيم فى شِعره ، فكافأه قيس بن الخطيم بذلك ، وكان ذلك فى حَربٍ بينهم يقال لها يومُ الربيع ، لأنّ حسانَ مرَّ بليلى بنت الخطيم ، وأخوها قيس بمكّة ، حين خرجوا يطلبون الحِلْف فى قريش ، فقال لها حسّان : اظعَنى[1] والحقى بالحىِّ فقد ظعنوا ، وليتَ شِعرى ما خلَّفك وما شأنك ؟ أقلَّ ناصرُك أم راثَ وافدك » فلم تكلِّمه وشتَمه نساؤُها ، فقال :

لقد هاج نفسَك أشجانُها وعاوَدَها اليومَ أزمانُها[2]
تذكَّرتُ ليلى وإنّى بها إذا قُطِّعت منك أقْرانُها
وحجّل فى الدار غِربانُها وخفَّ من الدار سُكّانُها
وغيَّرها مُعصِراتُ الرِّياح وسحُّ الجَنُوب وتَهتانُها
وَقفتُ عليها فساءلتُها وقد ظعَن الحىُّ ، ما شأنُها
فعيَّت وجاوَبنى دونها بما راع قلبىَ أعوانُها

فأجابه قيسُ بن الخطيم بقوله :

أجدَّ بعَمرةَ غُنْيانُها فتَهْجُرَ أم شأننا شانُها

وفخر بيوم الربيع فيها ، فقال :

ونحن الفوارسُ يومَ الرَّبيـ ـعِ قد علموا كيفَ فُرسانُها
حِسانُ الوُجوه حِدادُ السيو ف يَبْتَدِرُ المجدَ[3] شبَّانُها

---

(١) أطيعينى ، المخطوطتان .

(٢) أديانها ، الأغانى .

(٣) تبتدر الوخد ، المخطوطتان .

لما دخل النعمانُ بن بشير الأنصاريُّ المدينة أيامَ يزيدَ بنِ معاوية وابنِ الزُّبير قال : واللهِ لقد أخْفَقَتْ أذُنایَ من الغناء فأسمِعُونی ، فقيل له : « لو وجَّهتَ إلى عزَّة المَيْلاء » ، فقال : « إی وربِّ البيت ، إنها ممن يزيدُ النَّفس طرباً[1] ، إبعثوا إليها عن رسالتی ، فإن أبَتْ صِرنا إليها » . فقال له بعض القوم : « إن النُّقْلَةَ تشتدُّ عليها لثِقَل بدنها ، وما بالمدينة دابَّةٌ تحملها » فقال النُّعمان : « وأين النَّجائبُ عليها الهوادِج » . فسيَّر إليها نجيباً ، فذكرتْ عِلَّة ؛ فلما عاد الرسول إلى النُّعمان قال لجليسه : « أنت كنتَ أخبرَ بها ، قوموا بنا » فقام مع خواصِّ أصحابه حتى طرَقَها ، فأذنَت لهم وأكرمت واعتذرت ، فقبل النُّعمان عُذْرَها وقال : « غنِّينى » ، فغنتـه :

أجـد بعَمرةَ غُنْيَانُها فتهجُرَ أم شأنُنا شانُها

فأُشيرَ إليها أنها أمُّه فسكتت ، فقال : « غنِّينى ، فوالله ما ذكرتِ إلا كرماً وطيباً ، لا تغنِّينى سائرَ الأيَّام غيرَه » فلم تزل تغنِّيه هذا اللحنَ فقط حتى انصرف .

قال أبو المنهال عيينة[2] بن المِنهال : بعث رجلٌ من غَطَفان[3] من بنى ثَعلبة ابن سعد بن ذُبيان إلى يَثرِب بفرسٍ وحلّة مع رجل من غَطَفان[3] ، وقال : ادفعهما إلى أعزِّ أهل يثرب ، فجاء الرسولُ بهما حتّى ورد سوقَ بنى قَيْنُقاع فقال ، ما أُمِر به ، فوثب إليه رجلٌ من غَطَفان كان جاراً لمالك بن العَجلان الخَزْرجى يقال له : كَعب الثَّعْلبى ، فقال : « مالكُ بن العَجلان أعزُّ أهل يثرب » وقام رجلٌ آخرُ فقال : « بل أُحَيْحَة بن الجُلاح أعزُّ أهل يثرب » ، وكثُر الكلام فقبِل الرسُولُ من الغَطَفانىِّ قولَ الثَّعْلبى جارِ مالك ، ودفعهما إلى مالكِ بن العَجْلان ، فقال كعبُ

---

(٢) طيبا والعقل شحذا ، الأغانى .

(٢) عتيبة ، عتبة ، بعض نسخ الأغانى .

(٣) من بنى ثعلبة ... من غطفان ، ساقط فى المخطوطتين

الثَّعلبي : « ألم أقل لكم إن جاري أعزُّكم ؟ » فغضب رجلٌ من بني عمرو بن عَوْف ابن مالك بن الأَوْس يقال له : سُمَيْر ، فرصَد الثَّعلبي حتى قتله ، فأُخبِر مالكٌ بذلك ، فأرسلَ إلى بني عمرو بن عوف بن مالك : « إنكم قتلتُم منَّا قتيلًا فأرسلوا بقاتِله إلينا » ، فلمّا جاءهم رسولُ مالك تراموْا به ، فقالت بنو زيد : « إنَّما قتلَه بنو جَحْجَبي » . وقالت بنو جَحْجَبيَ : « إنّما قتله بنو زيد » ، ثمَّ أرسلوا إلى مالك : « إنه قد كان في السُّوق التي قُتِل فيها صاحبُكم ناسٌ كثير لا يُدرى أيُّهم قتله » قال : فأُخْبِر مالكٌ أن أهلَ تلك السّوق تفرَّقوا فلم يبق فيها غير سُمَيْر وكعب ، فأرسل مالكٌ إلى بني عمرو بن عوف بالذي بَلَغه من ذلك وقال : « إنّما قتَلَه سُمَير فأرسلوا إلي به أقتله » ، فأرسلوا إليه أنه ليس لك أن تَقْتُل سُمَيْراً بغير بيِّنة ، وكثُرت الرُسُل بينهم في ذلك : تُسائلهم[1] أن يُعطوه سُمَيرا ويأبون أن يُعطوه إياه ؛ ثم إنَّ بني عمرو بن عَوْف كرهوا أن يُشبُّوا بينهم وبين مالكٍ حربا ، فأرسلوا إليه يعرِضون عليه الدِّية فقبلها ، فأرسلوا إليه : « إن صاحبَكم حليفٌ وليس لكم إلا نصفُ الدية » ، فغضب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلا الديةَ كاملةً ، أو يقتل سُميراً ، فأبت بنو عمرو بن عوف أن يعطوه إلا دِيَة الحليف ، وهي نصف الدية ، ثم دَعَوْه أن يحكُم بينه وبينهم عمرُو بن امرئ القيس ، أحدُ بني الحارث ابن الخزرج ، وهو جدُّ عبد الله بن رَواحة ، فانطلقوا حتّى جاءوا بني الحارث بن الخزرج ، فقضى على مالك بن العَجلان أنه ليس له في حَليفه إلا دية الحليف ، وأبى مالكٌ أن يرضى بذلك ، وآذن في بني عمرو بن عوف بالحرب ، واستَنْصر قبائلَ الخزرج ، فأبت بنو الحارث بن الخزرج أن تنصرَه غضباً حين ردَّ قضاءَ عمرو ابن امرئ القيس ، فقال مالك بن العَجلان يذكر خِذلان بني الحارث له ، وحَدَبَ بني عمرو بن عَوف على سُمير ، ويحرِّض بني النجار على نَصْره :

---

(١) يسألهم مالك ، الأغاني .

إن سُمَيراً أرى عشيرتَـه قد حَدِبوا دونه وقد أَنِفوا
إن يكن الظنُّ صادقى ببنى النّـ ـنَجَّار لا يَطْعَموا الذى عُلِفوا
لا تسلِمونا لمعشرٍ أبـداً ما دام منـا بِبَطنها شَرَف
لـكن مَوالىّ⁽١⁾ قد بدا لَهمُ رأىٌ سوى ما لدىَّ أو ضَعُفوا
بين بنى جَحْجَبَى وبـين بنى زيدٍ فأنّى تخـاذل⁽٢⁾ السلفُ
يمْشون فى البَيْض والدّروع كما تَمشِى جِمـالٌ مَصَاعِبٌ قُطُف

وقال دلهم⁽٣⁾ بن زَيد بن ضُبَيعة أخو سُمير فى ذلك :

ياقوم لا تقتُلوا سُمَيراً فإن الـ ـقتلَ فيه البوارُ والأسف
إن تقتلُوه ترنَّ نِسوتـكم على كريمٍ ويفزَع السلفُ
إنى لعمرُ الذى يَحُجُّ له النَّا سُ ومن دون بيتِه سَرِفُ
يمينُ برٍّ بالله مجتهِـد يحلـفُ إن كان ينفع الحَلِف
لا نَرفعُ العبدَ فـوق سنَّته ما دام منا ببطنها شَرَف
إنكَ لاقٍ غـداً غواةَ بنى عمرو فانظُر ما أنت مُزْدَهِف
فأَبدِ سِيماك يعرفُوك كما يُبدُون سيماهُمُ فتَعْترفُ

معناه أن مالك بن العَجلان إذا شهد الحربَ غـيَّر لباسه وتنـكَّر لئلا يعرف فيُقْصَد ، وقال دَلْهم أيضا فى ذلك :

يا مالِ لا تبغـيَنْ ظُلاَمتنـا يا مالِ إنّـا معـاشِرٌ أُنُف
يا مالِ والحقُّ إن قَنِعت به فيناَ وفيـه لأمْرِنا نَصَف
إن بُجَيراً عبدٌ نخذ ثمـناً فالحقُّ يُوفى به ويُعـترَف

---

(١) كأن مولاى ، المخطوطتان .
(٢) لجارى ، لجارك ، بعض نسخ الأغانى .
(٣) درهم ، بعض نسخ الأغانى .

ثم اعلَمَنْ إن أردت ضَيْمَ بنى زيــدٍ فإنّى ومَنْ له الحَلِف
لأَصْبحَنْ دارَكم بذى لَجَبٍ جَوْنٍ له من أمامــه عَزَف
البَيْضُ حِصنٌ لهم إذا فَزِعوا وسابِغاتٌ كأنهـــا النَّطَف
والبِيضُ قد ثُلِّمت مضاربُها بهــا نفوسُ الكُماة تُختَطف
كأنَّها فى الأكفّ إذ لمعتْ وَمِيضُ برقٍ يبدو وينكسف

وقال قيس بن الخطيم فى ذلك ، ولم يدركه ، وإنما قاله بعد الحرب بزمان :

ردَّ الخليطُ الجمالَ فانصرفوا ماذا عليهم لو أنهم وَقفــوا
فيهم لَعوبُ العِشاء واضحةُ الدَّلّ م عَرُوب يَسُــوءها الخُلُف
بين شُكول النســاء خِلقَتُها قَصْــد فلا عبلةٌ ولا قَضَف
تنــامُ عن كُبْر شأنِها فإذا قامتْ رُويداً تكاد تنقصِف
حَوْراء جَيْداء يُستضاء بهــا كأنها خُوط بانةٍ قَصِفُ
قَضَى لها الله حين صوَّرها الـ خالقُ ألّا يُكِنَّها صَدَف
أبلغ بنى جَحْجَبى وإخوتهم زيــداً بأنّا وراءهم أنُفُ
إنا وإن قــلّ نصرُنا لهم أكبادُنــا من ورائهم تَجِف
لمّــا بدتْ نحونا جِباههم حنَّت إلينا الأرحامُ والصُحف
نَفْلِى بحــدّ الصفيح هامَهم وقَلْبُنا هامَهم بهــا جنف(١)

فرد عليه حسّانُ بن ثابت ولم يدرك ذلك ، فقال :

ما بال عيْنَيك دمعهــا يكف من ذكر خَودٍ شطَّت بها قَذَف(٢)
بانَتْ بها غربة تؤمّ بهـــا أرضاً سِوانا والشكل مختلفُ
دع ذا وعدّ القريضَ فى نَفَر يرجُون مدحى ومدحِيَ الشَرَف

---

(١) وقلبنا هائم بها عنف ، المخطوطتان .

(٢) البيت ساقط فى المخطوطتين .

إن تدعُ قومى فى المجد(١) تُلْفِهِم   أهل تعالٍ يبــدو إذا وُصِفوا
إن سُمَيراً عبــد طغى سفهاً   ســاعده أعبُدٌ لهم نَطَف

وأرسل مالك بن العجلان إلى بنى عمرو بن عوف يُؤذِنهم بالحرب ، ويَعدهم يوماً يلتقون فيه ، وأمر قومَه فتأهَّبوا ، وتحاشَد الحيَّان ، وجمع بعضهم لبعض . وكانت يهودُ قد حالفت قبائلَ الأَوْس والَخزْرج إلا بنى قُرَيظة وبنى النضير فإنهم لم يحالفوا أحداً ، حتى كان هذا الجمع ، فأرسلت إليهم الأوسُ والخزرجُ كلٌّ يدعوهم إلى نفسِه ، فأجابوا الأوسَ وحالفوهم ، والذين حالفوا قُرَيظةَ والنَّضير من الأوس أوس الله وهم خَطْمة وَوَاقف ووائل وأميَّة ، فهذه قبائل أَوْسِ الله . ثم زحف مالكٌ بمن معه من قومه من الخزرج ، وزحفت الأَوس بمن معها وحلفاؤها من قُرَيظة والنَّضير ، فالتقَوا بفضاء كان بين بنى سالم وقُباء ، وكان أوّلَ يومٍ التقوا فيه ، فاقتتلوا اقتتالاً شديداً ، ثم انصرفوا وهم متنَصِفون ؛ ثم التقَوا مرَّةً أخرى عند أُطُم بنى قَيْنُقَاع ، فاقتتلوا حتى حجز الليل بينهم ، وكان الظفرُ يومئــذ للأوس على الخزرج ، فقال أبو قَيْس بنُ الأسلت فى ذلك :

لقد رأيتُ بنى عمرو فمــا وَهَنوا   عند اللقاء ولا هَمُّوا بتــكذيب
ألا فِداءٌ لهم أمِّى ومــا ولدت   غداةَ يمشون إرْقالَ المصاعيب
بل سَلْهبةٍ كالأَيْم ماضية(٢)   وكلِّ أبيْض ماضى الحدِّ مَخْشوب

ولبث الأوسُ والخزرجُ متحاربين عشرين سنة فى أمر سُمَير ، يتعاوَدون القتالَ فى تلك السنين ، فلما رأت الأوسُ طولَ الشر ، وأن مالــكاً يَنزِع قال لهم سُويد بن صامت الأوسىُّ ، وكان يقال له الــكاملُ فى الجاهليّة ، وكان الرجل عند العرب إذا كان شاعراً شجاعا كاتبا سابحا رامياً سمَّوه الــكامل ، وكان سويدٌ أحدَ الــكَمَلة فقال :

(١) للمجد ، الأغانى .
(٢) دامية ، المخطوطتان .

« يا قوم : أرضُوا هـذا الرجلَ من حليفه ، ولا تُقيموا على حرب إخوتـكم فيقتلَ بعضُكم بعضا ، ويطمع فيكم غيركم ، وإن حملتُم على أنفسكم بعضَ الحمل » ؛ فأرسلت الأوسُ إلى مالكِ بن العَجلان يدعونه أن يَحـكُم بينهم وبينه ثابتُ بن المنذِر بن حَرَام ، أبو حسّان بن ثابت ، فأجابهم إلى ذلك ، فخرجوا حتى أتَوْا ثابتاً ، وهو فى البئر التى يقال لها سُمَيحة ، فقالوا : « إنّا قد حكَّمناك بيننا » . قال : « لا حاجةَ لى فى ذلك » . قالوا : « ولم ؟ » قال : أخاف أن تردُّوا حكمى كما رددتم حكمَ عمرو بن امرئ القيس » . قالوا : « فإنَّا لا نردُّ حكمك بيننا »(١) . قال : «لا أحكمُ بينكم حتّى تُعطونى مَوْثقاً وعهداً لترضَوُنَّ بحـكمى وما قضيتُ ولتُسْلِمُنَّ له » ، فأعطوه على ذلك عهودَهم ، فحـكم بأن يؤدِّىَ حليفُ مالك دِيَةَ الصَّريح، ثم تـكون السُّنَّة فيهم بعده على ما كانت عليه : الصريح على ديته والحليف على دِيَته ، وأن تُعَدَّ القتلى التى أصاب بعضُهم من بعضٍ فى حروبهم ، ثم يكون بعضٌ ببعض ، حتى يعطوا الديَةَ لمنَ كان له فَضْلٌ فى القتلى من الفريقين ، فرضُوا بذلك ، وسلَّمت الأوس وتفرّقوا على أن على بنى النجار نصفَ ديةِ جار مالك معونةً لإخوتهم ، وعلى بنى عمرو ابن عوف نصفَهـا . فرأت بنو عوف أنهم لم يُخرجوا إلا الذى كان عليهم ، ورأى مالكٌ أنه قد أدرك ما كان يطلب ، ووُدِى جارُه دِيةَ الصَّريح ، ويقال : بل الحاكم هو المنذر .

---

(١) فاحكم بيننا ، الأغانى .

« قطبة بن أوس ، الحادرة »

الحادِرة لَقَبٌ غلَب عليه ، والحويدرة أيضا ؛ واسمه قُطْبة بن أَوْس بن مِحْصَن بن جَرْوَل بن حَبيب بن عبد العزّى بن خُزَيمة بن رِزَام بن مازِن بن ثَعلبة بن سعد بن ذُبيان بن بَغيض بن رَيث بن غَطَفان بن سَعد بن قَيس عيلان بن مُضر بن نزار .

شاعر جاهِلىّ مقلّ . وسمّى الحادرة لأنه خرج هو وزَبّان بن سيّار الفزارى ، يصطادان فاصطادا جميعاً ، فجعل زبّان يشوى ويأكل ليلاً وحده ، فقال الحادرة :

تركتَ نزيلَ رَحْلك قد تراه وأنت لفيكَ بالظَّلماء هاوِى

فحقَدها زبّان عليه ، ثم أتيا غَدِيراً فتجرّد الحادرة ، وكان ضَخْم المنكبين أرسحَ فقال له زبّان :

كأنك حادرةُ المنكِبين رَصْعاء تُنْقِضُ فى حائر

عجوزُ ضفادِع محجوبةٌ يُطِيف بها ولد الحاضر

فقال له الحادرة :

لحا الله زبّانَ من شاعرٍ أخى خَنْعَةٍ غادرٍ فاجر

كأنك فُقّاحَةٌ نوّرت مع الصُبح فى طَرَف الحائر

فغلب هذا اللقب على الحادرة ، وكان هذا سببَ الهجاء بينهما .

كان حسّان بن ثابت إذا قيل له : تُنُوشِدت الأشعار فى موضع كذا ، يقول : « فهل أنشدت كلمةُ الحويدرة » ؟ ، وهى من مختار الشعر وهى :

بَكَرَتْ سُمَيّةُ غُدوةً فتمتّع وغدت غُدوَّ مُفارقٍ لم يَربَع

وتعرَّضت لك فاستبَتْك بواضحٍ صَلْتٍ كمُنْتَصٍّ الغزال الأتلع

أسُمىَّ ما يدريكِ كم من فِتْيةٍ باكرتُ لذّتهم بأدكَن مُتْرَع
بكَرُوا علىَّ بسُحرة فصَبَحْتُهم من عاتقٍ كدمِ الذّبيح مُشَعْشَع

وهذه القصيدة أصمعيَّة مفضَّلية .

كان للحادرة جارٌ من بنى سُليم ، فأغارَ زَبّانُ بن سيَّار الفزارىّ على إبله، فأخذها فدفعها إلى رجُل يهودىّ من أهل وادى القُرى كان له عليه دَين ، فأعطاه إياها بدَينه ؛ وكان أهلُ وادى القُرى حُلَفاءَ لبنى ثعلبة ، فلما سمع اليهوديُّ بذلك قال : « سيجعل الحادرةُ هذا سبباً لنقض العهد الذى بيننا وبينه ، ونحن نقرأ الكتاب ولا ينبغى لنا أن نَغْدُر » فردَّ الإبلَ على الحادرة ، فردّها على جاره ، ورجع إلى زَبّان فقال : « أعطِنى مالى الذى لى عليك » ، فأعطاه إياه زَبّان ووقع الهجاء بينه وبين الحادِرة ، فقال الحادرةُ فيه :

لعَمْرةَ بين الأَخْرَمَيْنِ طُلول تقادَمَ منها مُشْهِرٌ ومُحِيل
وقَفتُ بها حتّى تعالى لى الضُّحى لأُخْبَرَ عنها إنّنى لَسَئُول
فإن تحسَبوها بالحجاز[(١)] ذليلةً فما أنا يوماً إن ركبتُ ذليل
فإن شِئتُمُ عدنا صديقاً وعُدتُمُ وإمّا أَبَيْتُم فالمُقام زَحُول

ولجَّ الهجاء بينهما .

أغار جَيش لبنى عامرِ بن صَعْصعة على بنى ثَعلبة بن سعد رهط الحادرة ومن معهم من مُحارب ، فلما التقوا عرَف عُقيل بن مالك النميرى ، من جيشِ عامرِ بن صعصعة جُؤَيّة بن نَصر الثَّعلبى من أصحاب الحادرة ومحارب ، فناداه عُقَيل : « إلىَّ إلىَّ يا جُؤَيّة بن نصر ، فإنّ لى خَبَراً أُسِرُّه إليك »[(٢)] فقال : « إليكَ أقبلتُ ، ولكن لغير ما ظننت » . قال له : « ما فعلَت قَلوصُ قَوْمك » ؟ يعنى امرأته ، قال : « هى

---

(١) بالحجاب ، الأغانى .

(٢) فإن لى خبرا أسره إليك ، الأغانى : فإنى خير أسير لك، المخطوطتان.

فى الظُّعُن أسَرّ ما كانت قطّ وأجمل » ، ثم حمل كلٌّ واحدٍ منهما على صاحبه ، فاختلفا بطَعْنتين، فطعنه جُؤَيّة طعنةً دقّت صلبه ، واشتدّ القِتال، وهرب[1] بنو نُمَيْر وسائر بنى عامر ، ومات عُقَيل النُّميرى ، وقال الحادرة فى ذلك أشعاراً منها القصيدة التى أولها :

كأنّ عُقَيلًا بالضحى حَلَّقت به وطارت به فى الجوّ عنقاء مُغرِب

(١) وهزمت ، الأغانى .

« القاسم ، أبو دُلَف العجلى »

هو القاسِم بن عِيسى بن إدريس ، أحدُ بنى عِجل بن لُجَيْم بن صَعب بن علىّ ابن بكر بن وائل ، ومحلُّه فى الشجاعة وعلوِّ المنزلة عنـــد الخلفاء ، وعِظَم الغَناء فى المشاهد ، وحسنِ الأدب وجودَة الشعر ، محلّ ليس لأحدٍ من نظرائه .

وهو القائل :

بِنَفْسى يا جِنانُ وأنتِ منّى ... مكانَ الرُّوح من جسد الجبان
ولو أنّى أقول مكانَ نفسى ... خَشِيت عليك بادرةَ الزمان
لإقدامى إذا ما الخيلُ حامت ... وهابَ كُماتُها حَرَّ الطِّعان

أخذ أبو دُلَفٍ قوله : « من جَسَد الجبان » من حِكايةٍ تُروى عن إبراهيم النظّام.

قيل : إن إبراهيمَ النظّام لقى غلاماً حسنَ الوجه ، فاستَحسنه وأراد كلامَه ، فعارَضَه . ثم قال له : « يا غلام ، لولا ما سَبَق من كلام الحكماء ، ممّا جعلوا به السبيلَ لمثلى إلى مثلك ، فى قولهم : لا ينبغى لأحدٍ أن يكبُر عن أن يَسْأل ، كما أنَّه لا ينبغى لأحد أن يَصْغُر عن أن يقول ؛ لما أنِستُ إلى مُخاطبتك ؛ ولا انشرح صدرى إلى محادثتك ، لـكنه سَبَبُ الإخاء وعَقْد المودّة ومحلُّه من قلبى محل الروح من جسد الجبان » فقال له الغلام وهولا يعرفُه : « لَئِن قلتَ ذلك أيُّها الرجل ، لقدقال أستاذنا إبراهيم النظام : إن الطبائع تُجاذِب ما شاكَلَها بالمناسبة ، وتَميل إلى ما قارنَها بالموافقة ؛ وكِيانى مائلٌ إلى كِيانك بالـكلِّية ، ولو كان الذى انطوى عليه عَرَضاً لما اعتددته[1] ودًّا ، ولـكنّه جوهرُ نفسى فبقاؤه بقاء النفس وعَدَمُه عَدَمُها. وأقول كما قال الُهذَلىّ :

---

(١) لما اعتددته ، لما أعددته، المخطوطتان ؛ لم أعتدبه، الأغانى.

فتيقّنى أن قد كلِفتُ بكم ثم افْعَلى ماشئتِ عن علم»

فقال له النظام: «إنما كلَّمتك بما سمعت وأنت عندى غلامٌ مُسْتَحْسن، ولو علمتُ أن محلَّك مثل محل مَعْمَر وطبقته فى الجدال لما تعرضت لك» .

وكان أبو دُلَف جواداً ممدَّحا .

كان أبو دُلَف فى جملةٍ من كان مع الأفشِين خَيْذَر بن كاوس لما خرج لمحاربةِ بابك ، ثم تنكّر الأفشينُ لأبى دلف فوجَّه بمن جاءه به ليقتله ، وبلغ المعتصمَ الخبرُ، فبعث إليه أحمدَ بن أبى دؤاد وقال له : «أدركه ، وما أُراك تلحقه ، واحتَلْ فى خَلاصِه منه كيف شئت» . قال ابن أبى دؤاد : فمضيتُ ركضاً حتى وافيتُه ، فإذا أبو دلف واقفٌ بين يدَيه ، قد أخذ بيدَيه غُلامان تركيَّان ، فرميتُ بنفسى على البساط ؛ وكنتُ إذا جئتُه دعا لى بمصلّى ؛ فقال : «سبحانَ الله ! ما حملكَ على هذا ؟» ، قلتُ : «أنتَ أجْلَسْتَنى هذا المجلس ، ثم كلَّمتُه فى القاسم ، وسألته فيه ، وخضَعْتُ له ؛ فجعل لا يزداد إلا غِلظَةً ؛ فلما رأيتُ ذلك قلت : «هذا عبدٌ ، وقد أغرقتُ فى الرّفق به ، وليس ينفعُ الآن إلا أن آخُذَه بالرَّهبة والصِّدق ، فقمت وقلت : «كم تراكَ قدَّرتَ فى نفسِك ! تقتل أولياءَ أمير المؤمنين ، واحداً بعدَ واحد، وتخالفُ أمرَه فى قائدٍ بعد قائدٍ ؟ قد حملتُ هذه الرِّسالة عن أمير المؤمنين ، فهاتِ الجواب . قال: فذلَّ حتى لَصِق بالأرض، وبان لى الاضطرابُ فيه، فلما رأيتُ ذلك نهضتُ إلى أبى دُلَف وأخذتُ بيده وقلت: «قد أخذتُه بأمر أَمير المؤمنين» فقال: «لا تفعلْ يا أبا عبد الله» فقلت : «قد فعلتُ» . وأخرجتُ القاسمَ فحملتُه على دابَّة ووافيت المعتصم ؛ فلما بَصُر بى قال : «بكَ يا أباعبدِ الله أوريتُ زَنْدى» ؛ ثم ردَّ علىّ حديثى مع الأفشين حَدْساً وفطنة ، فما أخطأ فيه حرفاً ، وسألنى عن ذلك فأعلمتُه أنّه لم يخطئ فيه حرفاً واحدا .

كان أحمدُ بن أبي دؤاد ينكر الغناء إنكاراً شديداً ، فأعلمه المعتصمُ أن صديقه أبادُلفٍ يغنّي ، فقال : «ماأراه مع عقله يفعل ذلك» فسَتَر المعتصمُ أحمدَ بن أبي دؤاد في موضع ، وأحضر أبا دُلَف وأمره أن يغنّي ، ففعل ذلك وأطال ، ثم أخرج أحمد بن أبي دؤاد(١) عليه من موضعه ، والكراهةُ ظاهرةٌ عليه . فلما رآه أحمدُ قال له : « سوءةً لهذا من فعل ! أبعدَ السنِّ وهذا المحلِّ تصنعُ من نفسك كما أرى ؟ » فخجل أبو دُلَف وقال : « إنهم أكرهُوني على ذلك » فقال : « هَبْهم أكرهوكَ على الغناء أفأكرهوك على الإحسان فيه والإصابة ؟ » .

وقد مدح عليُّ بن جَبَلة أبا دُلَف بقصيدته المشهورة التي أوّلها :

ذادَ وِرْدَ الغيِّ عن صَدَرِه ... وارعَوَى واللَّهوُ من وَطَره

إنما الدُّنيا أبو دُلَف ... بين بَادِيه ومُحتْضَرَه

فإذا ولّى أبو دُلَفٍ ... ولَّت الدنيا على أثَره

بينا أبو دلف يسير مع ابنه مَعْقِل بالعراق إذ مرَّ بقصر ، فأَشْرَفَ منه جاريتان ، فقالت إحداها للأُخرى : « هذا أبو دلف » . فقالت الأخرى : أَوَ هٰذا هو ؟ قد والله كنتُ أحبُّ أن أراه منذ سمعتُ قولَ عليِّ بن جَبَلة فيه :

إنما الدنيا أبو دُلَف ... بين باديه ومُحتضَره

فالتفت أبو دُلَف إلى مَعْقِل فقال : « ما أنصفنْا عليَّ بنَ جَبَلة ولا وفيناه حقّه ، وإن ذلك لمن كبير همِّي » وكان قد أعطاه ألفَ دينار .

قال عليُّ بن جَبَلة : زرتُ أبا دُلَف فكان يظهر من برِّي وإكرامي أمراً مُفرِطا حتى تأخرت عنه حيناً حياءً ، فبعث إليَّ ابنه مَعْقِلا فقال : « يقول لك الأمير قد انقطعت عنِّي ، وأحسَبك قد استقْلَلْت برِّي ، فلا يغضِبْك ذلك فسأزيد فيه حتى ترضَى » . فقلت : « والله ما قطعني إلا إفراطُه في البرّ » وكتبت إليه :

(١) في موضع . . . بن أبي دؤاد ، ساقط في المخطوطتين .

هجرتُكَ: لم أهْجُرك من كُفرِ نعمة ... وهل يُرْتَجَى نيلُ الزيادة بالكفر
ولكنني لما أتيتُكَ زائراً ... وأفرطْتَ فى برّى عجزتُ عن الشكر
من الآنَ[1] لا آتيك إلا مسلِّما ... أزورك فى الشهرين يوماً أو الشهر
فإن زدتَنى برًّا تزايدت جَفْوة ... ولم تلقَنى طولَ الحياة إلى الحشر

فلما قرأها مَعْقِل استحسنها جدّا وقال: «أحسنتَ والله، وإنّ الأمير لتعجبه هذه المعانى» فلما أوصلَها إلى أبى دُلَف قال: «قاتله الله! ما أشعرَه وأدقَّ معانيه!» وأعجبتْه، وأجابنى لوقته، وكان حَسَن البديهة حاضر الجواب:

ألا ربّ ضيفٍ طارقٍ قد بسطتُه ... وآنستُه قبلَ الضِّيافة بالبشر
أتانى يُرَجِّينى، فما حالَ دونه ... ودون القِرى والعُرف من نائل سِتْرى
وجدتُ له فضلًا علىّ بقصده ... إلىّ وبرًّا يستحقُّ به شكرى
فلم يعدُ أن أدنيتُه وابتدأته ... ببِشرٍ وإكرام وبرٍّ على برّ
وزوّدتُه مالًا يقلُّ بقاؤه ... وزوّدنى مدحاً يدومُ على الدّهر

وبعث بالأبيات مع وصيف، وبعث معها ألف دينار، وذلك حيث أقول:

إنما الدنيا أبو دُلَف ... بين باديه ومُحتَضَره

قال أحمدُ بن عُبَيد الله بن عمّار: كنّا عند أبى العباس المبرّد يوماً، وعنده فتى من ولد أبى البَختِرىّ، وهبِ بن وهب القاضى، أمردُ حسنُ الوَجه، وفتًى من ولد أبى دُلَف العجلىّ، شبيهٌ به فى الحال، فقال المبرّد لابن أبى البختَرى: أعرف لجدِّك قصةً ظريفة من الكرم لم يسبق إليها، فقال: «وما هى؟». قال: «دُعِىَ رجلٌ من أهل الأدب إلى بعض المواضِع، فسقَوه نبيذاً غير الذى كانوا يشربون منه، فقال:

---

(١) فم الآن، الأغانى.

نبيذان فى مجلسٍ واحدٍ   لإيثار مُثْرٍ على معسر(١)
فلو كان فِعلُك ذا فى الطعـام   لزمتَ قِياسَك فى المُسكر
ولو كنت تطلبُ شأوَ الـكرام   صنعتَ صنيـعَ أبى البَخْترى
تتبّـع إخوانه فى البلاد   فأغْـنَى المقلَّ عن المـكثِر »

فبلغت أبياتُه أبا البَخْترىّ فبعث إليه ثلاثمائة دينار ، قال ابن عمّار : فقلت له : « قد فَعَل جَدٌّ هذا الفتى فى هذا المعنى ما هو أحسنُ من هذا » قال : « ومافعل ؟» قلت : « بلغَه أن رجلًا افتقر بعد ثروة فقالت له امرأته : افْتَرِضْ فى هذا الجند ، فقـال :

إليكِ عنّى فقد كلَّفتِنى شططاً :   حملَ السِّلاح وقولَ الدَّارعين قِفِ
تمشى المنايا إلى قومٍ فأكرهها   فـكيف أمشى إليهاعَارِىَ الـكتِف
حَسِبتِ أن نَفَادَ المال غيّرنى   وأن رُوحِىَ(٢) فى جنبى أبى دلف

فأحضره أبو دُلَف وقال له : « كم أمّلت امرأتُك أن يكون رزقُك ؟ » . قال : « مائة دينار » . قال : « وكم أمَّلْتَ أن تَعيش ؟ » قال : « عشرين سنة » قال : « فذلك لك على ما أمّلت امرأتك ، فى مالِنا دون مال السلطان » وأمر بإعطائه إيّاه. قال : فرأيتُ وجهَ ابنِ أبى دُلَف متهلّلا وانـكسر ابنُ أبى البَخترى انـكساراً شديداً .

(١) مقتر ، الأغانى .
(٢) قلبى ، المخطوطتان .

قيس بن ذَرِيح

هو قيسُ بن ذَرِيح بن سُنَّة بن حُذافة بن طَرِيف بن عُتْوَادة بن عامر بن لَيْث ابن بَكر بن عبد مَنَاة وهو عليّ بن كِنانة بن خُزَيمة بن مُدرِكة بن إلياس بن مُضر ابن نِزار ، وقيــل : قَيْس بن ذَرِيح بن الُحباب بن سنَّة ، واحتجَّ من قال ذلك بقول قَيْس :

فإنْ يك تَهْيامى بلُبْنَى غوايةً ... فقد ياذَرِيحُ بنَ الحُباب غَوَيْتُ

وقيل : إن أمّه بنت سُنّة بن الـكاهل[1] بن عمرو[2] الُخزاعى . وهــذا هو الصحيح ، وأنه كان له خالٌ يقال له : عمرو بن سُنّة شاعر ، وهو القائل :

ضربوا الفِيل بالمغمَّس حتّى ... ظلَّ يحبو كأنه مَحْــــوم

حدث عَدَدٌ من الـكِنانيين[3] أن قيس بن ذَرِيح كان رضيعَ الحُسَين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، أرضعتهما أمُّ قيس ، وكان منزله بسَرِف ، وهو على ستّة أميال من مكّة ، ويدلّك على منزله بها قولُه :

الحمدُ لله ، قد أمستْ مجاورةً ... أهلَ العقيق وأمسينا على سَرِفِ

وأوّل أمرِه مع لُبْنى أن قومَه كانوا ينزِلون بظاهر المَدِينة ، فمرّ قَيْس لبعض حاجْتِه بخيام بنى كعب بن خُزاعة ، والحى خُلُوف ، فوقف على خْيَمةِ لُبْــنى بنتِ الحُباب الـكَعْبيَّة ، فاستَسْقى ماءً فسقتْه وخرجت إليه به ، وكانت امرأةً مديدة القامة ، شَهلاء حُلوة المنظَر والـكلام ، فلما رآها وقعتْ فى نفسِه ، وشرب المــاء ،

---

(١) الذاهل ، الأغانى .

(٢) عامر ، الأغانى .

(٣) عدى بن الـكناس ، المخطوطتان .

فقالت له : « إنزلْ فتبرَّد عندنا »[1] . قال : « نعم » فنزل بهم ، وجاء أبوها فنحرَ له وأكرمه ، وانصرف قيسٌ وفى قلبه من لُبنى حرٌّ لا يطفأ ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع ورُوِى ، ثم أتاها يوماً آخر ، وقد اشتد وَجدُه بها ، فسلّم ؛ فظهرت له وردّت سلامه وتحفّت به ، فشكى إليها مايجِد من حبِّها ، فبكت وشكت إليه مثلَ ذلك وأطالت ، وعرف كلٌّ واحد منهما ماله عند صاحبه ؛ وانصرف إلى أبيه فأعلمه حالَه وسأله أن يزوِّجه إيّاها ، فأبى عليه وقال : « يابنىَّ عليك بإحدى بناتِ عمِّك فهو أحقُّ بك » ، وكان ذَرِيحٌ كثير المال مُوسِراً فأحبَّ إلى ألا يخرج ابنه إلى غريبة ؛ فانصرف قيس وقد ساءه ما خاطبه به أبوه ، فأتى أمّه وشكا ذلك إليها ، واستعان بها على أبيه ؛ فلم يجد عندها مايحبّ ، فأتى الحسينْ بنَ على رضِى الله عنهما وابنَ أبى عتيق ، وكان صديقَه ، فشكا إليهما ما به ، وما ردَّ عليه أبواه ، فقال له الحسينُ رضى الله عنه : « أنا أكفيك » ومَشَى معه إلى أبى لُبْنى فلما بصُر به أعظمه ووثب إليه وقال له : « يا ابنَ رسول الله ، ما جاءبك ؟ ألَا بعثتَ إلىَّ فآتيك » قال : « إن الذى جئتُ فيه يوجب قصدَك . قد جئتُك قاصداً خاطباً ابنتك لقيس بن ذَرِيح » فقال : يا ابنَ رسول الله ، ما كنا لنعصى لك أمراً ، وما بِنا عن الفتى رغبة ولكنّ أحبَّ الأمرين إلينا أن يخطبها أبوه ذَرِيح عليه ، وأن يكون ذلك عَن أمرِه فإنا نخاف إن لم يَسْعَ أبوه فى ذلك أن يكون ذلك عاراً علينا وسبّة » ، فأتى الحسينُ رضى الله عنه ذَرِيحاً وقومه ، وهم مجتمعون ، فقاموا إليه إعظاماً له وقالوا له مثلَ قولِ الخزاعىّ ؛ فقال لذَرِيح : «أقسمتُ عليك إلّا خطبتَ لُبنَى على قيس » قال : « السمعُ والطاعة لأمرِك » . فخرج معه فى وجوه قومه حتى أتوا حىَّ لُبْنى ؛ فخطبها ذَرِيح إلى أبيها على ابنه ، فزوَّجها أبوها وزفت إليه فأقام معها مدّة لا ينكرُ أحدُهما من صاحبه شيئاً . وكان أبرَّ الناس بأمّه فألهته لُبْنى وعكوفُه عليها عن بَعض

(١) أتنزل فتبترد عندنا ، الأغانى .

ذلك ، فوجَدت أمُّه فى نفسها وقالت : « لقد شَغَلت هذه المرأةُ ابنى عن برِّى » . ولم تَرَ للكَلام فى ذلك موضعاً حتّى مرض قيسٌ مرضاً شديداً ، فلما برِئَ قالت أمّه لأبيه : « لقد خشيتُ أن يموت قيسٌ ولم يترك خلفاً ، وقد حُرِم الولَد من هذه المرأة وأنتَ ذُو مال ، فيصيرُ مالُك إلى الكَلَالَة ، فزوِّجه بغيرها لعلَّ الله تعالى أن يرزقَهُ ولداً » ، وألَحّت عليه فى ذلك ؛ فأمهل قيساً حتى إذا اجتمع فى قومه دعاه وقال له : « يا قيس ، إنّك قد اعتللت هذه العلّة فخفتُ عليك ، ولا ولدَ لى سواك ، وهذه المرأةُ ليست بوَلُود ، فتزوَّج بإحدى بناتِ عمك لعل الله تعالى أن يهبَ لك ولداً تقر به عينك وأعيننا » ، فقال قيس : « لستُ متزوجاً غيرها أبدا » فقال له أبوه : « إنَّ فى مالى سَعَة ، فتسرّ بالإماء » قال : « وما أسوءها* بشيء أبداً قال أبوه : فإنى أقسِم عليك إلّا طلّقتَها » ، فأبى وقال : « الموت عندى أسهلُ من ذلك ، ولكنى أخيِّرك خَصْلةً من ثلاث خِصال » قال : « وما هى ؟ » قال : « أن تتزوَّج أنت فلعلَّ الله أن يرزقَك أنتَ ولداً غيرى » قال : « ما فىَّ فضلٌ لذلك » . قال : « فدعْنى أترحَّل عنك بأهلى ، واصنعْ ما كنتَ صانعاً لو متُّ فى علّتى هذه » قال : « ولا هـذه » قال : « فأدعُ لُبنى عنـدك وأرتحل عنك ، فلعلِّىَ أسلُوها ، فآتى ما تحبُّ بعد أن تـكون نفسى طيِّبـة أنّها فى خِباك » قال : « لا أرضى أو تطلِّقَها » وحلف ألا يكنَّه سقفُ بيتٍ أبدا حتّى يطلِّق لبنى ، وكان يخرجُ ويقفُ فى حرّ الشّمس ، فيجىء قَيس فيقفُ إلى جانبه فيظلُّه بردائه ، ويَصْلَى هو بحرِّ الشمس ، حتّى يفىء الفىء . فينصرف عنه ، ويدخلُ إلى لبنى فيعانقها ، ويبكى وتبكى معه وتقول له : « يا قيس ، لا تُطِـع أباك فتهلك وتهلـكنى » فيقول : « ما كنتُ لأطيعَ فيكِ أحداً أبداً » ، فمـكث كذلك سنة وقيل : أربعين يوما ثم طلّقها وقيل : إن قيساً قال : هجرنى أبواى فى لُبـنَى عشرَ سنين ، أستأذِنُ عليهما فيردّانى ، حتى طلقتُها .

(*) آخر السقط الذى بدأ فى ص .

ولقى عبدُ الله بن صَفْوان الطويلُ ذَريحاً فقال : « ما حملك على أن فرَّقت بينهما؟ أما بلغك أن عُمر بنَ الخطَّاب رضى الله عنه قال : ما أبالى أفرقتُ بينهما أو مَشَيتُ إليهما بالسيف ؟ » .

فلما بانت لُبنى بالطّلاق ، وفرُغ من الكلام لم يصبر حيناً ، ولم يلبث حتى استُطير عقلُه ، وذهب لبّه ، ولحقه مثل الجنون ، وذكَر لُبنى وحالَها معه ؛ فأسِف وجعل يبكى وينشِج وبلغَها الخبرُ فأرسلَتْ إلى أبيها ليحملَها ، وقيل : بل أقامت حتى انقضت عدَّتها ، وقيسٌ يدخل عليها ، فأقبل أبوها بهَوْدجٍ على ناقة ، وبإبلٍ لتحملَ[1] أثاثَها ، فلما رأى قَيسٌ ذلك أقبل على جاريتها وقال : « ويحك ما دهانى فيكم؟» قالت : «لا تَسَلْنى وسل لُبنى » فذهب إلى خِبائها ليسألَها فمنعَه قومُها ، وأقبلتْ عليه امرأةٌ من قومه وقالت : « ما لك تسأل كأنك جاهل أو تتجاهل ؟ هذه لُبنى ترتحل الليلةَ أو غداً » فسقط مغشيًّا عليه لا يعقل ثم أفاق وهو يقول :

وإنى لمفْنٍ دمعَ عينىَ بالبكا ... حِذارَ الذى قد كانَ أو هو كائنُ
وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلةٍ ... فراقُ حبيبٍ لم يَبِن وهو بائنُ
وما كنتُ أخشى أن تكون منيَّتى ... بكفَّيكِ إلّا أن ما حان حائن

وقال فيها أيضاً :

يقولون : لُبنَى فتنةٌ كنتَ قبلها ... بخيرٍ ، فلا تندَم عليها وطلِّق
فطاوعتُ أعدائى وعاصيتُ ناصحى ... وأقررتُ عينَ الشَّامت المتخلِّق
كأنِّى أرى الناس المحبِّين بعدَها ... عصارةَ ماء الحنظل المتفلِّق
فتنكرُ عينى بعدَها كلَّ منظر ... ويكرَه سمعى بعدَها كلَّ منطِق

وسقط غراب قريباً منه ، ونعق مراراً ، فتطيَّر به وقال :

لقد نادى الغُرابُ ببَيْن لُبنى ... فطار القلبُ من حَذَر الغراب

---

(١) حتى تحمل ، المخطوطتان .

وقال غـــداً تَبَاعَدُ دار لُبنى ... وتنأى بعـــد وُدٍّ واقتراب
فقلتُ تَعِسْتَ ويحكَ من غراب ... وكان الدهرَ سعيُك فى تباب

وقال ، وقد مَنَعه قومُها من الإلمام بها :

ألا يا غرابَ البين ويحكَ نَبِّنى ... بعلمك فى لُبنى وأنت خبير
فإن أنت لم تُخبِر بما قد علمتَه ... فلا طرتَ إلا والجنـاحُ كسير
ودُرتَ بأعـــداء حبيبُك فيهم ... كما قد ترانى بالحبيبِ أدورُ

ولـما ارتحل بها قومها اتَّبعها مليًّا ثم علم أن أباها سيمنعه من المصير إليها ، فوقف ينظُر إليهم ويبكى حتى غابوا عنه ، فكرَّ راجعاً ، ونظر إلى أثَر خفٍّ بعيرها فأكبَّ عليه يقبله ، ورجع فقبَّل موضعَ مجلسها وأثرَ قدمِها ، فلاموه على تقبيل التراب ، فقال :

وما أحبَبْتُ أرضَكمُ ولـكن ... أقبّل إثْرَ من وَطِىء الترابا
لقد لاقيتُ من كَلَفى بلُبنى ... بلاءً ما أُسِيغ له شَرَابا
إذا نادَى مُنـادٍ باسم لُبنى ... عَيِيت فلا أطيق له جوابا

وقال : وقدْ نظر إلى آثارها :

(١)أَلَا يا ربعَ لُبْنى ، ما تقول ... أَبِنْ لى اليـــوم ما فعل الحلول
فلو أنّ الربوعَ تجيبُ صَبًّا ... لردّ جوابىَ الربعُ المُحيـــلُ
ولو أنِّى قدرتُ غداة قالت : ... غدرتَ ، دماءُ مُقْلَتِها يَسيلُ
نحرتُ النفسَ حين سَمِعتُ منها ... مَقَالتَها ، وذاك لها قليل(١)

وقال وقد اشتد به الأمر :

أيا كبداً طارت صدوعاً نوافذًا ... ويا حَسْرَتَا ماذا تغلغَلَ فى القلب
فأقسمُ ما عمشُ العيونِ شَوارِفٌ ... روائمُ بوٍّ حائماتٌ على سَقْبِ

---

(١) ساقطة فى المخطوطتين .

بأوْجَد منِّى يوم ولَّت حمولُهـا وقد طلَعت أولى الرِّكاب من النَّقْب
وكلُّ ملمَّاتِ الزَّمانِ وجدتُهـا سوى فُرقةِ الأحْبابِ هيِّنةَ الخطب

ولما جنَّ عليه الليلُ وانفرد وآوى إلى مَضْجَعه لم يَقِرَّ بِه ، وجعل يتململ فيه تململَ السَّليم ، ثم وثب حتى أتى موضع خِبائها فجعل يتمرّغ فيه ويقول :

بت والهمُّ يا لُبَيْـنى ضَجيعى وجَرَتْ ـ مُذْ نأيتِ عنى ـ دموعى
فتنفَّستُ إذ ذكرتُك حتّى زالت اليومَ عن فُؤادى ضُلوعى
أتناسَاكِ كى يُرِيغَ فُؤادى ثم يشتدُّ عنـد ذاك وَلُوعى
يا لُبَيْنَى، فدتكِ نفسى ومالى ! هل لدهرٍ مَضَى لنا من رُجوع ؟

وجعل قيس يعاتب نفسه فى طاعته أباه وطلاقِه لُبنى[1]، ويقول : « أفلا رحلت بها عن بلده ، فلم أر ما يفعل ولم يرَنى ، فكان إذا فَقَدَنى أقلَع عما يفعله ، وإذا فقدتُه لم أحرج من فعله ، ما كان على لو اعتزلته وأقمتُ فى حيِّها أو فى بعض بوادى العَرب ، أو عصيتُه فلم أطعه ، هذه جِنايتى على نفسى فلا ألوم أحداً ، وها أنذا ميت بما فعلتُه ، فمن يردّ روحى إلى ؟ وهل سبيلٌ إلى لبنى بعد الطلاق ؟ » وكلما قرّع نفسه وأنّبها بلون من التقريع والتأنيب بكى وألصق خدَّه بالأرض ووضعه على أثرها ، وقال :

ألا ليتَ لُبنى فى خلاء تزورُنى فأشكو إليها لَوْعَتى ثم ترجع
صحَا كلُّ ذى لبٍّ وكلُّ متيم وقلبى بلُبْـنَى ماحَييتُ مروَّع
فيامن لقلبٍ لايفيقُ من الهوى ويا مَن لعينٍ بالصَّبابة تدمع

ومما قال فيها :

قد قلتُ للقلبِ: لا لُبناكَ فاعترِف قَضِّ اللُّبانةَ ما قضَّيت وانصرفِ
قد كنت أحلفُ جَهداً لا أفارقها أفٍّ لكثرة ذاك القولِ والحَلِف
حتى تكنَّفـنِى الواشون فافتُلِتَتْ لا تأمَنَنْ أبداً من غِشِّ مكتنِف

(١) طاعة أبيه وطلاقها ، المخطوطتان .

هيهاتَ هيهاتَ لقد أمستْ مجاورةً ... أهلَ العقيق وأمسَيْنا على سَرِف
حيٌّ يمانون والبطحاء منزلنا ... هذا لعمرك شَمْلٌ غير مؤتلف

وبعثَتْ أم قَيس إليه بفَتَيات من قومه يعبن لبنى عنده ، ويعبنه بجزَعه وبكائه ، ويتعرَّضْن لوصاله ؛ فأتينَه واجتمعْن حوله يمازِحْنَه ويَعِبْنَ لبنى ويعيِّرنه بما يفعلُه ؛ فلما أطَلْنَ أقبل عَلَيهنّ وقال :

يقرّ بعيني قربُها ويزيدُني ... بها عجبا من كان عندى يعيبُها
وكم قائلٍ قد قال: تُبْ، فعصيتُه ... وتلك لعمرى تَوْبةٌ لا أتوبها
فيا نفسُ صبراً لستُ واللهِ فاعلمى ... بأولِ نفس غابَ عنها حبيبُها

فانصرفن إلى أمِّه فأيأسنها من سلوِّه ، وقيل : إن الفَتَيات أطَلْن الجلوسَ عنده وهو ساهٍ عنهنّ ، ثم نادى : « يالبنى » فقلن له : « مالك ويحك ! » قال : « خَدِرت رِجلى . ويقال : إن دُعاءَ الإنسان بأحبِّ الناس إليه يسكِّن رجلَه إذا خَدِرت ، فناديتُها لذلك » . فقمنَ عنه فقال :

إذا خَدِرتْ رجلى تذكَّرت مَنْ لَها ... فناديتُ لُبْنى باسمِها ودعَوْتُ
دعوتُ التى لو أنَّ نفسي تطيعُنى ... لفارقتُها من حبِّها وقَضَيت
برت نَبلَها للصَّيد لُبْنى وريَّشت ... وريَّشتُ أخرى مثلَها وبَرَيتُ
فلما رمتْنِى أقْصَدتنى بنَبلها ... وأخطأتُها بالسَّهم حين رميتُ
وفارقتُ لُبنى ضَلَّةً فكأنَّنى ... قُرِنْتُ إلى العَيُّوقِ ثم هَوَيتُ
فياليتَ أنى متُّ قبل فِراقها ... وهل يرجِعَنْ قولَ القضيَّة ليتُ
فإن يَكُ تهيامى بلُبنى غَوايةً ... فقد يا ذريحُ بنَ الحُباب غَوَيتُ
فلا أنتَ ما أمَّلت فىَّ رأيتَه ... ولا أنا لُبنَى والحياةَ حَوَيتُ
فوطِّن لهُلكى منك نفساً فإنَّنى ... كأنَّك بى قَدْ يا ذَرِيحُ قضيتُ

ومرض قيس ، فسأل أبوه فَتَيَاتِ الحىِّ أن يعدنَه ويتحدَّثن عنده ، لعله أن يتسلَّى بهن ، أو يعلق بعضَهن ، ففعلن ؛ ودخل إليه طبيبٌ والفتيات معه[1] ، فلمّا اجتمعن عنده جعلْنَ يحادِثْنَه وأطلن السؤال عن سبب علَّته ، فقال :

عِيدَ قَيسٌ من حبِّ لُبنَى ، ولُبنَى داء قيسٍ ، والحبّ داءٌ شديد
فإذا عادنى العوائدُ يوماً قالت العينُ : لا أرى من أريدُ
ليتَ لُبنى تعودنى ثم أقضِى إنَّها لا تعودُ فيمن يعُود
ويحَ قيسٍ لقد تضمَّن منها داءَ خَبْلٍ والقلبُ منه عميد

فقال الطبيب : « مُذ كم هذه العلَّة بك ؟ ومذ كَمْ وجَدت بهذه المرأة ؟» فقال :

تعلَّق رُوحى روحَها قبلَ خَلْقنا ومن بعد ما كنَّا نِطافا وفى المهد
فزادَ كما زِدنا فأصبح نامِياً وليس إذا مِتْنَا بمنفصِم العَقد
ولكنّه باقٍ على كلِّ حادثٍ وزائرُنا فى ظُلمة القبر واللَّحد

فقال له الطبيب : « إنَّ مما يسلِّيك عنها ذكرُ مساويها ومَعايبها وما تعافُه العين منها من أقذار بنى آدم ، فإن النفس تَنْبُو حينئذٍ ويخفّ ما بها ، فقال :

إذا عبتُها شبَّهتُها البدرَ طالِعاً وحسبُك من عيبٍ لَها شَبَهُ البدر
لقد فُضِّلت لُبنى على النّاس مثلَما على ألف شهر فُضِّلت ليلةُ القدر

ودخلَ أبوه وهو يخاطِبُ الطبيب بهذه المخاطبة ، فأنَّبه ولامه وقال له :« يا بنىّ ، الله الله فى نفسِك ، فإنك ميتٌ إن دُمتَ على هذا » ، فقال :

وفى عُروةَ العُذرىِّ إن مِتُّ أُسوةٌ وعمرِو بن عَجْلانَ الذى قتلتْ هِندُ
فى مثلُ ما مَاتَا به غيرَ أنَّنى إلى أجلٍ لم يأتِنى وقتُه بعدُ
هل الحبُّ إلا عَبرةٌ بعد زَفرةٍ وحرٌّ على الأحشاءِ ليس له بَرْدُ
وفيضُ دموعٍ تَستَهِلّ إذا بدا لنا علَمٌ من أرضِكم لم يكن يَبدُو

(١) مع الفتيات ، المخطوطتان .

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أبيه أن يزوِّجه امرأةً جميلة ، فلعله أن يَسْلوَ بها عن لُبنى ، فدعاه إلى ذلك فأَبَى ، وقال :

لقد خِفتُ ألَّا تقنَعَ النفسُ بعدَها　　بشيء من الدنيا وإن كان مَقْنَعا

وأزجُرَ عنها النفس إن حِيلَ دونَها　　وتأبى إليها النفسُ إلا تطلُّعا

فأعلمَهم أبوه بما رد عليه . قالوا : « فمُرْه بالمسير فى أحياء العرب والنزول بهم ؛ فلعلَّ عينَه تقعُ على امرأةٍ تعجِبُه فتزوِّجُه إياها ، فأقسم عليه أبوه أن يفعل ، فسار حتى نزل بحيٍّ من فَزارة ، فرأى جاريةً حسناءَ قد حَسَرت بُرقُعَها عن وجهِها ، وهى كالبدرِ ليلةَ تِمِّه ، فقال لها : « ما اسمُكِ يا جارية ؟ » قالت : « لُبنى » ، فسقط مغشيًّا عليه ، فنضَحَت على وَجْهِه الماءَ وارتاعت ، لما عَراه ، ثم قالت : « إن لم يكن هذا قيسَ بنَ ذَرِيح إنَّه لمجنون » ، فأفاقَ ، فنَسَبَتْه فانتسب لها ، فقالت : « قد علمت أنَّك قيسُ ، فنَشَدتُك وحقِّ لبنى إلاَّ أصبتَ من طَعامنا » ، وقدَّمت إليه طعاماً فأصاب منه وركب ؛ وأتى على إثره أخٌ لها كان غائباً ، فرأى مُناخ ناقته ، فسألهم عنه فأخبَروه ، فركبَ فلحِقه وردَّه إلى منزله ، وحلف ليقيمَنَّ عنده شهراً ، فقال : « لقد شَقَقْتَ علىَّ ، ولكنَّنى سأتبع هواك ، فأقام عنده شهراً ، والفزارىُّ يزداد إعجاباً بحديثِه وعقلِه ورِوَايته فعرض عليه الصِّهر فقال : يا هذا ، إنَّ فيك لرَغبة ، ولكنِّى فى شُغلٍ لا يُنْتَفع بى مَعَه » ، فلم يزل يعاوِدُه والحىُّ يلومونه ويقولون : « لقد خَشِينا أن يصير فِعلُك علينا سُبَّة » فقال : « دعونى ، ففى مثل هذا يرغَبُ الكرام » ، فلم يَزَلْ به حتَّى أجابه وعقد الصِّهرَ بيْنَه وبَينه على أُختِه لبنى ، وقال له : « أنا أسوقُ عنك صَدَاقها » ، فقال : أنا والله يا أخى أكثر قومى مالاً ؛ فما حاجتُك إلى تكلُّف هذا ؟ « أنا سائرٌ إلى قومى وسائقٌ إليها المهر » ، ففعل ، وأعلم أباه بما كان منه فسرَّه ، وساق المهرَ ، ورجع إلى الفزاريين حتَّى أُدخِلَت زوجتُه عليه ، فلم يهشَّ لها

ولا دنا منها ولا خاطبها بحرف ، وأقام على ذلك أياماً كثيرةً ؛ ثم أعلمهم أنه يريد الخروج إلى قومه فأذِنُوا له فى ذلك ، فمضَى على وجهه إلى المدينة ، وكان له صديقٌ من الأنصار بها ، فأعلمَه أن خبرَ تزويجِه بلغ لُبنى فغمَّها ، فقالت : « إنه لغدَّار ؛ ولقد كنتُ أمتَنِع من إجابة قومى من التزْويج ، فأنا الآن أُجيبهُم »، وقد كان أبوها شكا قَيْساً إلى مُعاوية وأعلمَه تعرُّضَه لها بعد الطلاق، فكتب إلى مَرْوان بن الحكم يهدر دمه إن تعرّض لها ، وأمر أباها أن يزوّجها رجلًا يُعرف بخالد بن حِلزّه من بنى عبد الله بن غَطَفان ، ويقال : بل أمره أن يزوِّجها رجلًا من آل كَثِير بن الصَّلت الكِندى حليفِ قريش . فزوَّجها أبوها منه ، فجعل نساء الحىِّ يقلن ليلةَ زِفافها ؟

أُبَيْنَى زوجُها أصبَـ ـحَ لا حُرّ بوادِيه
له فضلٌ على الناس بمَا باتَتْ تُنَاجيه
وقيسٌ ميِّت حقاً صريعٌ فى بَوا كيه
فلا يُبعدُه الله وبعداً لنواعيه

فجعل قَيْسٌ يبكى أشدَّ بكاء وجَزِع جَزَعاً شديدا ، وركب من فَوْره حتى أتى محلَّة قومها ، فناداه النساء : « ما تصنعُ هاهنا الآن ؟ قد نُقِلت لُبْنَى إلى زَوْجها » وجعل الفِتيانُ يعارِضونه بهذه المقالة وشِبْهِها ، وهو لا يجيبهم حتى أتى موضعَ خِبائها ، فنزل عن راحِلته وجعل يَتَمَعَّك فى موضعِها ويمرِّغ خدَّه على ترابها ويبكى ، ويقول :

إلى الله أشكو فقدَ لُبنى كما شكا إلى الله فقدَ الوالدَيْن يتيمُ
يتيمٌ جفاه الأقربون بجسمُه نَحيلٌ وعهد الوالدَين قديمُ
تهيَّضَنى من حبِّ لبنى علائقٌ وأصناف حبٍّ هَوْلُهُنَّ عظيم
ومن يتعلّق حبَّ لبنى فؤادُه يمُتْ أو يَعِش ماعاش وهو كَليم
وإنِّى وإن أجمعتُ عنكِ تجلُّداً على العهدِ فيما بيننَا لمقيم
أفى الحقِّ هذا إن قلبَك فارغٌ صحيحٌ وقلبى فى هواكِ سَقيم

ووجّهتْ لُبنى إلى قيْسٍ قاصداً يُعلِمه ما جرى من هَدْر الخليفة دمَه ، ويحذِّره . وبلغ أباه الخبرُ فعاتبَه وتجهمَّه وقال : « انتهى الأمرُ إلى أن يهــــدر السلطانُ دمَك » فقال :

فإن يحجُبوها أو يحُلْ دونَ وَصْلِها مقالةُ واشٍ أو وعيــدُ أمــير

فلن يمنَعوا عَيْــنيَّ من دائم البُــكا ولم يُذهِبوا ما قد أجنَّ ضميرى

سأبــكى على لُبنى بعــينٍ غزيرة بكاءَ حزينٍ فى الوثــاق أســير

وكنّا جميعاً قبــل أن يَظهرَ الهوى بأنعَمِ حالَىْ غِبطــةٍ وسُرور

فما برِح الواشُون حتى بدت لنــا بطونُ الهــوى مقلوبةً لظهــور

لقد كنتِ حسبَ النفس لودامَوَصْلُنا ولــكنَّما الدنيــا متــاعُ غرور

وقال فى إهدار معاوية دمَه إن زارها :

فإن تك لُبنى قد أتَى دون قومِها حجابٌ منيع ما إليــه سبيلُ

فإن نسيمَ الجوِّ يجمــع بيننَا ونُبصِرُ قرنَ الشَّمسِ حين تزُول

وأرواحُنا فى الحىِّ باللَّيل تلتقِى ونعلمُ أنَّا بالنهــار نَقِيــل

وتجمعُنا الأرضُ القَرارُ وفوقَنــا سماءٌ نرى فيها النجومَ تجَول

إلىأن يعودَالدهرُ سَلْماً وتَنقَــضى تِراتٌ بغاها عنــدنا وذُحول

وحجَّ قيسُ بن ذَريح ، واتَّفق أن حجت لُبْــنى فى تلك السنة ، فرآها ومعها امرأةٌ من قَومهــا ، فدَهِش ووَقَف مكانَه ، ومضت لسَبيلها ، ثم أرسلتْ إليه بالمرأة تبلِّغُه السَّلام ، وتسألُه عن خَبَرِه ، فألفَتْه جالساً مكانَه وحدَه ، يبكىوينُشد :

ويومَ مِــنًى أعرضْتِ عنِّى فلَمْ أَقُل بِحاجةِ نفسٍ عند لُبنى مقالُها

وفى اليأسِ للنَّفس المريضَةِ راحةٌ إذا النفسُ رامتْ خُطَّةً لا تنالُها

فدخلَتْ خِباءه ، وجعلَتْ تحدِّثه عن لُبنى ، ويحدِّثها عن نفسِه ، ولم تعلمه أن لُبْــنى أرسلتها إليه ، فسألها أن تبلِّغها عنه السلام ، فامتَنعَتْ عليه ، فأنشأ يقول :

إذا طلعت شمسُ النهــار فسلِّمى ... فآيةُ تسليمى عليـكِ طلوعُهـا
بعَشْرِ تحيّاتٍ إذا الشمسُ أشرقَت ... وعَشْرٍ إذا اصفرَّت وحان رُجُوعها
ولو أبلغتْها جارةٌ قَولِيَ اسلَمى ... بكَتْ حَزَناً وارفضَّ منها دموعُها
وبان الذى يخفَى من الوَجْد فى الحشا ... إذا جاءها عنّى حديثٌ يُروعها

وقَضَى الناسُ حجَّهم وانصرفوا ، فمرض قيسٌ فى طريقه مرضاً شديداً أشفَى منه ، فلم يأتِه رسولُها عائداً وقد علمت بمرضه(١) ، لأن قومها رأوه ، وعلموا بذلك فقال :

ألُبنَى ، لقد جلَّت عليك مُصيبَتى ... غَداةَ غـدٍ إن جـلَّ ما أتوقّـع

منهـا :

أخبِّرتِ أنى متُّ فيك بحسرتى(٢) ... فما فاض من عَينيك للوجد مَدمُع
ولـكنْ لعَمرى قد بكيتُكِ جاهداً ... وإن كان دَائِى كلُّه منكِ أجمع
صَبيحةَ جاء العائداتُ يَعُدْنَنى ... فظلَّت علىَّ العائداتُ تفجَّــع
فقائلةٌ جئنـــا إليــه وقد قَضَى ... وقائلةٌ بل قــد تركنـــاه ينزِع
فما غَشِيت عَيْنيكِ من ذاك عَبْرةٌ ... وعَيْنِى على مابى لِذكراكِ تَدْمــع
إذا أنتِ لم تبـكِى علىَّ جنازةً ... لديكِ فلا تبـكى غداً حين أرفع

وبلغَتْها الأبيات ، فجزِعت وبكَت بكاءً شديداً ، ثم خرجتْ إليه ليلاً على موْعد ، فاعتذرَت وقالت : « إنمَّا أُبقِى عليك ، وأَخْشى أن تُقْتل ، فأنا أتجافاكَ(٣) لذلك ، ولولا هذا لما افترقنا » . وودَّعته وانصرفت .

---

(١) وقد علمت بمرضه ، كبر يلى : ليست فى الأغانى ، وفى المخطوطتين بعد : وعلموا بذلك .
(٢) فيك ميت بحسرة ، الأغانى ؛ بحسرة ، المخطوطتان .
(٣) أتحاماك ، الأغانى .

وبلغه فى مَرَضِه أن أهلَها قالوا لها : « إنَّه عليلٌ لما به ، وإنّه سيموتُ فى سَفَره هذا » . فقالت لهم — لتدفَعَهم عن نفسها — : « ما أُراه إلا كاذباً فيما يدَّعى ، ومتعلِّلا لا عليلا » . فبلغه ذلك فقال :

تكاد بلادُ الله يا أمّ مَعْمَرٍ بمـا رَحُبت يوماً علىّ تضيق
تكذّبنى بالودّ لُبنَى وليتها تُكلَّف منّى مثلَه فتـذُوق
ولو تعلمينَ الغيبَ أيقنتِ أنّنى لكم ، والهدايا المُشعَراتِ ، صديق
تتوقُ إليكِ النفسُ ثم أردّها حياءً ، ومثلى بالحيـاء خليق
وحدَّثتَنى يا قلبُ أنّك صابرٌ على البُعد من لُبنَى فلستَ تطيق
فمتْ كمداً أو عِشْ سقيما ، فإنّما تكلِّفنى ما لا أراكَ تُطيق
أطعتُ وشاةً لم يكن لكَ فيهم خليلٌ ولا جارٍ عليك شفيقُ
بلُبنَى أنادِى عنـدَ أوّلِ غَشْيَةٍ ويَثْنِى بها الداعى بها فأفيـقُ

منها :

صَبوحى إذا ماذرَّت الشمسُ ذِكرُكم ولى ذِكرُكم عند المَسـاء غَبُوق
هـل الصبرُ إلا أن أصُدَّ فلا أرى بأرضكِ إلّا أن يكونَ طريق

ثم إن قيساً أتى أهله ، فاقتطع قطعةً من إبله ، وأعلم أباه أنه يريدُ بها المدينةَ ليبيعها ، ويمتارَ لأهله بثمنها . فعرَف أنّه إنّما يريدُ لُبنى ، فعاتَبَه وزَجَره عن ذلك فلم يقبلْ منه . وأخذَ إبله ، وقدِم بها المدينة ، فبينا هو يعرِضُها إذ ساوَمه زوجُ لُبنى بناقة منها ، وهما لا يتعرّفان (١) فباعـه إيّاها ، فقال : « إذا كان فى غـدٍ فائتنى فى دار كَثِير بن الصَّلت ، فاقبض الثّمن » ، قال : « نعم » ومضى زوجُ لُبنى إليها ، فقال : إنى ابتعتُ ناقةً من رجل من أهل البادية ، وهو يأتينا غداً لقبض الثمن ، فأعدِّى له طعاما ، ففعلَت . فلما كان من الغَد جاء فصوَّت بالخادم : « قولى لمولاكِ :

---

(١) يتعرفان ، كبريلى : يتعارفان ، الأغانى ؛ يشعران ، المخطوطتان .

صاحبُ الناقة بالباب » . فعرفَت لبنى نَغْمته ، فلم تقُل شيئاً ، فقال زَوجها للخادم : « قولى له يدخل » ، فدخل فجلَس ، فقالت لُبنى للخادم : قولى له : « يافتى ، أراكَ أشْعثَ أغْبَر » . فقالت له ، فتنفَّس ثم قال : « هكذا يكونُ حالُ من فارق الأحبَّة ، واختار الموتَ على الحياة » ، وبكى . فقالت لها لبنى : قولى له :« حدِّثنا حديثك » . فلما ابتدأ يحدِّثهم كشفَت الحجاب وقالت : حسبك ، فبُهِت ساعة ، لا يتكلَّم ، ثم انقحمَ(١) باكياً ، ونهض فخرج ، فناداه زوجُها : « ويحك ! ما قِصَّتك ؟ ارجع فاقبض ثمنَ ناقتك ، وإن شئْتَ زدناك » . فلم يكلِّمه ، واغْترَزَ فى رحْلِه ومضى . فقالت لُبنى لزَوْجها : « هذا قَيْس بن ذريح ، فما حَمَلك على ما فعلتَ به ؟ فقال : « ما عرفتُه » . وجعل قيسٌ يبكى فى طريقهِ ، ويندُب نفسه ويوبخِّها على فعلها ، ويقول :

أتبكى على لُبْنَى وأنت تركتَها ... وأنتَ عليها بالملا كنت أقدر
فإن تكن الدنيا بلُبنى تقلَّبت ... فللدَّهر والدنيا بُطونٌ وأظهر
لقد كان فيها للأمانةِ موضعٌ ... وللكفِّ مُرْتادٌ وللعين مَنظر
وللحائم العطشانِ رِیٌّ بريقِها ... وللمَرِح المختال خَمْرٌ ومُسكِر
كأنِّى فى أرجُوحة بينَ أحْبُلٍ ... إذا ذُكْرَةٌ منها على القلبِ تَخْطُرُ

وعاد إلى قومه بعد رُؤيته إيَّاها ، وقد أنكر نفسه ، ولحقه أمرٌ عظيم ، فأنكَروه وسَألوه عن حاله ، فلم يخبرهم ، ومَرِض مرضاً شديدا ، أشفى منه على الموت . فدخلَ إليه أبُوه ، ورجالٌ من قومه ، وعاتَبوه ، وناشَدوه الله ، فقال لهم : «ويحكم ! أتُرَونى أمرضتُ نفسى ، أو وجدْتُ لها سَلْوَةً بعد اليأس ، فاخترتُ البلاء ، أَوَلِى فى ذلك صُنْع ؟ هذا ما اختارَه لى أبواى ، وقتَلانى به » . فجعل أبوه يبكى ، ويدعُو له بالفَرَج والسَّلوة ، فقال قيس :

---

(١) انقحم ، كبريلى ، والمخطوطتان : انفجر ، الأغانى .

لقد عذَّبتَنى يا حبَّ لُبنى ... فقَعْ إما بموتٍ أو حيـاةِ
فإنَّ الموتَ أروَحُ من حياةٍ ... تدومُ على التباعُدِ والشتاتِ
وقال الأقربونَ: تعزَّ عنها ... فقلت: نعم، إذا حانَت وفاتى

ودسَّت إليه لُبنى بعد خُروجه رسولا ، وقالت: «استَنْشِده، فإذا سألك عن نَسَبك فانتَسِبْ له خُزَاعيًّا ، فإذا أنشدَكَ قل له : فلِمَ تزوَّجت بعدهـا حتى أجابَتْ إلى أن تتزوَّج بعدك ، واحفظ ما يقوله إلى أن توردَه علَىّ » . فأتاه الرسول ، فسلَّمَ عليه ، وانتَسب خُزاعياً ، وذكر أنه من أهل الشام ، واستنشده فأنشدَه ، فقال له الرجل : فلِمَ تزوَّجتَ بعدها؟ فأخبره بخَبَره ، وحلف له أن عينه ما اكتَحَلَت بالمرأة التى تزوَّجها ، ولو رآها فى نِسوةٍ ما عرفها ، وأنَّه ما مدَّ يدَه إليها ولا كلَّمها ، ولا كشف لها ثوباً. فقال له الرجل : « فإنى جارٌ لها ، وإنها لمن الوَجد على حال قـد تمنَّى زوُجها أن تـكون قريباً منها ، ليصلُح حالها بِك . فحمِّلنى إليها ما شئتَ أؤدِّه إليها » ، فقال : « تعودُ إلىّ إذا أردت الرحيل » . فعاد إليه . فقال : « تقول لها :

ألا حىِّ لُبنى اليومَ إن كنتَ غادِيا ... وألمِمْ بها من قَبلِ ألّا تلاقِيا

وهى طويلةٌ مخلَّطة بقصيدة المجنون .

وشُهِر أمرُ قيسٍ بالمدينة ، وغُنِّى فى شعره . فلم يبقَ شريفٌ ولا وضيعٌ إلا سمع بذلك وأعجَبه وحزن لقيسٍ ما به . وجاء زوجُها فأنَّبها على ذلك وعاتَبها وقال : « قد فَضَحتِنى بذكرك » . فغضبت وقالت : « يا هــذا ، إنى والله ما تزوَّجتُك رغبةً فيك ، ولا فيما عندك ، ولا دُلِّس أمرى عليك ، ولقد علمتَ أنى كنتُ زوجتَه قبلك، وأنه أُكرِه على طلاق . ووالله ماقَبِلتُ التزويجَ حتى أُهدِرَ دمُه إن ألمّ بحيِّنا، فخشيتُ أن يحملَه ما يجدُ على المخاطرة فيُقتل فتزوّجتُك . وأمرُك الآنَ إليك ، ففارِقْنى ، فلا حاجةَ لى بِك » . فأمسَكَ عن جوابها، وجعل يأتيها بجوارِى المدينة،

يغنّينها بشعر قَيْسٍ فيها ، ليَسْتَصْلِحها بذلك ، فلا تزدادُ منه إلا بُعدًا ، ولا تزال تبكى ، كلّما سَمِعَت شيئاً من ذلك ، أحرَّ بكاء وأشجاه .

وكان بالمدينة امرأةٌ من موالى بنى زُهرة ، يقال لها بُرَيْكة ، من أظرف النّساء وأكرمهنّ ، وكان لها زَوج من قُريش ، وله دارُ ضِيافة . فلما طالت عِلّة قيس قال له أبوه : « إنّى لأعلمُ أن شِفَاءَك فى القُرب من لُبْنى ، فارحَل إلى المدينة » . فرحَلَ إليها حتى أتى دار الضِّيافة التى لزَوْج بُرَيْكة . فوثَب غِلمانه إلى رَحْله ليحطُّوه ، فقال : « لستُ بنازلٍ أو ألقَى بُرَيكة ، فإنّى قصدتُها فى حاجة ، فإن وجدتُ لها عنـدها موضعاً نزلت بكُم ، وإلا رَحَلت » . فأتَوها فأخبَرُوها ، فخرجت إليه وسلّمت عليه ورحّبت به ، وقالت : « حاجتُك مقضيّةٌ ما كانت ، فانزِل » . فنزل ودنا منها ، وقال : « أذكرُ حاجتى ؟ » قالت : « إن شئتَ » . قال : « أنا قيسُ بن ذريح » . فقالت : « حيّاكَ الله وقرّبك ! إن ذكرَك عنـدنا لجديدٌ كلّ وقت » . قال : « وحاجتى أن أرى لُبنى نظرةً واحدة كيف شئتِ » ، قالت : « ذلك علىّ » . فنزل وأقام عنـدَهم ، وأخفَتْ خبرَه . ثم أهدى لها هَدايا كثيرة وقال : « لاطِفيها وزوجَها بهذه ، حتى يأنسَ بك » . ففعلتْ وزارتْها مِراراً ، ثم قالت لزَوجها : « أخبرْنى عنك ، أنت خير من زَوجى ؟ » قال : « لا » ، قالت : « فلُبنى خيرٌ منّى ؟ » قال : « لا » ، قالت : « فما بالى أزورُها ولا تزورُنى ؟ » قال : « ذلك إليها » . فأتَتْها وسألَتْها الزيارة ، وأعْلَمتها أن قيساً عندها . فسارعَت إلى ذلك وأتَتْها . فلما رآها ورأتْه بكيا حتى كادا يتلفان ، ثم جعَلت تسأله عن خبره وعلّته ، ويسألها فتخبرُه ، ثم قالت له : أنشِدنى . فأنشَدَها :

ألا ليتَ أياماً مضَيْن تعـودُ ⁂ فإنْ عُدْنَ يوماً إننى لسعيد
سقى دارَ[1] لُبنى حيث حلّت وخيّمت ⁂ من الأرض منهلُّ الغمام رَعُود

(١) دار ، الأغانى : وجه ، كبريلى والمخطوطتان .

أعالجُ من نفسى بقايا حُشاشةٍ على ظَمَإٍ[1] والعائداتُ تعود
فإن ذكَرُوا لُبْنى هَشَشْتُ لذكرها كما هشَّ للثَّدْى الدَّرُور وَليدُ
أجيبُ بلُبْنى من دعانى تجلُّدًا ولى زَفَراتٌ تنجلى وتعُود
تُعيدُ إلى رُوحِى الحياةَ وإنَّنى بنَفْسى لَوْ عَايَنْتِنى لأجُود
سلا كلُّ ذى وَجدٍ علمتُ مكانه وقلبى للُبنَى ما حييتُ وَدود

وعاتبته على تزوُّجه ، فحلف لها أنه لم ينظُر إليها بملء عينيه ، ولا دَنَا منها . فصدَّقته . وقال :

ولقد أردتُ الصبرَ عنك فعاقنى عَلَق بقلبى من هواك قديم
يبقى على حَدَث الزَّمان ورَيْبه وعلى جَفائِك ، إنه لكريم
ولو أنَّنى أضمرتُ فيك خيانةً لنبَا بِهِ قلبٌ إليكِ يهيمُ
فصَرمته وصَححْتِ وهو بدائه شتَّان بينَ مصحَّح وسقيم

ولم يزل يومَه معها يحدِّثها ، ويشكو إليها ، أكرمَ حديثٍ ، وأعفَّ شكوى حتى أمست وانصرفت ، ووعَدَته الرجوعَ إليه من غدٍ ، فلم ترجع ، وشاع خبرُه فلم ترسل إليه رسولًا . فكتب هذه الأبياتَ ورفعها إلى بُرَيكة ، ورحل متوجِّهًا إلى معاوية . وهى :

بنفسيَ من قَلبي له الدَّهر ذاكرٌ ومَن هُو عنِّى معرِضُ القلب صابر
ومن حبه يزداد عندِي تجددا[2] وحبِّي لديه مخلِق العهد داثِر

فلما دخل على يزيد وامتدَحه[3] ، وشكا مابه إليه ، فرقَّ له وقال[4] له : « سَلْ

---

(١) رمق : الأغانى .

(٢) جدة ، الأغانى .

(٣) على يزيد وامتدحه : على معاوية ويزيد وامتدحهما ، كبريلى والمخطوطتان .

(٤) إليهما فرقا ، كبريلى والمخطوطتان .

ما شِئتَ ، إن شئتَ كتبتُ إلى زَوْجها ، وأحتِّم عليه أن يطلِّقها فعلت » ، قال : « لا أريدُ ذلك ، ولـكن أحبُّ أن أقيمَ حيثُ تقيم من البلاد ، فأعرِفَ أخبارَها ، وأقنعَ بذلك من غير أن يُهْدَر دمى » . فقال : لو سألتَ هذا من غير أن ترحلَ إلينا لما وجب أن نمنعَه ، فأقم حيثُ شئت » وأخذ كتاب مُعاوية بأن يقيمَ حيثُ أحبّ ، ولا يعترض عليه[1] أحد ، وأزالَ ما كان كتبَ به من إهدار دَمِه . فقدِم إلى بلَدِه ، وبلغ خبرُه الفزاريِّين وإلمامُه بلُبنى ، فـكاتبوه بذلك وعاتَبوه ، فقال للرّسول : « قل للفتى ، يعنى أخا الجارية التى تزوَّجها : يا أخى ، ما غررْتُـك بنفسى ، وقد أعلمتُك أنّى مشغولٌ عن كل أحد ، وقد جعلتُ أمرَ أختِك إليك ، فأمضِ فيه حكمَكَ » فتـكرّم الفتى عن أن يفرِّق بينهما ، فمـكثتْ فى حِباله مدّةً ، ثم ماتت .

قال ابنُ أبى عَتِيق لقيس : « أنشِدْنى آخرَ ما قلتَه فى لُبْنى » ، فأنشده :

وإنى لأهوى النَّوم من غير نَعْسَةٍ لعلّ لقاها فى المنـــام يكونُ
تخبرُنى الأحـــلامُ أنى أراكُم فيا ليتَ أحـــلامَ المنـام يقين
شهدتُ بأنِّى لم أحُل عن مودّتى وإنى بكم لو تعلَمين ضَنِين
وأنّ فؤادى لا يَلِين إلى هوًى سواكِ وإن قالوا بلى سيَلِين

فقال له ابن أبى عتيق : « لقلّ ما رضيتَ به منهـا يا قَيْس » . فقال : « ذلك جُهْدُ المقلِّ » .

ومن شعره أيضاً :

سقى طَلَلَ الدار التى أنتُمُ بها حياً ثم وَبْـلٌ صيِّف وربيعُ
مضى زمنٌ والناسُ يَسْتَشْفِعُون بى فهلْ لى إلى لُبْنى الغداةَ شفيعُ

---

(١) ولا يعرض له ، المخطوطتان .

منها :

يقولون صَبٌّ بالنِّساء موكَّل ... وهل ذاكَ من فِعل الزمان بديع
فقدتُكِ من نَفْسٍ شَماعٍ ألم أكُن ... نَهيتُكِ عن هـذا ونحن جميع
فقرَّبتِ لى غيرَ القريب وأشرفَتْ ... هنـاكَ ثَنَايا ما لهنَّ طلوع
فيا حجرات الدار حيثُ تحمَّلوا ... بذى سَـلَمٍ لا جادَكنَّ ربيع
ولو لم يهِجْنى الظاعنون لَهَاجَنِى ... حمائمُ وُرقٌ فى الديار وُقوع
تَدَاعَيْنَ فاستبكَينَ من كان ذا هوًى ... نوائحَ لم يقطُر لهن دُموع
إذا أمَرَتْنى العاذِلاتُ بهَجرها ... نبت كَبِدٌ عمـا يقُلْنَ صَدُوعُ[1]
وكيف أطيعُ العاذلاتِ وذِكرُها ... يؤرِّقنى والعاذلاتُ هُجُـوعُ

كان أبو السائبِ فى سَقِيفةٍ مع عبد الرحمن بن عبد الله بن كَثِير ، فمرَّت جنازةٌ ، فقال عبدُ الرحمن : « يا أبا السائب ، جارك ابنُ كَلَدة ، ألا تقوم بنا نصلِّى عليه ! » قال فقلت : « بلى والله » . فقمنا حتى إذا كنَّا ببعضِ الطريق[2] ذكرتُ أنّه كان[3] تزوج لُبنى ، وفرَّق بينها وبين قيس ، لما رحَل بها إلى المدينة ، فرجعتُ فطرحتُ نفسى[4] ، وقلتُ : « لا رانى الله أصلِّى عليه » . فرجع عبد الرحمن فقال : « أكنتَ جُنُبا ؟ » فقلت : « لا والله » ، قال : « أفَمَلى غيرِ وُضوء ؟ » قلت : « لا والله » قال : « فما لك ؟ » قلت : « تذكَّرت أن جدَّه كان تزوَّج لُبنى ، وفرَّق بينها وبين قيْس ، لما رحل بها عن بلادها . فما كنت لأصلِّى عليه » .

قال الخليلُ بن سَعد : مررتُ بسوق الطَّيْر ، فإذا الناسُ قد اجتمعوا ، يركَبُ

---

(١) صديع ، الأغانى .
(٢) ببعض الطريق : عند دار أديس ، الأغانى .
(٣) أن جده كان ، الأغانى :
(٤) فطرحت نفسى فى السقيفة ، الأغانى .

بعضُهم بعضاً ، فاطَّلعت ، فإذا أبو السائبِ المخزومى قائمٌ على غُرابٍ يُباع ، وقد أخَذَ طرفَ ردائه ، وهو يقول للغراب : « أيقولُ لك قَيْس بن ذَرِيج :

ألا يا غرابَ البَيْنِ قد طِرتَ بالذى أُحاذِرُ من لُبْنى فهل أنت وَاقِع

ولا تقع » ثم يضربُه بردائه ، والغرابُ يصيح ، فقال له قائل: « يا أبا السائب ، ليسَ هذا ذلك الغُراب ». فقال: « قد علمت ، ولكنى آخُذُ البرىءَ بالسقيم حتى يقع النَّطِف ».

ولما بلغ لُبنى قولُ قيس :

ألا يا غرابَ البَيْن قد طرتَ بالذى أُحاذِر من لُبنى فهل أنت واقع ؟

قالت: « لا أرى غراباً إلا قتلته » ، فكانت كلَّما رأتْه أو رأته خادِمٌ لها أو جارةٌ ابتيع ممَّن هو معه وذَبَحَتْه .

وهذه القصيدة من جيِّد قصائده ، والمختار منها :

أتبكى على لُبْنى وأنتَ تركتَها فكنتَ كآتٍ حتفَه وهو طائع

فيا قلبُ صبراً واعترافاً بحبِّها ويا حبَّها قَعْ بالذى أنت واقع

ويا قلبُ خبرّنى ، إذا شطَّت النوى بلُبْنى وبانَتْ عنك، ما أنت صانع؟

فما أنتَ مُذ بانَتْ لُبينَى بهاجعٍ إذا ما اطمأنَّت بالنيام المضاجع

كأن بلادَ الله ما لم تكن بها وإن كان فيها الناسُ وَحْشٌ بلاقع

أقضِّى نهارى بالحديثِ وبالمنى ويجمعُنى والهمَّ بالليل جامع

نهارى نهارُ النّاس حتى إذا بدا لى الليلُ هزَّتنى إليك المضاجع

لقد ثبتَتْ فى القلبِ منك محبَّة كما ثبتَتْ فى الراحتَين الأصابع

فلا تبكيَنْ فى إثر لُبنى ندامة وقد نزَعتها من يدَيك النوازع

فليس لأمرٍ حاول الله جمعَه مُشتٌّ ولا ما فرّق الله جامعُ

واختُلِف فى آخر أمر لبنى وقيس ، فذُكر أنَّهما ماتا على افتراقهما ، فقيل: إنه ماتَ قبلَها ، فبلغَها ذلك ، فماتتْ أسفاً وحزناً عليه . ومنهم من قال : إنَّ لُبْنى ماتت

قبلَه ، فخرج قيسٌ فى جماعةٍ من أهله ، فوقف على قبرْها وقال :

ماتتْ لُبينى فموتُهــا مَوْتِى   هل تَنفَعَنْ حَسْرتى على الفَوْتِ

فسوف أبـــكى بكاءَ مكتئبٍ   قضَى حياةً وَجْــداً على مَيْتِ

ثم أكبَّ على القبر يبكى ، حتى أُغمِىَ عليه فرفعه أهلُه إلى منزلِه ، وهو لا يعقل . فلم يزل عليلا ، لا يفيق ولا يجيب مكلِّما ، ثم مات فدفن إلى جانبها .

وقيل: إنَّ ابنَ أبى عَتِيق صار إلى الحسَن والحُسَين ، ابنَىْ علىٍّ بن أبى طالب رضوان الله عليهم ، وعبدِ الله بن جعفر ، وجماعةٍ من قريش ، فقال لهم : «إنَّ لى حاجةً إلى رجُل ، أخشى أن يردَّنى فيها ، وإنِّى أستعينُ بجاهِكم وأموالِكم عليه » . قالوا : « ذلك مبذول منّا » ، فاجتمعوا ليوم وَعَدهم فيه ، فمضى بهم إلى زَوْج لُبنَى ، فلما رآهم أعظَمَ مصيرَهم إليه وأكبره ، فقالوا : « قد جئناك بأجمَعِنا فى حاجةٍ لابن أبى عَتيق » . فقال : « هى مَقْضِيَّة كائنةً ما كانت » قال ابنُ أبى عتيق: «قد قضيتَها كائنةً ما كانت من أهـلٍ ومالٍ ومِلْك ؟ » قال : « نعم » ، قال : تَهَبُ لى ولهم لُبْنى زوجتَك وتطلِّقُها » . قال: « أشهِدُكم أنها طالقٌ ثلاثاً » . فاستحيي القوم واعتذَرُوا، وقالوا : « والله ما عَرَفنا حاجتَه ، ولو عرفنا أنَّها هذه ما سألناك إيّاها » . وقيل : إن الحسينَ رضى الله عنه عوَّضه عن ذلك مائةَ ألفِ درهم ، وحملها إلى ابن أبى عتيق ليحملَها إليه فلم تَزَلْ عنده حتَّى انقضتْ عدَّتُها . فسأل القومُ أباها ، فزوَّجها قيساً ولم تَزَلْ مَعَه حتى ماتا . وقال قيس يمدح ابن أبى عتيق :

جزى الرحمنُ أفضلَ ما يجازِى   على الإحسان خيراً من صديق

فقد جرَّبتُ إخوانى جميعـــاً   فما ألفَيْتُ كابنِ أبى عَتِيق

سَعَى فى جَمْع شملى بعد صَدْعٍ   ورأيٍ حدتُ فيه عن طريق

وأطفأ لَوْعــةً كانت بقلبي   أغصَّتنى حَرارتُهــا بريــق

فقال له ابنُ أبى عَتيق: ياحبيبى ، أمسك عن هذا المديح ، فما يسمعُه أحدٌ إلا يظنُّنى قوّادا.

قــــلم الصالحية

جاريةُ صالح بنِ عبدِ الوهَّاب ، أخي أحمدَ بن عبد الوهَّاب ، كاتبِ صالح بن الرَّشيد . جاريةٌ صفراء مولَّدة حُلوة ، حسنةُ الغناء والضَّرب ، اشتراها الواثِق بعشرة آلاف دينار ، لأنَّه غُنِّيَ بين يدَيه يوماً لحْنٌ لها ، في شِعر محمَّد بن كُناسة . وهـو :

فيَّ انقباضٌ وحشمة فإذَا صادفتُ أهلَ الوفاء والـكرم

أرسلتُ نفسى على سجيَّتهـا وقلتُ ما قلتُ غير محتَشِم

فطرب وسأل : « لمن الصنعة ؟ » فقيـل : « لقَلَم الصَّالحية ، جاريةِ صالح بن عبد الوهّاب » ، فبعث إلى محمد بن عبد الملك الزيّات ، فأحضره فقال : « ويلَك ! مَنْ صالحُ بن عبد الوهاب ؟ » قال : « ببغداد » ، قال : فأَشْخِصْه ، وأشخِص معه جاريتَه قلم » . فـكتَبَ في إشخاصهما ، فقَدِما على الواثِق . فدخلَتْ قَلَم ، فأمرَها بالجلوس والغِناء ، فغنَّت ، فاستَحْسن غِناءَها ، وأَمَر بابتِياعِها ، فقال صالح : « أبيعُها بمائةِ ألفِ دينار ووِلاية مِصر » . فغَضِب الواثقُ من ذلك ، وردّها عليه . ثم غـنَّى بعد ذلك زُرْزُر الـكبيرُ في مَجلِس الواثِق صوتاً لها ، في شِعر أحمدَ بن عبد الوهّاب ، أخي سيِّدها :

أبَتْ دار الأحبَّـة أن تبِـينا أجِدَكَ هل رأيتَ لهم قَطِينا[١]

تَقَطَّعُ نفسُه من حبِّ ليـلى نفُوساً ما أُثِبْنَ ولا جُزِينا

فسأل عن الغناء ، فقيل : « لقلم الصالحيّة » . فبعثَ إلى نائبٍ له : « أشخِص صالحاً ومَعَه جاريتُه قَلَم » . فأشخَصَهُما . فدخلَتْ على الواثق . فأمرَها أن تغنِّيه

---

(١) أجدك ما رأيت لها معينا ، الأغاني .

الصوتَ ، فغنّته ، فقال : « الصّنعةُ فيه لكِ ؟» قالت : « نعم ، يا أميرَ المؤمنين » . قال : « باركَ اللهُ عليكِ » . وبعث إلى صالح فأحضره، فقال : « إنِّى قد رغبتُ فى هذه الجارية ، فاسْتَمْ فى ثمنِها سَوْماً يجوز أن تُعطاه » . فقال : « أما إذا وقعَتْ الرغبةُ فيها من أمير المؤمنين ، فما يجوزُ أن أملِكَ شيئاً له فيه رغبة ، وقد أهدَيتُها إلى أمير المؤمنين ، فإنَّ من حقها عَلىّ إذا تناهَيْتَ فى قضائه أن أصيِّرها فى ملكه ، فباركَ اللهُ لكَ فيها » فقال الواثق : « قد قبلتُها » . وأمر ابنَ الزيّات أن يدفعَ إليه خمسةَ آلافِ دينار ، وسمَّاها احْتياطاً[1] . فطلَه ابنُ الزيّات بالمال ، ولم يُعطِه له ، فوجّه صالحٌ إلى قلمٍ من أعلَمها بذلك ، فغنّت الواثقَ صوتاً ، وقد اصْطَبح ، فقال لها : « باركَ اللهُ فيكِ ، وفيمن ربّاكِ » . فقالت له : « يا سيِّدى ، وما نفعُ من ربّانى منى إلا التعبُ والغُرمُ ، والخروجُ منّى[2] صِفراً » ، فقال : « أوَ لَمْ نأمرْ له بخمسةِ آلافِ دِينار ! » قالت : « بَلَى ، ولـكنّ ابنَ الزيّات لم يعطِه شيئاً » . فدعا بخادم من خاصَّة الخدم ، ووقَّع إلى ابن الزيّات بحَمْل خمسة الآلاف دينار[3] إليه ، وخمسةِ آلاف دينارٍ أخرى . قال صالح : فصرتُ مع الخادِم إليه بالـكتاب ، فقرَّبنى وقال : « أما خمسة الآلاف دينار[3] الأُولى فقد حَضَرت ، وخمسةُ الآلاف الأُخرى ، أنا أدفعُها إليك بعد جمعة » فقمتُ . ثم تناسانى كأنَّه لم يعرفنى ، فـكتبتُ إليـه أقتَضيه ، فبعثَ إلىّ . « اكتُب لى قبضاً بها ، وخُذْها بعد جُمعة » ، فـكرِهتُ أن أكتبَ قبضاً ، فلا يصحُّ لى شىء . فاستَتَرْتُ فى منزل صديقٍ لى . فلما بلغَه استتارى خافَ أن أشـكُوَه إلى الواثق ؛ فبعثَ إلىّ بالمال ، وأخذ كتابى بالقَبض . ثم لقيَنى الخادمُ بعد ذلك فقال : « أمرَنى أميرُ المؤمنين أن أصيرَ إليك ، فأسألك : هـل

(١) احتياطا ، الأغانى : اغتباطا ، كبريلى والمخطوطتان .

(٢) من يده ، المخطوطتان .

(٣) الدينار ، الأغانى .

قبضتَ المال ؟ » قلت : « نعم ، قد قبضته » . قال صالح : وابتعتُ بالمال ضَيْعة ، وجعلتُها مَعاشى ، وقعدتُ عن عَمَل السلطان ، فما تعرّضت لشىء بعدها .

وقيل: إنّ الواثق لما بويع له بالخلافة دخل عليه ابنُ الجهم فأنشده :

قد فاز ذُو الدّنيا وذو الدِّين بدَوْلة الواثـــقِ هارونِ
عَمّ بالإحسان من فِعـله فالناسُ فى خَفْضٍ وفى لين
ما أكثرَ الـدّاعى له بالبقا وأكثرَ التالى بآمينِ

وأنشده أيضا :

وثِقَتْ بالملكِ الوا ثِقِ بالله النفوسُ
مَلِكٌ يشقَى به المـا لُ ولا يشْقى الجليسُ
أسَدٌ تَضْحك عن شَـ دّاته الحربُ العَبوس
يا بَنى العبّاس يأبـ ى الله إلا أن تسُوسوا

فوصلَه الواثقُ صِلةَ سَنيّة . وغنّت قَلَمٌ فى الشِّعرين ، فسمعَهما الواثقُ من غيرِها . وأمر محمّدَ بن عبد الملك الزيّات بإحضارِها وإحضار مولاها ، فاشتراها منه بعشرة آلاف دينار .

قيس بن عاصم المنقرى

هو قَيْسُ بن عاصِم بن سِنان بن خالد بن مِنْقَر بن عُبَيْد بن مُقاعِس ، واسم مقاعس الحارثُ بن عمرو بن كعب بن سَعد بن زَيْد مَناة بن تميم ، وكُنيته أبو على ، وأمُّه أمّ أصْعَر بنتُ خليفة بن جَرْول بن منقر .

وهو شاعرٌ فارسٌ شُجاع ، حليمٌ كثير الغارات ، مظفرٌ فيهــا . أدرك الجــاهليَّة ، والإســلام ، وساد فيهما ، وهو أحدُ من وأد بناته فى الجاهلية وحَسُن إسلامه ، وأتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلم (١) وصَحِبهُ فى حَياته ، وعَمّر بعدَ وفاته زماناً ، وروَى عنه الحديث ، ولمــا وفد على النبى صلى الله عليه وسلم (١) قال : هذا سيِّدُ أهل الوَبَر . وسألَهُ بعضُ الأَنصار عما يُتحدَّث به عنه من الموءودات التى وأدَهُنَّ من بناتِه ، فأخبَرَ أنَّه ما وُلدَتْ له بنتٌ قطّ إلا وأَدَها ، ثم أقبل على رسُول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : « كنتُ أخافُ سُوءَ الأُحْدُوثَة فى البَنات » ، فقال له النبيّ (٢) صلّى الله عليه وسلّم : « كم وَأَدتَ ؟ » قال : « ثمانِى بنات من ثمانى نسوة » ، فقال له النبيُّ صلّى الله عليــه وسلم : « أما رحمتَ منهنّ واحدة ! » قال : « لا والله ، ما رحمت منهن إلّا واحِدَة » ، قال : « وما بالُها من بَيْنهِنَّ ؟ » قال : « لمــا حضَر أمَّها الطلقُ استأْذَنتنى أن تَلِد فى أهلها ، فأذِنْتُ لها وقلت لها : إن كان غُلاماً فذاك ، وإن كان جاريةً فلا أسمعنَّ لها صوتاً ، ولا أريَنَّ لها وجها . فولدت جاريةً فرقّت عليها ، ولم تَئِدْها ، ودَفعَتْها إلى أخوالها ، فكانت فيهم ، وقَدِمت فسألتُها عن الحمل ، فقالت : ولدت جارية فوأدتها (٣) ، ومضت على ذلك سِنون ،

---

(١) وصحبه ... وسلم ، كوريلى : ساقطة فى المخطوطتين .

(٢) رسول الله ، المخطوطتان .

(٣) ولدت ولدا ميتا ، الأغانى .

حتى كَبِرت ويَفَعت ، فزارت أمُّها ذاتَ يوم ، فدخلتُ فرأيتُها وقد ضَفَرت شعرها ، وجعلَتْ فى قُرونِها شيئاً من ودع ، وألبستها قِلادةَ جَزْع ، وجعلت فى عُنُقِها مِخْنقة ، فاستَكْيَسْتُها وقلتُ : من هذه الصبيَّة ؟ فقد أعجبنى كَيْسُها وجمالُها ، ولو كانتْ هٰذه ابنَتى ما باليتُ فبكَتْ أمُّها وقالت : هذه ابنتُك ، كنت خبَّرتُك أنِّى وَأَدْتُها ، وجَعَلتُها عند أخوالها ، حتى بلغَت هذا المبلَغ . فأمسكتُ عنها حتى اشتَغَلت أمُّها ، ثم أخرجتُها يوماً ، فحفرت لها حُفْرة وجعلتها فيها ، وهى تقول : ياأبَتِ أمغطِّنى أنتَ بالتراب ، وتاركى وَحْدى ، ومُنصرفٌ عنِّى ؟ وجعلتُ أقذف عليها الترابَ وهى تقولُ ذلك ، حتَّى واريتُها وانقطَع صوتُها ، ثم ناديتُها — وأنا أظنُّ أنها هلكت — : يا فلانة ، فقالت : لبَّيكَ يا أبتِ ! أنشُدكَ الرَّحِم . فهِلتُ عليها التراب . فبكَى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم حتى تَخَلّج ببكائِه ، وقال : إن هذه لقسْوة ، وإنَّ من لا يَرحَم لا يُرحَم ، أو كما قال .

قال أبو هريرة : دخل قيسُ بن عاصم على النبيِّ صلى الله عليه وسلّم ، وفى حِجْره بعضُ بناتِه يَشَمُّها فقال : « ما هذه السَّخلةُ تَشَمُّها ؟ » فقال : « هذه ابْنَتى » . فقال: «والله لقد وُلِد لى ثمانون[1] ، ووأدت ثمانية[2] . ماشممت منهنَّ أنثى ولا ذكرا قطّ ». فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم :« فهل إلّا أنّ الله تعالى نزَع الرحمةَ منك » .

وكان السببُ فى وأدِ قيس بناتَه أن المُشَمْرجَ اليَشْكُرىّ — واسمه عبدُ الله — أغار على بنى سَعد ، فسَبَى منهم نِساءً ، واستاق أموالاً . وكان فى النساء رمِيمُ بنتُ عمرو بن مُنازل ، وأمُّها أختُ قَيْس بن عاصم . فلما أقبل الشهر الحرام أقبل قَيْسُ بن عاصم فى ركب من أصحابه ، حتى أتى عَمْرو بنَ المُشَمرج ، فنزَل به . وطلبَ إليه فى رَمِيم ، فوجدَه قد اصطَفَاها لنفْسه . فضرب عليه قبَّة ، ونحَر له ثم قال له :

(١) بنون ، الأغانى .
(٢) بنيات ، الأغانى .

« ما كنتُ بالذى أدْفَعُها إليكَ قبـل أن أعلمَ ما عندها ، ولـكنى أخبِّرُها وأفعل ما أحبَّت » . فقال له قَيْس : « قضيتَ لعمرُ الله ما عليك ، إذا فعلت ذلك » . فأخذ عَمرو بيده فأدخلَه عليها ، ثم قال : « يارَمِيم ، هـذا خالُك سيِّد قومِه ، وأنا من تَعرفين فى موضِعى وشَرفى وصَنيعى إليك ، وأنا أخيِّرُك بينَ المُقام مَعِى والرحيل معه » ثم خرج وتركها . فقالت لِقَيْس : « أرأيتَ لو خَطَبنى إليكَ أكنت مُزوِّجَه إيّاى ؟ » قال : « إى والله ! إنه لـكُفْءٌ كريم » . قالت : « فلستُ بمُختارةٍ عليه أحداً » . قال : « أنشدُكِ الله ، فإن العرَبَ قد سَمِعت بمسيرى إليكِ ، وأنا شيخٌ وأستحْيِى أن يُقال طَلَب فَرُدّ ، ويقالَ إنك اخترتِ أن تـكونى أخيذَة » . قالت : « فلستُ بمختارةٍ عليه أحداً ، فليكُن ما كان » . فخرج على وَجهه ، حتّى أتى أهلَه، فوأد كلَّ بنتٍ له ، وجعل ذلك سنّة فى كلِّ بِنْتٍ تولد له ، واقتدَتْ العربُ به فى ذلك ، فـكان كلُّ سيِّد يولد له بنتٌ يئِدها ، خوفاً من الفَضيحة ، وقيل : إنَّه وأد من أجلِها أربعين جاريةً من وَلَده وأهلِ بَيْتِه .

كان قيسُ بن عاصم تزوَّج منْفُوسَةَ بنتَ زَيد الفوارس الضبِّى ، فأتَتْه فى اللَّيلة الثانية من بِنائه بها بطعام ، فقال : « وأين أكيلى ؟ » فلم تعلم ما يريد . فأنشأ يقول:

أيا بنةَ عبدِ الله وابنـــةَ مالكٍ ... ويابنةَ ذىالبُردَين والفرَس الوَرْدِ
إذا ما صنعتِ الزّاد فالتمِسى لـــه ... أكِيلاً،فإنى لستُ آكِلَه وَحدى
أخًا طارِقًا أو جـارَ بيْتٍ فإننى ... أخافُ مُذمَّات[1]الأحاديثِ من بَعدى
وإنى لَعَبدُ الضَّيف من غـير ذلّةٍ ... وما بِىَ إلا تِلْكَ مِنْ شِيَمَ العبد

فأرسلت جاريةً لها ، يقال لها مَليحة ، فطلَبت له أكيلاً ، وأنشأت تقول :

أبَى المرء قيسٌ أن يذوقَ طعامَه ... بغير أكيلٍ إنـــه لـكريمُ
فبوركتَ حيًّا يا أخا الجود والندَى ... وبوركتَ مَيْتاً قد حوَتْك رجومُ

(١) ملامات ، الأغانى .

قيل لقَيس بن عاصم : « بما سُدْتَ ؟ » قال : « ببذل المال ، وكفِّ الأذى ، ونصر المَوْلَى » .

قال الأحنفُ بن قَيْس : « ما تعلّمتُ الحِلم إلّا من قَيْس بن عاصم المِنْقَرى » ، فقيل له « كيف ذلك يا أبا بحر ؟ » قال : « قَتَلَ ابنُ أخيه ابنَه ، فأُتِى بابنِ أخيه مَكتوفاً يقادُ إليه . فقال : ذَعَرتُم الفَتى . ثم أقبلَ عليه فقال : يا ابنَ أخى ، نقَصْتَ عددَك ، وأوْهَيت رُكنك ، وفتَتَّ فى عَضُدك ، وأشمتَّ عدوَّك ، وأسأتَ لقومِك . خلّوا سبيله ، واحملوا إلى أمِّ المقتول دِيَتَه . فانصرفَ القاتل ، وما حل قَيْسٌ حُبْوته ، ولا تغيَّر وجهه .

جاور دَارِىٌّ قيسَ بن عاصم ، وكان يتَّجر فى أرض العرب . فشرِب قيس ليلةً حتى سكِر ، فربَط الدارىَّ وأخذَ ماله ومتاعَه ، وشرِب من شَرابه فازدادَ سُكْراً ، وجعلَ من السُّكر يتطاوَل ويساور النجومَ ليبلغها ، وليتناولَ القمرَ وكلّمته أختُه فى ذلك ، فلَطَمها وخَمَش وجهَها ، وقيل: أرادَها على نفسِها ، وقال :

وتاجرٍ فاجرٍ نجا(١) الإلهُ به ... كأنَّ عُثنونــه أذنابُ أجْمالِ

ثم قسم صَدَقةَ النبىِّ صلّى الله عليه وسلم فى قومه ، وقال :

ألا بلِّغا عنِّى قريشاً رسالةً ... إذا ما أتتهم مهديات الودائع

حَبَوتُ بما صدَّقتُ فى العام مِنقَراً ... وأيأسْتُ(٢) منها كلَّ أطلسَ طامِع

فلما فعل بالدارىِّ ما فَعَل ، وجعل مالَه نُهْبَى وسكر ، لم تزَلْ به امرأتُه حتّى نام ، فلما أصْبَح قال : « من فَعَل هذا بضيفى ؟ » فقالت له أخته : « الذى صَنَع هذا بوَجهى ، أنتَ صنعتَه » ، وأخبرته بما كان منه ، فآلَى لا يُدخل الخمر بطنَه أبداً . فهو أول من حرمها فى الجاهلية ، وهو القائل :

---

(١) جاء ، الأغانى .

(٢) وأيأست ، الأغانى : وأبأست كوبريلى والمخطوطتان .

فو الله لا أحسُو مَدَى الدهر خمرةً ... ولا شَرْبةً تزرى بذى اللّبِّ والفخر

فيا شاربَ الصهباء دَعْها لأهلها ... الْـغداةَ وسلّم لى الجسيم من الأمر

فإنّك لا تدرى إذا ما شربتَها ... وأكثرتَ منها ما تَرِيشُ وما تبرى

ولى قيسُ بنُ عاصم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صدَقاتِ بنى مُقاعِس، والبطونِ كلِّها: وكان الزِّبْرقانُ بن بدر قد وَلِىَ صدَقاتِ عَوْفٍ والأبناء. فلما تُوُفِّى رسولُ الله صلى الله عليه، وقد جمعَ قيسٌ والزِّبرقان الصدَقات، دسَّ الزِّبرقانُ إلى قَيْس من زيَّن له ما فى يده، وخَدَعه بذلك، فقال له: «إن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قد تُوُفِّى، فهلمَّ نجمع الصدقة، ونجعلها فى قومنا، فإن استقامَ الأمرلأبى بكر، وأدّت العربُ إليه الزكاة، جمعناها ثانية». ففرق قيسٌ الإبلَ فى قومه. وانطلَق الزِّبرقان إلى أبى بكر بِسَبعمائة بعير فأدّاها وقال:

وفَيتُ بأذوادِ النبىِّ محمّدٍ ... وكنتُ امرأً لا أفْسِد الدِّين بالغدر

فلما عرَف قيسٌ ما كاده به الزِّبرقان قال: لو عاهد الزِّبرقان أمَّه لغدر.

وكان قَيْسُ بن عاصم يقول لبَنيه: «إيّاكم والبَغى، فما بغى قومٌ قطّ إلا قلّوا». فكان بعضُ بنيه يلطِمُ(١) قومَه أو غيرهم، فينهى إخْوَتَه عن أن ينصُروه.

قال قيسُ بن عاصم: أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فرحَّب بى وأدْنانى، فقلتُ: «يا رسولَ الله، المالُ الذى لا يكونُ علىَّ فيه تَبِعة، ما ترى فى إمساكِه، لضَيفٍ إن طرَقَنى، وعيالٍ إن كثرُوا علىَّ؟» فقال: «نعم المالُ الأربعَون، والأكثرُ الستّون، ووَيْلٌ لأصحاب المئِين، إلا مَن أعطى من رِسْلها، وأطْرقَ فَحلها، وأوقرَ ظَهرها، ومَنَح غَزِيرتَها، وأطعم القانِع والمعترّ». فقلت: يا رسولَ الله، ما أكرمَ هذه الأخلاقَ وأحسنَها! إنه لا يُحَلّ بالوادى الذى فيه إبلى من كَثرتها»،

(١) يلطمه، الأغانى.

(٢) وأنقر، الأغانى.

قال : « فكيف تَصْنعُ بالإطراق ؟ » فقلت : « تغدُو علىَّ الناس ، فمن شاء أن يأْخُذَ رأس بعيرٍ ذَهَب به » . قال : « فكيف تفعل بالإفقار ؟ » فقلتُ : « إنى لأُفْقِرِ النابَ المدبِرة ، والضَّرعَ الصغير » ، قال : « فكيفَ تصنعُ بالمَنِيحة ؟ » قلت : « إنى لأمْنَح فى السنــة المائة » . قال : « إنَّما لَكَ من مالِك ما أكلتَ فأفنيْتَ ، أو لَبِستَ فأَبْلَيت ، أو تصدَّقتَ فأبقيت » .

وقيسُ بن عاصم هو الذى حَفَزَ الحَوْفَزَانَ بنَ شَرِيك الشَّيْبانى ، طعَنه فى استِه طعنةً يوم جَدُود . وذلك أن الحَوْفَزَان ـ وهو الحارثُ بن شَرِيك بن عمرو بن الصَّلت بن قَيْس بن شَرَاحيل بن مُرَّة بن همَّام ـ كانت بينَه وبين بنى يَرْبوع مُوادَاعة ثم همَّ بالغَدر بهم ، فجمعَ بنى شَيَبان وبَنى ذُهل ، واللهازِم ، وقيسَ بن ثعلبة ، وتيمَ الله ابن ثعلبة وغيرَهم ، ثم غزا بنى يَربوع ، فنَذِرَ به عُتَيْبَة بنُ الحارث بن شِهاب ، فنادى فى قومِه بَنِى جعفر بن ثعلبة ، وبَنِى يربوع ، فحالُوا بينَ الحارث بن شَرِيك وبين الماء . فقال لِعُتَيبة : « يا أبا حَزْرَة ، قد عرفتَ الموادَعة بينى وبينَ بنى سَلِيط ، فهل لكم فى مثلها ؟ فلا نروِّع بنى يربوع أبدا » . فوادعه الحارث . وأغارَ ابنُ شَرِيك على بَنِى مُقاعِس وإخوتِهم بنى رُبَيْع[1] ، فاستعانُوا ببنى يربوع فلم يجيبُوهم ، فاستصْرخوا ببَنِى مِنْقَر ، فركبوا حتى لحِقُوا بالحارث بن شَرِيك وبكرِ بن وائل ، وهم قائلون فى يومٍ شديدِ الحرِّ . فما شعر الحارث بن شريك إلا بالأهتم بن سُمَىّ بن سِنان بن خالِد ابن مِنقَر وهو واقف على رأسه . فوثب الحارثُ بن شريك إلى فرسِه فركبه ، وقال للأهتم : « من أنت ؟ » فانتسَبَ له ، وقال : « هذه مِنقر قد أتتْك » . فقال له الحارثُ بن شَرِيك : « فأنا الحارث » . فنادى الأهتم : « يال سعد ! » ، ونادى الحَوْفَزان : « يال وائل ! » . وحمل كلٌّ واحدٍ منهما على صاحبه . ولحقت بنو مِنقر ، واقتتلوا أشدَّ قتالٍ وأبرَحه ، ونادت نساء بنى رُبَيْع : يالَ سعد . فاشتدَّ قتال بنى مِنقر

(١) ربيع ، الأغانى : يربوع ، كبريلى والمخطوطتان .

لصياحهن ، فهُزِمت بكرُ بن وائل ، وخلّوا ما كان فى أيديهم من بنى مُقاعس ، وما كان فى أيديهم من أموالهم : وتبعهم بنو مِنقَر فبين قتيل وأسير . وأسر الأهتم حُمرانَ بن عَبد عمرو . وقصد قَيْس بنُ عاصم الحارثَ بن شَرِيك ، ولم يكن له همّة غيرُه ، والحارث على فرسٍ له قارح ، وقيسٌ على مُهر ، فخاف قَيْس أن يسبِقه الحارث فحَفَزَه بالرمح فى استه ، فتحفّز به الفَرسَ فنجا ، وسمى الحَوْفَزان . وأطلق قيسٌ أموال بنى مُقاعِس وبنى رُبَيْع ، وسَبَايَاهم ، وأخذ أموال بكر بن وائل وأساراهم . وانتقضَت طَعنةُ قَيْس على الحوفزان بعد سنة ، فمات ، وفى ذلك يقول قَيْس بن عاصم المِنقرى :

جَزَى اللهُ يربوعاً بأسوأ فعلِهـــا إذا ذُكِرت فى النائبات أمورُهـــا
ويومَ جَدُودٍ قد فضحتم ذِمارَكم وسَالَمتم(١) والخيلُ تَدْمَى نحورها
ستَخْطِمُ سَعدٌ والرِّبابُ أنوفَـكم كما حَزَّ فى أنف(٢) القضيب جَرِيرُها

وقال سوّار بن حيان المِنقَرى فى ذلك :

ونحن حَفَزْنا الحَوْفزان بطعنةٍ سَقَتْه نجيعاً من دم الجوف أشْكَلا
وحمرانُ قَسْراً أنزلته رِماحُنـــا فعالج غُلّا فى ذراعيـــه مُقْفَـــلا
فيالكِ من أيّام صَدق نعِـــدُّها كيوم جُؤاثى والنِّبـــاج(٣) وثَيْتَلا

هذه الأيام ، كان قيسُ بن عاصم قد أغار على اللهازم ، وتبعه بنو كَعْب بن سَعد بالنباج وثَيْتَل ، وتخوّف أن يكرَهَ أصحابُه لقاءَ بكر بن وائل ، وقد كانوا يتناجَوْن فى ذلك ، فقامَ لَيْلًا فشقّ مزادهم لئلا يجدوا بدًّا من لِقاء العدوّ ، فلما فعل ذلك أذعَنُوا بلقائهم وصبَروا له ، فأغار عليهم ، وكان أشهرُ يوم يَوْمَ ثَيْتَل لبنى سَعد ، وظفِر قيسٌ

---

(١) وثبنا الـكم ، المخطوطتان .

(٢) فى أنف ، الأغانى وكبريلى : آناف ، المخطوطتان .

(٣) والنباج ، الأغانى : والنبيج ، كبريلى والمخطوطتان .

بما شاء ، وملأ يديه من أموالهم وغنائمهم ، وفى ذلك يقول ابنه علىّ بن قيس بن عاصم المِنقرى :

أنا ابن الذى شقّ المزاد وقد رأى … بثَيْتلَ أحيـــاءَ اللهازم حُضَّرا
فصبَّحهم بالجيش قَيْسُ بنُ عاصم … وكان إذا ما أورد الأمرَ أصدَرا

وكان قيس بن عاصم رئيسَ بنى سعد يومَ الـكُلاب الثانى ، فوقع بينه وبين الأهتَم اختلافٌ فى أمر عبدِ يَغوثَ بنِ وقّاص بن صَلَاءَة حين أسره عِصْمةُ بن أُبَيْر التَّيْمىّ ، ودفعَه إلى الأهتم ، فرفع قيسٌ قوسَه ، فضرب بها فمَ الأهتم ، فهتَم أسنانه ، فسمِّىَ يومئذ الأهتم .

جمع قيسُ بنُ عاصمٍ ولَدَه لما حضرته الوفاة ، فقال : يا بَنِىّ ؛ إذا متُّ فسوِّدوا كبارَكم ، ولا تسوِّدوا صغاركم ، فيُسفِّه الناسُ كبارَكم ، وعليكم بإصلاحِ المال ، فإنه مَنْبهةٌ للكريم وغنًى عن اللئيم ؛ وإذا متُّ فادفِنونى فى ثيابى التى كنتُ أصومُ وأصلِّى فيها ؛ وإياكم والمسألةَ ، فإنها آخِرُ مكاسِبِ العبد ، وإن امرؤ لم يَسأَلْ إلا ترَكَ مكسبه ؛ وإذا دفنتُمونى فأخْفُوا قبرى عن هذا الحىِّ ، بكرِ بن وائل ، فقد كانت بيْننا خُماشَاتٌ فى الجاهليّة . ثم جَمَع ثلاثين سَهْماً ، فربطها بوتَر ، ثم قال: «اكسِروها» ، فلم يستطيعوا ، ثم قال: «فرِّقوها» ، ففرّقوها ، وقال : «اكسروها سهماً سهماً» ، فكسروها فقال : هكذا أنتم فى الاجتماع وفى الفُرقة ، ثم أنشأ يقول :

إنما المجدُ ما بنَى والدُ الصد … قِ وأحيا فَعالَه المولودُ
وتَمامُ الفضلِ الشجاعةُ والحِـ … لمُ إذا زانها عفافٌ وجود
وثلاثون يا بَنِىّ إذا ما … جَمعتْهم للنائبات العهـــودُ
كثلاثينَ من قِداحٍ إذا ما … شدّها للزمان عَقْــد شَديد
لم تـكسَّر وإن تفرّقتِ الأسـ … هُم أودَى بجمعِها التبــديد
وذوُو الحِلم والأكابرُ أولى … أن يُرَى منكم لهم تسويدُ

وعليكم حفظَ الأصاغرِ حتّى ... يبلغ الحِنْثَ الاصغرَ المجهود

ثم مات ، فقال عبدةُ بن الطبيب يرثيه :

عليكَ سلامُ الله قيسَ بن عاصم ... ورحمتُه ما شاء أن يترحّما

تحيّةَ من أوليتَه منك نعمةً ... إذا زار عن شَحْطٍ بلادَك سلّما

فما كان قيسٌ هلكُه هُلكَ واحدٍ ... ولكنّه بنيانُ قومٍ تهدّما

لما مات عبدُ الملك بن مَرْوان اجتمع وَلَدُه حولَه ، فبكى هِشامٌ حتى اختلفتْ أضلاعه ، ثم قال : « رَحِمك الله يا أميرَ المؤمنين ، فأنت كما قال عَبدة بن الطبيب :

فما كان قيسٌ هلكُه هلكَ واحدٍ ... ولكنه بنيانُ قومٍ تهدّما »

فقال له الوَليد : كذبتَ يا أحولُ يا مشئوم . لسنا كذلك ، ولكنّا كما قال الآخر :

إذا مُقرَمٌ منا ذرا حدُّنا بِهِ ... تخمّط منّا نابُ آخرَ مُقرَم

كان بين قيسِ بن عاصمٍ وبين عَبدة بن الطبيب لِحاء ، فهجَره قيسُ بن عاصمٍ . ثم حمل عبدةُ دماً في قومه ، فخرج يسألُ فيما تحمَّله ، فجمع إبلًا ، ومرَّ به قيسُ ابن عاصم ، وهو يسأل في تمامِ الدِّيَة ، فقال : « فيم يسأل عَبدة ؟ » فأُخْبِر ، فساق إليه الدِّيَة كاملةً من ماله ، وقال : قُولوا له يَسْتَمْتع بما صارَ إليه ، ويسوقُ هذا إلى القوم ، فقال عبدة : « والله لولا أن صُلحي إيّاه بِعَقِبِ هذا الفعل عارٌ عليّ لصالحتُه ، ولكنْ أنصرفُ إلى قَوْمي ثم أعود فأصالحُه . ومضى بالإبل ثم عاد فوجَدَ قيساً قد مات ، فوقفَ على قبره ، وأنشَد :

عليكَ سلامُ الله قيسَ بنَ عاصم ... ورحمتُه ما شاء أن يترحّما

الأبيات .

قال الأحنف : ذكرتُ بلاغةَ النّساء عند زياد ، فحدّثتُه أن قيسَ بن عاصمٍ أسلمَ وعنده امرأة من بنى حنيفة ، فأبى أبوها وأهلُها أن يُسْلِموا ، وخافوا إسلامَها ،

فاجتمعُوا إليها وأقسموا أنّها إن أسلَمَت لم يكونوا مَعَها فى شىء . فطالبت قيساً بالفُرقة ، ففارقها ، فلما احتَمَلَت لتَلْحَقَ بأهلها قال لها قيس: « أما والله لقد صحبتِنى سارَّة ولقد فارقتِنى غيرَ عارَّة ، لا صُحبَتُك مَمْلولة ، ولا أخلاقُك مذمومة ، ولولا ما اخْتَرْتِ ما فرّق بيننا إلا الموت ، ولـكنّ أمرَ الله عز وجل ورسولِه صلّى الله عليه وسلم أحقُّ أن يطاع » ، فقالت له : أُنبِئْتُ بحسبك وفضلِك ، والله إن كنتَ للدائمَ المحبّة ، الـكثيرَ المودّة ، القليلَ اللائمة ، المعجب الخلوة ، البعيدَ النّبْوة . ولتعلمنّ أنى لا أسكن بعدَك إلى زَوْج » . قال قيس : فما فارقَتْ نفسى قطُّ شيئاً فتَبِعتهُ كما تَبِعتُها .

وبنو مِنقَر قومٌ غُدُر ، ويقال لهم الـكوادِن ، وهم أسوأُ خلق الله جواراً ، وفيهم بُخْلٌ شديد . ولما ماتَ قَيْسُ بن عاصم كانت أكثر وصيّته لبنيه أن يحفظوا المال . والعرب لا تفعل ذلك وتراه قبيحاً ، وفيهم يقولُ الأَخطل بن رَبيعة النمرى :

يا مِنقَرُ بنَ عُبَيد إن لؤمَـكمُ ... مذ عهدِ آدمَ فى الديوان مكتوبُ
للضَّيف حقٌّ على من كان ذا كرمٍ ... والضيفُ فى مِنقَر عُريانُ مسلوب

وقال النَّمر بن تولب ، يذكر تسميتَهم الغدرَ كَيْسَان ، فى هجاء هجاهم به :

إذا مادعوا كَيْسانَ كانت كهولُهم ... إلى الغَدْرِ أدنى من شَبابِهم المردِ

وهـذا شائعٌ فى جميع بنى سَعد ، إلا أنَّهم يتدافَعُونه إلى بنى مِنقر ، وبنو مِنقر يتدافَعُونه إلى بنى شَيْبان بن خالدِ بن مِنقر ، وهو جدّ قيس بن عاصم .

لما فتح النبىّ صلّى الله عليه وسلّم مكّة ، حَرَسَها الله تعالى ، قدِمَتْ عليه وُفودُ العرب ، وكان فيمن قَدِم قيسُ بن عاصِم ، وعمرُو بنُ الأهتم معه[1] . فلما صارَا عند النبىّ صلّى الله عليـــه وسلّم تسابّا وتهاترا ، فقال قيسُ لعمرو بن الأهتم :

---

(١) ابن عمه ، الأغانى .

يا رسولَ الله ، ما هم منّا، وإنهم لمن الحيرة ، فقال عمرو بن الأهتم : بل هو يارسولَ الله من الرُّوم وليسَ منّا ، ثم قال :

ظَلِلتَ مُفترِشَ الهَلْباء تشتُمُنى عند الرّسول فلم تَصْدُق ولم تُصِب

إن تُبغِضُونا فإنّ الرُّوم أصلكم والرُّوم لا تملكُ البغضاءَ للعرب

سُدْنا فسؤددُنا عَوْدٌ وسؤددُكم مؤخَّر عند أصل العَجْب والذَّنب

وإنما نسبَه إلى الرُّوم لأنه أحمر . فقيل إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم نهاه عن هـذا القول فى قَيْس بن عاصم ، وقال : إنّ إسماعيل بن إبراهيم صلَّى الله عليهما كان أحْمَر ، فقال قيسُ بن عاصم :

ما فى بنى الأهتَم من طائلٍ يُرجَى ولا خيرٍ له يصلُحون

لولا دِفاعِى كنتمُ أعبُدًا مسكَنُها الحِيرةُ فالسَّيْلَحُون

جاءت بكم عَفْرَةُ من أرضِها حِيرِيَّةٌ ليست كما تزعمون

من ظاهرِ الكفِّ وفى بَطنِها وَسْمٌ من الدَّاء الذى تكتمون

وقيل: إن قيساً ارتدَّ بعد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الإسلام ، وأتى سَجاحَ، وكان مؤذِّنها ، وقال فى ذلك :

أضْحَتْ نَبيَّتُنا أُنثَى نُطِيفُ بها وأصبحَتْ أنبياءُ الله ذُكرانا

ولما تزوَّجت بمُسَيْلمة الكذَّاب وآمنتْ به آمَنَ به قيسُ بن عاصم معها . فلما غزا خالدُ بن الوليد اليمامةَ ، وقَتَل اللهُ مُسَيْلمة ، أخذ قيسُ بن عاصم أسيراً ، فادَّعى أن مسيلمة أخذا بناً له ، فجاء يطلبُه. وأحلَفَه خالدٌ على ذلك فحلَفَ، فخلّى سبيله ونجا منه بذلك.

كان زيدُ الخَيْل الطائىّ قد خرج عَن قومه ، وجاوَرَ بنى مِنقر ، فلما أغارت عليهم بنو وائل أبلَى فيهم زيدٌ بلاءً حسناً ، حتى انهزمت عِجل ، وكفر قيسٌ فعلَه وقال : « ما هزَمَهم غيرى » . فقال زيدُ الخيل يعيِّره بكذبه فى قصيدة طويلة :

ولستُ بوقَّافٍ إذا الخيلُ أحْجَمت ولستُ بكذَّابٍ كقَيْس بن عاصِم

قيس بن الحُدَادِيَّة

هو قَيْس بن منقِذ بن عمرو بن عُبيد بن ضاطر[1] بن صالح بن حُبْشِيَّة[2] ابن سَلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة بن حارثة ، وهو خُزَاعة بن عمرو وهو مُزَيقِيا ابنُ عامر ، وهو ماءُ السَّماء بن حارثة الغِطريف بن امرئ القيس البِطريق بن ثَعْلبة ابن مازن بن الأزد . والحُدادِيَّة أمُّه ، وهى امرأة من محارِب بن خَصَفة بن قَيس عَيلان بن مضر ، ثم من قبيلة منهم ، يقال لهم بنو حُداد .

شاعرٌ من شعراء الجاهلية ، فاتك شجاع ، صُعلوك ، خَليع ، خلعته خُزاعة بسُوق عكاظ ، وأشهدَتْ على نفسِها بخلعها إياه ، فلا تَحمِل له جَريرة ، ولا تُطالَب بجريرة يجرُّها أحد عليه . وكان أكثرُ النّاس قولًا فى خَلعه قوماً يقالُ لهم بنو قُمَيْر ابن حُبشية بن سَلُول . فجمع لهم قيسٌ شذّاذاً من العرب وفتّاكا من قومه وأغار عليهم بهم ، وقتَلَ منهم رجُلًا ، يقال له ابن عُس ، واستاقَ أموالهم . فلحقَه رجلٌ من قومه كان سيِّدا ، وكان ضَلْعُه مَعَ قيس فيما جرى عليه من الخَلع ، يقال له ابن محرِّق ، فأقسم عليه أن يردَّ ما استاقه فقال : « أمَّا ما كان لى ولِقَومى فقد أبررتُ قَسَمك فيه ، وأمَّا ما اعتَوَرَتْه أيدى هؤلاء الصَّعاليك فلا حِيلة لى فيه . فرد سَهْمَه وسهمَ عَشيرته ، وقال فى ذلك :

فأقسِمُ لولا أَسْهم ابن محرِّقٍ   مع اللهما أكثَرتُ عدَّ الأقارب
تركتُ ابنَ عُسٍّ يرفَعون برأسه   ينوء بساقٍ كعبُها غير راتبِ
والهامُ[3] خَلْمى على غير مِرّة[3]   عن اللحم حتّى غُيِّبوا فى الغوائب

(١) ضباطر ، المخطوطتان .
(٢) حبيشة ، كبريلى : خيثمة ، المخطوطتان .
(٣) وأشهاهم . . . ميرة ، الأغانى .

كان قيسُ بن الحُدادِيَّة يهوى أمَّ مالك بنتَ ذُؤيب الخُزاعى ، وكان بطونٌ من خُزاعة خرجُوا جالِين إلى مصرَ والشام ، لأنهم أجدبوا ، حتى إذا كانوا ببعضِ الطريق رأوا البوارق خلفهم ، وأدركهم من ذكر لهم كثرةَ الغَيْث والمطرِ وغزارتَه ، فرجَعَ عمرُو بن عبدِ مناة فى ناسٍ كثير إلى أوطانِهم ، وتقدّم قَبيصةُ بن ذُؤيب ، ومعه أختُه أمُّ مالك ، واسمها نُعم ، ومَضَوا ، فقال قيس بن الحُدادِيَّة :

أجِدَّكَ إن نُعمٌ نأَتْ أنتَ جازِعُ ... قد اقتَرَبَتْ لو أن ذلك نافع

قد اقتربت لو كان فى قُرب دارهـا ... نوالٌ ولكن كلُّ مَن ضَنَّ مانع

وقد جاوَرَتنا فى شهورٍ كثـيرة ... فما نوَّلت ، والله راءٍ وسامع

فإنْ تَلْقَين نُعماً ـ هُدِيتَ ـ فحيِّها ... وسَلْ كيف تُرعَى بالمَغِيب الودائع

منها .

ولا يَسْمعن سرِّى وسرَّك ثالث ... ألا كلُّ سرٍّ جاوز اثنين شائعُ

وكيف يَشيع السرُّ منِّى ودونَه ... حِجابٌ ومن دونِ الحجاب الأضالع

ومنها :

فقلتُ لها : يا نُعم حُلِّى محلَّنـا ... فإنَّ الهوى والعيشَ يا نُعم جامع

فقالت : وعيناها تَفيضانِ عَبرةً ... بأهْلِيَ بيِّنْ لى متى أنتَ راجع

فقلتُ لهـا : تالله يدرى مسافِرٌ ... إذا أضْمَرته الأرضُ ماالله صانع

فشدَّت على فِيها اللثامَ وأعرضتْ ... وأمعن بالكُحل السحيقِ المدامعُ

وإنِّى لعهد الودِّ راعٍ وإنَّنى ... بوصلكِ إن لم يطوِنى الموتُ طامع

وهى طويلة بديعة .

أُنشِدَت عائشةُ بنتُ طلحة هذه الأبيات ، ويحضرتَها جماعةٌ من الشعراء ، فقالت : « من قدَر منكم على أن يَزيدَ فيها بيتاً يُشبهها ويدخُل فى معناها ، فله حُلَّتى هذه . فلم يَقدِر أحد منهم على ذلك .

وكان سببُ مقتلِ قَيْس بن الُحدادية أنه لقِى جمعاً من مُزينة ، يريدون الغارةَ على بعض من يجدون منه غرّة ، فقالوا له « اسْتَأْسِر » ، فقال : وما ينفعُكم منّى إذا استأسرتُ ، وأنا خليع ؟ ولو أَسَرْتمونى ثم طلبتم من قومى عَنْزاً جَرْباء جَذْماء ما أعطيتمُوها » . فقالوا له : « استأسِر لا أمّ لك » . فقال : « نفسى علىّ أكرم من ذلك » ، وقاتلَهم حتى قُتِل ، وهو يرتجز :

أنا الذى تخلعه[1] مواليهْ   وكلُّهم بعد الصفاء قَاليهْ
وكلُّهم يُقسِم لا يُبَاليهْ   إنّى إذا الموت ينوب عاليهْ
مختلطٌ أسفلُه بعاليهْ   قد يعلمُ الفِتيان أنّى صَاليه

* إذا الحديدُ رُفعتْ عَواليه *

وقيل : إنّه كان يتحدّث إلى امرأةٍ من بنى سُليم ، فأغاروا عليه وفيهم زوجُها ، فأفلَت ، فنام فى ظلّ ، وهو لا يَخْشى الطلَب ، فاتبعوه فوجدوه فقاتلهم وهو يرْتجز حتى قُتِل .

(١) تخلعه ، الأغانى : تخلعنى ، كبريلى والمخطوطتان .

قُسّ بن ساعدةَ الإياديّ

هو قُسّ بن ساعدة بن عمرو ــ وقيل شَمِر ــ بن عدِيّ بن مالك بن أيدعان بن النَّمِر بن وائِلة بن الطَمَثان بن عَبد مَناة بن يقدم بن أفصَى بن دُعْمِيّ بن إياد .

خطيبُ العرب وشاعِرُها ، وحليمُها وحكيمُها وحَكَمها فى عَصْره . وهو أوَّلُ من عَلَا على شَرَفٍ ، وخَطَب عليه ، وأوّلُ من قال فى كلامه : « أما بَعد » ، وأول من اتّكَأ فى خُطبته على سَيف أو عَصا .

وأدركه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلّم قبل البعثة ، ورآه بعُكاظ . وكان يأثِر عنه كلاماً سمِعَه منه . وسُئل عنه فقال : « يُحشَر أمّةً وحدَه » . ولمّا قدِم وفدُ إيادٍ على النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال : « ما فعل قُسّ بن ساعدة ؟ » قالوا : « مات يارسولَ الله » ، قال : « كأنى أنظُر إليه بسوقِ عُكاظ ، على جمل له أورق ، وهو يتكلّم بكلامٍ عليه حلاوةٌ ، ما أجِدُنى أحفظُه » ، فقال رجل من القوم : « أنا أحفظه يا رسولَ الله » ، قال : « كيف سمِعتَه يقول ؟ قال : « سمعته يقول : أيّها الناس ، اسمَعُوا وعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكلّ ما هو آتٍ آت . ليل داج ، وسماء ذاتُ أبراج ، وبحار تَزْخَر ، ونجوم تزهر ، وضوءٌ وظلام ، وبِرٌّ وآثام ، ومطعَم ومَشْرَب ، وملبَسٌ ومركب . مالى أرى الناسَ يَذْهَبون فلا يرجعون ؟ أرضوا بالمُقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ وإلهِ قُسٍّ بن ساعدة ما على وَجهِ الأرض دينٌ أفضل من دينٍ قد أظلّكم زمانُه ، وأدرككم أوانُه فطُوبى لمن أدركَه واتّبعه ، وويل لمن خَالفه ، ثم أنشَد :

فى الذاهبينَ الأولِيـ ... نَ من القُرون لنا بصائرْ
لمـــا رأيتُ مواردًا ... للموتِ ليس لها مَصادرْ

ورأيتُ قومي نحوهـا يَسعى الأصاغرُ والأكابر
لا يرجعُ الماضي إليَّ (م) ولا مِن الماضين غابر
أيقنتُ أنِّي لا محا لَةَ حيثُ صار القومُ صائر

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله قُسًّا ، إنى لأرجُو أن يبعثَ يومَ القيامة أمَّةً وحدَه » . فقال رجل : « يا رسولَ الله ، لقد رأيتُ من قسٍّ عجباً » قال : « وما رأيتَ ؟ » قال : « بينا أنا بجَبَل ، يُقال له سَمعان ، فى يومٍ شديدِ الحرّ ، إذا أنا بقُسٍّ بن ساعدة تحت ظلِّ شجرة ، عند عين ماء ، وحولَه سِباع ، كلما زأرَ منها سَبُعٌ على صَاحِبه ، ضربَه بيـده وقال : كفَّ ، حتى يَشْرَب الذى وَرَدَ قبلَك . قال : ففَرِقْت ، فقال لى : لا تَخَفْ ، وإذا أنا بقبْرَينِ بينهما مَسْجِد ، فقلت : ما هذان القبران ؟ قال : هـذان قبرَا أخوَينِ كانا لى ، فماتا ، فاتَّخذتُ بينهما مسجداً ، أعبدُ الله فيه ، حتى ألحقَ بهما ، ثم ذكر أيامَهما ، فبكى ، ثم أنشأ يقـول :

خَليليَّ هبُّا طال ما قد رقدتُما أجِدَّكما لا تَقضِيان كَراكما
ألم تعلَما أنِّى بسمعانَ مُفْرَدٌ ومالى فيه من حَبيبٍ سواكما
أقيم على قبرَيْـكُما لستُ بارحا طَوالَ اللَّيالى أو يجيبَ صداكما
كأنـكما والموتُ أقربُ غايـةٍ بجِسمىَ فى قبريكما قد أتاكما
فلو جُعِلَتْ نفسٌ لنفس وِقايةً لجدتُ بِنفسي أن تـكون فِداكما

فقال النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم : « رحم الله قُسًّا » .

وقيل إن الشِّعر لعِيسى بن قُدامة ، قاله لما قَدِم خُراسان ، وكان له بها نديمانِ فماتَا ، فـكان يجىء فيجلسُ عنـد القَبْرَين ، وهما براَوَنْد ، فى موضعٍ يقال له حراق ، فيشربُ ويصب الـكأسَ على القَبْرَين ، حتى يقضِيَ وطرَه ، ثم ينصرفُ ويُنشِدُ وهو يَشْرب :

خليليَّ هبَّا طال ما قد رقدتُمــــا　　أجِدَّكما لا تقضِيــــان كراكمـا
ألم تعلَمــا مالى براوَندَ كلّهِــا　　ولا بحراقٍ من صــديق سواكمـا
أقيمُ على قــبرَيكمـا لست بارحاً　　طَوال الليالى أو يجيبَ صداكما
جرى النوم[1] مجرى اللّحم والدم منكما　　كأن الذى يَسْقى المُقَار سقــاكما
تحمَّل من يهوَى القُفُول وغادَرُوا　　أخاً لــكما أشجاه ما قد شَجاكما
فأى أخٍ يجفُو أخاً بعد موته　　واستُ الذى من بعد موتٍ جفاكما
أصبُّ على قبريكما من مُدامةٍ　　فإنْ لم تذُوقاها تُرَوِّ ثراكما
أناديكُما كَيْما تُجيبا وتنطقا　　وليس مجاباً صوتُه من دعاكما
أمِن طول نومٍ لا تجيبان داعياً　　خليــليَّ ما هــذا الذى قد دهاكما
قَضَيْتُ بأنِّى لا محالةَ هالكٌ　　وأنِّى سيعرونى الذى قد عراكما
سأبــكيكُما طولَ الحياة وما الذى　　يردُّ على ذى عَوْلة إن بكاكما

وقيل : إنَّ هذا الشعر لأحد ثلاثة من أهل الــكوفة ، كانوا فى الجيش الذى سيَّره الحجّاج إلى الدَّيلم ، فــكانوا يتَنَادَمُون ، لا يخالِطون غيرهم ، فمات أحدُهُم ، فدَفَنَه صاحِباه . وكانا يشربانِ عند قبره ، فإذا بلغَه الــكأسُ هَرَاقاها على قبره ، وبكيا ، ثم مات آخر فدفنَه الثالث إلى جَنبِ صاحبه ، وكان يجلسُ عند قبريهما ، فيشربُ ثم يصبّ الــكأسَ على الذى يليه ، وعلى الآخر ، ويبكى . وقال هذا الشعر فيهما ، وذَكر مكانَ راوند قَزوين ، وقبورُهم هناك معروفة بقبور النُدَماء .

وقيل : إن هذا الشعر للحزين[2] بن الحارث بن عامر بن صعصعة ، وكان أحدُ

---

(١) الموت ، الأغانى .
(٢) للحارث ، المخطوطتان .

نديميه من بنى أسد ، والآخرُ من بنى حنيفة . فلما مات أحدُهما كان يشربُ ويصبُّ على قبره ، ويقول :

لا تصرِّد هامةً من كأسِهـا　　واسقِه الخمرَ وإن كان قُبِرِ
كان حُرًّا فهوَى فيمن هوَى　　كلّ عُودٍ ذى شعوب يَنكسر

ثم مات الآخر ، فكان يشربُ عند قبرِيهما ، ويصبُّ عليهما ويقول :

خليلَىَّ هُبّا طال ما قد رقدتُما　　. . . . الأبيات

ثم قالت كاهنةٌ إنّك لا تموت حتى تنهشَك حيّةٌ فى شجرَة ، فى وادِى كذا وكذا . فورَدَ ذلك الوادى فى سَفَرٍ له ، وسأل عنه فعرَفه ، وكان قد حطَّ فى أصل شجرة ، ومدَّ رجلَه عليها ، فنهشَتْه حيّة ، فأنشد يقول :

خليلَىَّ هـذا حيثُ رَمْسِى فعرِّجاَ　　علَىَّ فإنى نازل فمعـرِّس
لبستُ رداءَ العيش أحوَى أجرُّه الـ　　مشيَّاتِ حتى لم يكنْ فيـه ملبس
تركت خبائى حيث أمسى عمـاده　　علىّ وهـذا مَرْمَسِى حَيْثُ أُرْمَسُ
أحَتْفِى الذى لا بدَّ أنك قـاتِـلى　　هـلمَّ فمـا فى غابِرِ العَيْش منفسُ
أبعدَ نديمَـىَّ اللذين بمـاقـل　　بكيتُهمـا حولًا مـدًى أتوجَّسُ

حرف الكاف

كثيّر عزة

هو أبو صَخْر ، كثيِّر بن عبد الرحمن بن الأسوَد بن عامِر بن عُوَيمر بن مَخْلد ابن سعيد بن سُبَيْع بن جِعْثِمَة[1] بن سَعْد بن [2]مُلَيْح بن عمرو ، وهو خُزاعة بن ربيعة ، وهو لحى بن حارثة بن عمرو، وهو مزيقيا بن عامر ، وهو[2] ماء السماء بن حارثة الغِطريف ابن امرئ القَيْس البِطريق . وأمُّه جُمُعة بنتُ الأشْيَمَ بن خَالد بن عُبَيد بن مُبَشِّر ابن ريَاح بن سيالة بن عامر بن جِعْثِمة بن كَعب بن عَمرو بن رَبيعة بن حَارثة بن عمرو بن عامر . وكانت كنيةُ الأشيم جدِّه أبي أمه أبا جُمُعة ، ولذلك قيل له ابنُ أبي جُمُعة .

وكان له ابنٌ يقال أيُّوب[3] من أشعَرِ أهل زمانِه ، مات سنةَ إحدى وأربعين ومائة ، لا وَلَد له ، ومات كثيِّر سنة خمسٍ ومائة ، في خلافةِ يزيدَ بن عبد الملك ، وليس له ولدٌ إلا من بنتِه لَيْلَى ، وكان لابنَتِه ليلَى ولَدٌ ، يقال له أبو سَلَمة ، شاعر . وهو القائل :

وكان عزيزاً أن تَبِيتِي وبينَنَا ... حِجابٌ فقد أمسيتِ منّا على شَهر

فني القُربِ تعذيبٌ وفى البُعد حَسْرةٌ ... فياويحَ نفسِي كيفَ أصنعُ بالدَّهر

وكان كثيِّر دمياً قليلًا ، أحمرَ أقيشر ، عظيمَ الهامة ، قبيحاً ، فمن حدَّث أنّه يزيدُ على ثلاثةِ أشبارٍ فلا تصدِّقه . وكان إذا دخل على عبدِالعزيز بن مَرْوان يقولُ له :

---

(١) خثعمة ، المخطوطتان .

(٢-٢) ساقط فى المخطوطتين .

(٣) ثواب ، الأغانى .

طأطِئْ رأسَك ، لا تُصِيب السقف ، وكان لايبلغُ ضُروعَ الإبل . وقال جرير لـكثيِّر: أىُّ رَجُلٍ أنت لولا دمامتُك . فقال كثيِّر :

فإن آل قَصْداً فى الرِّجال فإنَّنى إذا حلَّ أمرٌ ساحتى لطويل

وكان من فحول شُعَراء الإسلام . وجعلَه ابنُ سلام فى الطبقة الأولى ، مُقارِناً لجريرٍ والفرزدق والراعى ، وكان غالياً فى التشيُّع ، يقول بالرَّجْعة ، ويذهبُ مذهبَ الـكَيْسانية ، ويرَى التَّناسخ ، ويحتجّ بقوله عزَّ وجل : « فِى أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ » . وكان يزعُم أن محمدَ بن الحَنَفيَّة لم يَمُت . وله فيه أشعار . وكان محمَّقاً مشهوراً بذلك . وكان آلُ مَرْوان يعلمون مَذْهَبَه ، ولا يُغيِّرهم ذلك عليه ، لجلَالته فى أنفُسِهم ، ولُطفِ محلِّه عندهم . وكان من أتْيَه النَّاس وأذْهَبِهم بنفْسِه على كلِّ أحد . وكان يقالُ : ما قصَّد القَصِيد ، ولا نَعَتَ الملوكَ مثل كثيِّر .

قال إبراهيمُ بن سَعد : إنِّى لأروِى لـكثيِّر ثلاثين قصيدة ، لو رُقِىَ مجنونٌ بها لأفاق . وكان يُؤتَى وهو خَبيثُ النفس ، فيسأل عن شعرِ كثيِّر ، فَيطيبُ نفساً ويُحدِّث وكان ابنُ أبى عُبَيدة يُملِى شعر كثيِّر بثلاثينَ ديناراً . وكان يقول : من لَمْ يجمعْ من شِعر كثيِّر ثلاثين لا ميَّة ، فلم يجمعْ شِعرَه . وسُئِل مُصْعَب : من أشعرُ أهل المدينـة ، فقال : كثيِّر بن أبى جُمُعة ، هو أشعر من جريرٍ والفرزدق والرَّاعى وعامتهم ، يعنى الشعراء . ولم يدرِكْ أحدٌ من مدحِ الملوك ماأدركَ كثيِّر . وكان شاعرَ أهل الحِجاز ، ولـكنَّه منقوصُ الحظِّ فى العراق .

ومن شعر كثيِّر :

توهَّمتُ بالخَيْفِ رَسْماً مُحِيلا لعـزَّةَ نعرف منـه طُلولا

تبدَّل بالحىِّ صوتَ الصـدا ونَوحَ الحمامـة تدعُو هدِيلا

الخيف الذى عناه كثيِّر ليس بخيفِ مِنًى ، وهو موضع آخر فى بلاد بنى ضُمرة . والطُّلول جمع طَلَل ، وهو ما كان له شَخْصٌ وجسم عالٍ من آثار الديار ، والرَّسْم مالم

يكن له جسم ، والصَّدَى هاهنا طائرٌ يخرُج من رأس المقتول يصيحُ حتّى يدرك بثأره . قال طرفة :

كريم يروِّى نفسَه فى حياتِه   سيعْلَمُ إن متْنَا غداً أيُّنا الصدِى

والحمام : القماريّ ونحوُها من الطير ، والهديل أصواتها .

قال الوقاصي[1] : رأيت كثيراً يطوف بالبيت ، فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فلا تصدقه وكان لا يبلغُ ضُروعَ الإبل .

كان عبدُ الله بن الزُبَير قد أُغْرِىَ ببنى هاشم يَتْبعهم بكلِّ مكروه ، ويخطُب بهم على المنابر ، ويعرِّض ويُصرِّح ، وربما عارضَه ابنُ عبّاس وغيرُه منهم . ثم بداَ له فيهم ، فحبَس ابنَ الحنَفيَّة فى سِجن عارم ، ثم جَمَعَه وسائرَ من كان بحضْرته من بنى هاشم ، فجعلهم فى بيتٍ وملأه حَطباً ، وأضْرمَ فيه النـار ، وقد كان بَلَغه أن أبا عبدِ الله الجدلى[2] وسائرَ شيعة ابن الحنَفيّة قد وَافَوْا لنُصرته ، ومحاربةِ ابن الزُّبير ، فكان ذلك سَبَب إيقاعه به . وبلغ أبا عبدِ الله الجدليّ الخبر ، فوافاه ساعةَ أُضرِمت النار ، فاطفأها واستنْقذَهم ، وخرج ابنُ الحَنفيَّة عن جِوار ابن الزُّبَير من يومئذ .

[فقال كُثَيِّر يذكر ابن الحنفيّة ، وقد حبسه ابن الزبير فى سجن عارم

مَنْ يرَ هَذا الشَيخْ بالَخيْفِ من مِنًى   من النـاس يعلمْ أنه غير ظـالم

سَمىُّ النبيِّ المصطفى وابن عمّـه   وفـكّاك أغلال ونفّاع غـارم

أبِىٌّ فهو لا يشرى هدًى بضلالة   ولا يتّقى فى الله لَوْمـة لائم

ونحن بحمد الله نتلو كتابه   حُلولا بهذا الخيف خَيْف المحـارم

بحيث الحمامُ آمن الروع ساكِنٌ   وحيث العـدوُّ كالصديق المسالم

فما فرحُ الدنيـا بـاق لأهله   ولا شـدة البلوى بضربة لازم

---

(١) الرصافى ، كبريلى ، والمخطوطتان .

(٢) الجدلى ، كوبريلى والأغانى : البجلى ، المخطوطتان .

تخبِّر من لاقيت أنك عائـــذ   بل العائذ المظلوم فى سجن عارم](١)

وكان الناسُ بالمدينةِ يلعبون بكثيرٍ ، فيقولون وهو يسمع : إن كثيِّراً لا يلتَفِتُ من تِيهِه ، ويأتيه الرجلُ من ورائه ، فيأخذُ رداءه ، فلا يلتَفِتُ من الـكِبر ، ويمضى فى قَميص .

قال طلحةُ بن عبيد الله : دخلتُ على كثيِّر فقلت : « كيف تجدُك يا أباصَخْر ؟ » وهو ضعيف ، فقال : « أجِدُنى ذاهِباً » ، قلت : « كلّا » ، فقال : « هل سمِعتُم الناس يقولون شيئاً ؟ » فقلتُ : « نعم ، يتحدّثون أنك الدّجال » ، قال : « أما لَئِن قُلتَ ذلك فإنى لأجدُ فى عينِى هذه ضَعْفاً منذ أيام » .

ومن جُملة تغَالِيه فى التشيُّع أنه سَمِع عن قَطام صاحبةِ ابن مُلْجَم ، فى قَدْمةٍ قَدِمها الـكوفة ، فأراد الدخول عليها ، ليوبِّخها ، فقيل له : « لا تزُرها ، فإنّ لهـا جواباً باتًّا ، فأتاها ، فقرَعَ بابها ، فقالت : « من هذا ؟ » فقال : « كثيِّر بنُ عبد الرحمن » ، فقالت لبناتٍ لها : « تنحَّين حتّى يدخلَ الرجل » ، فتنحَّين ، وأذِنَت له ، فدخل فتنحّت من بين يدَيْه ، فرآها وقد ولَّت ، فقال لها : « أنت قَطام ؟ » قالت : « نعم » ، قال : « صاحبة علىِّ بن أبى طالب ؟ » قالت : « صاحبةُ عبد الرحمن ابن مُلجَم » ، قال : « أليس فيكِ قتلَ علىَّ بنَ أبى طالب ؟ » قالت : « مات بأَجَله » قال : أما والله ، لقد كنتُ أحبُّ أن أراكِ ، فلما رأيتُكِ نبَتْ عينِى عنكِ فما احلَوْلَيْتِ فى صَدْرى » ، فقالت : « والله إنَّك لقصيرُ القامة ، عظيمُ الهامة ، قبيحُ المنظر ، وإنك لـكما قال الأوّل : لَأن تسمعَ بالمُعَيْدِىِّ خيرٌ من أن تراه» ، فقال :

رأتْ رجلًا أودى السِّفار بوجهه   فلم يبقَ إلا منظَر وجَنَاجِنُ
وإن أكُ معروقَ العِظام فإنّنى   إذا وُزِنَ الأقوامُ بالقوم وازِن
وإنى لمـا استودعتَنى من أمانةٍ   إذا ضاعت الأسرارُ للسِّرخازِن

(١) [فقال كثير ... عارم] زيادة عن الأغانى يبدو أنها سقطت فى مخطوطات المختار .

فقالت له : « لله أبوك ! أنتَ كثيِّر عزَّة ؟ » قال : « نعم » ، قالت : « الحمد لله الذى قصَّر بك ، فصرتَ لا تُعرَف إلا بامْرأة » ، فقال : « ليس الأمرُ كذلك ، فو الله لقد سارَ بهــا شِعرى ، وطارَ بها ذِكرى ، وقرُبَ من الخليفة مجلِسى ، وإنّها لــكما قلتُ :

فإن خَفيتْ كانت لعينك قُرَّة وإن تبــدُ يوماً لم يعرَّكَ عارُها
فما رَوْضَةٌ بالحزْن طيِّبةُ الثرى يمُجُّ الندى جَثْجاثُها وعَرارُها
بأطيبَ من أردانِ عزَّة موهناً وقد أوقِدَت بالمندل اللَّدن نارُها
من الخفِرات البيض لم تَرَ شِقْوةً وفى الحسَب المكنونِ صافٍ نجارُها

فقالت : « ما رأيتُ شاعراً أنقصَ عقْلًا ، ولا أضعفَ وصفاً منك . ولو فُعِل هذا بزَنجيَّة طاب رِيحها : ولامروُ القيْس أحسنُ وصفاً منك ، حيث يقول :

ألم ترانى كلمــا جئتُ طارقاً وجدتُ بها طيباً وإن لم تطيّب »

فخرج وهو يقول :

الحق أبلجُ لا يحيل سبيــله والحقُّ يعرِفهُ ذوو الألبــاب

قال السائبُ بن حكيم السَّدوسىّ ، راويةُ كثيِّر : إنى لأسيرُ يوماً مع كثيِّر ، حتى إذا كنا ببَطْنِ جداد ، جَبَل من المدينة على أميال ، إذا أنا بامرأةٍ فى رحالة ، منتَقِبةٍ ، معها عبيد يسعَون معها ، إذ مرَّت بى ، فسلمتْ علىّ ثم قالت : «من الرجُل ؟» قلتُ : « من أهْل الحجاز » ، قالت : « هل تروِى لـكثيِّر شيئاً ؟ » قلت : «نعم» ، قالت : أما والله ، ما بالمدينة شَىْءٌ أحبُّ إلىَّ من أن أرى كثيِّرا ، وأسمعُ شعرَه ، فهل تروى قصيدتَه :

أهاجَك بَرْقٌ آخرَ الليْل واصب تضمَّنه فَرْشُ الجَبَا فالمشارِبُ
كما أوْمَضَتْ بالعَيْنِ ثم تبَسَّمت خريعٌ بدا منها جَبينٌ وحاجب
وهبتُ لليــــلى ماءَه ونَباتَه كما كلُّ ذى وُدٍّ لمن ودَّ واهب

قلت : « نعم » ، وأنشدتُها لآخرها ، قالت : « فهل تَرْوِى قوله :

* أطلالَ سُعْدَى باللِّوى تتعهّد * »

قلت : « نعم » ، وأنشدتها إلى قوله :

فلم أرَ مثلَ العين ضنَّت بمائها ‏ ‏ ‏ ‏ علىَّ ولا مِثلى على الدَّمع يُحسَد

فقالت : « قاتله الله ! بالله هل قال مثلَ قول كثيِّرٍ أحدٌ على وجه الأرض ؟ والله لأن أكونَ رأيتُ كثيِّراً ، أو سمعتُ شعرَه منه أحبُّ إلىّ من مائة ألف درهم. قال : فقلتُ لها : « هو ذلك الراكِبُ أمامَك ، وأنا السائبُ راويته » . قالت : « حيَّاكَ الله » ، ثم ركَضَتْ بَغلتها حتى أدركَتْه ، ثم قالت له : « أنت كثيِّر ؟ » فقال : « نعم » ، قالت : « أنت ابن جُمُعة ؟ » قال : « مالَكِ ويلك ؟ » ، قالت : « أنت القائل :

إذا حُسِرتْ عنه العِمامةُ راعَها ‏ ‏ ‏ ‏ جميلُ المحيَّا أغفلَتْه الدَّواهِن

والله ما رأيتُ عربيًّا قطّ أقبحَ منك ولا أحْقَرَ ولا الأَم » . وقيل : بل قالت : « أهذا الوجهُ جميلُ المحيَّا ؟ إن كنت كاذباً فعليك لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين » . فقال لها : « أنتِ والله أقبحُ والأَم » . قالت : « فأنت الذى تقول :

وكنتُ إذا ما جئتُ أجلَلْن مجلِسى ‏ ‏ ‏ ‏ وأظهرنَ منى هَيْبةً لا تجهُّمـــا

لعن الله من يَفْرَق منك » . وقيل : بل قالت : « أعلى هذا الوجهِ هَيْبة ؟ إن كنتَ كاذباً ، فعليك لعنةُ اللهِ والملائكة والناسِ أجمعين » . قال : « بل لعنكِ الله » ، قالت : « أو لستَ الذى تقول :

يروقُ العيونَ الناظراتِ كأنّه ‏ ‏ ‏ ‏ هِرَقْلِىّ وزن أحمر التِّبر راجح

إن كنت كاذباً ، فعليك لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين » . ثم قالت : أو لست القائل :

يحاذرن منى غِرَّةً قد عرفْنها ‏ ‏ ‏ ‏ قديماً فما يضحكـن إلا تبسُّما

لعن الله من يفرّق منك » . قال : « بل لعنكِ الله » قالت : « أولستَ الذى تقول :

إذا ضُمريّةٌ عَطِست فنِكها فإن عُطاسَها طرفُ الوِداق »

قال : « من أنتِ ؟ ويلك » . قالت « لا يضرّكَ ألّا تعرفَني ، ولا من أنا » ، قال : « والله إنى لأراكِ لئيمةَ الأصل والعشيرة » . قالت : « حيّاكَ الله يا أبا صخر ، ما بالمدينة رجلٌ أحبُّ إلىّ وجهاً ، ولا لقاءً منك » . قال : لاحيّاكِ الله ، ولكن والله ما على وجهِ الأرض أحدٌ أبغضُ إلىّ وجهاً منك » . قالت : « أفتعرفُني ؟ » قال : « أعرِفُ أنّكِ لئيمةٌ من اللِّئام » . فتعرّفت إليه ، فإذا هى غاضرة ، أمُّ وَلَد بِشرِ بن مروان . فسايَرها ، فقالت لَه : « ياأباصَخر ، أضمَنُ لك مائةَ ألفِ دِرهم عند بِشر بن مروان إنْ قَدِمتَ عليه » . قال : « أفى سَبِّك إيّاى أو فى سبِّى إيّاكِ تضمنين لى هذا ؟ لا والله لا أخرجُ إلى العِراق على هذه الحال » . فلما قامت تودِّعه سَفَرت عن وَجهها ، فإذا هى أحسنُ من رأيتُ فى الدنيا ، وأمرت له بعَشْرَة آلافِ درهم ، فبعد شرّ ما قبلها ، وأمرت لى بخمسةِ آلافِ درهم . فلما ولّوا[1] قال : « يا سائبُ ، أين نُمنِّى أنفسَنا إلى عكرمة ؟ انطلِقْ بنا ، نأكل هـذا حتى يأتِيَنا الموت » . فلمّا فارقَتْنا قال كثيِّر أبياته :

شجا أضغانَ غاضرة الغوادى بغير مشورة عَرَضاً فؤادى

أغاضرُ لو شهدتِ غداةَ بِنْتُم حُنُوَّ العائداتِ على وسادى

كان كثير يدخل على عمّة له ، فتكرمُه وتطرح له وسادةً يجلس عليها ، فقال لها يوماً : « والله ما تعرِفينَني ولا تُكرمينَنى حقّ كرامتى » ، فقالت : بَلَى والله إنى لأعرفُك » ، قال : « فمن أنا ؟ » ، قالت : « فلان بنُ فلانة وابنُ فلان » ، وجعلت تمدَح أباه وأمّه . فقال : « قد علمتُ أنّكِ لا تعرفينى » ، قالت : « فمن أنت ؟ » قال : « أنا يونُس بن متّى » .

(١) ولت ، المخطوطتان .

كان عبد الملك قد قال لكثيِّر الحق بقومِك خُزاعة ، فأخبرهم أنّهم من كِنانةِ قريش ، فأنشده كثيِّر قوله :

أليس أبى بالصّلت أم ليس إخوتى　　بكلِّ هجان من بنى النضر أزهرا
فإن لم يكونُوا من بنى النَّضر فاتركوا　　أراكاً بأذيال الخمائل[١] أخضرا
أبيتُ التى قد سمّتِنى ونكرتُها　　ولو سُمتُها قبلى قبيصة أنكرا
لبسْنَا ثيابَ العَصْب فاختَلَط السَّدى　　بنا وبهم[٢] والحضرمىَّ المنيَّرا

فقال عبد الملك : « لا بدَّ أن تنشِد هذا الشعرَ على منبرىْ الكوفة والبصرة» ، وحمله ، وكتبَ إلى العِراق فى أمره . فأجابته خُزاعة الحجاز إلى ذلك، وقال فيه الأحوص ، ويقال : بل قاله سُراقة البارقىّ :

لعمرى لقد جاءَ العراقَ كثيِّر　　بأحدُوثة من وَحْيِه المتكذِّب
أيزعُم أنّى من كِنانَة أوّلى　　وما لىَ من أمٍّ هناك ولا أبِ
فإن كنت حرًّا أو تخاف معرَّةً　　فخُذْ ما أخذتَ من أميرك واذهَب

ثم خرج كثير ، فأتى الكوفةَ ، فرُمِىَ به إلى مسجد بارقٍ ، فقالوا له : « أنتَ من الحجاز ؟ » قال : « نعم » ، قالوا : « فأخبِرْنا عن رجلٍ شاعرٍ وَلَدِ زِنًا ، يدعى كثيِّراً » قال : « سبحان الله ! أما تسمعون يا معشرَ المشايخ مايقول الفتيان ؟ قالوا : « هو ما قاله لنفسِه ، فانسلّ[٣] منهم . وجاء إلى والى الكُوفة حسَّان بن كَيْسان ، فطيّره على البريد . وقيل : إن سُراقةَ البارِقىّ هو المخاطِب له بذلك ، وأنّه قال له : « إن قُلتَ هذا على المِنبر قتَلَتْك قَحْطان ، وأنا أوَّلهم » ، فانصرف إلى منزله ولم يعد إلى ذلك بعد[٤] .

(١) القوابل ، المخطوطتان .
(٢) ثيابهم ، المخطوطتان .
(٣) فانسل ، الأغانى : فأنكر ، المخطوطتان .
(٤) عبد الملك ، الأغانى .

وكان سُراقةُ هذا شاعرا ظريفاً ، من ظُرَفاء أهلِ العراق ، ومن أظرف ما جرى له أن المختارَ أسرَه يوم جبّانةالسَّبيع ، وكان للمختار بها وَقْعةٌ منكرَة . فجاءبه الذى أسرَ إلى المختار ، فقال له : « إنِّى أسرتُ هذا » ، فقال : « كذَب ، ما هو أسَرَنى ، إنما أسرَنِى غلامٌ أمرَد ، على بِرذَونٍ أبلَق ، عليه ثِيابٌ خُضر ، ما أَراهُ الآن فى عسكرِك ، وسلَّمنى إليه » . فقال المختار : « أما إن الرجلَ عاينَ الملائكة ! خلّوا سبيله » . فخلوه ، فهرَب وأنشأ يقول فى ذلك :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنِّى ... رأيت البلقَ دُهْماً مصمتاتِ
أُرِى عيــنىَّ ما لم تُبْصِراه ... كلانَا عالمٌ بالترَّهاتِ
كفرتُ بدينِــكم وجعلت نذراً ... علىَّ قتالَــكم حتى المماتِ

قال حفص الأمويّ : كنتُ أختلِفُ إلى كثيِّر ، أرْوِى شعرَه ، فإنِّى عندَه إذ وقف عليه واقِفٌ ، فقال: « قُتِلَ ابنُ المهلَّب بالعَقْر » . فقال: « ما أجلَّ الخطب! ضحَّى آلُ أبى سُفيان بالدِّين يوم الطَّف ، وضحَّى بنو مَروان بالكرَم يوم العَقر » . ثم انتَضَحَت عيناه بالبكاء . فبلغ ذلك يزيدَ بن عبد الملك ، فدعاَ به . فلما دخلَ عليه قال : « عليك لعنةُ الله ، أترابيَّة وعَصَبيَّة ؟ » وجعل يضحَكُ منه .

لما أراد عبدُ الملك الخروجَ إلى مُصْعَب ، لاذتْ به عاتكةُ بنتُ يزيدَ بن معاوية، وهى أمّ ابنه يزيد ، وقالت له : « يا أمير المؤمنين ، لا تخرُج السَّنةَ لحرب مُصْعَب ، فإنَّ آلَ الزُّبير قد ذكروا خُروجَك، وابعثْ إليهم الجيوش » . وبكت وبكَى جَوَاريها معها ، فجلسَ ثم قال : « قاتَل الله ابنَ أبى جُمعة إذ يقول :

إذا ما أرادَ الغزْوَ لم يَثْنِ همَّه ... حَصانٌ عليها عِقدُ دُرٍّ يَزِينُها
نهَتْه فلمّا لم ترَ النَّهْىَ عاقَه ... بكَتْ فبكَى مما شجاها قَطِينُها

واللهِ لكأنه يرانى ويراكِ يا عاتِكة » . ثم خرج .

قال عبد الملك بن مَروان لـكثيِّر : « من أشعرُ النـاس؟ » قال : «من يَرْوِى أميرُ المؤمنين شِعرَه » ، فقال : « أما إنّك لمنهم » .

وكان كثيِّرٌ شبٌّ فى حِجر عمٍّ له صالح ، فلما بلغ الُحلُم أشفَق عليه أن يَسْفَه ، وكان غير جيِّد الرأى ، ولا حسن النظرِ فى عَواقب الأمور .

[فاشترى له عمُّه قطيعاً من الإبل ، وأنزله فرشَ مَلَل ، فـكان به ، ثم ارتفع فنزل فرع المِسْور بن إبراهيم بن عبـد الرحمن بن عوف ، من جبل جهينة الأصغر ، فضيقوا على كثيِّر وأساءوا جواره ، فانتقل عنهم][(1)] .

وكان يقول : ما قلتُ الشِّعر حتى قُوِّلتُه ، فإنِّى بيناأَناذاتَ يوم ، نصفَ النهار ، أسير على بَعيرٍ لى بالغَمِيم ، أو بقاع حمران ، إذا راكبٌ قد دنا إلىّ ، حتى صار إلى جَنبِي ، فتأمَّلتهُ ، فإذا هو من صُفْر ، وجملهُ من صُفر ، وهو يجُرُّ نفسه فى الأرض جرًّا . فقال لى : « قل الشِّعر » ، وألقاه علىَّ ، قلتُ : « من أنت ؟ » قال : « أنا قَرِينُك من الجن » ، فقلت الشعر .

ونُسِب إلى عزّة ، لـكثرة تشبيبهِ بها . وهى عزّة بنت حُمَيل بن وقّاص ، وقيل : إنه كان كاذباً ، وليس بعاشق . وكان أوّلُ علاقتِه بها أنه خرج من مَنزِله ، يسوقُ جَلَب غَنَم ، فوقف على نِسوة من بنى ضَمْرة ، فسألهُنَّ عن الماء ، فقلن لعزّة ، وهى جارية حينَ كعَب ثديُها : « أرشِديه إلى الماء » . فأرشدَته ، فأعجبَتْه . فبينا هو يسُق غَنَمه إذ جاءت عزّة بدراهم فقالت : « يقلْنَ لك النِّسوة : بعنا بهذه الدراهم كَبْشاً من ضأنك » . فأمر الغلامَ ، فدفع لها كبشاً ، وقال لها : « ردِّى الدراهم ، وقولى لهنَّ : إذا رُحتُ بكنَّ اقتضَيتُ حقِّى » . فلما راح مرّ بهنَّ ، فقلن : « هذا حقُّك نخذه » ، فقال : « عزّةُ غريمتى ، ولستُ أقتضِى حقِّى إلا منها » ، فمزَحْن معه وقُلْنَ : « ويحَك ! عزّة جاريةٌ صغيرة ، وليس فيها وفاء لحقِّك ، فأَحِله عند

---

(١) [فاشترى . . . عنهم] ، زيادة عن الأغانى يبدو أنها سقطت من الأصول .

إحدانا ، فإنّها أملأُ به ، وأسرَعُ أداءً له » ، فقال : « ما أنا بمحيلٍ حقِّى منْها » ومضى لوجهه . ثم رجع إليهن حين فَرَغَ من بَيْع جَلَبِه ، وأنشدَهُنّ :

قضى كلُّ ذى دَيْنٍ فوفّى غريمَه   وعزّةُ ممطولٌ معنًّى غريمها

وأنشدهن أيضا :

نظرتُ إليها نظـرةً وهى عاتِقٌ   على حين أن شَبَّتْ وبانَ نُهودها

من الخَفِرات البيضِ ودَّ جَليسُها   إذا ما قضت أحدوثةً لَوْ تعيدهـا

فقلن له : « أبيتَ إلّا عَزّة » ، وأبرزْنَها له ، وهى كارهة . ثم أحبَّته عزّة بعد ذلك أشدَّ من مَحبَّتِه لها .

وكانت عزّةُ من أحسنِ النّاس وجهاً ، وما رأى كثيرٌ لها وجهاً قطّ ، إلا أنّه كان يهيمُ بها ، لما ذُكِرَ له عنها .

ولقِيَه رجالٌ من الحىّ ، لمّا بلغهم ذلك عنه ، فقالوا له : « إنّك قـد شهّرت نفسَك ، وشهَّرتنا وشهّرت صاحبتنا . فاكففْ نفسَك » قال : « إنّى لا أذكُرها بما تـكرهون » . فخرجوا جالِبين إلى مِصْرَ فى أعوام الجلاء ، فتَبِعهم على راحِلته ، فزجَروه ، فأبى إلا أن يلحَقَهم بنفسِه ، فجلسَ له فِتيةٌ من جُدَىّ . وكان بنو ضَمرة كلُّهم يَهُونُ عليهم تشبيبُه بها ، لما يعرفون من براءَتِها ، إلا ما كانَ من جُدَىّ ، فإنهم كانوا غُيُراً . فقعد له عون ، أحدُ بنى جُدَىّ ، فى تسعةِ نفر ، على محاجِل[1] ، فلما جاز بهم تحتَ الليـل أخذُوه وعدَلُوا به عن الطريق إلى جِيفةَ حِمار ، كانوا يعرفونها من النهار ، فأدخَلُوه فِيهـا ، وربَطوا يدَيْه ورِجلَيه . ثم أوثَقوا بطنَ الحمار ، فجعل يضطرب ويصيح . ومضوا عنه ، فاجتاز به خَندقُ بن مالك ، فسمِع صِياحَه ، فعدل إلى الصوت حين سَمِعه ، فوجَد فى الجيفة إنساناً فسأله من هـو ، فأخبره ، فأطلقه وحملَه ، فألحقه ببلاده ، وخندقُ هذا هو الذى أدخل كثيِّراً فى مذهب

(١) خبر كثير مع قبيلة جدى ليس فى نسخة الأغانى التى بين أيدينا .

الخَشَبِيَّة ، لأنه كان يقول بالرجْعة . فاجتمع هو وكثيِّر بالموسم ، فذكر التشيُّع فقال ، خندق : لو وجدتُ من يضمنُ لى عِيالى بعدِى لوقفتُ فى الموسم ، وذكرتُ فضلَ آل محمَّد صلى الله عليه وسلم وظلمَ الناس لهم ، وغَصْبَهم إيّاهم عـلى حقِّهم ، ودعوتُ إليهم ، وتبرَّأت من أبى بكر وعمر . فضمن كثيِّر له عياله . فقام وفعـل ذلك ، وسبّ أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، وتبرّأ منهما . وقيل: إنه لم يسبَّهما ، وإنّه إنما قال : « أيّها الناس ، إنـكم على غير حقّ ، قد تركتم أهلَ بيتِ نبيِّـكم ، والحق لهم ، وهم الأئمة » . فوثب عليه الناسُ وضربُوه بالحجارة ، حتى قتَلوه . ودُفِنَ بقَنَوْنَا ، فقال كثيِّر يرثيه من أبيات :

أصادِرةٌ حُجَّـاج كَعبِ بن مـالكٍ ... على كلِّ فتلاءِ الذراعَين مُحنِق
بمَرْثِيةٍ فيها ثناء مُحَبَّر ... لأزهرَ مِـــن أولاد مُرَّة مُعْرِق
كأن أخاه فى النّوائب مُلْجَأً ... إلى عَلَمٍ من ركن قُدْسٍ مُنَطَّق
ينالُ رجالًا رفعُه وهو منهُم ... بعيدٌ كعيُّوق الثريَّا المحلِّق
تقول ابنةُ الضَّمرى ما لك شاحِباً ... ولونُكَ مصفرٌّ ولو لم تَخَلَّق
فقلتُ لها : لا تَعْجَبى ، من يَمُت له ... أخٌ كأبى بَدْرٌ وحقِّك يُشْفِق
جزى الله خيراً خندقاً[1] من مكافِئ ... وصاحبِ صِدقٍ ذى حِفاظٍ مُصَدَّقِ
أقام قناةَ الوُدِّ بينى وبينَه ... وفارقَنى عن شِيمَـــةٍ لم تُرَنَّق
حلفتُ على أن قد أجنّتْك حُفرة ... ببَطْنِ قَنَوْنَا لو نعيش فنَلْتَقى
لألفيْتَـنى بالوُدِّ بعدَك دائمـاً ... على عَهْدِنا إذ نحنُ لم نتفرّق

ومما رثاه به أيضا من قصيدَتِه التى أوّلها :

شجا أظْعَان غاضِرةَ الغَوادِى

محـلّ أخى بـنى أسَدٍ قَنُونَا ... فما وَالَى إلى بَرْكِ الغِماد

(١) خير حر ، المخطوطتان .

مقيمٌ بالمجازة من قَنَوْنَا وأهلَكَ بالأُجَيْفِرِ فالثِّماد
فلا تَبْعَدْ فكلٌّ فتى سيأتى عليه الموتُ يطرُق أو يُغادى
وكلّ ذخيرةٍ لا بدَّ يوماً ولو بقِيتْ تصيرُ إلى نفادِ
يعزُّ علىَّ أن يغدُوا جميعاً وتصبحَ ثاوياً فى بطن واد
ولو فُوديتَ من حدث المنايا فديتُك بالطَّريف وبالتلاد

لما جرى بين كثيِّرٍ وبين الحزين الدِّيلى ما جرى من الهجاء والمواثبة بلغ ذلك الطفيلَ بنَ عمرو بن واثِلة ، وهو بالكوفة ، وأنكر أمر كثيِّر ، وانتسابه إلى كِنانة ، وما فعلَه الحزين . فحلَف إن رأى كثيِّراً ليضربَنَّه بالسيف ، أو ليطعنَنَّه بالرمح . فكلمه فيه خَنْدَقُ بنُ بدر الأسَدى ، وكان صديقاً له ، فوهبَه له ، واجتمعا بمكّة ، فجلسا مع ابنِ الحنفيَّة ، فقال له طُفَيل : لولا خَنْدق لوفيتُ لك بيمينى .

دخلت عزَّة على عبد الملك بن مَرْوان ، وقد عَجَزت ، فقال لها : « أنتِ عزَّة كثير؟ » فقالت : أنا عزَّة بنت حُميل[٢] ، قال : أنت التى يقول فيك كثيِّر :

لعزَّة نارٌ ما تبُوخُ كأنها إذا ما رَمَقْناهَا من البُعد كَوْكَبُ

فما الذى أعجبَه منك ؟ فقالت له : أعجبَه منِّى ما أعجبَ الناسَ منك حيث صيَّروك خليفة » . وكانت له سنٌّ سوداءُ يخفيها ، فضَحِك حتى بدَتْ فقالت له : « هذا الذى أردتُ أن أبديَه » . فقال لها : « هل ترو ين قول كثيِّر :

وقد زعمتْ أنِّى تغيَّرت بعدها ومن ذا الذى يا عزُّ لا يتغيّر
تغيَّر جسمى والخليقة كالذى عَهِدتِ ولم يُخبَر بسرِّك مخبرُ

فقالت : « لا ولكنِّى أروى قوله :

كأنى أنادى صَخْرةً حين أعرضَت من الصمِّ لو تمشِى بها العُصْم زلَّت
صَفوحاً فما تلقاكَ إلا بَخيلةً فمن ملَّ منها ذلك الوصلَ مَلَّت

(١) حميد ، كبريلى ، والمخطوطتان .

فأمر بها فأدخِلَت على أمِّ البنين بنت عبدِ العزيز بن مَرْوان ، فقالت لها : « أرأيتِ قول كثيِّر :

قضَى كلُّ ذى دَيْن فوفَّى غريمه   وعزَّة ممطولٌ معنًّى غريمها

ما هـذا الدين الذى ذكره ؟ قالت : قبلةٌ وعدتُه إياها ، قالت : أنجزيها له ، وعلىّ إثمُها .

كان لـكثيِّر غلامٌ تاجر ، فباع امرأةً(١) بعضَ متاعِه ، فطلَتْه مدَّة ، وهو لا يعرِفُها ، فقال لها يوماً : « أنتِ والله كما قال مولاى :

قضَى كلُّ ذى دَين فوفَّى غريمه   وعزةُ ممطُول معنًّى غريمها »

فانصرفَتْ خَجِلة ، فقالت له امرأة : « أتعرفُ عزَّة ؟ » قال : « لا والله » ، قالت : « فهذه عزة » . فقال : « لا جَرَمَ لا آخُذ منها شيئاً أبداً ، ولا أقتَضيها » ، فرجع إلى مولاه ، فأخبرَه بذلك فأعتقه ، ووَهَب له المالَ الذى كان فى يده .

سأل عبدُ الملك بنُ مروان كثيِّراً عن أعجب خبرٍ مَرَّ له مع عزَّة . قال : حججتُ سنةً من السِّنين ، وحجَّ زوجُ عزَّة بها ، ولم يعلم أحدٌ مِنَّا بصاحبه ، فلما كان ببعض الطريق أمرَها زوجُها بابتياع سمن، يُصلِح به طعاماً ، فجعلَتْ تدورُ الخيامَ ، خيمةً خيمةً ، حتى دخلَتْ إلىَّ ، وهى لا تعلمُ أنَّها خَيْمتى . وكنت أبرى سَهْماً لى ، فلما رأيتُها جعلتُ أبرى وأنظرُ إليها ، حتى بَرَيْتُ ذِراعى مرَّاتٍ ولا أشعرُ ، والدمُ يجرى . فلما تبيَّنَتْ ذلك دَخَلَتْ علىَّ ، فأمسكَتْ بيدِى ، وجعلتْ تمسَح الدَّم بثَوْبها ، وكان عندى نِحْىُ سَمْنٍ فحلفت لتأخذنَّه ، فأخذَتْه ، وجاءت به إلى زَوْجها . فلما رأى الدمَ سألها عن خَبَرِها ، فكاتَمته ، فحلف لتصدقنّه ، فصدَقَتْه ، فضربَها وحلف لتشتُمَنِّى فى وجهى ، فوقفَتْ علىّ وهو معها ، فقالت لى : « يا ابنَ الزَّانية » ، وهى تبكى ثم انصرفنا ، فذلك حيث أقول :

---

(١) من عزة ، الأغانى .

خليليّ هذا رَبْعُ عزّة فاعقِلا   قَلوصَيكما ثم ابكيا حيث حلَّت
وما كنتُ أدرى قبل عزّة ما البكا   ولا موجِعات الحزنِ حتى تولَّت
فقلت لها : يا عزّ كلّ مصيبةٍ   إذا وطِّنت يوماً لها النفس ذلّت
أسيئى بنا أو أحسِنى لا ملومةً   لدينا ولا مَقْلِيّةً إن تَقَلَّت
هنيئاً مريئاً غيرَ داء مُخامِرٍ   لعزّة من أعرَاضِنا ما استحلَّت
أصاب الرّدَى من كان يهوى لك الرّدى   وجُنَّ اللواتى قُلْنَ عزّة جُنَّت

قال أبو عمرو[١] الجهنى : نزلتْ علينا عزّة فى جَماعة ، فجاءنى كثيِّر ذاتَ يوم ، فقال : « أريد أن أكون عندَك حتى أُمسيَ ، وأذهبَ إلى عزّة » ، فصرتُ به إلى منزلى ، ثم أرسَلَنى إليها ، وأعطانى خاتَمه ، وقال : « إذا سلَّمتَ ستخرجُ إليك جاريةٌ ، ادفَع إليها خَاتَمى ، وأعلِمْها بمكانى » ففعلتُ ذلك وأعطيت الجاريةَ الخاتم ، فقالت : « أينَ الموعِد ؟ » فقلت : « فى صحراء أبى عبيدة[٢] » ، ورجعت إليه فأعلمتُه فلما أمسَى قال لى : « انهَض » ، فنهضتُ معه ، وجئنا هناك ، حتّى جاءت فى الليل ، فجلستْ ، فتحدَّثا طويلًا ، فذهبتُ أقوم ، فقال : « أين تذهب ؟ » فقلت: «أخليكما، لعلَّكما أن تتحدّثا ببعض ما تكتُمانى » ، فقال لى : « اجلِسْ ، فو الله ما كان بيننَا شئٌ قطّ » ، وإن بينهما لثُمَامَةً كبيرة وهى جالِسة مِن ورَائها ، حتى أسْحَرنا ، ثم قامتْ فانصرفتْ ، وقمتُ أنا وهو ، فأقام عندى حتى أمْسى وانطلق .

وكان جميل يصدق وكثيِّر يكذب .

نظر كثيِّر يوماً إلى عزّة ، وهى مُنْتَقِبة ، تَميس فى مِشيتها فلم يعرفها كثيِّر فاتّبعها ، وقال « ياسيِّدتى ، قفِى لى أكلِّمك ، فإنى لم أرَ مثلَك قطّ ، فمن أنتِ ؟ »

---

(١) عمر ، المخطوطتان .

(٢) صخرات أبى عبيد ، الأغانى .

فقالت : « ويحكَ ! وهل تركَتْ عزّةُ فيك بقيّةً لأحد ؟ » فقال : « بأبي أنتِ ، لو أن عزّة أمَةٌ لى لوهبتُها لك » ، قالت : « فهلْ لكَ فى المُخالّة ؟ » قال : « وكيف لى بذلك ؟ » قالت : « وكيف بما قلتَ فى عَزّة ؟ » قال : « أقلِبُه كلَّه ، وأجعلُه لك ». فسفرَت عن وجهِها وقالت : « أَغَدْراً يا فاسق ؟ » فأبلَسَ ، ولم ينطق ، وذهبَ وهو يقول :

ألا ليتَ لى قبلَ الذى قلتُ شِيبَ لى ... من السُّمِّ جُدْحَاتٌ بماء الذَرَارِح

فمتُّ ولم تعلَمْ علىَّ خيانةً ... وكم طالبٍ للربح ليس برابح

أبوءُ بذَنبى ، إنّنى قد ظلمتُها ... وإنّى بباقى سرِّها غيرُ بائح

قال السائبُ راوية كثيِّر : خرجتُ معه ، نريد مصرَ فمررنا بالماء الذى فيه عزّة ، فإذا هى فى خِباء ، فسلّمنا ، فقالت : « وعليكَ السلام يا سائب » ، ثم أقبلت على كثيِّر فقالت : « ويحك ! ألا تتّقى الله فى قولك :

بآيةِ ما أتيتُك أمَّ عمرو ... فقمتِ بحاجَتى والبيتُ خالى

أخلوتُ معَك قطُّ ، فى بيتٍ أو غيرِ بيت ؟ » قال : « لم أقلْ كذلك ، ولكنّى قلت :

فأقسمُ لو أتيتُ البحر يوماً ... لأشربَ ما سقَتْنِى من بِلال

وأقسم إنَّ حبَّك أمَّ عمرو ... لداءٌ عند منقطع السعال »

فقالت : « أمّا هذا فنعم » فأتينا عبدَ العزيز ثم عدنا ، فقال كثيِّر : « السلامُ عليكِ يا عزّة » . فقالت : « وعليكَ السلامُ ياجَمَل » . فقال كثيِّر :

حيَّتكَ عزّة بعد النفر[1] وانصرفت ... فحَىِّ ويحك من حيَّاك يا جَمَلُ

لو كنتَ حيَّيتها مازلتَ ذامِقَةٍ ... عندى وما مسَّك الإدلاج والعمل

ليتَ التحيَّة كانتْ لى فأشكرَها ... مكانَ « يا جملُ » حُيِّيتَ يا رَجُل

---

(١) الهجر ، الأغانى .

قالت عزَّةُ يوماً لبُثَينة : «تصدَّىْ لِـكُثيِّر ، وأطمِعيه فى نفسِك ، حتَّى نسمعَ ما يُجيبُك به » ، فأقبلَتْ إليه، وعزَّة تمشى وراءها مُتخفيَة ، وعرضَتْ عليه الوصَل، فقارَبها ثم قال :

رَمَتْنِى على عَمْدٍ بثينةُ بعد ما ... تولىَّ شبابِى وارجحنَّ شبابُها
بعَيْنَين نَجْلاوَين لو رَقْرقتهما ... لنَوْءِ الثريَّا لاستَهلَّ سحابُها

فكشفتْ عزَّة عن وَجهِها ، فبادرها الـكلام وقال :

ولـكنَّما ترمِينَ نفساً مريضةً ... لعزَّةَ منها صَفْوُها ولُبابُها

فضحكت ثم قالت : « أولى لك ! بها نجوت » . وانصرفتَا تتضاحكان .

ولما نَزَل بكثيِّر الموتُ بكَى عليه بعضُ أهله ، فقال له : « لا تبكِ ، فكأنَّك بى بعدَ أربعين يوماً ، تسمع خَشْفَةَ نَعلى من تلك الشُّعبة راجعاً إليكم » .

ومات كثيِّر وعِكرمةُ مولَى ابنِ عبَّاس فى يومٍ واحد ، فاحتفلت قُرَيش فى جنازة كثيِّر ، ولم يوجدْ لعِكْرمة من يحمِلهُ ، وجُمعَ بينَهما فى المصلَّى بعد الظهر فى سنَةِ خمسٍ ومائة ، فقال الناس : « ماتَ اليومَ أفقهُ الناس وأشعَرُ النّاس ، ولم يتخلَّف رَجُلٌ ولا امرأة عن جنازَتيهما ، وغلب النساء على جنازة كثيِّر ، تبكينَه ، ويندُبن عزَّة فى نَدْبِهنَّ له . فقال أبو جعفر محمد بن على : أفرِجُوا لى عن جنازة كثيِّر ، لأرفعَهَا[١] . فدفعَ النساءَ عنها ، وجعلَ محمَّد بن علىّ يضربهُنَّ بكُمِّه ، ويقول : « تنحَّين يا صُوَيحبات يوسُف » . فانتدَبت له امرأةٌ منهنَّ فقالت : « يا ابن رسول الله ، لقد صدَقْتَ ، إننَّا لصُوَيحباته ، وقد كنَّا خيراً له منكم له » . فقال محمَّد لبعض مواليه : « احتَفِظ بها حتى تجيئَنى بها إذا انصَرفْنا » . فلما انصرف أُتِى بها ، وهى كأنَّها شَرَرُ النَّار ، فقال لها محمَّد : « إيه ! أنتِ القائلةُ إنكنَّ ليوسفَ خير منَّا له؟ » قالت : « نعم ، تؤمِّنُنى من غَضَبك يا ابنَ رسول الله ؟ » قال : « أنت آمِنة ،

(١) لا ربعها ، كبريلى ؛ لأرمقها ، المخطوطتان .

فأْبِينى » . قالت : « يا ابن رسول الله ، نحنُ دَعونَاه إلى اللَّذات من المطعَم والمشرَب والتمتّـع والتنعُّم ، وأنتم معاشرَ الرجال ألقيتموهُ فى الجبّ ، وبعتموه بأبخسِ الأثمان ، وحبستمُوه فى السجن . فأيُّنا كان عليه أحْنى ، وبه أرأف ؟ » . فقال محمّد : « للهدرك! لن تُغَالَب امرأةٌ إلا غَلَبت » ، ثم قال لها : « ألكِ بَعل ؟ » فقالت : « لى من الرجال من أنا بعلُه » . فقال محمّد : « ما أصدَقَك ! مثلُك من تملك زوجَها ولا يملـكُها » .

فلما انصرفَتْ قال رجلٌ من القوم : « هذه زينبُ بنت مُعَيقيب الأنصاريّـة » .

يوم الكُلاب الأول

كان قُباذ لمّا ملك ضعيفَ الحالِ والمُلك ، فوثَبَتْ ربيعةُ على المنذرِ الأكبر ابنِ ماء السماء ، وهو ذُو القَرْنين بن النُّعمان ، فأخرجوه ، وإنّما سمّي ذا القَرْنين ، لأنّه كانت له ذُؤابتان ، فخرج هارباً منهم ، حتّى مات في إيَاد ، وترك ابنَه المنذِر الأصغَر فيهم ، وكان أذكَى وَلَدِه . فانطَلَقَتْ رَبيعةُ إلى كِندة ، فجاءوا بالحارث ابنِ عَمرو بن حُجر ، آكِل المُرار فملَّكُوه على بَكر بن وائِل ، وحَشَدوا له ، فظَهَر على ما كانت العربُ تسكُن من أرضِ العِراق ، وأبى قُباذُ أن يُمِدَّ المنذِر بجيش . فلما رأى ذلك كتب إلى الحارِث بن عمرو : « إنّي في غير قومي ، وأنتَ أحقُّ من ضَمَّني ، وأنا متحوِّلٌ إليك » ، فحوَّله إليه ، وزوَّجه ابنتَه هنداً ، وفرّق الحارثُ [1]بَنِيه في قبائل العرَب ، فصار شُرَحْبِيل بنُ الحارث في بكر بن وائل وحنظلة ابن مالك وبني أسيد وطوائف من بني عمرو بن تميم والرِّباب ، وصار معديكرب ابن الحارث[1] ـ وهو غَلْفَاء ـ في قَيْس . وصار سَلَمة بنُ الحارث في بني تَغلِب ، والنَّمر بن قاسِط ، وسعدِ بن زيدِ مَناة . فلما هَلَكَ الحارث تشتَّت أمرُ بَنِيه ، وتفرّقت كلمتُهم . ومشَتْ الرجالُ بينهم . وكانت المغاورةُ بين الأحياءِ الذين معهم ، وتفاقَم الأمرُ حتى جمع كلٌّ واحدٍ منهم لصاحبه الجموع ، فسار شُرَحْبِيل ومن معه من بَني تميم والقبائل ، فنزلُوا الكُلاب ، وهو بين الكُوفَة والبَصرة ، على سَبْع ليالٍ من اليمامة . وأقبل سَلَمَةُ بن الحارث في تَغْلِب والنَّمِر ومن معه ، وفي الصنائع ، وهم الذين يقالُ لهم بنو رُقَيَّة ـ وهي أمٌّ لهم ، ينسَبون إليها . وكانوا يكونون مع الملوك ـ يُريدون الكُلاب . وكان نُصحاء شُرَحْبيل وسَلَمة قد نَهَوْهما عن الحرب

---

(١) بنيه . . . الحارث ، ساقط في المخطوطتين .

والفَساد والتَّحَاسُد ، وحذَّروهما عَثَرَاتِ الحرب وسوءَ مغبَّتِها، فلم يقبَلا ولم يفعلا[1] .

وكان أوَّل من ورد الماء من جمع سَلَمة سُفيان بن مُجاشِع بن دَارِم . وأول من ورد الماءَ من بنى تَغلِب رجلٌ من جُشَم ، ورجل من عبد يغوثَ بن دَوْس[2] ، وهو عمُّ الأخطل ، وعلى بنى تَغْلب يومَئذٍ السفّاح ، وهو سَلَمةُ بنُ خالِد بن كَعب ابن زُهَير بن تَيْم بن أُسامة بن مَالك بن بَـكر بن حبيب ، وهو الذى يقول :

إن الـكُلَابَ ماؤنا نخلُّوه وساجِراً والله لن تحلُّوه

واقتتل القومُ قِتالا شديداً ، وثبت بعضُهم لبعض . فلما كان آخرُ النهار نادى منادى سَلَمة[3] : « من أتى برأسِ شُرَحبيل فله مائةُ بعير » وكان شُرَحْبيل نازلاً فى بنى حنظلة وعمرو بن تميم ، ففرّوا عنه ، وعرفَ مكانَه أبو حَنَش ، وهو عُصَيم ابن النُّعمان بن مالك بن عتاب[4] بن سعد بن زُهير بن جُشَم بن بكر بن حبيب ، فلما انتهى إليه رآه جالساً وطوائفُ النَّاس يقاتِلون حوله[5] ، فطعنه بالرّمح ، ثم نزل فاحتزّ رأسَه ، وألقاه بين يديه . ويقال : إن حنظلةَ وبنى عَمْرو بن تميم والرِّباب انهزموا ، فخرجَ شُرَحْبيل معَهم ، فلحقَه ذو السُّنَيْنَة ، [6]وهو حَبيبُ بن عُتبة ابن[6] حبيب بن بَمْـج بن عُتْبة بن سَعْد بن زُهَير بن جُشَم . وكانت له سنٌّ زائدة ، فالتفت شُرَحبيل فضربَه ذو السُّنينة على ركبتِه ، فأطنَّ رجلَه . وكان ذو السُّنَينة أخا أبى حَنَشٍ لأمِّه ، أمهما سلمى بنت عدىّ بن ربيعة بنت أخى كُلَيب ومهلهل . فقال

---

(١) ولم يبرحا الأغانى .

(٢) وعبد يغوث بن دوس .

(٣) منادى سلمة : الأغانى : منادى يا بنى سلمة ، كبريلى والمخطوطتان .

(٤) غياث . الأغانى .

(٥) يقاتلون حوله ، الأغانى : يقاتلونه ، كبريلى والمخطوطتان .

(٦) حبيب بن عتبة بن ، زيادة عن الأغانى .

ذو السفينة: « قتَلَني الرجُل ، فقال أبو حَنش: « قتَلَني الله إن لم أقتُله » ، فحمل عليه، فلمّا غشيَه قال: « يا أبا حَنش ، اللبَن، اللبَن » ، فقال : « قد هَرَقت لنا لبناً كثيراً ». فقال : « يا أبا حَنَش ، أملِكاً بسُوقة » . قال : « إنه كان ملِكى » . فطعَنَه أبو حَنَش ، فأصاب رادِفَة السَّرج ، فوَرَّعَتْ عنه ، ثم تناوله فألقاه عن فرَسِه ، ثم نزل إليه فاحتزّ رأسَه، وبعث به إلى سَلَمة مع ابن عمٍّ له ، يقال له أبو أجأ ابن كعب بن مالك بن عتّاب[1] ، فألقاه بين يدَىْ سَلَمة فقال له : « لو كنتَ ألقيتَه إلقاءً رفيقا ! ». قال : « ما صَنَع بى ، وهو حىٌّ شر من هذا » . وعرف أبو أجأ الندامَةَ فى وجهِه والجزَعَ على أخيه ، فهربَ وهربَ أبو حنش ، فتنحّى عنه . ولما قُتِل شُرَحبيل قامت بنو سَعد بن زيدِ مَناة بن تميم دون عِياله ، فمَنَعُوهم ، وحالوا بينَ الناس وبينَهم ، ودفعُوا عنهم ، حتّى ألحقُوهم بقومِهم ومأمَنِهم . ووَلِىَ ذلك مِنْهُم عَوْف بن شَجْنة ابن الحارث بن عطارد بن عَوف بن سَعد بن كعب ، وحَشَد له فيه رهطه ، ونهضُوا معه ، فأثنَى عليهم فى ذلك امرؤُ القيس ، ومدَحَهم فقال :

ألا إنّ قوماً كنتُم أمسِ دونَهم ... هم استَنقَذوا جاراتِكم آلَ عُدوان[2]

عُوَيرٌ ومن مثلُ العُويرِ ورهطِه ... وأسعدَ فى يوم الهزاهِز صَفْوان

وقال مَعْدِى كَرِب بن الحارث ، أخو شُرحبيل ، يرثى أخاه شُرَحبيل :

إنّ جَنْبِى عن الفِراش لنابٍ ... كتجَافِى الأسَرِّ فَوْق الظِّراب

من حديثٍ نَمَا إلىّ فما ترْ ... قأُ عينِى ولا أُسيغُ شرابى

مرّةٌ كالذُّعاف أكتمُها النا ... س على حَرِّ مَلّةٍ كالشِّهاب

من شرحبيلَ إذ تعاوَرُه الأرما ... حُ فى حال لذّة وشباب . .

يا ابنَ أمّى ولو شهدتُكَ إذ تدْ ... عُو تميماً وأنت غيرُ مجاب

(١) غياث ، الأغانى .

(٢) عذران الأغانى .

لتركتُ الحسامَ تجرى ظُباه   من دماء الأعداء يوم الكُلاب
ثم طاعنتُ من ورائك حتى   تَبْلُغَ الرَّحب أو تُبَزَّ ثيابى
أحسنَتْ وائلٌ وعادتُها الْ   إحْسان بالِحنْو يومَ ضرب الرقاب
يوم بارت بنو تميم وولَّت   خيلُهم يتَّقون بالأذناب
ويحكُم يا بنى أسَيِّدَ إنِّى   ويحكم ربُّكم وربُّ الرِّباب
أينَ مُعطيكم الجزيلَ وحاميكم (م) عن الفقْر بالمئين الكُباب

وقال معدى كرب أيضا من أبيات :

ألا أبلغ أبا حَنَش رسولًا   فما لَكَ لا تجيبُ إلى الثواب
تعلَّمْ أن خيرَ النَّاس طرًّا   قتيلٌ بين أحجار الكُلاب
تداعَتْ حولَه جُشَم بن بكر   وأسْلَمه جَماسِيسُ الرِّباب
قتيلٌ ما قَتِيلُك يا ابن سَلمى   تَضُرُّ به صديقَك أو تحابى

كُلثوم العتابى

هو كُلثوم بن عمرو بن أيوبَ بن عُبَيْد بن حُبَيْش بن أَوْس بن مَسعود بن مالك ابن عبد الله بن سعد بن عباد بن أيوب بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو ابن غنم بن تغلب(١) .

شاعر مترسِّلٌ بليغ مطبوع متصرِّف فى فُنون من الشعر ، مقدَّم من شُعَراء الدولة العباسيَّة ؛ ومنصورُ النَّمَرى تلميذُه وراوِيَتُه ، وكان منقطعاً إلى البرامِكة ، فوصَفوه للرَّشيد ووَصَلوه به ، فبلَغ عندَه كلَّ مبلَغ ووصل إلى فوائدَ عظيمةٍ منه . ثم فَسَدت الحالُ بينه وبين مَنصور وتباعَدَا .

كَثُر الشعراء بباب المأمون فأُوذِن بهم ، فقال لعلىٍّ بن صالح صاحبِ المصلَّى : اعرِضْهم فمن كان مُجيداً فأوصِلْه ، ومن كان متخلِّفًا فاصرفْه ؛ وصادف ذلك شُغْلاً من علىٍّ بن صالح كان يريدُ أن يتشاغَل به مِنْ أَمْرِ نَفْسه ؛ فقام مُغضباً وقال فى نفسه : الساعةَ أحتاجُ أن أترُكَ شُغْلى المهمَّ وأعرض الشعراء ! والله لأَعُمَّنَّهم بالحِرمان . ثم جلسَ لهم ودعَا بهم ، فجعلُوا يتغالَبُون على القُرْبِ منه ، فقال : « على رِسْلِكم ! فإن المدَى أقربُ من ذلك ، هل فيكم من يُحْسِنُ أن يقول كما قال أخوكم العتَّابى ، حيث يقول :

ماذا على مادِحٍ يُثنِى عليكَ وقَد | نادَاكَ فى الوَحْىِ تقديسٌ وتطهير
فتَّ المدائحَ إلَّا أن ألسُنَنَا | مُسْتَنْطِقاتٌ(٢) بما تَهوى(٣) الضمائير

---

(١) فى سياق النسب شىء من الاضطراب بين ما هنا وما فى الأغانى .

(٢) مستظهرات ، المخطوطتان .

(٣) تهوى ، كريلى والمخطوطتان .

فقالوا : « لا ، والله ما فينا من يُحْسِنُ أن يقول مثلَ هذا » . قال: «فانصرِفوا»، فانصرفوا جميعاً .

قال بكر بن أحمد بن سهل(١) : تذاكرنا شِعرَ العتَّابى ، فقال بعضُنا : « فيه تكلّف » ، ونصره بعضُنا ، فقال شيخٌ حاضر : « ويحكم ! أيقال إن فى شعره تكلُّفاً ؟ وهو القائل :

رُسُلُ الضَّمير إليكَ تَتْرَى ... بالشَّوق ظالِعةً وحَسْرى

مُتَزَجِّياتٍ ما يَنِيـ ... نَ على الوجا من بُعد مَسْرى

ما جَفَّ للعَيْنين بَعْـ ... دكَ يا قَرِيرَ العَيْن مَجرى

فاسْلَمْ سلِمْتَ مـبرَّءاً ... من صَبْوتى أبداً مُعَرَّى

إنّ الصَّبابةَ لم تدَعْ ... منِّى سِوى عظمٍ مُبَرَّى

ومدامعٍ عَـبْرَى على ... كبدٍ عليكَ الدهرَ حرَّى »

ثم قال لهم : « فمن كان هذا شِعرَه يقال إنه متكلِّف ؟ » وأى مطبوع أطبعُ من هذا الرَّجل فى شعره ؟ وهو القائل :

فلو كان للشُّكر شَخْصٌ يَبِين ... إذا ما تأمّله الناظرُ

لمثّلتُه لكَ حتّى تَراه ... فتعلم أنِّى امرؤٌ شاكِرُ

كتب المأمونُ فى إشخاص العتَّابى ، فلما دخل عليه قال : يا كُلثومُ ، بَلَغتْنى وفاتُك فساءتْنى ، ورأيتُ وِفادَتَك فسَرَّتنى » . فقال له العتابىّ : « لو قُسِمتْ هاتان الكلمتان ، يا أمير المؤمنين ، على أهل الأرض لوَسِعَتْهم فضلاً وإنعاماً ، وقد خَصَصْتَنِى منهم بمـا لا تبلغهُ أمنيَّة » ، وقال : « برُّك بالعطاء أطلَقَ لِسانى بالسُّؤال » . فوصلَه بصلاتٍ سنيَّة وبلغَ من التقديم والإكرام أعظمَ محلّ .

وقيل إن العتَّابى لما قدم على المأمون دَخَل عليه ، وعندَه إسحاقُ بن إبراهيم

---

(١) أبو بكر أحمد بن سهل ، الأغانى .

الموصلى ـ وكان العتابىُّ شيخاً جليلاً نبيلاً ـ فأدناهُ المأمونُ وقرَّبه ، حتى قَرُب منه وقبَّل يده ، ثم أمره بالجلوس فجلس ، فأقبلَ عليه يسأله عن حاله وهو يجيبُه بلسان طَلْق ذرب(١) ، لا يدعُ شيئاً من البيان الحسَن إلا أتى به فى لفظه ، فأقبلَ عليه بالمُداعبة والمِزاح ، فظن العتَّابى أنه استخفّ به ، فقال العتابى : « يا أميرَ المؤمنين ، الإيناس قبل الإبساس » فاشتبه على المأمون قولُه ، فنظَر إلى إسحاقَ مستَفْهِماً ، فأوْمَأ إليه إسحاقُ بعينيه ، أى قدّر أنك استخففت به ، ففهِمَ ذلك المأمون ، ثم قال : « يا غلام . ألف دينار » ، فأتى بها فوَضَعها بين يدَى العتَّابى ، فقال : « إن أميرَ المؤمنين بدر إلىّ إحسانُه ومعروفُه وبرُّه قبل شُكرِى ، وهذا مما أضعُف عن حَمْل شكرِه ، فأعانَنِى الله على القيام بالثَّناء على مولانا أمير المؤمنين » . وأخذُوا فى الحديث ، وجَعَلَ المأمونُ يغمِزُ إسحاق ، فجعل العتَّابى لا يذكر شيئاً حسَناً إلا عارضَه فيه إسحاقُ ، فبَقِيَ العتَّابى متعجِّبا متحيِّرا ، ثم قال : « يا أميرَ المؤمنين، أتأذَنُ لى فى مَسْألة هذا الشَّيخ عن اسمه ؟ » قال : « سَلْه » ، فقال لإسحاق : « من أنتَ ؟ وما اسمُك ؟ » قال : « أنا مِن النّاس واسْمِى كُلْ بَصَل » ، فتبسّم العتَّابىّ وقال : « أما النَّسب فمعروف ، وأما الاسمُ فمنكَر » ، فقال له إسحاق : « ما أقلّ إنصافَك ! أتنكرُ أن يكونَ اسمى كُلْ بَصَل ؟ فاسمُك كُلْ ثُوم ، وما كلْ ثُوم من الأسماء ؟ : أو ليسَ البصَلُ أطيبَ من الثوم ؟ » فقال له العتَّابى : لله درُّك ما أحجّك ! أتأذَن لى يا أميرَ المؤمنين فى أن أصِلَه بما وصلتَنى به ؟ » فقال له المأمون : « بلْ ذاك موفَّر عليكَ ونأمرُ له بمثله » . فقال له إسحاق : « أمّا إذْ أقرَرْتَ بهذه فتوهّمنى تجِدْنى » ، فقال : ما أظنُّك إلا إسحاقَ بن إبراهيم الموصِلىّ الذى تناهى إلينا خَبَرُه » ، قال : « أنا حيثُ ظنَنْتَ » ، فأقبلَ عليه بالتحيَّة والسلام ؛ فقال المأمونُ ـ وقد طال الحديثُ بينهما ـ : « أمّا إذ قد اتَّفقتُما فانصرفا

(١) ذلق طلق ، الأغانى .

متنادِمَين ، فانصرفا إلى منزلِ إسحاق ، فأقامَ عنده وأكرمَه إسحاقُ كل كرامة ، وأسمعه غِناءه وغناءَ جواريه ، ومازالا طولَ يومِهما يجرى بينهما كلّ عجيب من أمور الرفمة[1] وغيرها .

وَجِدَ الرشيدُ على العتَّابىّ ، فدخل سرًّا مع المتظلِّمين بغير إذن ، فمَثَلَ بين يدَىِ الرّشيد ، وكلَّمه بكلماتٍ ، وأنشدَه :

أخضَنِى المَقَام الغَمر إن كان غرّنى سَنَا خُلَّبٍ أو زلّت القـدمان
أتتركُنى جَدْبَ المعيشة مُقْتِرًا وكفّاكَ من ماء الندى تَـكِفان
وتجعلُنى سهمَ المطامِـع بعد ما ملـكتَ[2] يمينى بالندى[3] ولسانى

فخرج وعليه الخِلَع ، فما رُئِىَ أبسطَ من ذلك اليوم .

كلَّم العتَّابىُّ يحيى بنَ خالدٍ فى حاجة بكلماتٍ قليلة ، فقال له يحيى : « لقد نَزُر كلامُك اليومَ وقَلّ » ، فقال : [4]« كَيْفَ لا يقلّ وقد تـكنّفنى ذلّ المسألة ، وحَيْرَة الطلب ، وخوفُ الردّ » ؛ فقال[4] : « والله لئِن قلّ كلامُكَ[5] لقد كثُرَت فوائِده » وقضى حاجته .

سأل العتابىَّ رجلٌ حاجة فلم يقضِه إيّاها ، فلقِيَه العتابىُّ يوماً فقال له : « أتريدُ الحاجةَ التى سألتَنى إيّاها ؟ » قال : « بلى » قال[6] : فلم لا تقتضينى إيّاها ؟ أما سمعتَ قَوْلَ الشاعر :

إذَا ما لم تنجزنى عِـداتى فأنتَ بشُـكْرِها أعـيَى جَوابا

---

(١) كذا فى المخطوطتين وفى مخطوطة كبريلى الرثمة . ولعلها : الرفقة .
(٢) جللت ، الأغانى .
(٣) بالثنا ، المخطوطتان .
(٤) كيف لا يقل ... فقال ، ساقطة فى المخطوطتين .
(٥) كلامك ، المخطوطتان .
(٦) ساقطة فى المخطوطتين .

قعدَ العتَّابيُّ يتغوّط علَى الطريق ، فقِيل له فى ذلك ، فقال : « ما لهؤلاء السِفَل حُرْمة ، ولا منك يا أخى حِشْمة[1] فلم أتكلّف ما يثقُل علىّ ؟ » .

قال عثمانُ الورّاق : رأيت العتابىَّ يأكلُ خبزًا على الطريق بباب الشام ، فقلت « ويحكَ ، ماتَسْتَحى؟» فقال:«أرأيتَ لو كنّا فى دارٍ فيها بَقَر ، أكنت تحتَشِمُ أن تأكُل وهى تَراك ؟ » فقلت : « لا » ، فقال : « اصبِر حتّى أُعْلِمَك أنهم بقَر » ، فقام فوعَظَ وقصَّ حتى كَثُرَ الزِّحامُ عليه ، ثم قال لهم : « روى لنا من غيرِ وَجْه أنَّ من بلغ لسانُه أرنبةَ أنفِه لم يدخُل النار فما بقِى أحدٌ منهم حتّى أخرَج لسانَه يُومِئُ به إلى أرْنَبةِ أنفه ويقدِّرُه هَلْ[2] يبلغها أولا . فلما تفرقوا قال العتّابى : « ألم أخبرْك أنهم بقر ؟ » [3]فقلتُ له : « قد كنتَ بالقومِ أبصَر منِّى ، إلا أنه لا يخلُو أن يجوزَ بك رجلٌ تستَحى من مثله[4] فى جُملةِ ألف من هؤلاء ، ويجوز أن يجوزَ بك وأنت تأكل » ، قال : « فى هذا قد صَدَقت »[3] .

قال يحيي بن خَالِد لوَلَده : « إن قَدَرتم أن تكتُبوا أنفاسَ العتّابى فضلًا عن رسائله وشعرِه فافعلوا ، فلَن ترَوا مثلَه أبداً » .

أنكر العتابىُّ على صديقٍ له شيئاً ، فكتَب إليه : إمّا أن تقرَّ بذنبك فيكون إقرارُك حجّةً علينا فى العَفْو عنك ، وإلا فطِبْ نفساً بالانتصافِ منك؛ فإن الشاعرَ يقول :

أقْرِرْ بذنبك ثم اطلُب تجاوزَنا عنه فإن جُحود الذنبِ ذَنْبان

وقف العتّابىُّ بباب المأمون يلتمسُ الوصولَ إليه ، فصادف يحيى بن أكثم جالساً

---

(١) حرمة ، المخطوطتان .

(٢) حتى ، المخطوطتان والأغانى .

(٣) فقلت له قد كنت ... صدقت ، ليست فى الأغانى .

(٤) منه ، المخطوطتان .

ينتظر الإذن ، فقال له : « إن رأيتَ ــ أعزّك الله ــ أن تذكرَ أمرى لأمير المؤمنين إذا دخلتَ فافعل » ، فقال : « لستُ ــ أعزّكَ الله ــ بحاجبه » ، فقال : « وإن لم تكُن حاجباً ، وكأنه لا يقضى الحاجاتِ إلّا الحجّاب ، الكرامُ والله والأحرارُ أقضَى لها من الحجّاب ، وقد يفعلُ مثلُكَ[1] مثلَ هذا الذى سألتُ ، واعلم أن الله تعالى قد جعل فى كلِّ شىء زكاةً ، وجعل زكاةَ الجاه رِفدَ المستَمِين ، واعلم أنّ الله يقبلُ عليك بالزيادةِ إن شكرت أو التغيير إن كفَرت ، وإنّى لك اليومَ أصلحُ منك لنفسِك ، لأنّى أدعوكَ إلى ازديادِ نعمتِك وأنتَ تأبَى » فقال له يحيي : « أفعَلُ وكَرامة » . وخرج الإذنُ ليحيَي ، فلم يبدأْ بشىء بعدَ السّلام إلا بإذن أمير المؤمنين للعتّابى ، فأَذِن له ، وقال له المأمون : « إنى لا أعرِفُ لك يا يحيي مثلَها ، ولكَ فى يومِك سببٌ أوجبَ هذا ؟ » . قال : « نعم ، أصلحكَ الله ، يا أمير المؤمنين ، كنتُ على بابِك أنتظرُ الإذن ، فجلس العتّابى إلى جانِبى وقال : إن رأيتَ أن تستأذِن لى على أمير المؤمنين ، فقلتُ لستُ بحاجبٍ ، وهذا من عمل الحجّاب ، فقصَّ علىّ يا أمير المؤمنين قِصَصاً طالت ، إلى أن قال لى : أنا والله لكَ خيرٌ منك لنفسِك لأنّى أسألُك ما ترجو من الله الزيادةَ به ، ونفسُك تأبَى ذلك . فعلمتُ أن الذى قال حقٌّ ، فجعلت همّتى لما أن دخلتُ عليك أمرَه إلى أن أذِنْتَ له » . فقال المأمون : « والله لقد صدق العتّابىُّ فيما قال ، ولقد وَعَظَك فأحسَن ، ولقد حثَّك على ما هو خيرٌ لك » . فأذِن له وقرَّبه ، وأدناه وسأله ، وسمِع منه ما أراد أن يُسمِعَه ، وقضَى حوائجَه .

قال العتّابى لرجلٍ اعتذر إليه : « إن لم أقبلْ عُذرَكَ كنتُ ألأمَ منك ، وقد قبلتُ عذرَكَ . فدُمْ على لَوْم نفسِك فى جِنايتك تَزِد فى قَبول عُذرِك والتّجافى عن هَفوتك » .

وقيل للعتّابى : « لو تزوّجتَ ! » فقال له : « إنّى وجدتُ مكابَدَةَ العفّة أيسرَ مِن الاحتيال لمصلحة العِيال » .

---

(١) وقد يفعل مثلك ، كبريلى والأغانى : وهل يقع من الحجاب ، المخطوطتان .

قال جعفر بن المفضل(١) : رأيتُ العتَّابى بينَ يدَى المأمون ، وقد أسنَّ ، فلما أرادَ القيامَ قام المأمونُ ، فأخذ بيدِه واعتمد الشيخُ على المأمون ، فما زال يُنْهِضُه رويداً رويداً حتى أقلَّه فنهض ، فعجبتُ من ذلك وقلت لبعض الخدَم :«ما أسوأ أدبَ هذا الشيخ ، فمن هو ؟ » قال «العتَّابىُّ »:

قال دعبل : ما حسَدتُ أحداً قطّ على شِعر كما حسدتُ العتَّابى على قوله :

هيبةُ الإخوانِ قاطعــةٌ   لأخى الحاجاتِ عن طَلَبه
فإذا ما هبتُ ذا أمَلٍ   ماتَ ما أمَّلتُ من سَببه

هذا سرَقَه من أميرِ المؤمنين علىٍّ بن أبى طالب فى قوله : « الْهَيْبَة مقرونةٌ بالَخيبة ، والحياءُ مقرونٌ بالِحرمان والفُرصةُ تمرُّ مرَّ السحاب » .

دخل العتّابىُّ على عبدِ الله بن طاهر ، فمثَل بين يدَيْه وأنشد :

حُسْنُ ظَنِّى وحُسْنُ ما عودكَ اللهُ   سِوايَ(٢) منكَ الغداةَ أتى بى
أىّ شىءٍ يكونُ أحسنَ من حُسْـ   ـنِ يقــينٍ حَدَا إليكَ رِكابى

فأمر له بجائزة ، ثم دخلَ عليه من الغَد فأنشده :

ودُّكَ يكفِينيكَ فى حاجَتِى   ورُؤْيـتِى كافِيتِى عَن سؤال
وكيف أخشَى الفقرَ ماعشتَ لى   وهـــذه كفَّاكَ لى بيت مال

فأمر له بجائزة ، ثم دخَل عليه فى اليوم الثالث فأنشده :

بهِجاتُ الثيابِ(٣) يُخلِقُها الدّهــرُ   وثوبُ الثَنَاء غَضٌّ جديد
فاكسُنِى ما يبِيدُ أصلحكَ اللهُ   فإنى أكسُوكَ مالا يبيــدُ

فأجازه وجعل عليه الخِلَع .

---

(١) قال جعفر بن المفضل قال لى أبى ، الأغانى .

(٢) سواى ، سوائى ، الأغانى : سوا ، كبريلى والمخطوطتان .

(٣) الشباب ، كبريلى والمخطوطتان .

قال طوق بن مالك للعتَّابى : «أما ترى عشيرتَك – يعنى بنى تغلب – كيف تُدِلّ علىّ وتتمرَّغ وتَسْتَطيل ، وأنا أصْبِر عليهم ؟ » فقال العتابى : « أيها الأمير ، إنّ عشيريتك[(١)] من أحْسن عشرتك وابن عمِّك[(٢)] من عمك خيره وقريبَك من قَرُبَ منك نَفْعُه ، وإن أخفَّ الناس عندكَ أخفُّهم ثِقلا عليك ، وأنا الذى أقول :

إنِّى بلوتُ الناسَ فى أحوالِهم وخبرتُ ماوصلوا من الأنسابِ
فإذا القرابةُ لا تقرِّب قاطعاً وإذا المودَّة أو كدُ الأسباب »

شكا منصور النمرىُّ العتَّابىَّ إلى طاهر بن الحسين ، فوجَّه إليه وأحضَره ، وأخفَى منصورَ النمرىَّ فى بيت ، وسأل طاهرُ العتابىَّ أن يصالحِه ، فشكا سُوءَ فعلِه ، فسأله أن يصفَح عنه ، فقال : « لا يستحقُّ ذلك » . فأمر منصوراً بالخروج ، فخرج ، فقال للعتَّابى : « لم لا أستَحِقُّ ذلك منك ؟ ، فقال :

«أصْحَبْتُكَ الفضلَ إذلاأنتَ تعرفُه حقًّا ولا لكَ فى استِصحابه أرَبُ
لم تَرْتَبِطكَ على وَصلى محافظَــةٌ ولا أعاذَكَ ممَّـــا اغتالكَ الأدبُ
ما من جميلٍ ولا عُرفٍ نطقتَ به إلاّ إلىّ وإن أنكرتَ ينتسِبُ »

فأصلَح طاهرُ بينهما ، وأمر للعتَّابى بثلاثين ألف درهم ، وكان مَنصورُ النّمرىُّ من تعليم العتّابىِّ وتخريجه .

سعى منصور النمرىُّ بالعتّابى إلى الرشيد ، فاغتاظَ عليه وطَلَبَه . فَسَتَره جعفرُ ابن يحيي عندَه مدةً ، وجعل يستَمْطِفهُ عليــه ، حتّى استَلَّ ما فى صدره وآمَنه ، فقال العتَّابىُّ يمدح جعفر بن يحيي :

ما زلتُ فى غَمَراتِ الموت مطَّرحاً قد ضاق عنِّى فسيحُ الأرضِ من حِيَل
فلم تَزَلْ دائبــاً تسعى بلُطفِكَ لى حتى اختَلَستَ حياتى من يَدِالأجل[(٣)]

(١) عشيرك ، الأغانى .
(٢) وأن عمك ، الأغانى .
(٣) يدى اجلى ، الأغانى .

ولما قال كلثومُ بن عمرو هذه القصيدةَ التي أوّلها :

ماذا شجاكَ بحُوّارينَ من طَلَلٍ ودِمْنــةٍ كشَفَتْ عنها الأعاصيرُ

منها :

إن كان منّاذوُو إفْكٍ ومارِقــةٌ وعُصْبةٌ دينُها العُدْوانُ والزّور

فإنَّ مِنّــا الذى لا يُستحثُّ إذا حُثَّ الجيــادُ وضَمَّتها المضامير

منها :

مستنبِطٌ عزماتِ القلبِ من فِكَرٍ ما بينهنَّ وبينَ اللهِ معمــــور

فبلغَتْ الرشيدَ فقال : « لمن هذه ؟ » فقيل : « لرجلٍ من بنى عتّاب ، يقال له كلثومُ بن عمرو » ، فقال : « وما مَنعَه أن يكونَ ببَابِنا » ؟ فأمر بإشخاصه من رأسِ عَيْن . فوافى الرشيدَ وعليه قميصٌ غليظٌ وفَرْوَةٌ وخُفٌّ ، وعلى كَتِفه مِلحفَة جافية بغير سَرَاويل . فأمر الرشيدُ أن تُفْرَشَ له حُجرة ، وتُقامَ له وَظيفة ، ففَعِل ، فكانت المائدةُ إذا قدِّمتْ إليه أخَذَ منها رُقاقةً ومِلحاً وخَلَطَ الملح بالتراب فأكله بها . وإذا كان وقتُ النوم نام على الأرض والخدَمُ يفتقِدونه ويَتَعجَّبون من فِعله . وأُخْبِرَ الرشيد بأمرِه فطَرده[1] ، فخرج حتّى أتى يحيى بن سَعيدٍ العُقَيلى ، فسلَّم عليه وانتسبَ له ، فرحَّب به وقال له : « ارتفِع » ، قال : « ما جئتُك للجلوس » ، فقال : « ماحاجتك ؟ » قال : « دابّة أبلغُ عليها إلى رأسِ عَيْن » ، فقال : « ياغلام، أعطِه الفرَس الفلانىَّ » ، فقال : « لا حاجةَ لى فيه ، ولكن مُرْه أن يشترىَ لى دابّــة أبلغُ عليها » . فقال لِغُلامه : « امْضِ معه فابتع له ما يريد » ، فمضى ، فعدل به العتابىُّ إلى سُوق الحمير ، فقال له : « إنمَّا أمرَنى أن أبتاع لكَ دابّة » ، فقال له : « إنمَّا أرسلَك مَعى ولم يرسِلْنى معك ، فإن فعلتَ ما أريد ، وإلا انصرفْتَ » . فمضى

(١) فأمر بطرده ، الأغانى .

معه فاشترى له حماراً بمائة وخمسين درهما ، وقال له : « ادفع إليه ثمنه » ، فدفعه ، وركب الحمار برشحة وبرذعة ، وساقاه مكشوفتان . فقال يحيى بن سعيد : « فضحتني ، أمثلي يحمل مثلك على هذا ؟ » ، فضحك وقال : « ما رأيتُ قَدْرَك يستوجب أكثر من هذا » . ومضى إلى رأس عين .

وكانت تحتَه امرأةٌ من باهِلة ، فلامتْه ، وقالت : هذا منصورُ النّمريّ قد أخذَ الأموال فحلَّى نساءَه وبنى داره ، واشترى ضِياعاً ، وأنت كما ترى ! فقال :

تلومُ على تَرْكِ الغِنَى باهليَّـــةٌ ... زَوَى الفقْرعنها كل طِرفٍ وتالد
رأت حَولها النِّسوان يرفُلْن في الثرى ... مقلَّدةً أعناقُهـــا بالقـــلائد
أسرَّكِ أنى نلتُ مـــا نال جعفرٌ ... من العيش أو ما نال يحيى بن خالدِ
وأن أميرَ المؤمنـــين أغَصَّني ... مُغَصّهمـــا بالمرهَفـــاتِ البوارد
دَعيـــنى تجئْنى ميتَتى مُطمئنَّةً ... ولم أتجشَّم هـــولَ تلك الموارد
فإن رفيعاتِ الأمـــور مشوبَةٌ ... بمسْتَودَعَاتٍ في بطون الأساود

كعب بن معدان الأشقرى

الأشاقرُ قبيلةٌ من الأَزْد ، وأمّ كعبٍ من عَبْدِ القَيْس .

شاعرٌ فارسٌ خَطِيب ، معدُودٌ فى الشجعان ، من أصْحابِ المهلَّب المذكورين فى حُروبِ الأزارِقة . أوفَدَه المهلَّب إلى الحجَّاج ، وأوفده الحجَّاج إلى عبد الملك بن مَرْوان .

قال الفرزدق : شُعراء الإسلام أربعة : أنا ، وجرير ، والأخطل ، وكعب الأشْقرىّ .

أوفدَ المهلَّب بن أبى صفرة كعبَ بنَ معدان الأشقرىَّ ومعه مرّةُ بن الوليد الأزدى إلى الحجَّاج يخبر بوقعةٍ له كانت مع الأزارقة ، فلما قدِما عليه ودَخَلا دارَه بَدَرَ كعبٌ فأنشد الحجّاجَ قوله من أبيات :

أبا سعيـــدٍ فإنّى سرتُ مُنْتَجعاً ... أرجُو نوالَكَ لــا مسَّنى الضرر

لــا نَبَتْ بى بلادِى سِرْتُ منتجِعاً ... وطالب الخــير مُرتادٌ ومنتظِر

لولا المهلَّبُ ما زُرنا بــلادَهم ... ما دامَت الأرضُ فيها الماء والشجر

ومــا مِنَ الناس من حىٍّ علمتُهم ... إلا يُرى فيهم من سَيْبِــه أثرُ

أحْيَيْتَهم بسِجالٍ من يديك كما ... تَحْيَى البلادُ إذا ما جادَها المطرُ

إنى لأرجُو إذا ما فاقَةٌ نزلت ... فضلاً من الله فى كفَّيك يبتدِرُ

منها :

خفوا كمينَهم بالسَّفح إذ نزلوا ... بكازَرُونَ فما عزُّوا ولا نصروا

باتَتْ كتائبُنــا تَرْدى مسوَّمة ... حَـوْلَ المهلَّب حتى نوَّر القمر

هناك ولَّوْا حِزاناً بعد ما هُزِموا ... وحال دُونَهم الأنهارُ والجُدُر

تأبى علينا حَزَازاتُ النفوس فما ... نُبقى عليهم ولا يُبْقون إن قدَروا

فضحك الحجّاج وقال: « إنك لمنصفٌ يا كعب » ، ثم قال له الحجّاج : « أخطيبٌ أنت أم شاعر ؟ » فقال : « شاعر خطيب » ، فقال : « كيفَ كانتْ حالكُم مع عدوكم ؟ » قال : « كنّا إذا لقيناهم بِعَفْونا وبِعَفْوِهم أيِسْنَا منهم ، وإذا لقيناهم بجَهْدِنا وبجَهْدِهم طَمِعنا فيهم » ، قال : « فكيفَ كان بنو المهلَّب ؟ » قال : « حماة الحريم نهاراً : وفُرسان اللّيل تيقُّظاً » ، قال : « فأين السّماع من العِيان ؟ » قال : « السَّماعُ دُون العِيان » ، قال : « صِفْهم رجُلًا رجُلًا » ، قال : « المغيرة فارسُهم وسيِّدهم ، نارٌ ذاكية ، وصَعْدة عالِية ؛ وكَفى بيزيدَ فارساً شُجاعا ، ليثُ غاب ، وبحرٌ جمٌّ العُباب ؛ وجَوَادُهم قَبيصة ، ليثُ المُغَار وحامى الذّمار ؛ ولا يستحى الشجاعُ أن يفرَّ من مدرِكه ، وكيف لا يفرُّ من الموت الحاضِر والأسد الخادِر ؟ ؛ وعبدُ الملك سمٌّ ناقع وسيفٌ قاطع ؛ وحبيبٌ الموت الذُّعاف ، إنما هو طَوْد شامِخ ونحو باذِخ ؛ وأبو عُيَيْنة البطل الهمام ، والسيف الحسام ؛ وكفاك بالمفضَّل نجده ليثاً هدّارا وبحرا موّارا ؛ ومحمد ليثُ غـاب وحُسام ضِراب » . قال : « فأيُّهم أفضل ؟ » قال : « هم كالحلْقة المفرغة لا يُعرف طَرَفاها » . قال : « فكيف جماعة الناس ؟ » قال : « على أحسَنِ حال أدركُوا مارجَوْا ، وأمِنُوا ما خافوا ، وأرضَاهُم العَدل ، وأغناهم الفضل » . قال : « فكيفَ رضاهم بالمهلَّب ؟ » قال: أحسَنُ رِضاء، وكيف لا يكون كذلك وهم لا يعدَمون منه إشفاقَ الوالدِ على وَلَده ، ولا يعدم منهم برَّ الأولاد» ؛ قال : « فكيف فاتكم قَطَرِيٌّ ؟ » قال : « كدناه فتحوّل عن منزله ، وظن أنّه كادَنا » . قال : «فهلّا اتَّبعتمُوه ؟ » قال : « حال اللّيل بيننَا وبينه ، فكان التحرّزُ ـ إلى أن يقَعَ العِيان ويعلمَ امرؤٌ ما يَصْنَع ـ أحزمَ ، وكان للجد عندنا أثر من الفل » . فقال له الحجّاج : « المهلَّب كان أعلمَ بكَ حيثُ بعثَكَ » ، وأمر له بعشرينَ ألفِ درهم ، وأمر له بفرسٍ وأوفدَه على عبدِ الملك فأمرَ له بعشرين ألف درهم أخرى .

قال عبدُ الملك بن مَرْوان للشُّعَراء : « تشبهوننى مرّةً بالأسَدِ الأَبْخَر ، والجبَل الأوعر ، والبَحر المِلْح الأُجاج ، والبازِى والصّقر ؛ ألا قلتُم كما قال كَعْب الأشْقَرىّ فى المهلَّب وولده :

بَراكَ اللهُ حين بَراكَ بَحْراً   وفجَّر منك أنهاراً غِزارَا
شِهابٌ تنجلى الظلماءُ عَنْه   يرى فى كل مُبْهَمةٍ منارا

وهذه القصيدة أولها :

« طَرِبتُ وهاج لى ذاكَ ادِّكارا »

يقول فيها :

بنوكَ السابِقونَ إلى المعالى   إذا ما أعظَمَ الناسُ الفخارا
كأنهم نجومٌ حــولَ بدرٍ   درارىّ تـكمّل فاستدارا
فأول يَنْزِلُون بــكل ثَغْرٍ   إذا ما الهامُ يومَ الرَّوع طارا
رزانٌ فى الأمور ترَى عليهم   من الشَّيخ الشمائلَ والنِجارا
نجــوم يُهتدى بهمُ إذا ما   أخُو الغمرات فى الظَّلماء سارا

* * *

كان زيادُ الأعجم قد هجا كَعْبَ الأشقرىّ ، واتصل الهجاء بينهما ، فغلَبَه زياد ، وكان سَبَبُ ذلك أن حرباً وقعتْ بين الأَزْد وعبدِ القيس سكّنها المهلّب وأصلح بينهم وتحمل ما أحدَثه كلُّ فريق على الآخر ، وأدّى دياتِه ، فقال كعبُ يهجو عبد القيس :

إنى وإن كنتُ فرعَ الأزد قدعلموا   أخْزَى إذا قيلَ عبدُ القيس أخوالى
فيهم أبُو مالكٍ بالأَزْد شرَّفنى   ودنّس العبدُ عبدُ القيس سِربالى

فبلغ قولُه زيادَ الأعجم ، وقال مُغْضَباً — : « يا عجبا للعبدىِّ الجبان والسرطان يقولُ هذا فى عبدِ القَيْس وهو يعلم موضعى فيهم ، والله لأدعنهم غَرَضا لـكل إنسان ، ثم قال يهجوه :

نبئتُ أشقرَ يهجونا فقلتُ لهم ... ما كنت أحسبهم كانوا ولا خُلِقوا
لا يكثُرون وإن طالَتْ حياتُهم ... ولو يبُول عليهم ثعْلَبٌ غَرِقوا
قومٌ من الحسب الأدْنَى بمــنزلةٍ ... كالفَقْع بالقَاع لا أصلٌ ولا وَرَق
إن الأشاقِر قد أضْحَوا بمنزلةٍ ... لو يُرْهَنُون بنَعلى عندنا غَلِقوا

وقال فيه أيضاً زياد الأعجم :

هل تسمعُ الأَزْد ما يقالُ لها ... فى ساحةِ الدّار أم بها صَمَمُ
اختَتَنَ القوم بعد ما هَرِموا ... واستَعْربوا ضَلَّةً وهم عَجَمُ

فشــكاه كعبٌ إلى المهلَّب وأنشدَه البيتين ، وقال : « ما عنى بهما غيرك ، ولقد عمَّ الهجاءُ قومَك » . فقال له المهلَّب : « أنت أسمعتَنا هــذا وأطلقتَ لسانَه ، وقد كنتَ غنيًّا عن هِجاء عبد القيس وفيهم مثلُ زيادٍ الأعجم ، فاكففْ عن ذِكره ، فإنَّك أنتَ ابتدأتَه » ، ثم دعا زياداً فعاتبه ، فقال له : « اسمَعْ ما قال فىَّ وفى قَوْمى ، فإن كنتُ ظلمتُه فانتَصِر له ، وإلا فالحجَّة عليه ، ولا حجة على امرئٍ انتَصَر لنفسه وعَشيرته » ، ثم أنشده قول كعب فيهم :

لعل عُبَيْد القَيْس تحسَب أنَّهــا ... كتغلبَ فى يوم الحفيظَة أو بَــكر
يُضَمْضِع عبدَ القيس فى الناس منصِبٌ ... دنىٌّ وأحسابٌ جُبِرنَ على كسر
إذا شاع أمرُ الناس وانشقَّت العصا ... فإن لــكيزا لا تَرِيشُ ولا تبرى

فقال له المهلَّب : « ما قلتَ له أنتَ أيضاً ؟ » قال : ما انتصرتُ ولولاك ما قصَّرت ، وأى انتصار فى قولى له :

يا أيها الجاهِلُ السَّاعى ليدرِكَنى ... أَقصِر فإنَّك إن أدركتَ مَصْروع
يا كعبُ لاتكُ كالعَنْز التى احتفرت ... عن حتفها وجنابُ الأرض مربُوع
لئن نَصَبْتَ لِىَ الرَّوقين معترِضاً ... لأرميَنَّك رمياً فيــــه توقيع

فأقسم عليهما المهلَّب أن يصطلحا ، فاصطلحا .

كتب الحجّاج بن يوسف إلى المهلّب يأمرُه بمناجَزَة الأزارقة ، ويستبطئُه ويضعِّفه ويعجِّزه فى تأخيرِه أمرَهم ومطاوَلتهم . فقال المهلّب لرسوله : « قل له : إنما البلاء أنّ الأمْرَ إلى من يَملِكُه لا إلى من يَعْرِفه ، فإن كنتَ نصبْتَنى لحرب هؤلاء القوم على أن أدبِّرها كما أرى، فإذا أمكنَتْنى الفُرصة انتهزتُها ، وإذا لم تمكِّنّى توقَّفت ، فأنا أدبِّر ذلك بما يُصْلِحُه . وإن أردتَ منّى أن أعمَل وأنا حاضرٌ برأْيِكَ وأنتَ غائِب ، فإنْ كان صواباً فلَكَ ، وإن كان خطأً فعلىَّ، فابعثْ من رأيتَ مكانى».

وكتبَ من فَوْرِه إلى عبد الملك يشكو الحجّاج ، فكتب إليه عبدُ الملك : « لا تعارِض المهلّب فيما يراه ولا تُعجِله ، ودَعْه يدبِّر أمرَه » .

وقام كعبٌ الأشقَرىّ فأنشدَ بحضرة رسول الحجاج :

إن ابنَ يوسفَ غرّه مِنْ غزوِكم ... خفضُ المُقامِ بجانبِ الأمصارِ
لو شاهد الصَّفَّين يومَ تلاقيا ... ضاقَتْ عليه رَحيبةُ الأقطار
ورأى مُعَاوَدَةَ الدِّباغ[1] غَنيمةً ... أزمانَ كان محالف الإقتار
فدعِ الحروب لشِيبها وشَبَابها ... وعليك كلّ غريرةٍ معطار

فبلغت أبياتُه الحجّاج ، فكتبَ إلى المهلّب يأمرُه بإشخاصِ كعبٍ إليه ، فأعلم كعباً بذلك ، وأوفدَه إلى عبد الملك تحتَ لَيْلَته ، وكتبَ إليه يَسْتَوْهِبه مِنه . فقدِم كعبٌ على عبد الملك برسالَة المهلّب ، فاستَنْطقه عبدالملك ، فأعجبَه ماسمِع منه ، وأوفَده إلى الحجّاج ، وكتب إليه يُقْسِم عليه أن يعفوَ عنه عمّا بلغه من شعره . فلما دَخَل عليه قال : « إيه يا كعب : ورأى مُعاوَدَة الدِّباغ[1] غنيمة » فقال له : «أيهاالأمير، لودِدْتُ فى بعض ما شاهدتُه من تلكَ الحروبِ وأزمانِها ، وما يورِدُناه المهلَّب من خطَرِها أن أنجُوَ منها وأكون حجّاماً أو حائكا » . فقال له الحجاج :

(١) الرباغ ، الأغانى .

«أولى لك ، لولا قَسَمُ أمير المؤمنين ما نَفَعَك ما أسْمع ، فالحقْ بصاحبك » ، ورده إلى المهلَّب من وقته .

لما عُزِل يزيدُ بن المهلَّب عن خُراسان ، ووَلِيَها قُتيبة بن مسلم مدحَه كعبٌ الأشقَرِىّ ، ونال من يزيدَ وثَلَبه ، ثم وَلِىَ يزيدُ خُراسان ، فهرَب إلى عُمانَ ، وأقام بها مدّة ، وساءت حالُه بها ، فكتب إلى يزيدَ يعتذِرُ إليه من أبيات :

بئس التبدُّل من مَرْوٍ وساكِنِها ... أرضَ عُمَانَ وسُكْنَى تحت أطواد
يالهفَ نفسى على أمرٍ خَطِلت[1] به ... وما شَفَيْتُ به غِمْرى وأحقادى
أفنيتُ خمسين عاماً فى مَديحِكمُ ... ثم اعتَذَرْتُ بقولِ الظالم العادى
أبلغ يزيدَ قرينَ الجودِ مَأْلُكة ... بأن كعباً أسيرٌ بينَ أصفاد
فإن عفوتَ فبيتُ الجود بيتُكمُ ... والدهرُ طورانِ مِنْ غىّ وإرشاد
وإن مَنَنْتَ بصفحٍ أو سمحتَ به ... نَزَعْتُ نحوك أطنابى وأوتادى

فكتب إليه بأنه قد صَفَح عنه ، ويأمرُه بالرجوع إلى موضِعه ، فرجع إليه . ويقال : إنَّ يزيدَ بن المهلَّب حبسَه ودسَّ إليه ابنَ أخٍ له فقتَلَه . وقيل : إنه جاءه وهو نائمٌ يوماً تحت شجرة ، فضربَ رأسَه بفأسٍ فقتله .

وكان لكعبٍ أخٌ غيرُ أخيه الذى قتَلَه ابنُه ، فلما قُتِل يزيدُ بن المهلَّب فرق مَسْلَمة بنُ عبد المَلِك أعمالَه على عمَّال شتّى ، فولى البصرةَ وعُمانَ عبدَ الرحمن بن سليم[2] الكلبى ، فاستخلَفَ عبدُ الرحمن على عُمَان محمدَ بن جابر الرَّاسِبى ، فأخذ أخُو كعبٍ الباق ابنَ أخيه الذى قتَل كَعْباً فقدَّمه إلى محمَّد بن جابر ، وهو على عُمان والبَصرة نائبا عن عبد الرحمن بن سليم الكلبى ، وطلب القَوَد منه ، فقيل له : «أخُوكَ قُتِل بالأمس ونقتل قاتلَه ، وهو ابنُ أخيك ، اليومَ ، وقد مضَى أخوك

(١) خطلت ، الأغانى : خاطت ، كبريلى والمخطوطتان .
(٢) سليمان ، الأغانى .

وانقضَى، فتبقى فرداً كقَرْن الأَعْضَب ». فقال: « نعم، إن كعباً أخى كان سيِّدَنا وعظيمَنا ووجهَنا فقتلَه هذا، وليسَ فيه خيرٌ، ولا فى بقائه عزٌّ بعد كعب »، فقدمه محمدُ بن جابر فضرب عنقَه.

حاصَرَ يزيدُ بن المهلَّب مدينة خوارزم فى أيّام ولايته، فلم يَقدِر على فَتْحها، واستَصْعب عليه، ثم عُزِل ووُلِّى قتيبةُ بن مسلم، فزحفَ إليها وحاصرها ففتَحها، فقال كعبُ الأشقرىُّ يمدحه ويهجو يزيدَ بن المهلَّب:

رمتكَ فِيلٌ بما فيها وما ظَلَمت ... من بعد مارَامَها الفَجْفَاجَةُ الصَّلِف

صَرِيحُ قَيْسٍ وبعضُ الناس يجمَعُهم ... قُرًى وريفٌ فمنسوبٌ ومُقْتَرِف

منهم شُناسٌ ومَرْدَاذَاهْ نَعرِفُه ... وفَسْخَراهْ، قُبورٌ حشوها القُلُف

لم يركبوا الخيلَ إلا بعد ما هَرِموا ... فهم ثِقالٌ على أكتافها عُنُفُ

الفيلُ الذى ذكره هو حِصن خوارزم، وهو الذى يقال له الكُهُنْدَز، والكُهُنْدز: الحصن العتيق، والفَجْفاجة: الكثير الكلام. وشُناس: اسم أبى صُفرة فغيَّره، وتسمَّى ظالماً. ومَرْدَا ذاه: أبو أبى صُفرة، سموه بَشيراً لما تعرَّبوا. وفَسْخَراهْ جدُّه، وهم قومٌ من الخوز من أهل عُمان، نزلوا الأزد، ثم ادَّعوا أنهم صَلِيبةٌ صُرَحاء منهم.

كعب بن مالك

هو كعبُ بن مالك بن أبى كعب ، واسمه عمرو القين بن كعب بن سواد بن غنم ابن كعب بن سلمة بن سعد بن علىّ بن أسد بن شاردة بن يزيد بن الجشم بن الخزرج ابن حارثة بن ثعلبة .

من شُعراء رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم المعدودين ، وهو بدرىٌّ عقبى ، وأبوه مالكُ بن أبى كعب شاعر ، وله فى حروب الأوس والخزرج قبلَ الإسلام آثار وذكر . وعمُّه قيسُ بن أبى كعب ، شهِدَ بدراً ، وهو شاعرٌ أيضا ، وهو الذى حالَف جُهَينة على الأوس . ولكعب أصلٌ وعرق[1] ، وفرعٌ طويل فى الشِّعر . ابنه عبدُ الرحمن شاعر . وابنُ ابنهِ بَشير بن عبد الرحمن شاعر . ومَعْنُ بن عمرو ابن عبدِ الله بن كعب بن مالك شاعر . والزبير بن خارجة بن عبد الله بن كعب أبو الخطاب شاعر . ومعن بن وهب بن كعب شاعر . وكلهم مُجيد .

وعُمِّر كعبُ بن مالك ، وروَى عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلَّم حديثاً كثيراً . وكلُّ بنِى كعب بن مالك روَى عنه الحديث ، فما رواه بشير بن عبد الرحمن عن أبيه عن كعب جدِّه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيدِه ، لكأنّما تنضَحُونَهم بالنَّبل بما تقولون لهم من الشِّعر » . وكان كعبٌ عُثمانيًّا ، وهو أحدُ من قعَدَ عن أمير المؤمنين علىٍّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، لم يَشْهَد معه حُروبه وخاطَبَه فى أمرِ عثمان وقتلتِه ، ثم اعتزلَه ؛ وله مراثٍ فى عُثمان رضى الله عنه ، وتحريضِ الأنصار على نُصرته ، منها قوله :

ولو حُلْتمُ من دونِه لم يَزَل لكم ... مدى[2] الدهرِ عزٌّ لا يبوخ ولا يَسْرى

(١) عريق ، الأغانى .
(٢) يد ، الأغانى .

ولم تَقْعدوا والـدَّار كابٍ دُخانها … يُحرّق فيها بالسعير وبالجمر

فلم أر يوماً كان أكثرَ ضَيْعةً … وأقربَ منه للغَواية والنكر

وكان من جملة من شَهَر سلاحَه ، فلما ناشدَ عثمانُ النَّاس أن يُغمِدوا سيوفَهم انصرف ، ولم يرَ أنّ الأمرَ يخلُص إليه ، ولا يَجرِى الناس على قتله . فلما قُتِل وَقَف على مجلِس الأنصار فى مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنشدهم قوله :

من مبلغٌ الأنصارِ عنِّى آيةً … رُسُلًا تَقُصُّ عليهم التبيانا

أن قد فعَلتم فَعْلة مذكورة … كَسَت الفُضُوح وأبدت الشنآنا

بقعودِكم فى دُورِكم وإمامُكم … تُحْشَى[1] ضواحِى دوره النيرانا

بيتاً يُرجِّى دفعَكم عن داره … مُلِئَتْ حريقاً كابياً ودُخانا

حتى إذا خَلَصوا إلى أبوابه … دخلوا عليه صائماً عطشانا

يعلُون قمّته السيوف وأنتم … متلبِّثون مكانَكم رضوانا

يا لهفَ نفسى إذ يقول ألا أرى … نفراً من الأنصار لى أعوانا

والله لو شهد ابنُ قيسٍ ثابتٌ … ومعاشرٌ كانوا له إخوانا

وأبو دُجانة وابنُ أرقمَ ثابتٌ … وأخو المَشاهِد من بنى عَجلانا

ورِفاعةُ العُمَرىُّ وابن مَعاذهم … وأخو مُعاوىَ لم يَخَفْ خُذلانا

قومٌ يرونَ الحقَّ نصرَ إمامهم … ويرون طاعةَ أمرِه إيمانا

إن يُتركوا فوضَى يَرَوْا فى دِينهم … أمراً يُضيِّق عنهم البُلدانا

إنى رأيتُ محمَّداً إختاره … صِهراً وكان يعدُّه خُلْصانا

محضُ الضرائبِ ماجدٌ أعراقُه … من خَيْرِ خِندِفَ منصباً ومكانا

عرفت له عُلياً معدٍّ كلُّها … بعد النبىِّ الملكَ والسلطانا

من معشرٍ لا يَغْدِرون بجارهم … كانوا بمكَّة يرتَمون زمانا

---

(١) تحشى ، الأغانى : تغشى ، الأصول .

يعطُون سائلَهم ويأمن جارهم   فيهم ويُردون الكُماةَ طِعانا
فلو انكم مع نَصرِكم لنبيِّكم   يوم اللِّقاء نصرتُمُ عثمانا
أنسيتُم عهد النبيِّ إليكم   ولقد ألَظَّ ووكّد الأيمانا

فجعل القومُ يبكون ويستغفرون الله عز وجل .

[وكان يهجو قريشا ثلاثة نفر من الأنصار][1] وكان هؤلاء الثّلاثة حسّانَ ابن ثابت ، وكعبَ بن مالك ، وعبدَ الله بن رَوَاحة . وكان حسانُ وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيّام والمآثر ، ويعيّرانهم بالمثالب . وكان عبدُ الله بنُ رَواحة يعيّرهم بالكفر والشِّرك ، ويعلم أنه ليس فيهم شر من الشرك . وكان فى ذلك الزّمان أشدَّ ما عليهم قولُ حسّانِ بن ثابت وكعبِ بن مالك ، وأهوَنَ شىء عليهم قولُ عبد الله بن رَواحة . فلما أسْلَموا وفَقِهوا الإسلام كان أشدُّ القول عليهم قولَ عبدِالله ابن رواحة .

أُتِى رسولُ اللهصلّى الله عليه وسلم فقيل له: إنَّ أباسُفيانَ بن الحارث بن عبدالمطّلب يهجُوك ، فقام ابنُ رَوَاحة فقال : « يا رسولَ الله ، ائذَنْ لى فيه » ، فقال له : « أنتَ الذى تقول[2] : فثبّت الله ؟ » قال: نَعَمْ يا رسولَ الله أنا الذى أقول :

فثبَّت الله ما أعطاك من حَسَنٍ   تَثْبيتَ موسى،ونَصْرًا كالذى نَصَرا

فقال له : « وأنت فَعلَ الله بكَ مِثْلَ ذلك » ، قال : فوثَبَ كَعْبُ بن مالك فقال : « يا رسول الله ائذَن لى فيه ، فقال له : أنت الذى تقول[2] : همَّت ؟ » قال : نعم يا رسول الله ، أنا الذى أقول :

همَّت سَخِينةُ أن تغالِب ربَّها   وليُغْلَبَنَّ مغالِب الغلاّب

فقال : « أما إن الله لم ينسَ لك ذلك » .

---

(١) [وكان ... الأنصار]، زيادة عن الأغانى يقتضيها السياق .

(٢) الذى تقول ، زيادة عن الأغانى .

لما انهزمَ المشركون يوم الأحزاب قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إن المشركين بعد اليوم لن يغزُوكم ، ولكنّكم تلقون منهم أذًى ويهجونكم ، فمن يَحْمِي أعراضَ المسلمين ؟ » فقام عبدُ الله بن رَوَاحة فقال : « أنا » ، فقال : « إنّك لحسَنُ الشّعر » . فقام كعب بن مالك فقال : « أنا » ، فقال : « وإنّك لَحسَن الشعر » .

قال ابن سيرين : وقَفَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم بباب كعب بن مالك ، فخرجَ إليه فقال : « إيه » فأنشده ، ثم قال : « إيه » فأنشده ، ثلاث مرات ، فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلم : « هذا عليهم أشدُّ من وَقْعِ النَّبل » .

لما بويع عليٌّ بن أبى طالب رضوان الله عليه ، بلَغه عن حسّان بن ثابت وكعب ابن مالك والنّعمان بن بَشير أنهم يقدِّمون بنى أميَّة على بنى هاشم ، ويقولون : « الشام حرم[1] المدينة » ، وكانوا عثمانية ، واتَّصل بهم أن ذلك بَلَغه عنهم، فدخلوا عليه ، فقال له كعبُ بن مالك : « يا أميرَ المؤمنين ، أخبرنا عن عثمان : أقُتِلَ ظالماً فنقولَ بقولِك ، أم قُتِل مظلوماً فتقولَ بقولِنا ؟ أم نكلك[2] إلى الشُّبهة ، والعجبُ من يقينِنا وشكِّك ، وقد زعمت العربُ أن عندَك علمَ ما اختلفنا فيه فهاتِه » ، ثم قال :

فكفَّ يدَيه ثم أغلَقَ بابه　　وأيقنَ أنّ الله ليسَ بغافلِ
وقال لمن فى داره : لا تُقاتِلوا　　عفا الله عن كلِّ امرئٍ لم يقاتِلِ
فكيف رأيتَ الله صبَّ عليهم الـ　　ـعداوةَ والبغضاءَ بعد التواصُلِ
وكيف رأيتَ الخيرَ أدبر عنهم　　وولَّى كإدبار النعام الجوافلِ

فقال عليٌّ رضى الله عنه : « عندى ثلاثةُ أشياء : استَأْثَر عثمانُ فأساء الأَثَرَة ، وجزِعتم فأسأتُم الجَزَع ، وعند الله ما تختلفون فيه إلى يوم القيامة » . فقالوا :

---

(١) خير من ، الأغانى .

(٢) ونكلك ، الأغانى .

« لا ترضى بهذا العربُ منا، ولا يعذروننا » . فقال عليّ رضي الله عنه : « أيُرَدُّ عليّ بين ظهرانَيْ المسلمين بلا نيّة صادقة، ولا حجّةٍ واضحة ؟ اخرُجوا عنّي فلا تجاوروني في بلدٍ أنا فيه أبداً » . فخرجوا من يومهم ، فساروا حتّى أتَوْا معاويةَ ، فقال لهم : « لكم الكفاية والولاية » ، فأعطى حسّانَ بن ثابت ألفَ دينار ، وكعبَ بن مالك ألفَ دينار ، وولّى النُّعمان بنَ بشير حمص ، ثم نقله إلى الكوفة .

قال معاوية يوماً لجلسائه : « أخبروني بأشْجع بيتٍ وصَف به رجلٌ قومَه » فقال رَوْحُ بن زِنباع : « قولُ كعب بن مالك :

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرن بخطْونا ... قدما ونُلحِقُها إذا لم تَلْحق »

فقال له معاوية : « صدقت » .

وأما أبوه مالك بن أبي كعب فهو القائل :

لعمر أبيها ما تقول حليلَتي : ... ألا فرَّ عني مالكُ بن أبي كعب
أقاتِلُ حتّى ما أرى لي مقاتِلًا ... وأنجو إذا غمّ الجبانُ من الكرب
أبَى لي أنْ أُعطي الظليمة معشري ... جُدودي وآبائي الكرام ذوو الشَّغْب
عليّ لجاري ما حييتُ ذمامه ... وأعرفُ ما حقُّ الرفيق على الصَحب
ولا أسمعُ النَّدمان شيئاً يريبه ... إذا الكأسُ دارت بالمدام على الشَّرْب
وكان أبي في المَحْل يُطعم ضيفه ... ويُروي نداماه ويصبِر في الحرب
ويمنَعُ مولاه ويدرِكُ تَبْلَه ... ولو كان ذاك التَبْل في مركَب صعب
إذا ما منعتُ المالَ منكم لثروةٍ ... فلا يهنِني مالِي ولا يَنمُ لي كسبي

قال هذا الشعر في حَربٍ كانت بينَه وبين رجُلٍ من بني ظَفَر يقال له بَرْذع بن عَديّ . وذلك أن رجلًا من بني طيّ نزل في جوار برذع بن عديّ بإبلٍ له في يَثرب ، فباع إبلَه واقتضى أثمانَها . وكان مالكُ بن أبِي كَعْب اشترى منه جَمَلًا ، فمطلَه مالكٌ بثمن الجمل ، وحضر شخوص الطائيّ ، فشكا ذلك الى برذع ، فمشي معه إلى

منزل مالك بن أبي كعب ليكلِّمه في أن يوفِّيه ثمن جمله أو يردَّه عليه ، فلم يجد مالكاً في منزله ، ووجَدَ الجملَ باركاً في الفِناء ، فبَعَثَه بردع وقال للطائيِّ : « انطلق بجملك » ، ثم خرجا به مسرعين ، وارتحل الطائيُّ بالجمل إلى بلاده ، وبلغ مالكاً ماصنع بردع ، فكرِه أن ينشب بينهم حربٌ فكفَّ ، وقد أغضبَه ذلك ، وجعل يعيِّر برذعاً في جرأته عليه وماصنع ، فقال بردع من أبيات :

أتاني وعيدُ الخزرجيِّ كأنني ذليلٌ له عند اليهوديِّ مَضْرَع
متى تلقَني لا تلْقَ نُهْزَة واجد وتعلمُ أنِّي في الهزاهز أرْوَعُ
معي سَمْحَةٌ صُفْراءُ من فَرْعِ نَبْعَةٍ وسيفٌ إذا مسَّ الضريبَة يقطَعُ
فلا وإلهي لا يقولُ مجاوِري ألا إنني قد خانَني اليومَ بردَع
وأجعلُ مالي دونَ عِرضِيَ إنه على الوُجْدِ(١) والإعدامِ عِرضٌ ممَنَّع
وأصبرُ نفسي في الكريهة إنه لدى كل جَنبٍ مستقَرٌّ ومصرع
وإنِّي بحمدِ الله لاثوبَ فاجرٍ لبستُ ولا من خَزْيةٍ أتقنَّع

فأجابه مالكُ بن أبي كعب من أبيات :

إنِّي من الخزْرج الغرِّ الذين هُمُ أهلُ المكارم لا يُلفَى لهم جِيلُ
أشبهتُ من والدِي عزًّا ومكرُمةً وبرذَعٌ مُدْغَم في الأوْس مجهول
نُبِّئْتُه يدَّعي عزًّا ويُوعِدني نُوكاً وعندي له بالسيف تنكيل

ثم إن مالكاً خرج يوماً لبعض حاجاتِه ، فبينا هو يمشي وحدَه إذ لقيه بردع ومعه رجلان من بني ظَفَر . فلما رأَوا مالكا أقبلُوا نحوَه ، فبادَرَهم مالكٌ إلى مكانٍ من الحرَّة كثيرِ الحجارة مُشرِف ، فقام عليه وأخذَ في يده أحجاراً ، فأقبلُوا حتى دَنَوْا منه فشاتَمُوه ورَامَوْه بالحِجارة وجعل مالكٌ يلتفت إلى الطريق إلى جاء منها ، كأنَّه يستبْطِئ ناساً ؛ فلما رآه بَرْذَع وصاحباه ظنُّوا أنه ينتظِر ناساً كانوا معه ، وخَشُوا

(١) الوجد ، الأغاني : الجود ، المخطوطات .

أن يأتُوهم على تلك الحال ، فانصرفوا عَنه . فذلك حين يقول هذه الأبيات : « لعمر أبيها ما تقول حليلتى » .

وقيلَ : إنَّ هذا الشعر لرجُلٍ من مُراد يقال له مالكُ بنُ أبى كعب ، تزوج بامرأة من أرحَب ، ثم مات أبوه ، فقالت له الأرحبية : إنى قد اشتقتُ إلى أهلى ووَطَنى ، ونحن هنا فى جَدْبٍ وضيق ، فلو ارتحلتَ بى وبأهلك ، فنزلتَ على أهلى ، لكان عيشُنا أرغَد ، وشملُنا أجمَع ؛ فأطاعَها وارتَحَل بها وبأهله إلى بلاد أرحَب ، فمرَّ بحىٍّ بينه وبين أبيه ثار ، فعرَفوا فَرسَه فخرجُوا إليه وأَحْدَقوا به ، وقالوا لَهُ : « استَسلِمْ وسلِّم الظَّعينة ! » فقال: « أمّا وسَيْفى بيدَى وفرسى تحتى فلَا » . وقاتلهم حتى صُرِع وقال وهو يجودُ بنفسه :

لعَمرُ أبيها ما تقولُ حليلَتى ألا فرَّ عنِّى مالكُ بنُ أبى كَعب

والخبر الأول أصح .

الكميت بن زيد

هو الكُمَيت بنُ زيد بن خُنيس بن مجالد بن وُهَيب بن عمرو بن سُبيع . وقيل مجالد بن ذُؤَيبة بن قَيس بن عَمرو بن سُبَيع بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن دُودان ابن أسَد بن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضَر بن نِزار .

شاعرٌ مقدَّم ، عالم بلغاتِ العرَب ، خبيرٌ بأيّامها ، من شُعراء مُضَر وألسِنَتِها والمتعصِّبين لها على القحطانية ، المقارِعين لشُعَرائهم ، العلماء بالأَمثال والأيَّام .

وكان فى أيّام بنى أميّة ، ومات ولم يُدْرِك الدَّولة العبّاسية ، وكان معروفاً بالتشيُّع لبنى هاشِم ، مشهورًا بذلك ، وقصائده الهاشميّات من جيِّد شعره ومُختاراته ، ولم تَزل عصبيَّته العدنانيَّة ، ومهاجاته شعراءَ اليمن متَّصلة ، ومناقضاتُه بينهم وبينه شائعةً فى حياته وفيما بعد وفاتِه ، حتَّى ناقض دِعْبلُ الخزاعىُّ وابنُ أبى عُيَيْنَة قصيدتَه المذهبة بعد وَفَاته ، وأجابهما أبو الزلفاء البصرىّ مَوْلَى بنى هاشم عنها .

وقال الأحمرُ : إنَّه رأى الكُمَيت فى مَسْجد البصرة يعلِّم الصِّبيان ، وكان بينه وبين الطِّرِمَّاح خُلطة ومودَّة وصفاء ، لم تكنْ بين اثنين . قال محمّد بن سَهل راوِيةُ الكُمَيت : أنشدَنى الكُمَيت قولَ الطِّرِمَّاح :

إذا قُبِضتْ نفسُ الطرمّاح أخلَقَت ... عُرى المجد واسْترخى عِنان القصائد

فقال : إى والله ! وعِنانُ الخطابة والرِّواية . هذا على أن الكميتَ شيعىٌّ عدنانىٌّ ، من شُعَراء مُضَر ، متعصِّبٌ لأهل الكوفة . والطرمّاح خارجىٌّ صُفْرىٌّ قحطانىٌّ عصبىٌّ لقحطان ، من شُعَراء اليَمن ، متعصِّب لأهل الشام . فقيل لهما : « كيف اتَّفقتما هذا الاتِّفاق مع هذا الاختلاف ؟ » قالا : « اتَّفقنا على بُغْض العامَّة » . وهذا عَجَب مع تفاوُتِهما فى المذهب والعصبيَّة والديانة .

اجتمع الكميتُ بن زيد وحمّاد الراوية فى مسجدِ الكوفة ، فتذاكرا أشعار العرب وأيّامها ، فخالَفَه حمّاد فى شىءٍ ونازَعه ، فقال له الكُمَيت : « أتظنُّ أنّك أعلمُ منّى بأيّام العرب وأشعارها ؟ » قال: « وما هو إلّا الظن ؟ هذا عَيْنُ اليقين ». فغضِب الكُميت ، ثم قال له : « لِكَم شاعرٍ بصيرٍ يقال له عمرُو بن فلان تَرْوِى ، ولِكَم شاعرٍ أعمى يقال له فلانُ بنُ عمرو تروِى ؟ » فقال حمّاد قولًا لم يبيّنه ، فجعل الكميت يذكر رجُلًا رجُلًا من صنفٍ صنفٍ ، ويسأل حمّادًا : هل تعرفه ؟ فإذا قال لا أنشده من شعره جزءًا كبيراً ، حتى ضَجِرنا . ثم قال الكُميت : « إنّى سائلُك عن شىء من الشعر » ، فسأله عن قولِ الشاعر :

طرَحُوا أصحابَهم فى وَرْطةٍ ... قذفَكَ المقلةَ وسط المعترك

فلم يعلم حمّاد تفسيره ، وسأله عن قول الآخر :

تدرَّيْنَنَا بالقول حتّى كأنما ... تدرَّيْن ولداناً تصيد الرهادنا

فأفحم حماد ، فقال له الكُميت : « قد أجَّلتُك إلى الجمعة الأخرى » . فجاء حمادٌ ولم يأتِ بتفسيرها ، وسأل الكميتَ أن يفسرَها ، فقال : « المُقلة حصاةٌ أو نواةٌ من نوى المقل ، يحملُها القومُ معهم إذا سافَروا ، توضع فى الإناء ويصبُّ عليها الماء حتّى يغمرَها ، فيكون ذلك علامةً يقتَسِمون بها الماء . والمعترَك : الموضع الذى يختَصِمُون فيه على الماء ، فيلقونَها هناك عند الشر . وقوله « تدرَّينَنا » يعنى النساء، أى خَتَلْنَنَا ورَمَيْنَنَا . والرّهادن : «طير بمكّة كالعصافير » .

كان حَكيمُ بن عبّاس الأعور الكلبىّ وَلِعاً بهجاء مُضَر . وكانت شُعَراء مضرُ تجيبه وتهجوه . وكان الكُمَيتُ يقول : « هو أشعرُ منكم » . قالوا : « فأجِب الرجل » ، قال : « إن خالدَ بنَ عبد الله القسرىّ محسِنٌ إلىّ ، فلا أقدرُ أن أردّ عليه »، قالوا : « فاسْمَعْ ما قال فى بناتِ عمّك وبناتِ خالك من الهجاء » وأنشدوه . فغضِب الكميت وحَمِى لعشيرته ، فقال قصيدَته المذهبة :

« ألا حُيِّيتِ عنَّا يامدينا »

فأفحش فيها . وبلغ خالداً خبرُها ، فقال : « ماأبالي ما لم يَجْرِ لعشيرتي ذكر » ، فأنشدوه إيّاها ، فأحْفَظَته وقال : « فعلها ! والله لأقتلنَّه » . ثم اشترى ثلاثين جاريةً بأغلى ثمن ، وتخيَّرهن نهايةً في الحسن والجمال والفصاحة ، ورواهُنّ الهاشميّات من شعر الكُمَيت ، ودسَّهن مع نخّاسٍ إلى هشام بن عبد الملك ، فاشتراهنّ جميعاً ، فلما أَنِس بهنّ اسْتَنْطَقَهنّ فرأى فصاحةً وأدباً ، فاستقرأهُنّ القرآن فقرأن ، واسْتَنْشَدهُنّ الشِّعر فأنشدْنَ قصائد الكُمَيْت الهاشميّات ، فقال : « ويلكُنّ ! من قائل هذا ؟ » قلن: «الكُميت بنُ زيد الأسديّ » ، قال : « وفي أي بلدٍ هو ؟ » قلن : « بالعِراق ثم بالكوفة » . فكتب إلى خالدٍ وهو عامله على العِراق : أن ابعث إليّ برأس الكُميت بن زيد ، فبعث خالد إلى الكُميت في الليل ، فأخذه فأوْدَعَه في السِّجن . فلما كان في غدٍ أقرأ من حضره من مُضَر كتابَ هشام ، واعتذَرَ إليهم من قتله ، وآذَنَهم في إنفاذ الأمر فيه من غد ، وقال لأَبان بن الوليد البَجَلي — وكان صديقاً للكميت — : « انظُر ما وَرَد في صديقِك ! » فقال: « عزيزٌ والله عليّ به » ، ثم قام أبان ، وكان عاملًا على واسِط ، فبعثَ إليه بغلامٍ على بَغْل وقال له : « إن لَحِقتَه فأنت حرٌّ ، والبغل لك » . وكتب إليه : قد بَلَغني ما صِرتَ إليه ، وهو القتل ، إلّا أن يدفع الله عزّ وجل ، وأرى لك أن تَبْعَثَ إلى (حُبَّى) — يعني زوجةَ الكميت ، وهي بنت نُكيف بن عبد الواحد ، وكانت تتشيَّع أيضا — فإذا دخَلَتْ عليكَ فالبَسْ ثيابَها وتنقّب نقابَها ، واخرج ، فإنّي أرجو ألا يؤبه لك » . فأرسل الكُمَيت إلى أبي الوضّاح حبيب بن بديل ، وإلى فِتيانٍ من بني عمِّه ، بني مالك بن سعيد ، فدخل عليه سَعيد ، فأخبرَه الخبر وشاوَره فيه ، فسدَّد رأيه . ثم بعثَ إلى (حُبّى) زوجته ، فقصّ عليها القصّة وقال : « يا ابنةَ عمِّي ، إن الواليَ لا يُقدِم عليكِ ، ولا يُسْلِمُك قومُك ، ولو خِفتهُ عليكِ لما عرَّضتُك له » .

فألبسته ثيابَها وإزارَها وخَمَّرته وقالت له : « أقبِــل وأدْبِر » ، ففعل فقالت : « ما أنكِر منكَ شيئاً إلا يُبسا فى كَتِفَيك، فاخرُج على اسمِ الله » . وأخرَجَتْ معه جاريتين لها ، وعلى باب السجن أبو الوضَّاح والفتيانُ الذين حضروا معه وبنو عمِّه . فلم يُؤْبَه له ، ومشَى الفتيانُ بين يدَيه إلى سكَّة شبيب بناحِية الـكُناس ، فمرّ بمجلِسٍ من مجالس بنى تميم ، فقال بعضهم: « رجُلٌ وربِّ الـكعبة » ، وأمر غلامَه أن يتبعه، فتَبِعه فصاح أبوالوضَّاح : « يا كذا وكذا ! لا أراكَ[1] تَتْبَع هذه المرأة منذُ اليوم » وأومى إليه بنَعله ، فولَّى العبد مُدبِراً وأدخله الوضَّاح منزله فقال :

خرجتُ خروجَ القِدْح قدحِ ابن مُقبلٍ ... على الرَّغم من تلك النَّوابِح والمُشْلِى
علىّ ثيـــابُ الغانياتِ وتحتَها ... عزيمةُ أمرٍ أشبهَتْ سلَّة النصل

ولما طال الأمر على السجّان نادى الـكُمَيت فلم يجبه ، فدخل ليعرِفَ خبره ، فصاحتْ به المرأة : « وراءكَ ! لا أمَّ لك » . فشقّ ثوبه ومضى صارخاً إلى بابِ خالد فأخبرَه الخبر، فأحضر « حُبّى » وقال لها : « يا عدوّة الله! احتلتِ على أميرِ المؤمنين، وأخرجتِ عدوَّه ، لأُمَثِّلن بك ولأفعلنّ » . فاجتمعَ إليــه بنو أسَد وقالوا : « ما سبيلُك على امرأةٍ خُدِعتْ ؟ » فخافهم فخلَّى سبيلها . وسقط غرابٌ على حائط فنعَب ، فقال الـكُمَيت لأبى الوضَّاح : «إنى لمأخُوذ ، وإن حائطَك لساقِط » ، فقال : «سُبحان الله ! هذا ما لا يكونُ إن شاء الله » . وكان الـكميت خبيرا بالزَّجر فقال : « لا بدَّ أن تحوِّلنى ، فخرج به إلى بَنى عَلْقَمة ، وكانوا يتشيَّمون ، فأقامَ فيهم ؛ ولم يُصْبِح حتى سَقَط الحائط . وأقام مُدّةً متوارياً ، حتى إذا أيْقَن أن الطلب قد خفَّ عنه ، خرج ليلًا فى جماعة من بنى أَسَد على خْوفٍ ووَجَل ، وفيمن معه صَاعِدٌ غلامُه ، فأخذ طريق القطقطانية[2] ، وكان عالمًا بالنُّجوم يَهتدِى بها . فلما كان سحرا صاح بنا :

---

(١) أراك ، كبريلى والمخطوطتان .

(٢) الطريق على القطقطانه ، الأغانى .

« هوِّموا يا فتيان » ، فهوَّمنا ، وقام يصلِّى . قال أبو المستهلّ : « فرأيتُ شخصاً فتضعضعتُ له فقال : « مالك؟ » فقلتُ : « أرى شيئاً مُقبِلاً » ، قال : « هذا ذئبٌ جاء يستطعِمكم » . فجاء الذئب ، فربَضَ ناحيةً ، فأطعمناه يدَ جزُور فتعرَّقها ، ثم أهوَى له بإناء فيه ماء ، فشرب منه . وارتحلنا ، فجعل الذئبُ يعوى ، فقال الـكميت: « ما له وَيْلَه! ألم نُطعِمْه ونَسْقِه؟ وما أعرَفنى بما يريد، هو يُعلِمُنا أنّا لسنا على الطَّريق ؛ تيامَنوا » ، فتيامَنَّا ، فسكن عُواؤه . فلم نزل نسير حتى أتينْا الشام . فأتى مَسْلَمَة بن عبد الملك فاستجارَ به ، فقال : « أخْشَى ألا ينفعكَ جِوارى عنده ، ولـكن استجِر بابنِه مَسْلمة بن هِشام » . فقال : « كُنْ أنت السفير فى ذلك » . ففعل مَسلمة ، فأتَى ابنَ أخيه ، فقال : « يا أبا شاكر ، قد أتيتُك بشرَف الدهر ، واعتقادِ الصَّنيعة فى مُضَر » . وأخبَرَه الخبر فأجاره مَسْلَمة بنُ هِشام . وبلغ الخبرُ هشاماً ، فدعَى به وقال : « أتجيرُ على أمير المؤمنين بغير أمره ؟ » قال : « لا ! ولـكنِّى انتظرتُ سكونَ غضَب أمير المؤمنين » . قال له : « أحضِر نيه الساعةَ ، فإنه لا جوارَ لك » . فقال مسلمةُ للـكميت : « يا أبا المستهلّ ، إن أميرَ المؤمنين أمرنى بإحضارك » . قال : « أتُسْلِمُنى يا أبا شاكر ؟ » قال : « لا ولـكنِّى احتال لك » ثم قال : « إنّ معاويةَ بن هِشام ماتَ قريباً ، وقد جَزِع عليه جزعاً شديداً ، فإذا كان من اللَّيل فاضرِب رِواقَك على قبره ، وأنا أبعثُ لك ببَنِيه يكونون معك فى الرِّواق ، فإذا دعَا بكَ تقدَّمتَ إليهم بأن يَرْبِطوا ثيابَهم بثيابك ، ويقولوا هذا استجارَ بقبر أبينا ، ونحن أحرى بإجارَته » . فأصبحَ هشامٌ على عادته ، متطلِّعا من قصْره إلى القبر ، فقال : « من هذا ؟ » قالوا : « لعلَّه مستجيرٌ بالقبر » . فقال : « يُجارُ من كان إلا الـكُمَيت ، فإنه لا جِوارَ له » ، فقيل له : « فإنّه الـكُمَيت » ، فقال : « يُحضَر أعنفَ إحْضار » . فلما دُعِى به ربط الصِّبيانُ ثيابَهم بثيابِه . فلما نظر هِشامٌ إليهم اغرَوْرَقت عيناه بالدموع واستَعْبر ، وهم يقولون: « يا أميرَ المؤمنين ! استجارَ

بقبر أبينا ، وقد مات ومات حظُّه من الدنيا ، فاجعلْه هبةً له ولنا ، ولا تفضَحْنا فيمن استجار به » . فبكى هشامٌ وانتحب ، ثم أقبل على الكُمَيت فقال له : « أنتَ القائل .

والا تَقُولوا غيرَها تَتَعرَّفوا نواصِيهَا تَردِى بنا وهى شُزَّب

لا والله ، ولا أتانٌ من أتُن الحجاز وَحْشية » . فحمِد الكُمَيت الله ، وأثنى عليه ، وصلَّى على محمد نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « أما بعد ؛ فإنى كنتُ أتَدَهْدَى فى غَمْرة ، وأعومُ فى بَحرِ غَواية ، أخنَى علىّ خَطَلُها ، واستفزَّنى وهَلُها ، فتحيَّرت فى الضَّلالة وتسكَّعتُ فى الجهالة ، مهرِعاً عن الحقّ . جائرا عن القصد ، أقول الباطلَ ضلالًا ، وأفُوه بالبُهتان وَبالاً . وهذا مَقام العائذ مُبْصِرِ الهدى ، ورافضِ العمَى ؛ فاغْسِل يا أميرَ المؤمنين الحَوْبةَ بالتَّوبةَ ، واصفَحْ عن الزلَّة ، واعف عن الجَرِمة » . وقيل قال فى قوله لهشام : « يا أميرَ المؤمنين ؛ غائبٌ آب ، ومُذْنِب تاب ، محى بالإنابة ذنبَه ، وبالصدق كَذِبه ، ومِثْلُكَ من حلم عن ذى الجريمة ، وصفح عن ذى الرِّيبة » . ثم أنشد :

* قِفْ بالدِّيار وقوفَ زائر *

ومضى فيها حتى قال :

كم قال قائلُكم : لعــاً لكَ ، عند عَثْرته لعاثر
وغفــرتُمُ لذوى الذنــو ب مِن الأكابرِ والأصاغر
أبَنِى أميَّة إنــكم أهل الوسـائل والأوامر
ثِقَتى لـكلِّ ملمَّةٍ وعَشِيرتى دونَ العشائر
أنتم معادنُ للخلا فة كابراً من بعد كابر
بـالتِّسعة المتتابعيـ ن خلائفاً وبخير عاشر
وإلى القيامة لن تزا ل لشافعٍ منكم وواتر

ثم قطع الإنشادَ ، وعاد إلى خطبته فقال : « إغضاء أمير المؤمنين ، وسماحته ومناطُ المنتجِعين بحبله من لا يحُلّ حُبْوَتَه لإساءة المذنبين ، فضلًا عن استِشاطة غضبِه بجَهْـل الجاهلين ، وإساءة المسيئين » ، فقال له : « ويلك يا كُميت ! من زيَّن لك الغَواية ، ودلَّاك للعَماية ؟ » قال : « الذى أخْرَج أبانا من الجنَّة ، وأنساه العَهْد ، فلم يجدْ له عزماً » . فقال له : إيه ! فأنتَ القائل :

أيا موقداً ناراً لغــــيرِكَ ضوءها ... ويا حاطبـــاً فى غير حبلِك تحطِب

قال : بل أنا القائل :

إلى آل فهـرٍ[1] أبى مالكٍ ... منـاخٌ هو الأَرحبُ الأسهل
نَمتُّ بأرحامنـــا الداخلا ... تِ من حيث لا ينـكَر المدخلُ
بـــرّةَ والنضر والمـــالكيـــنَ رهطٌ هم الأنبَـل الأنبلُ
وبِابْنَى خزيمـةَ وَبْـلُ السما ... ء والشمّس مفتـاح ما نأمل
وجدنا قريشاً قريشَ البطـاح ... على ما بَنَى الأوّلُ الأوّل
بهم صلُح الناسُ بعد الفسـاد ... وحيص من الفَتْق مارَعْبَـلوا

فقال له : « فأنت القائل :

لا كعبدِ المليكِ أو كوليـدٍ ... أوسُليمان بعـــدُ أو كهشام
من يَمُتْ لايَمُتْ فقيداً ومن يَحْـ ... ـيَ فـلا ذُو إلٍّ ولا ذُوذمام

ويلكَ يا كُميت ! جعلتَنا فيمن لا يرقُب فى مؤمنٍ إلا ولا ذمَّةَ » .

قال : يا أميرَ المؤمنين ، بل أنا القائل :

فالآن صرتُ إلى أميَّـــةَ والأمورُ لهـا مصـــائِر
والآنَ صرتُ بها المصيب ... كمهتـدٍ بالأمس جائر
يا ابنَ العقـــائِل للعقـا ... ئِل والجحَاجِحَةِ الأخاير

(١) بيت ، الأغانى .

مِن عبد شَمْسٍ والأكا ... بِرِ من أميَّة فالأكابِر
إنّ الخلافةَ والإلا ... فَ برغم ذى حسدٍ ووَاغِرِ
دلفا من الشَّرفِ التليـ ... ـدِ إليك بالرِّفد المُوافِرِ
فحَلَلْتَ معتَلجَ البطا ... حِ وحلّ غيرُك بالظواهر

قال: « إيه ! فأنتَ القائل:

فقل لبنى أميَّةَ حيثُ حلّوا ... وإن خفتَ المهنّد والقطيعا
أجاع الله من أشبَعْتُموه ... وأشبَعَ من بجودِكم أُجيعا
بمَرضىٍّ السياسةِ هاشمىٍّ ... يكونُ حَياً لأُمَّته رَبيعا »

فقال: « لا تثريبَ يا أميرَ المؤمنين ، إن رأيتَ أن تمحوَ عنى القولَ الكاذِب » . قال: « بماذا ؟ » قال: « بقولىَ الصَّادق »:

أورثَتْه الحَصانُ أمُّ هشامٍ ... حَسَباً ثاقِباً ووجهاً نضيرا
وكساه أبُو الخلائفِ مَرْوا ... ن سَناء المكارم المأثورا
لم تجهَّم له البِطاحُ ولكن ... وجدَتْها له مغاراً[1] ودورا

وكان هشام متّكئاً ، فاستوى جالساً ، والتفت إلى سالِم بن عبد الله بن عُمَر — وكان إلى جانبِه — وقال: « هكذا فليكُنْ الشِّعر ؛ قد رضيتُ عنك يا كميت » . فقبَّل يده وقال: « يا أميرَ المؤمنين ؛ إن رأيتَ أن تزيد فى شرَفى ، ولا تجعلَ لخالدٍ علىَّ إمْرة » . قال: « قد فعلتُ » ، وكتب إليه بذلك ، وأمَر له بأربعينَ ألفِ درهم ، وثلاثين ثوباً هشاميةً وكتبَ إلى خالد أن يخلّى سبيل امرأتِه ، ويعطيها ثلاثين ألفِ درهم وعشرين ثوباً . ففعل ذلك .

وله مع خالدٍ أخبارٌ بعد قُدومه الكوفةَ بالعهد الذى كَتَبَ له . منها أنَّه مرَّ بخالدٍ يوماً ، وقد تحدث النّاسُ بِعزله عن العِراق ، فلما جازَ به تمثَّل الكميت:

(١) مغارا ، كبريلى : معانا ، المخطوطتان .

أراها وإن كانت تخبّ فإنها سحابةُ صيْفٍ عن قليلٍ تقشّع

فسَمِعَها خالدٌ فقال : « أم والله لا تَنْقَشِعُ حتّى يغشاكَ منها شُؤبوب برد » . وأمرَ به فضُرِبَ مجرَّدًا ، ضربه مائةَ سَوْط ، وخلّاه ومضى .

ولما انْفَصَل من بين يدَىْ هِشام جمعت له أميَّة بينها مالًا كثيراً .

ولم يُحفظ من قصيدتِه الرائيَّة إلا ما حفِظَه الناس يومَئذٍ . وسئل عنها فقال : « ما أحفظُ منها شيئاً ، إنما هو كلام ارتجلتُه » .

وقيل : إنَّ الذى كان اعتقَله نائبُ خالدٍ على الكوفة . وإنّه لما سلِم وخَرَج فى قماش زوجَتِه ، كتب النائبُ إلى خالد بذلك فأجابه : « حرّة كريمةٌ آسَتْ ابنَ عمِّها بنفسِها » ، وأمرَه بتخْلِيَتها .

وهجاها الأعور السُّلَمى ورماها بأهل الحبس ، فهاج الكميتَ ذلك إلى أن قال قصيدتَه التى هى :

* الا حُيِّيتِ عنَّا يا مدينَا *

وهى ثلاثمائةُ بيتٍ ، لم يترك فيها حيًّا من أحياء اليَمَن إلا هجاهم .

وقيل : إنّه لما استجار بمَسْلمة بنِ عبد الملك قال له : « إنى قد أجرتُ على أمير المؤمنين فأخفر جِوارى ، وقبيحٌ برجلٍ مثلى أن يُخْفَر جواره فى كلِّ يوم ، ولكنِّى أدلُّك ، استَجِر بمسلمةَ بن هشام ، وبأمِّه أمِّ الحكم بنتِ يحيى بن الحكم ، فإنَّ أميرَ المؤمنين قد رشَّحه لولاية العهد » . فقال الكُمَيت : « بئسَ الرأى أن أضَع دمِى بين صبيٍّ وامرأة ، فهل غير هذا؟ » قال : « نعم ، استَجِر بقَبْر مُعاوية » ، فاستجار به .

ولما خرجت الجَعْفَرِيَّةُ على خالدٍ القَسرى دَهِشَ دَهَشاً عظيما ، وكان يخطُب على المنبر ، وهو لا يعلم بهم ، فجعلوا ينادُون : « لبَّيكَ جعفر ، لبَّيك جعفر » . وعرَف خالد خبرَهم ، فلم يعلم ما يقول فزعاً ، وقال : « أطعِمُونى ماءً » . ثم خرج

الناسُ إليهم ، فأخذوهم ، وجعل يَجيء بهم إلى المسجد ويؤخذ طُنٌّ قَصَب فيطلى بالنِّفط ، ويقال للرجل احتَضِنه ، ويضرب حتى يَفْعل ، ثم يحرَق ، فحُرِق جميعُهم . فلما عُزِل خالد عن العراق ، ووُلِّى يوسفُ بن عمر دخل عليه الكُميت ، وقد مَدَحه بعد قتله زيدَ بن على رضى الله عنه ، فأنشده قوله فيه :

خرجْتَ لهم تمشِى البَرَاحَ ولم تكن ... كمَن حِصنُه فيه الرِّتاج المضبَّب

وما خالدٌ يستَطعِم الماء فاغِراً ... بِعدلِك والدَّاعى إلى الموت ينعب

والجند قيامٌ على رأسِ يوسف ، وهم يمانِيَة ، فتعصَّبوا لخالد ، فوضعوا نِعالَ سُيوفهم فى بطن الكُميت ، فوجَؤوها وقالوا : « تُنشِد الأميرَ ولم تَستأمره » . فلم يزل ينزِفُ الدَّمَ حتى مات .

مرّ الفرزدقُ بالكُمَيت وهو يُنْشِد ـ والكميتُ يومئذٍ صبىٌّ ـ فقال له الفرزدق : « ياغلام ، أيسرُّك أنى أبوك ؟ » فقال : « لا ولكن يسرُّنى أن تكونَ أمّى » ، فحُصِر الفرزدق ، وأقبل على جلسائه وقال : « ما مرّ بى مثلُ هذا قطّ » .

قال محمَّد بن سَهل صاحبُ الكميت : دخلت مع الكميت على أبى عبد الله جَعفر بن محمَّد بن علىّ رضى الله عنهم ، فقال له : « جعلتُ فِداك ! ألا أُنشِدُك ؟ » ، قال : « إنها أيّامٌ عِظام » ، قال : « إنَّها فيكم » ، قال : « هاتِ » . وبعث أبو عبد الله إلى بعض أهله فقرب ، فأنشد ، وكَثُر البكاء حتى أتى إلى هذا البيت :

يصيبُ به الرامُون عن قَوْسِ غيرهم ... فيا آخِراً أسْدَى له الغىّ أوّلُ

فرفع أبُو عبد الله يدَيْه وقال : « اللَّهم اغفِر لى وللكُمَيت » .

ودخل يوماً على أبى عبد الله جعفر بن محمد بن على رضى الله عنهم ، فأعطاه ألفَ دينارٍ وكُسوة . فقال له الكُميت : « والله ما أحْبَبْتُكم للدُّنيا ، ولو أردتُ الدنيا لأتيتُ من هى فى يَدِه ، ولكنَّنى أحببتكم للآخرة . فأما الثياب التى أصابت أجسامَكم ، فأنا أقبلُها لبرَكاتها ، وأما المال فلا أقبلُه » فردَّه وأخذ الثياب .

ودخل على فاطمةَ بنتِ الحسين ، فقالت : « هذا شاعرُ أهل البيت » ، وجاءت بقدَحٍ فيه سَويق ، فحرّكته بيدِها ، وسقَتْ الكُميت . ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب . فهمَلَت عيناه وقال : والله لا أقبلُها ، إنّى لم أحبّكم للدنيا .

لما جاءت المسوِّدة سخّروا المستهلّ بن الكميت الشاعر ، وحملوا عليه حملا ثقيلا وضربوه . فمر ببنى أسَد فقال : « أترضَون أن يُفعل بى هـذا الفعال ؟ » قالوا : «هؤلاء الذين يقولُ أبوك فيهم :

«والمصيبونَ بابَ ما أخطأ النّا سُ ومُرْسُو قواعدِ الإسلام

قد أصابوا فيك ، فلا تكذِّب أباك » .

أخذ العَسَسُ المستهِلّ بن الكُميت فى أيّام أبى جعفر . وكان الأمر صعبا ، فحُبس ، فكتب إلى أبى جعفر يشكُو حالَه ، وكتب فى آخِر الرقعة :

«إذا نحن خِفناَ فى زمانِ عدوِّكم وخفناكُم إن البلاء لرَاكِد »

فلما قرأه قال : « صدق المستهِلّ » ، وخلّاه .

كان بين بنى أسَد وبين طيِّئ بالحَضْر — وهى قريبة من قادِسيَّة الكوفة — حربٌ ، فاصطلحُوا ، وبقى لطيِّئ دماءُ رجُلَيْن ، فاحتمل ذلك رجلٌ من بنى أسد ، فمات قبل أن يؤدِّيَه ، فاحتملَه الكميتُ بن زيد ، فأعانَه عبدُ الرحمن بن عتبة ، فمدحَه بقولِه :

أأَبكاكَ بالعُرُف المنزلُ وما أنتَ والطلَلُ المحولُ

وأعانه الحكم بن الصَّلت الثّقفى فمدحَه . وأعانه زياد بن المغَفَّل الأسدىّ فمدحه ، ثم جلَس الكُميت ، وقد خرج العَطاء ، فأقبلَ الرجلُ يعطِى الكُمَيت المائتينِ والثلاثَمائة ، والأكثرَ والأقلّ . قال : وكانت دِيَةُ الأعرابى ألفَ بعيرٍ ، وديةُ الحضرىِّ عشرةَ آلاف درهم ، وكانت قيمةُ الجمل عشرة دراهم. فأدى الكُمَيتُ عشرين ألفاً ، عن قيمة ألفَىْ بعير .

قال إسماعيلُ بن عليّ الخزاعى ـ ابن أخى دِعبل ـ : حدَّثنى عمِّى دعبل قال : رأيتُ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم فى المنام ، فقال لى : « مالَكَ والكميتَ ابنَ زيد ؟ » فقلتُ : « يا رسولَ الله ، ما بَيْنى وبينَه إلا كما بينَ الشعراء » فقال : « لا تَفْعل ، أو ليسَ هو القائل :

فلا زلتُ فيهم حيثُ يتَّهمونَنى ولا زلتُ فى أشياعهم أتقلّب

فإن الله قد غَفَر له بهذا البيت » . فانتهيتُ عن الكُمَيت بعدها .

حدث إبراهيمُ بنُ سعد الأسَدىّ قال : سمعت أبى يقول : رأيتُ النبيَّ صلّى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال لى : « من أىِّ الناس أنت ؟ » قلت : « من العرب » ، قال : « أعلم ؛ فمن أىِّ العرب أنت ؟ » قلتُ : « من بنى أسد » قال : « أسد خُزيمة ؟ » قلت : « نعم » ، قال : « أهلالىٌّ أنت ؟ » قلت : « نعم » فقال : « أتعرف الكُميت بن زيد ؟ » فقلت : « يا رسولَ الله ، عمِّى ومن قبيلتى » ، قال : « أتحفظُ من شِعره شيئاً ؟ » قلت : « نعم » ، قال : « أنشِدنى :

* طَرِبتُ وما شوقاً إلى البِيض أطرَبُ *

فأنشدتُه حتى بلغتُ إلى قولِه :

فما لى إلا آل أحمدَ شيعةٌ ومالى إلا مَشْعَب الحقِّ مَشْعبُ

فقال : « إذا ما أصبحتَ فاقرأ عليه السَّلام ، وقل له : قد غَفَر الله لكَ بهذه القصيدة » . وقال نصرُ بنِ مُزاحم المِنْقَرى إنه رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلّم فى المنام ، وبين يدَيْه رجلٌ ينشِده :

* مَنْ لِقَلْبٍ متيَّم مستهام *

فسألتُ عنه فقيل لى : « هذا الكميتُ بن زيد الأسدىّ » قال : فجعل النبىُّ صلى الله عليه وسلّم يقول : « جزاكَ الله خيرا » . وأثنى عليه .

وكان أول شعر الكميت الهاشميات . ولما قالهَا سترَها ، وأتى الفرزدَق فقال :

« يا أبا فِراس ، أنتَ شيخُ مضر وشاعرُها ، ، وأنا ابن أخيك الكُمَيت بن زيد الأسَدى » . قال : « صدقتَ ، أنت ابن أخى ، فما حاجتك ؟ » قال : « قلت شعراً فأحببتُ أن أعرِضه عليك . فإن كان حسناً أمرتَنى بإذاعته ، وإن كان قبيحاً أمرتَنى بستره ، وأنت أولى من ستَرَه على » . فقال له الفرزدق : « أما عقلُك فحسَن وإنّى لأرجو أن يكونَ شِعركَ على قَدْر عقلِك ، فأنشدنى ما قلتَ » فأنشده :

* طربتُ وما شوقاً إلى البِيض أطربُ *

فقال : « فِيمَ طربت يا ابن أخى » فقال :

* ولا لعباً منّى وذو الشّوق يلعب *

فقال له : « العَب يا ابن أخى ، فإنّك فى أوان اللّعب » فقال :

ولم يُلهِنى دارٌ ولا رسمُ منزلٍ ولم يتطرّبنى بنانٌ مخضّب

فقال : « ما يطرُبك يا ابنَ أخى ؟ » فقال :

ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيّةً أمرَّ سَليم القَرن أم مرَّ أعضب

فقال : « أجل ، لا تتطيّر » ، فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل والنُّهى وخيرِ بنى حوّاء والخيرُ يُطلب

فقال : « من هؤلاء ؟ ويحك ! » قال :

إلى النَّفَر البِيض الذين بحبِّهم إلى الله فيما نابنى أتقرَّبُ

فقال : « أرِحْنى وَيْحَك ! من هؤلاء ؟ » فقال .

بنى هاشمٍ رهطِ النبىِّ فإنّنى بهم ولهم أرضَى مِراراً وأغضَب

خفضتُ لهم منّى جناحَىْ مودّةٍ إلى كَنَفٍ عِطفاه أهْلٌ ومَرْحب

فقال له الفرزدق : « يا ابنَ أخى أذِعْ ثم أذِعْ ، فإنّك أشعرُ من مَضى وأشعر من بَقى » .

قال وردُ بنُ زيد أخُو الكُمَيت : أرسَلَنى أخى إلى أبى جعفر ، فقلت له :

« إن الكميت أرسلني إليك ، وقد صَنَع بنفسه ما صنع ، فأْذَن له أن يمدح بني أمَّية » . قال : « نعم ، هو في حلّ ، فليقلْ ما شاء » .

ولما دخل الكُمَيت على أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنهما قال له : « يا كميتُ أنتَ القائل :

والآن صِرتُ إلى أُميَّـ ـة والأمورُ لها مصائر »

فقال : « نعم . قد قلت ، ووالله ما أردت به إلّا الدنيا ، وقد عرفتُ فضلكم » . قال : « أما إن قُلتَ ذلك ، إنَّ التقيَّة لتَحِل » .

سئل معاذُ الهرّاء : « من أشعرُ النَّاس » قال : « أمن الجاهليِّين أم من الإسلاميِّين ؟ » قيل : « بل من الجاهليِّين » . قال : « امرؤُ القيس وزُهَير وعَبِيد بن الأبرص » . قيل : « فمِن الإسلاميِّين ؟ » . قال : الفرزدَق وجرير والأخطل والراعي » . فقيل له : « ما نَراكَ ذكرتَ الكُمَيت فيمن ذكرت ! » قال : « ذاك أشْعَرُ الأوَّلين والآخِرين » .

دخل الكميت على خالد ، فأنشده قوله فيه :

لو قيلَ للجوُد ما حليفُك ما إن كان إلّا إليك ينتسِب
أنت أخُوهُ وأنتَ صورتُه والرأسُ منه وغيرُك الذّنب
أحرزتَ فضلَ الرِّهان في مَهَلٍ وكلَّ يوم بكفِّك القصَب
لو أن كعباً وحاتِماً نُشِرا كانا جميعاً من بعضِ ما تَهب
لا تُخلفُ الوعدَ إن وعدتَ ولا أنتَ من المعتَفِين تحتجِبُ
ما دونك اليومَ من نوالٍ ولا خلفَك للراغبين مُنْقَلَب

فأمرَ له بمائة ألفِ دِرهم .

دخل الكميتُ على مَخْلَد بن يزيد بن المهلّب فأنشدَه :

هلا سألتَ معالم الأطلال والرسمَ بعد تقادُم الأحوال

دمناً تَهيج رسومُها بعد البِلَى ... طَرَباً،وكيفَ سؤالُ أعجمَ بالى
يمشينَ مَشْىَ قَطاَ البطاح تأَوُّداً ... قُبُّ البطون رواجحَ الأكفال
من كل آنِسة الحديثِ حَيِيَّةٍ ... ليست بفاحِشة ولا مِتفال
أقصى مذاهِبها إذا لاقيتَها ... فى الشَّهر بين أسِرَّة وحجال
وتكونُ رِيقَتُها إذا نبَّهتَها ... كالشُّهد أو كسُلافة الجِريال
قاد الجيوشَ لخمس عشرةَ حِجّة ... ولِداته عن ذاك فى أشغال
قعدت بهم هِمّاتُهم وسَمَت به ... هِمم الملوك وسَوْرة الأبطال
فكأنَّما عاش المهلَّبُ فيهمُ ... بأغَرَّ قاسَ مثالَه بمثال
فى كفه قَصَباتُ كلِّ مقلَّد ... يومَ الرِّهان وفُوت كل نضال
ومتى أَزِنْك بمعشرٍ وأزنهمو(١) ... بك ألْفِ وزنك أرجحَ الأثقال(٢)

وكان قُدّامَ مخلد دراهم، يقال لها الروبحة، فقال له: «خُذْ وِقرَك منها» فقال: «البغلة بالباب، وهى أجْلَدُ منى». فقال: «خذ وِقْرها»، فأخذ أربعةً وعشرين ألفاً. فقيل لأبيه فى ذلك، فقال: «لا أردُّ مكرمة فعلها ابنى».

وكان الكميتُ طويلًا أصمَّ، ليسَ بحَسَن الإنشاد، ولا طيِّبِ الصوت، فإذا استُنْشِد أمر ابنَه المستهلَّ فأنشد، وكان حَسَنَ الإنشاد.

كان حكيم بن عيّاش الكَلْبى قد هجا علىَّ بن أبى طالب وبنى هاشمٍ جميعا، وكان منقطِعاً إلى بنى أمية. فانتدَبَ له الكُميت، فهجاه وسبَّه، ولجَّ الهِجاء بينهما. وكان الكميتُ يظهر أن هجاءه إيّاه للعصَبيَّة التى بين عدنان وقحطان. وكان الكُمَيت يفخر عليه فى قصائده ببنى أميَّة، فقال له المستهلّ ابنه: «فخرتَ ببنى أميَّة، وأنت تشهدُ عليها بالكفر! فهلا فخرت بعلىٍّ وبنى هاشم!» فقال: «يا بُنَىَّ،

(١) وازنهمو، الأغانى: وازنتهم، الأصول.
(٢) وزنك أرجح الأثقال، الأغانى: وازن راجح مثقال، الأصول.

هذا منقطعٌ إلى بنى أميَّة ، وهم أعداء علىٍّ عليه السلام[1] ، فلو ذكرتُ عليا لترك ذِكرى ، وأقبلَ على هجائه ، فأكون قد عرَّضتُ عليًّا عليه السلام[1] ، ولا أجد لى ناصراً من بنى أميَّة ، ففخرتُ عليه ببنى أميَّة ، وقلت إن نقضَها قتلوه ، وإن أمسكَ عن ذكرِهم قتلْتُه غمًّا وغلبتُه » . فكان كما قال، أمسكَ الكلبىُّ عن جوابه وأُفحِم .

وكان مما قاله الكلبىّ :

ما سرنى أن أمّى من بنى أسَدٍ ... وأن ربِّىَ نجّانى من النار
وأنهم زوَّجونى من بناتِهم ... وأنَّ لى كلَّ يومٍ ألفَ دينار

فقال له الكميتُ :

يا كلبُ مالَكَ أمٌّ من بنى أسدٍ ... معروفةٌ فاحترقْ يا كلبُ بالنار
لكنَّ قومَك من قومٍ شُنِئْتَ بهم ... قد قنَّعوك قِناعَ الخزى والعار

فقال له الكلبىّ :

لن يبرح اللؤمُ هذا الحىَّ من أسَدٍ ... حتى يفرِّق بين السَّبتِ والأحد

كان الكميت قد امتدح الحكمَ بن الصَّلت ، وهو يخلُف يوسُفَ بنَ عمر ، وأنشده :

« طربتَ وهاجكَ الشوقُ الحثيثُ »

فلما أنشدَه دعا بجارية ليُعطِيَه[2] الجائزة . ثم دعا أبانَ بنَ الوليد ، فدخل عليه وهو مكبَّلٌ بالحديد ، فطالبَه بالمال ، فالتفتَ الكُمَيت فرآه ، فدمَعَت عيناه ، وقال للحكم : « أصلَحَ الله الأميرَ ، اجعلْ جائزتى لأبان ، واحتسب له بها من هذا النجم[3] . فقال له الحكم : قد جعلتُ ، ردُّوه إلى الحبْس » . فقال له أبان :

---

(١) رضى الله عنه ، المخطوطتان .

(٢) بجارية لتعطيه، المخطوطتان .

(٣) اليوم ، المخطوطتان .

« يا أبا المستهلّ ، ما يحلُّ له شيء عليّ بعدها » . فقال الكميتُ للحكم : «أتسخَر بي ؟ أصلحَ الله الأمير » . فقال الحكم : « كذب ! قد حلّ عليه المال ، ولو لم يحلّ لاحتسبْنَا له به ممـا يحل » . فقال له حَوْشَبُ بن زيد الشَّيبانى ــ وكان خليفةَ الحكم ــ : « أصلحَ الله الأمير ! أتُشَفِّـع حمارَ بني أسَد في عَبْد بَجيلة ؟ » فقال له الكميت : « لئن قلتَ ذلك ؛ فوالله ما فَرَرْنا عن آبائنا حتى قُتِلُوا ، ولا نكَحْنا حلائِل أبنائنا بعد أن ماتوا » . فسكت حَوْشب مُفْحَما . وقال الحكم . « ما كان تعرُّضُك للسان الكُمَيت ؟! » وكان حَوْشب فرّ عن أبيه في بعض الحروب ، فنجا هو وقُتِل أبوه . ووطِئَ جارية لابنِه بعدَ وفاته . وفي حوشَب يقول الشاعر :

نجّى حُشاشتَه وأسلم شيخَهَ لما رأى وقعَ الأسنَّة حوشبُ

التقَتْ ريّا بنتُ الكُمَيت بن زيد وفاطمةُ بنتُ أَبان بن الوليد بمكّة،وهاحاجّتان فتمارَفتَا ، فدفَعَتْ بنتُ أبان لبنت الكُمَيت خَلْخالى ذَهَب كانا عليها . فقالت لها بنت الكميت : « جزاكِ الله خيرا ، يا آل أبان ، فما تتركون برّكم بنا قديماً وحديثاً » فقالت لها بنتُ أبان : « بل أنتم جزاكم الله عنا خيرا ، أعطيناكم ما يَبِيدُ ويَفْنَى ، وأعطيتُمونا من الشرَف والمجد ما يبقى أبدا ولا يبيد ، يَتَنَاشَدُه الناس في المحافِل ، فيحيي ميِّت الذكر » .

ووُلد الكميت أيَّام مَقْتَل الحسين بن عليّ عليهما السلام[1] في سنة ستِّين ، ومات في سنة ستّ وعشرين ومائة ، في خلافة مَرْوان بن محمّد . وكان مبلغُ شِعره حين مات خمسةَ آلافٍ ومائتين وتسعةً وثمانين بيتا . قال المستهلّ : حضرتُ أبي وهو يجُود بنفسه ، فأفاقَ وفتح عينَيْه ثم قال: « اللهم آل محمدّ ، اللهم آل محمد ، اللّهم آل محمد» ، ثلاثا . ثم قال : « يا بني وددتُ أني لم أكنْ هجوتُ نساء كلبٍ بهذا البيت :

(١) رضى الله عنهما ، المخطوطتان .

مع العضروط والعُسَفاء ألقوا   برادِعَهن غـــيرَ محصَّنينـــا

وعممتَهن قذفاً بالفجور . والله ما خرجتُ بليلٍ قطّ إلا خشيتُ أن أُرْمَى بالنجوم لذلك» ثم قال: «يا بنى بلغنى فى بعض الرّوايات أنه يُحْفَر فى ظهر الـكوفة خندق، يخرج فيه الموتى من قبورهم ، فلا تدفنِّى فى الظَّهر ، ولـكن إذا مِتُّ فامضِ بى إلى موضعٍ يقال له مَـكران ، فادفنِّى فيه » فدُفِن فى ذلك الموضـــع . وكان أوّلَ من دُفِن فيه . وهو مقبرةُ بنى أسَدٍ إلى الآن .

« كعب بن زهير »

هو كَعْب بن زُهَير بن أبى سُلمى المُزَنى . وقد مضت نِسبتُه فى حرف الزاى فى ترجمة أبيه زهير . أمُّه امرأةٌ من بنى عبد الله بن غَطَفان ، يقال لها كَبْشة بنتُ عمّار ابن عدىّ بن سُحيم . وهى أم سائر أولاد زهير وهو من المخضرَمين من فحول الشُّعراء .

وسأله الحُطَيئةُ أن يقول شعرا يقدِّم فيه نفسه ، ثم يثَنِّى به بعده . ففعل ، لأنّ الحطيئةَ كان راويةَ زُهير فقال : « يا كعبُ ، قد علمتَ روايَتى لكم أهلَ البيت ، وانقطاعى إليكم . وقد ذهبَ الفحولُ غيرى وغيرَك . فلو قلتَ شعْرا تذكر فيه نفسك وتثنِّى بى ، فإن الناس أرْوَى لأشعارِكم ، وإليها أسرَع » . فقال من أبياتٍ ذكرت فى ترجمة الحطيئة :

فمن للقوافى بعدنا (١) ، من يحوكُها ... إذا ما ثوَى كَعبٌ وفوَّز جرول
نقول فلا نعيا بشىء نقوله ... ومن قائليها من يُسىء ويعجل
كفيتُك لا تَلْقَى من الناس واحدا ... تنخَّل منها مثل ما يتنخَّل
يثقِّفها حتّى تلين متونها ... فيقصُر عنها كلّ ما يُتمثّل

كان زهير قد قال بيتا ونصف بيت ، فمر به النابغة، فقال له : يا أبا أمامة أجِزْ» ، قال : « ما قلت ؟ » قال: قلت :

« تزيدُ الأرضُ إمّا متَّ خِفًّا ... وتحيَى إن حَيِيتَ بها ثقيلا
نزلت بمستقر (٢) العرض منها

---

(١) شانها ، الأغانى .

(٢) لتستقر ، كبريلى ؛ استقر ، المخطوطتان .

أجز » ، فأكدى النابغة ، وأقبل كعب بن زهير ، فقال أبوه : « أجزْ يا بنىّ » فقال : « ما أجيز ؟ » فأنشده البيتَ والنصفَ فقال :

« وتمنع جانبيها أن يميلا [1] »

فضمه زهير إليه وقال : « أشهد أنك ابنى » .

خرج كعبٌ وبُجَير ابنا زُهير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، حتى بلغا أبرَقَ العزّاف ، فقال كعبٌ لبُجَير : القَ الرجُل ، فأنا مقيمٌ لك ها هنا أنظر ما يقول لكَ . فقَدِم على النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم ، فسمعَ منه وأسلَم . فبلغ ذلك كعباً فقال :

ألا أبلغا عنّى بُجَيراً رسالةً   على أىِّ شىءٍ وَيْبَ غيرِك دلَّكا
على خُلُقٍ لم تُلْفِ أمّاً ولا أبا   عَلَيه ولم تُدْرِكْ عَلَيه أخاً لكا
سقاكَ أبو بكر بكأسٍ رويّةً   وأنهلَكَ المأمُون منها وعلّكا
تخالفتَ أسبابَ الهُدَى واتّبعتَه   فهل لك فيما قلتُ يا بُجْر هَلْ لكا

فبلغتْ أبياتُه هذه رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم ، فأهدَر دمه ، وقال : « من لَقِيَ منكم كعباً فليقتُله » . فكتب إليه أخوه يُخبرُه الخبر ، وقال له انجُ وما أراكَ بمُفْلِتِ » . وكتبَ إليه بعد ذلك يأمُره أن يُسْلِمَ ويُقبلَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ويقول له : « إنّه من شَهِد ألا إلَه إلّا الله ، وأن محمّدا رسولُ الله ، قَبِل صلّى الله عليه وسلّم ذلك مِنه ، وأسْقَط ما كان قبلَ ذلك » . فأسلم كعب ، وقال القصيدةَ التى اعتذَر فيها إلى النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأقبلَ حتى أناخ راحِلته ببابِ المسجد . وكان مجلسُ النبيِّ صلّى الله عليه وسلم من أصحابه مكانَ المائدة من القوم ، وهم حوله حَلْقَةٌ ثم حَلْقَة ، وهو وَسَطهم ، فيقبلُ إلى هؤلاء فيحدِّثهم ، وإلى هؤلاء فيحدِّثهم . فأقبل كعبٌ حتى دَخَل المسجد ، فتخطّى حتى جلس إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقال : « يارسولَ الله ، الأمانَ » ، قال : « ومَن أنتَ ؟ » قال : « كَعْبُ بنُ زُهَيْر » .

(١) يزولا ، الأغانى .

وقيل: إنَّه نزل برجلٍ من جُهَينة . فلما أصبحَ أتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم ، فقال : «يا رسولَ الله؛ أرأيت إن أتيتُك بكعبِ بنِ زُهير مُسْلِماً أتؤمِّنُه ؟ » قال : « نعم » ، قال : « فإنِّى كعبُ بن زهير » . فتواثبت الأنصار يقولون : «يا رسولَ الله ، ائذن لنا فيه » . قال : « فكيفَ وقد أتانى مُسْلِماً » ، ثم قال له : أنتَ الذى تقول . . كَيْفَ قال « يا أبا بكر ؟ » فأنشده حتى بلغ إلى قولِه :

سقاكَ أبو بكر بكأسٍ رويَّة　　وأنهلَكَ المأمونُ منها وعلَّكا

فقال رَسُول الله صلّى الله عليه وسلّم : «مأمونٌ والله » . ثم أنْشَدَه كعبُ :

* بانَتْ سُعادُ فقلبي اليومَ متبول *

فلما بلغ إلى قوله :

إن الرسول لسيفٌ يُستضاء به　　مهنَّد من سيوفِ الله مسلولُ

وفتيةٍ من قُرَيْشٍ قال قائلُهم　　ببَطْن مكَّة لما أسلموا زُولوا

زَالُوا فما زَالَ أنكاسٌ ولا كُشُفٌ　　عند اللِّقاء ولا مِيلٌ معازيل

أشار رسولُ اللهصلّى اللهعليه وسلّم إلى الخلق أن اسْمَعوا شِعرَ كعب بن زهير ».

وكان زهير نظّاراً متوقيًا فرأى فى مَنامِه كأنَّ آتياً أتاه فحملَه إلى السماء ، حتى كاد يمسُّها بيده ، ثم تركه فأهوَى إلى الأرض . فلمَّا احتُضِر قصَّ رؤياه على وَلَده ، وقال: «لاأشكُّ أنه كائنٌ من خَبَرِ السماء بعدىشىء ، فإن كان فتمسَّكوا به وسارعوا إليه» فلما بُعِث النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم خرج إليه بُجَير ، فأسلم ، ثم رجَع إلى بلادِ قومه، فلما هاجَر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أتاه بُجَيْر بالمدينة . وكان من خِيار المُسلمين، وشَهِدَ يومَ الفتح ، ويوم خَيْبَر ، ويومَ حُنَيْن ، وقال فى ذلك شعراً .

وعرَّض كعبٌ بالأنصار فى قصيدتِه عند إنشادِها بقولِه :

كانت مواعيدُ عُرقوبٍ لها مثلًا　　وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ

وعرقوبٌ رجلٌ من الأَوْس . فلما سَمِع المهاجِرون ذلك قالوا : « ما مَدَحْنَا

من هَجَا الأنصار » . وأنكروا قولَه ، وعُوتِبَ على ذلك ، فقال يمدحُ الأنصار :

من سرَّه كرمُ الحياة فلا يزل ... فى مِقْنَبٍ من صالحى الأنصار
الباذلين نفوسَهم لنبيِّهمُ ... عندَ الهيَاج وسطوةِ الجبّار
والناظرين بأعْيُنٍ محمرَّة ... كالجمر غيرَ كليلة الإبصار
والضاربين النَّاسَ عن أديانهم ... بالمشرفىِّ وبالقَنَا الخطّار
يتطهَّرُون يرونه نُسُكًا لَهُم ... بدماءِ من عَلِقوا من الكفّار
صَدَمُوا الكتيبة يومَ بدرٍ صدمةً ... ذلَّت لوَقْعَتها رقابُ نِزار

وعرقوبٌ الّذى عناه كعبٌ رجلٌ من الأوس ، كان وَعَدَ رجُلًا تمر نخلة . فلمّا أطلعَت أتاه ، فقال : « دَعْها حتى تُلقِح » ، فلما أَلْقَحَتْ أتاه فقال : « دَعْها حتّى تُزْهِى » ، فلما أَزْهَت أتاه فقال : « دعها حتّى تُرْطِب » ، فلما أرطبت أتاه فقال : « دعها حتى تُتْمِر » ، فلما أتمرَتْ غدا عليها ليلًا فقطعَها . فضرب به المَثَلُ فى الُخلف ، وفى ذلك يقولُ الشمّاخ :

وواعَدَنى ما لا أحاوِل نَفْعَه ... مواعيدَ عُرقوبٍ أخاه بيثرب

وفيه يقول المتلمِّس :

من كان خُلفَ الوعد شيمتَهُ ... والغدرَ عُرقوبٌ له مَثَل

وقيل : إن كعباً أنشَد القصيدة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى المسجد الحرام، لا فى مسجِد المدينة . وقائلُهم الذى عناه فى قوله : « فى فِتيةٍ من قُرَيْشٍ قال قائلهم » هو عُمر بن الخطاب رضِىَ الله عنه .

كعب المخبَّل

رجلٌ من قَيْس ، كانت عنده ابنةُ عمٍّ له ، وكانت من أحبِّ الناس إليه فخَلَا بها ذاتَ يَوْم ، فنظَر إليها وهي واضِعَةٌ ثيابَها ، فقال لها : « يا أمَّ عَمْرو ، هل تَرَيْنَ أنّ الله عزّ وجلّ خلق أحسنَ منك ؟ » قالت: « نعم أختي أحسنُ منّي » ، قال : « فإنّي أحبُّ أن أنظُرَ إليها » ، قالت : « إن عَلِمَتْ بك لم تخرج ، ولكن كُنْ من وراءِ السِّتر » . ففعل ، وأرسَلَت إليها فجاءَتها . فلما نَظَر إليها عَشِقها ، وانتَظَرها حتى تروّحت إلى أهلها ، فمارضَها وشكا إليها حبّه ، فقالت له : « يا ابنَ عمّ ، ما وجدتَ من شيء إلا وقد وَقَع لكَ في قَلْبي أشدُّ منه » . وعادت مرّةً أخرى ، فأتتهما أمُّ عمرٍو وهما لا يَعلمان ، فرأتهما جالِسَين . فمضت إلى إخوتِها . وكانوا سَبْعَة ، فقالت: « إمّا أن تزوِّجُوا ميلاء كعباً وإمّا أن تكفُوني أمرَها » . وبلغه الخبرُ ووقوفُ إخوتِها على ذلك ، فرمى بنفسِه نحو الشام حياءً ؛ وكان منزِلُه ومنزلُ أهلِه الحجاز ، فلم يَدْرِ أهلُه ولا بنو عمِّه أينَ ذهب . وقال كَعْب :

أفي كلِّ يومٍ أنتَ من لاعجِ الهوى ... إلى الشمِّ من أعلامِ مَيْلاء ناظرُ

بعَمْشاءَ من طولِ البكاء كأنّها ... بها خَزَرٌ أو طرفُها متخازِر

تمنّي المنى حتّى إذا ملّت المنى ... جرَى واكفٌ من دمعها متبادِرُ

كما ارفَضّ سِلكٌ بعد ما ضُمّ ضمة ... بخيطِ الفتيـل اللؤلُؤُ المتناثِر

فروَى هذا الشِّعرَ عنه رجلٌ من أهل الشام . ثم خرج ذلك الشاميُّ يريدُ مكّة ، فاجتاز بأمِّ عمرو وأختِها ميلاء ، وقد ضلّ عن الطريق ، فسلّم عليهما ثم سألهما عن الطّريق ، فقالت أمُّ عمرو : « ياميلاءُ ، صِفي له الطريق » . فذكَر لما نادَتْ ميلاء شعرَ كَعب ، فتمثّل به وأنشد :

أفى كلِّ يومٍ أنت من لاعجِ الهوى ... إلى الشمِّ من أعـــلام مَيْلاءَ ناظر

فعرَّفت أمُّ عمرو الشعر ، فقالت : يا عبدَ الله ، من أينَ أقبلت ؟ » قال : « من الشَّام » ، قالت: « ممَّن سمعتَ هذا الشِّعر ؟ » قال: «أنشدنيه رجل من أهل الشام» ، قالت : « أتدرى ما اسمُه ؟ » قال : « سمعتُ أنَّه كعب » . قالت : « فأقسمنا عليك ألا تبرحَ حتى تسمع إخوتُنا قولَك، فتحسنَ إلينا[1] نحن وهم ، فقد أنْعَمْتَ علينا » . فقال : « أَفْعَـلُ ، وإنى لأروِى له شعراً آخرَ ، فما أدرى أتعرفانِه أم لا ! » فقالت : « أسألُك بالله إلّا أسمعتَنا ما سمعتَه منه » . فأنشد :

خليلىَّ قد رمتُ الأمورَ وقِستُها ... بنفسى و بالفتيانِ كلَّ زمان

فلم أخْفِ سرًّا للصديق ، ولم أجد ... خليًّا ولا ذَا البثِّ يستويان

من النَّاس إنسانانِ دَيْنى عَلَيْهما ... مليَّان لو شاءا لقـــد قَضَيانى

خليـــلىَّ أمَّا أمُّ عمرو فمنهما ... وأما عَنِ الأخرى فلا تسَلانى

بُلينَا بهجرانٍ ولم أرَ مثلَنَـا ... من النَّاس إنسانان يهتجران

أشدُّ مصافاةً وأبعـدُ من قِلًى ... وأعصَى لواشٍ حين يكتنفان

يحدِّثُ طَرْفانَا بما فى صُدُورِنا ... إذا استعْجَمت بالمنطِق الشَّفَتان

فوالله ما أدرى أكلُّ ذوى الهوى ... على ما بِنَا أم نحن مُبْتَلَيان

فلا تعجَبا مما بى اليومَ من هوًى ... ففى كلِّ يوم مثـــلُ ما تريان

خليلىَّ عن أىِّ الذى كان بينَنَا ... من الوَصل أم ماضى الهوى تسَلانى

خليـــلىَّ لا والله مالى بالذى ... تريدانِ من هَجْرِ الحبيب يدان

فنَزَلَ الرجلُ ووضَع رَحْلَه ، حتَّى جاء إخوتُهما فأخبرَاهُما الخبر ، وكانوا مُغْتَمِّين لـكَعب ، لأنّه ابنُ عمِّهم وأشعرُهم وأظرفُهم . فأكرموا الرجل وحملوه على راحلة . ودلّوه على الطريق . وطلبوا كعباً فوجدُوه بالشام . فأقبلوا به حتّى إذا كانوا فى ناحية

(١) فتحسن إليك ، الأصول .

مال لأهلهم ، إذا الناس قد اجتمعُوا عند البيوت . وكان كعبٌ ترك ابناً له صغيراً ، فوجّهوه فى ناحية المال ، فقال له كعب : « ويحك يا غُلَيِّم ! من أبوكَ ؟ » قال « رجلٌ يقال له كعب » ، قال : « وعلى أيِّ شيء اجتمع الناس ؟ » وأحسَّ قلبُه الشرَّ ، قال: « قد اجتمعُوا على خالَتى مَيْلاء » . قال : « وما قصّتُها ؟ » قال : « ماتَتْ فزَفَرَ زفرةً مات منها مكانَه ، فدُفِنَ حذاء قبرها .

كان الذى هاجَ الواثقَ على القبض على أحمدَ بن الخصيب وسليمانَ بنِ وهب أنه غُنِّى :

مِن الناس إنسانان دَيْنى عليهما مليَّان لو شاءا لقد قضَيانى
خليلىَّ أمـا أمُّ عمرو فمنهُما وأما عن الأخرى فـلا تَسَلَانى

فدعا خادماً للمُعْتصم فقال له : « أصْدُقنى وإلا ضربت عُنُقَك » ، قال : « سَلْ يا أميرَ المؤمنين عمَّن شئت » . قال « سمعتُ أبى ـ وقد نَظَرَ إليك ـ يتمثَّل بهذين البيتين ، ويومىءُ إليك إيماء تعرفه ، فمَنْ اللّذان عناهما ؟ فقال : « كان وقف على إقطاع أحمدَ بن الخصيب وسُلَيمان بنِ وهب ألفى ألف دينار ، فكان كلَّما رآهما تمثَّل بهذين البيتين » . فقال : « صَدَقْتَنى والله لا سَبَقانى كما سَبَقاه » . ثم أوقع بهما .

نظر الواثقُ يوماً إلى أحمد بن الخصيب وهو يمشى ، فتمثَّل « مِنَ الناس إنسانان دَيْنى عليهما » وأنشد البيتين ، وأشار إلى أحمدَ بن الخصيب بقوله : « خليلىَّ أما أمُّ عمرو فمنهما » . فبلغَ ذلك سليمانَ بن وهب فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون . أحمدُ ابن الخصيب والله أمُّ عمرو ، وأنا والله الأخرى » . قال: فنكبَهُما بعد أيام يسيرة .

كانت الخلافةُ أيام الواثقِ تدور على إيتاخ وكاتبه سليمان بن وهب ، وعلى أشناس وكاتبه أحمدَ بن الخصيب . فعمل الوزير محمَّد بنُ عبد الملك الزَّيات قصيدةً وأوصلَها للْواثق على أنها لبعض أهل العسكر ... وهى :

ياابنَ الخلائفِ والأملاكِ إن نُسِبُوا حُزْتَ الخلافة عن آبائك الأُوَل

وَلّيتَ أربعةً أمر العِبــاد معــاً ... وكلُّهم حاطِبٌ فى حَبْل مُحتبِــل
هــذا سليمانُ قد مَلّــكتَ راحتَه ... مشارِفَ الأرضِ من سَهْلٍ ومن جَبَل
ملّــكْتَه الهندوالشِّحْرِ من عدن ... إلى الجزيرة والأطرافَ من ملل
خلافةٌ قد حواها وحــــدَه فمضتْ ... أحــكامُه فى دماءِ القوم والنَفَل
وابن الخصيب الذى ملّــكت راحتَه ... خلافةَ الشــام والغارين والقفل
فنيلُ مصرَ وبحرُ الشام قد جريَا ... بمـا أراد من الأموال والحُـلل
كأنّهم بالذى قسَّمت بينَهـــم ... بنُو الرشيد زمانَ القسم للدول
أصبحتَ لا ناصرٌ يأتيك مُستَتِراً ... ولا علانيــةً خوفاً من الحِيَـل
ســل بيتَ مالِك أين المالُ تعرفُه ... وسلْ خَراجك عن أموالِك الجُمل
كم فى جيوشِك أسرى لا ذنوب لهم ... أسرى التــكرب فى الأقياد والــكبل
سُمِّيتَ هارونَ إذ سمِّى الرشيدُ به ... قِس الأمورَ لــكى تنجو من الزلل
عِشْ فيهم مثلَما عاشت يدَاه معاً ... على البرامِك فى التهــديم للقُلَــل

فلما قرأ الواثقُ الشعر غاظَه، وبلغَ منه، فنــكبَ سُلَيمان بنَ وهب وأحمــدَ ابنَ الخصِيب، وأخــذَ منهُما ومن أسبابهما ألفَىْ ألفِ دينار. وكان أحمدُ ابن أبى دؤاد حمـــلَ الواثقَ على الإيقاع بابنِ الزيّات، وأمر علىَّ بن الجهم فقال فيــــه:

لعبــائنُ الله موفّراتِ ... مصبّحــاتٍ ومهجّراتِ
على ابنِ عبــد الملك الزّيّاتِ ... عرِّض شملَ المُلك للشتاتِ
يرمى الدواوينَ بتوقيعاتِ ... معقَّــداتٍ غــيرِ مفهوماتِ
أشبهُ شىء برُقَى الحيّــاتِ ... تخالُها بالزّيت مدهوناتِ
بعد رُكُوب الطَّوْف فى الفرات ... وبعد بَيْع الزّيت بالحيّات
صرتَ تبارِى قاضىَ القُضاة ... سبحانَ من جلَّ عن الصفاتِ

هارونُ يا ابن سيِّد الساداتِ أما ترى الأمورَ مهمَلات
تشكو إليك عدم الكُفاتِ

فهمّ الواثق بالقبض على ابن الزيات ، وقال : « صدق قائلُ هذا الشعر ، ما بقى لنا كاتبٌ كافٍ » . فطرح نفسَه على إسحاقَ بن إبراهيم ، وكانا مجتمعَين على عداوةِ ابن أبى دؤاد . فقال للواثق: « مثلُ ابنِ الزيّات مع خدمته وكفايتهِ يُفعَل به هذا ؟ ولا جَنَى عليك ولا خانك ، وإنما دلَّك على خَوَنةٍ أخذتَ منهم ما اختانوه . وبعد، فلا ينبغى لك أن تعزِلَ أحداً حتى تُعِدّ مكانَه جماعةً يقومون مَقامَه ، فمن لك يقوم مقامه ؟ » فمحا ما كان فى نفسه ورجع إليه . وكان إيتاخُ صديقاً لابن أبى دؤاد ، فكان يغشاه كثيراً ، فقال بعض كتاب إيتاخ له : « إن ابنَ أبى دؤاد بينه وبينَ الوزير ما تعلم ، وهو يجىء إليك دائماً ، ولا نأمن أن يظنّ بك ممالأة عليه » . فعرف ذلك ، فلما دخل ابنُ أبى دؤادٍ عليه خاطبه فى هذا المعنى ، فقال له أحمد : « والله ما أجىء إليكَ متعزِّزاً بك من ذلَّة ، ولا متكثِّراً من قلَّة ، ولكن أمير المؤمنين رتَّبك رُتْبةً أوجدت لقاءك ، فإن جئناك فلَه ، وإن تأخَّرنا عنك فلَك » . ثم خرج من عنده ، فلم يعُد إليه .

كليب بن ربيعة

كان كُلَيبٌ قد عزَّ وساد فى رَبيعة ، وبَغَى بَغْياً عظيما ، فكان هو الذى يُنزِلهم منازلهم ويرحِّلهم ، فلا ينزِلُون ولا يَرْحلون إلا بأمره . فبلغ من عزِّه وبغيه أن اتَّخذ جِرو كلْب ، فكان إذا نزَل منزلًا فيه كلأٌ قذفَ ذلك الجروَ فيه فيَعْوِى ، فلا يرعى أحدٌ ذلك الكلأَ إلا بإذنه . وكان يفعلُ ذلك بحياض الماء ، فلا يردُها أحدٌ إلا بإذنه أو مَنْ آذن بحَرب فضُرِب به المثلُ فى العزّ ، فقيل : « أعزُّ من كُلَيْبِ وائل » . وكان يَحْمِى الصيد فيقول : « صَيْدُ ناحيةِ كذا وكذا فى جِوارى ، لا يصيد أحدٌ منه شيئاً » . وكان لا يمرُّ بين يدَيه أحدٌ إذا جلَس ، ولا يُحْتَبِي أحدٌ فى مجلسه غيره . فقتَله جسّاس بن مُرّة . وكان لمرَّةَ بن ذُهل بن شَيْبان بن ثَعلبة عشرةُ بَنِين ، جسّاسٌ أصغرُهم وكانت أختُه عند كلَيب . وأم جسّاس هَيْلة بنتُ مُنقِذ بن سُلَيمان ابن كَعب بن عَمرو بن سَعد بن زَيْد مَناة ، ثم خلف عليها سَعدُ بن ضُبَيعة بن قَيس ابن ثعلبة بن مرّة بن ذُهل فولدت له مالكاً وعوفاً وثَعْلبة. قال فِراسُ بن خَنْدق[1] البَسُوسىّ : فهى أمُّنا .

وخالة جسّاس البَسُوس ، وهى التى يقال لها: أشأمُ من بسُوس . فجاءتْ فنزلَتْ على ابن أختِها جسّاس ، وكانت جارةً لبنى مرّة ، ومعها ابنٌ لها ، ولهم ناقة خوّارة من نَعَم بنى سَعد ، ولها فَصِيلٌ معها. وقد كان كُلَيبٌ قبل ذلك قال لصاحبته أختِ جسّاس : « هل تعلمينَ على الأرض عربيًّا أمنع منى ذمّة ؟ » فسكَتَتْ ، ثم أعادَ عليها فسكَتَتْ ثم أعادَ الثالثة فقالت : « نعم أخى جسّاس وندمانه[2] ابن عمه عمرو ،

---

(١) خندق ، الأغانى (عن بعض أصوله) : خندف، سائر الأصول .

(٢) ندماه ، المخطوطتان .

المزدلف[١] بن أبي ربيعة بن ذُهل بن شَيْبان . وقيل : إن امرأتَه أختَ جسّاس بينا هي تَغْسل رأسَ كُلَيب وتسرِّحه إذ قال لها : « من أعزُّ وائل ؟ » فصمَتَتْ فأعادَ عليها ، فلما أكثر قالَت : « أخواي جسّاس وهمّام » . فنزع رأسَه من يَدِها ، وأخذ القوْس فرمى فصيلَ ناقةِ البسُوس ، خالة جسّاس وجارةِ بنيمرّة فقتَله، فأغمضوا على مافيها[٢] . وسكتوا على ذلك[٣] . ثم لقي كليباً ابنُ البسوس ، فقال : ما فعل فصيلُ ناقتكم ؟ قال : « قتلتَه وأخْلَيتَ لبَن أمِّه » . فأغمَضُوا على هذه أيضاً . ثم أعاد كليبٌ على امرأته فقال : « من أعزُّ وائل ؟ » قالت : أخواي . فأضْمَرَها وأسرَّها في نفسه وسكت ، حتى مرَّت به إبلُ جسّاس ، فرأى الناقَةَ فأنكرها، فقال ماهذه الناقة ؟ » فقالوا : « لخالةِ جسّاس » . قال : « وقد بلَغ من أمرِ ابن السَّعدية ما إنْ يُجير على بغيرِ إذني ! ارم ضَرعها يا غُلام ، » ، فأخذ القوسَ فرمى ضَرْعَ الناقة ، فاختلط دَمُها بلبنِها . وراحَتْ الرُّعاة إلى جسّاس ، فأخبرَتْه بالأمر ، فقالوا : احلبوا لها مكيالى لبن بمحلبها[٤] ، ولا تذكروا لها من هـــذه شيئاً . ثم أغمضوا عليها أيضا ، حتّى أصابتْهم سَماء ، فغدا غِبَّها[٥] يتمطّر ، وركب جسّـاس بن مرّة وابنُ عمِّه عمرُو بن الحارث بن ذُهل وقيل: بل عمرُو بن أبي رَبيعة . فطعن عمرُو كليباً فقصم ظهرَه، وقيل: بل سَكَتَ جسّاسٌ حتى ظَعَن ابنا وائِل ، فمرَّت بكرُ بن وائل على نهى[٦] يقال له شُبَيْث ، فنهاهم كليبٌ عنه وقال : « لا تذوقوُا منه قطرة » . ثم مرُّوا على نهى[٦]

---

(١) والمزدلف . المخطوطات .

(٢) ما فيه ، الأغاني .

(٣) على ذلك ، الأغاني : على ، ساقطة في المخطوطات .

(٤) مكيالى محلبها ، كوبريلي ، مكيالى ، المخطوطتان .

(٥) غبها : عليها ، المخطوطات .

(٦) ماء ، المخطوطتان .

يقال له الأحَصّ ، فنهاهم عنه وقال : « لا تذُوقوا منه قطرة » . ثم مرُّوا على بَطن الجَرِيب ، فمنعهم منه ، فمضُّوا حتّى نزلوا الذنائب واتَّبعهم كليبٌ وحيُّه حتى نزلُوا عليه، ثم مرّ عليه جسّاسٌ وهو واقِفٌ على غَديرِ الذّنائب، فقال: « طرَدْتَ أهلَنا عن المياه حتّى كدت تقتلَهم عطشاً، فقال كليب: «ما منعناهم عَن ماءٍ إلَّا ونحن له شاغِلون»، فمضى جسَّاسٌ ومعه ابنُ عمِّه المزدَلِف، وقيلَ : بل نادَاه جسّاسٌ وقال : «هذا كفِعْلِكَ بناقةِ خالَتِي» فقال : « وقد ذكرتَها ! أما إنى لو وَجَدْتُها فى غيرِ إبلِ مُرّةَ لاستَحلَلْتُ الإبلَ بِها » . فعطفَ عليه جسّاسٌ فرسَه ، فطعنَه بالرمح ، فأنفذ حِضْنَيه [1] فلما تداءَمَه [2] الموت قال : « يا جسّاس ، اسقِنى مِن الماء» [3]. قال : ما عَقَلْتَ استِسْقاءَكَ الماءَ منذُ ولدَتْكَ أمُّك إلا ساعتَك هذه » فعطف عليه المزْدَلِف عمرو [4] بن أبى ربيعة فاحتزّ رأسه . وقيل : إن عَمْرو بنَ الحارث بن ذُهل هو الذى طَعنَه ، فقصَم صُلْبه ، وفيه يقول مُهَلهِل :

قتيـلٌ ما قتيلُ المرْءِ عمرٍو وجسَّاسِ بن مَرّةَ ذُو ضَريرِ

وقال العبَّاسُ بن مِرداس السُّلَمىّ يحذِّر كُلَيْبَ بن عَهْمَة السُّلَمىّ ثم الظَّفَرى لما مات حَربُ بن أميّة ، وخَنَقَت الجنُّ مِرداساً ، وكانوا شُرَكاءَ فى القرْية ، فجحَدَهم كليبٌ حظَّهم منها ، فحذَّره غبَّ الظلم :

أكليبُ مالكَ كلّ يوم ظالماً والظلمُ أنـكَدُ وَجْهُه ملعونُ
فافعَلْ بقومِك ما أرادَ بوائلٍ يومَ الغَدِيرِ سَمِيُّـك المَطْعُون

ومَقتلُ كُـلَيب بالذنائب من يَسار فَلْجة مُصْعِداً إلى مكّة ، وقبره بالذّنائب ، وفيه يقول مهلهل :

(١) خصيتيه ، المخطوطتان
(٢) بدأ به ، المخطوطات
(٣) اسقنى ماء ، المخطوطتان .
(٤) ابن عمرو ، المخطوطات .

ولو نُبِشَ المقابرُ عن كُلَيْبٍ   فيُخْبَرَ بالذنائبِ أيُّ زيرِ

فلما قتله أمال يدَه بالفرسِ حتّى انتهى إلى أهـله . فتقول أختُه ، حين رأته ، لأبيها : « يا أبتاه ، إنِّى أرى جسَّاساً رُكبتاه خارِجَتان » ، فقال : « والله ماخرجَتا إلّا لأمْرٍ عظيم » . فلما جاء قال : « ما وراءَك يا بنيّ ؟ » قال : « إنِّى قد طعنتُ طَعْنةً ليُشْغَلنّ بها شُيوخ وائلٍ زمناً » . قال :«أقتلتَ كُلَيباً ؟ » قال : « نعم » ، قال : « ودِدتُ أنّك وإخوتَك مِتّم قبلَ هذا ؛ ما بى إلّا أن تتشاءم بى أبناء وائل ».

وقيل: إنّ جسّاساً قال لأخيه نَضْلة بن مرّة ـ وكان يقال له عَضُد الحمار ـ :

إنِّى قد جَنَيتُ عليكَ حرباً   تُغِصُّ الشَّيخ بالمـــاء القَراح

مذكَّرةً متى مايَصْحُ عَنْها   فتًى نَشِبَتْ بآخرَ غيرِ صاحى

تُنَـكِّل عن ذُبَابِ الغَيِّ قوماً   وتدعُو آخرينَ إلى الصَّـــلاح

فأجابه نَضْلة :

فإن تَكُ قـد جَنَيْتَ علىّ حرباً   فـــلا وانٍ ولا رثُّ السلاح

وكان همّام بن مُرّة آخى مُهَلْهِلا أخا كُلَيب بن ربيعة ، وعاهَده ألا يكتُمَه شيئاً : فجاءت أمَةٌ له ، فأسرَّت إليه قتلَ جسَّاس كُلَيباً ، فقال له مهلهل : « ماقالت ؟ » ، فلم يُخبِره . فذكر العهدَ بينهما ، فقال : « أخْبَرَت أنَّ جسَّاساً قتَل كُلَيْباً » . فقال: « اسْتُ أخيك أضيَقُ من ذلك » .

ولمـــا قُتِلَ كلَيب قال بنو تغلب بعضُهم لبعض : « لا تَعْجلوا على إخْوتـكم حتى تُعْذِروا بينَـكم وبينهم» . فانطلق رَهْطٌ من أشْرافِهم وذَوِى أسنَانِهم[1] حتى أتوا مرّة بن ذُهل فعظّموا ما بَيْنَهم وبَيْنه ، وقالوا : « اختر منّا خِصالًا ، إمَّا أن تدفع إلينا جسَّاساً فنَقْتُلَه بصاحِبنا ، فلم يَظلم مَن[2] قتل قاتِلَه ، وإما أن تدفَع إلينا همَّاماً ،

(١) آرائهم ، المخطوطتان

(٢) فلم نظلم فى ، المخطوطات .

وإما أنْ تُقِيدَنا من نَفْسِك » . فسكتَ وقد حَضَرَتْه وجوهُ بَكر بن وائل فقالوا : « تكلَّم غيرَ مَخْذول . فقال : « أمَّا جَسَّاس فإنّه غلامٌ حديثُ السنِّ ، ركِبَ رأسَه ، فهربَ حينَ خاف ، ولا علمَ لى به . وأما همَّام فأبو عَشْرة وأخُو عَشرة ، فلو دَفَعْته إليكم لضجَّ بنوه فى وَجْهى وقالوا : دفعتَ أبانا ليُقتَل فى جريرةِ غيره . وأما أنا فلا أتعجَّل الموت ، وهَلْ تَزيدُ الخيل أن تجولَ جَوْلَة ، فأكونَ أوّل قتيل ، ولكن هَلْ لكم فى غيرِ ذلك ؟ هؤلاء بَنِيَّ فدونكم أحدَهُم فاقتُلوه به ، وإن شئْتُم فلكم ألفُ ناقة ، تَضْمَنها لكم بكرُ بنُ وائل » . فغضِبوا وقالوا : « إنا لم نأتك لتُرْذِل[1] لنا بَنِيك، ولا لتسومَنا الإبل . فتفرَّقوا ، ووقعَت الحرب . وتكلَّم فى ذلك الحارثُ[2] ابن عُبَاد ، فقال : « لا ناقةَ لى فى هذا ولا جَمل » ، وهو أوّلُ من قالَها ، فأُرْسِلَت مثلًا .

وكانت حربُهم أربعينَ عاماً ، فيهن خمسُ وقَعات مزاحَفات . وكانت بينهم مُغَاوَرات . وكان الرجُلُ يلقى الرجلَ ، والرجلانِ الرجلَين ، ونحو ذلك . وكان أوّلُ الأيام يومَ عُنَيزة ، وهو عند فَلجة . فتكافأوا فيه ، لا لبكرٍ ولا لتَغلب . ثم غبروا زماناً ، والتقَوْا يومَ وَارِدَات ، فكانت لتَغْلِبَ على بَكر ، وقتلوا بكراً أشدَّ القتل ، وقتلوا بُجَيرًا . ومصداقُ ذلك قولُ مُهَلْهِل :

كأنَّا غُدْوةً وبنى أبِينا ... بجَنْبِ عُنَيزةٍ رَحَيا مُدير
وإنِّى قد تركتُ بواردات ... بُجَيْرًا فى دَمٍ مثل العَبير
هتكتُ به بيوتَ بنى عُبادٍ ... وبعضُ الغَشم أشفَى للصدور

ثم انصرَفوا بعدَ يوم واردات غيرَ بنى ثعلبه بن عكابة . ورأَّسُوا عليهم الحارثَ ابن عباد ، فاتَّبعتهم بنو ثعلبة حتى التقَوْا بالحِنو فظهرتْ بنو ثعلبة على بنى تغلب .

(١) لتبذل ، المخطوطتان .
(٢) عندالحارث، الأغانى.

ثم التقَوْا يومَ بطن السَّرو ، وهو يوم القصبات(١) فكانت لبنى تغلب على بنى بكر ، حتَّى ظنَّت أن سيقتلونها . وقتلوا يومئذ همّامَ بن مُرَّة . ثم يومَ قِضَة ؛ وهو يومُ التحالُق ، ويوم الفَصِيل لبكرٍ على تَغلب . قال فأتبعت تغلبُ بكراً حتَّى مالوا لبطن الحمار ، فوردَتْ بكرٌ قِضَة ، فسقَت ، واستقت ، ثم صَدَرت ، وحَلَّئوا تغلب ونهضوا فى لحفة لها ، وهى مضيق موثبة ، لا يجوزُ فيها إلا بعيرٌ واحد خَلْف بعير ، فلَحِقَ رجلٌ من الأَوْس بن تغلب بغُلَيِّم من بنى تَيْم اللاّت ، يطرُد ذوداً له ، فطعنه فى بطنه بالرّمح ، ثم رَفَعه فقال : « تحدّ بى أمّ البوّ على بوّك » فرآه عَوْفُ بن مالك ابن ضُبَيْعَة بن قيس بن ثعلبة ، فقال : « قدِّموا جَمَل أسماءَ — يعنى ابنته — فإنه أمْضَى جِمالِكم ، وأجودُها منفذاً ، فإذا نفذ تَبِعته النَّعَم » . فوثَبَ الجمل فى الموثبة ، حتَّى إذا نَهضَ على يدَيْه وارتفعت رجلاه ضَرَبَ عُرقوبه ، وقَطَع بِطانَ الظَّمينة ، فوقعَ وسدَّ الثنيَّة ، ثم قال عَوْف « إنا البُرَكُ ، أبرُكُ حيثُ أدرك » . فسمِّى البُرَك . ووقع الناس إلى الأرض ، لا يَرَوْن مجازاً ، وتحالقوا لِتَعرِفَهُم النِّساء . فقال جَحْدر ابن رَبيعة ابن قيس ، أبو المسامعة(٢) ، واسمُه ربيعة ، وإنَّما سمِّى جحدرا لقِصَره : « لا تحلِقُوا رأسى ، فإنِّى رجلٌ قَصير ، لا تَشِينونى ، ولكنى أشتريه منكم بأوّل فارسٍ يطلُع عليكم من القوم » . فطلع ابن عَنَاق ، فشدَّ عليه فقتله . فقال رجلٌ من بكرِ بن وائل يمدَح مِسمَع بن مالك :

يا ابنَ الذى يوم حلقْنا اللِمماَ ... ابتاعَ منَّا رأسه تكرُّما

بفارسٍ أوّلِ من تقدَّما

وكان جَحْدَرُ يرتجز ويقول :

ردُّوا علىَّ الخيلَ إن ألمّتِ ... إن لم أُقاتِلْهم فجُزُّوا لِمّتى

---

(١) القصيبات ، الأغانى .

(٢) المسامعة ، الأغانى : المسامع ، المخطوطات .

وزعم عامرُ بن عبد الملك المِسْمَعى أنه لم يَقلْها ، وأن صخرَ بنَ عامر السُّلَمى قائلُها . فقال مِسمَع : « كذب عامر » . وقيل إنَّهم قالوا : « اتَّخِذوا علماً يعرفُ به بعضُكم بعضاً » . فتحالقُوا وفيه يقول طرَفة :

سائلوا عنَّا الذى يعرِفُنَا بقوانا(١) يومَ تَحلاق اللِّمم

يوم تُبْدى البِيض عن أسوقها وتلفُّ الخيل أعراجَ النعم

وقيل : إن همَّامَ بن مرَّة بن ذُهل بن شَيبان لم يزلْ قائدَ بَكرٍ حتى قُتِل يوم القصيبات ، وهو قبل يوم قِضَة . وكان من مَقْتَلِ همَّام أنه وجد غلاماً مطروحا ، فالتقَطه وربّاه ، وسمّاه : ناشِرة . فلما شَبَّ إذا هو من بنى تَغْلب . فلما التقَوا يوم القصيبات جعل همّام يقاتل ، فإذا عَطِش رَجَع إلى قِربةٍ فشَرِب منها ، ثم وَضَع سلاحه فوجدَ ناشِرةُ من همَّام غِرَّة ، فشدَّ عليه بالعَنَزة ، فأقصدَه فقتَله ، ولحق بقومه بنى تَغلب ، فقال باكى همّام :

لقد عيَّل الأقوامَ طعنةُ ناشِرٍ أناشِرُ لا زالت يمينُك آشِرة

أى مقطوعة . ثم قتل ناشِرةَ رجلٌ من بنى يشكُر .

وكان رئيسُ بكر بعد همّام الحارثَ بن عباد . وكان الحارثُ قد اعتزَل لما قُتِل كُلَيب ، واستعْظَم ذلك — لسُؤدده — فى ناقة . فلما أُخِذَ بُجير بن عمرو بن مرّة ، ابن أخى الحارث بن عُباد بواردات — وإنَّما أُخِذَ سلَّة ولم يؤخذ فى مزاحَفة — قال له مُهَلْهِل : « من خالُك يا غلام ؟ » قال : امرؤ القَيْس بنُ أبان التغلَبى لمهلهِل : إنِّى أرى غلاماً ليقتلَنّ به رجل ، لا تسألْ عن خاله ، وربما قال لا تسأل عن حاله . وكان امرؤ القيس هو المقتولُ به ، قتله الحارثُ بن عُباد يوم قِضَة بيده ، فقتله مُهَلهِل . فلما قتل مُهَلْهِلٌ بُجَيْراً قال : « بُؤْ بشِسْعِ نعل كُلَيب » ، فقال الغلام : « إن رَضِيَت بذلك بنو ضُبَيعة بن قَيْس رضيتُ » . فلما بلغ الحارثَ بن عباد قتْلُ

(١) بوفانا ، المخطوطتان .

بجير ابن أخيه ـ وقيل بل كان بجيرٌ ابنه ، أعنى ابن الحارث بن عُباد ـ قال : « نعم الغلامُ غلامٌ أصلَح بين ابنَى وائل وباء بكليب » فلما سمِعوا قول الحارث قالوا له : إن مُهَلْهِلًا قال لما قتله : بُؤْ بِشِسْع نَعل كُلَيب ، وقال مهلهل :

كلُّ قتيلٍ فى كُلَيْبٍ غُرَّه حتّى ينالَ القتلُ آل مرة »

فغضِبَ الحارثُ عندَ ذلك ، فنادى بالرَّحيل وقال :

قرِّبَا مَرْبِطَ النَّعامةِ منِّى لَقِحتْ حربُ وائلٍ عن حِيال

لا بُجَيْرٌ أغْنَى قتيلاً ولا رهـ طُ كُليبٍ تزاجَروا عن ضلال

لم أكُن من جُناتِها علِم اللّـ ـه وإنى بحرِّها اليومَ صالى

وقيلَ : إنَّ أوَّلَ فارسٍ لقى مهلهلاً يوم وَاردات بُجَيْرُ بن الحارث بن عُباد ، فقال : « من خالُك ياغلام ؟ » وبوَّأ نحوه بالرمح ، فقال له امرؤ القيس بن أبان التغلبى ـ وكان على مقدِّمتهم فى حروبهم ـ : « مهلاً يا مُهَلهل ، فإن عمَّ هذا وأهلَ بيتِهم قد اعتزلوا حربَنا ، ولم يدخلوا فى شىء مما نكره ، ووالله لئن قتلتَه ليقتلَنَّ به رجلٌ ولا يسأل عن نسبه » . فلم يلتفِت إليه مُهَلهِل ، وشدَّ عليه فقتلَه ، وقال : « بُؤْبشِسْع نَعْلِ كُلَيب » . ثمّ غَبَروا زماناً ، ثمّ لقى همّامَ بن مرّة فقَتَله أيضا ؛ فقيل للحارث بن عباد : قَتَلَ مُهَلْهِل همّاما ، فغضب وجدَّ فى قتالهم .

وكان الحَكَمُ فى بكر بن وائل يومَ قِضَة الحارثَ بنَ عُباد . وكان الرئيسُ الفندَ ، وكان فارسُهم جَحْدرَ ، وكان شاعرُهم سعدَ بن مالك بن ضُبَيعة . وكان الذى سدَّ الثنية عوفَ بن مالك . ولقى الحارثُ مُهَلْهِلاً فأسَرَه وهو لا يعرفُه ، فقال : « دُلَّنى على مهلهل » ، قال : « ولى دمى ؟ » قال : « ولك دَمُك » ، قال : « ولى ذِمَّتُك وذمّةُ أبيك ؟ » قال: « ذلك لك » . قال: « فأنا مُهَلهل » . قال : « فدُلَّنى على كُفْءٍ لبُجَير » ، قال « لا أعلمُه إلّا امرأَ القَيْس بن أبان ، هذاك عَلَمه » ، فجزَّ ناصيتَه ، وقصَد امرأَ القيس ، فشدَّ عليه فقتله ، وقال الحارث فى ذلك :

لَهْفَ نفسى على عدِىٍّ ولم أعـ ... رِفْ عدِيًّا إذ أَمْـكَنتنى اليدَان
طُلَّ من طُلَّ فى الحروب ولم أو ... تِرْ بُجَيْراً أبأتُه بنَ أبان
فارسٌ يضرب الـكتيبة بالسَّيـ ... ـف وتسمُو أمامَـه العينَان

وقيل إن مَهَلْهلاً قال : « لا والله ، أو يعهدَ لى غـيرُكَ » قال له الحارث : « اخْتَر من شِئت » ، قال : « خِيارى الشَّيخُ القـاعِد عَوْفُ بن مُحلِّم » . فقال الحارث : يا عَوْفُ أجِره » ، قال : لا ، حـتَّى يقعد خَلْفى » ، فأمره أن يقعد خلفه . فقال : « أنا مُهَلْهِل » ، وشدَّ عليهم جَحْدر ، فاعتوَرَه عمرُو وعامر فطعن عمراً بعالِية الرُّمح ، وعامراً بسافِلته، فقتلهماوجاء ببزّهما ، فلما رجع مُهَلهِل بعدَ الوَقعة والأسْر إلى أهلِه ، جعل الوِلدانُ يستخبرونه والنساء عن أهلِيهم وأبنائِهم وأقاربهم ، فقـال :

ليسَ مِثلى يخبِّرُ الناسَ عن آ ... بائِهم قتِّلـوا وينسَى القتالا
لم أرِمْ عَرصَة الـكتيبةِ حتى انْـ ... تَعَلَ الوردُ من دِماء نعـالا
عرفتْه رِماحُ بـكرٍ فما يأ ... خُذْنَ إلا لَبانَهُ والقَذالا
غلبونَا ولا محـالةَ يوماً ... يَغْلِبُ الدهرُ ذاك حالاً فحالاَ

ثم خرج حتى لَحِق بأرضِ اليمن ، فـكان فى جَنْب ، فخطب إليه أحدُهم ابنتَه فأبى أن يفعَل ، فأكرهوه فأنـكَحها إيّاه . وقال مهلهل فى ذلك :

أنـكَحَها فقدُهـا الأراقمَ فى ... جَنْبٍ وكان الحِباءُ من أدم
لو بأبانَين جاء يخطُبها ... رمِّل ما أنفُ خاطبٍ بـدم
هان على تَغْلبٍ بمـا لَقِيت ... أختُ بنى المالِـكين من جُشَم
ليسوا بأكفائنا الـكرامِ ولا ... يُغنون من عَيْلة ولا عـدم

ثم إن مهلهلاً انحدر ، فأخذه عَمْرو بنُ مالك بن ضُبَيعة ، فطلب إليه المحلِّلُ بن

ثَعلبة أن يكون مهلهلٌ عنده . ففعل(١)، وشرب خمرا فلمّا طابت نفسه ، تغنّى فقال :

طَفْلَةٌ ما ابْنَةُ المحلِّل بيضا ء لعوبٌ لذيذةٌ فى العِناق

حتى فرغ من القصيدة . فأدّى ذلك من سَمِعه من مُهلهل إلى عَمْرو ، فحوّله إليه ، وأقسمَ لا يذوقُ عندَه خمراً ولا ماء ولا لبناً ، حتى يَرِدَ ربيبٌ الهضاب (جملٌ كان له وِردُه الخِمسَ فى القَيظ) ، فقالوا له : « يا خَيْرَ الفتيان أرسل إلى رَبيب ولْتُؤتَ به قَبْل وِرده » ، ففعل ، ثم أوْجَرَه ذَنُوبا من ماء . فلما تحلّل من يمينه سَقاه من ماء الحاضِرة وهو أوْبَأ ماء ، فماتَ . فتِلكَ الهِضابُ التى كان يَرْعاها رَبيب ، يقال لها هِضاب رَبيب .

قال مقاتِل : ولم يقاتِل معنا من بنى يَشْكُر ، ولا من بنى لُجَيم ، ولا ذُهل ابن ثَعلبة غيرُ ناسٍ من بنى يَشكر وذُهل ، قاتَلَتْ بأَخَرة . ثم جاء ناسٌ من بنى لُجَيم يومَ قِضة مع الفِند . وفى ذلك يقول سعدُ بن مالك :

إن لجيماً قد أبَتْ كلّها أن يرْفِدُونا رجلًا واحدا
ويشكرٌ أَضْحت على نَأيها لم نسمع العامَ لها حامِدا
ولا بنى ذُهلٍ وقد أصبحوا بها حُلُولًا خلفاً مَاجدا
القائدى الخيلِ لأرض العِدا والضاربينَ الكوكبَ الواقدا

وقالوا جميعاً : مات جسّاسٌ حتفَ أنفه ، ولم يقتل . وقال عامرُ بن عبد الملك : لم يكن بينهم قتلَى تعدُّ ولا تذكر، غيرَ ثمانيةِ نَفَر من بنى تغلب ، وأربعة من بنى بكر، عدّهم مُهَلهِل فى شِعره ، فى قصيدته التى أوّلها :

أليلتنَا بذى حُسُمٍ أنيرى إذا أنتِ انقضَيتِ فلا تحورى

فإنه ذكر فيها أربعةً من بنى بَكر بن وائل ، وفى قصيدتِه التى قال فيها :

طَفْلة ما ابنةُ المحلِّل بيضا ء لَعوبٌ لذيذة فى العناق

(١) نفعل المحلل ، المخطوطات.

فإنه ذكر فيها ثمانيةً من بنى تغلب .

وقيل إن شعرَ مهلهل لا يحتجُّ به ، فإن جَحْدرًا قتل أبا مِكنَف فى يوم قِضة (١)ولم يذكره مُهَلهِلٌ فى شعره ، وقتل حبيبٌ يومَ واردات ، وقتل سعد بن مالك يوم قضة(١) ابن القبيحة ، فلم يذكُرْه . قال عامر : والدليلُ على أنَّ القتلى كانوا قليلين أنّ آباءَ القبائِل همُ الذين شهِدوا تلك الحروب ، فعدُّوهم وعدُّوا بنيهم وبنى بَنِيهم ، فكانوا جُملةً حَوْلَ الخَمْسِمائة . فكم عسَى أن يبلغَ عدّة القتلى ؟ . وكان اسمُ مُهَلهِل عديا ، وقيل : امرؤُ القيس ، وهو ابنُ ربيعة بن الحارثِ بن زُهيرمن جُشَم بن بكر ابن حَبيب بن عمرو بن عثمان بن تَغْلب . ولقب مُهَلهِلا لِطيب شِعره ورقَّته . وكان أحدَ من غُنِّى من العرب بشِعره . وقيل : إنّه أوّلُ من قصَّد القصائد ، وقال الغزل فقيل : قد هَلْهَل الشعر ، أى أرقَّه . وكان أوَّل من كَذَب فى شعره . وهو خالُ امرئِ القَيْس بن حُجر الكندى . وكان فيه جُبْنٌ وبُخل . وكان كثيرَ المحادَثة للنساء . وكان كليبٌ يسمِّيه زيرَ النِّساء . وذلك قول المهلْهِل فى قصيدته التى أوّلها :

* أليلتنا بذى حُسُمٍ أنيرى *

يقول فيها :

فلو نُبِشَ المقابرُ عن كُلَيب لأبصرَ بالذنائب أىَّ زير

وكان آخرُ من قُتِل فى حَرب بَكر وتَغْلب جساسَ بن مرّة ، قاتلَ كليب ابن ربيعة . وكانت أختُ جسَّاس تحت كُلَيب ، وقتله جسّاس وهى حامِل ، فرجَعَتْ إلى أهلها ، ووقع الحربُ بين الفريقين كما ذُكر . ثم صارُوا إلى الموادَعة ، بعد ما كادت القبيلتَان تتَفانيان ، فولدَتْ أختُ جسَّاسٍ غلاماً ، فسمَّته الهِجرِس ، وربّاه جسّاس ، فكان لايَعرفُ له أباً غيرَه ، وزوَّجه لبنته . فوقع بين الهِجْرِس وبين رجل من بنى بكر

---

(١) ولم يذكره مهلهل . . . وقتل سعد بن مالك يوم قضة ، سقط فى المخطوطتين .

ابن وائل كلام(١) ، فقال له البكريّ : ما أنت بمُنتهٍ حتى نُلحقك بأبيك . فأمسَكَ عنه ، ودَخَل على أمّه كئيباً ، فسألته عمّا بِه ، فأخبرَها الخبر . فلما أوَى إلى فِراشه ونام إلى جَنْب امرأتِه ، وضَعَ أنفَه بين ثديها وتنفّس نفَساً تَنَفَّط ما بين ثَدْيَيْها لحرارتِه ، فقامَت الجارية فزِعة قد أقلّتها رِعدَةٌ حتّى دخلَت على أبيها ، فقصّت عليه قِصّة الهِجْرِس فقال جسّاس : « ثائرٌ وربِّ الكعبة » . وباتَ على مثل الرَّضْف حتّى أصبح ، فأرسل إلى الهِجْرِس ، فأتاه فقال له : « إنّما أنت وَلَدِى ، ومنّى بالمكان الذى عَلمتَ ، وقد زَوّجتُك ابْنَتِي وأنت معى ، قد كانت الحرب فى أبيك زماناً طويلا ، حتى كِدْنا نتفانَى . ثم اصْطَلَحنا وتَحاجَزنا ، وقد رأيتُ أن تدخلَ فيما دخَلَ فيه الناس من الصُّلح ، وأن تنطلقَ معى ، حتّى نأخذَ عليك مثلَما أُخِذَ علينا وعلى قَوْمِنا » . قال الهِجْرِس : « أنا فاعِل ، ولكنّ مِثلى لا يأتى قومَه إلا بلأْمته وفرَسِه » . فحمله جسّاس على فرس ، وأعطاه لأْمَةً ودِرعاً . فخرجا حتى أتيا جماعةً من قومهما ، فقصَّ عليهم جسّاس ما كانوا فيه من البَلاء ، وما صاروا إليه من العافيه ثم قال : « وهذا ابنُ أختى ، قد جاء ليَدْخُل فيما دَخَلْتُم فيه ، ويعقِد ما عقَدتم » . فلما قرّبوا الدّم ، وقاموا للعَقد أخذ الهِجْرِس بوَسَط رُمحه وقال : « أمَا وفرسي وأُذُنيه ، ورُمحى ونَصْلَيْه ، وسَيْفى وغِراريه ، لا يترك الرجُلُ قاتلَ أبيه ، وهو ينظر إليه » . ثم طعن جسّاساً فقتله ، ولَحِق بقومه ؛ فكان آخر قتيلٍ فى بكر بن وائل .

وكان جسّاسٌ لما قتَل كليبَ بن ربيعة اجتمع نساء الحىّ للمأتم ، فقُلْنَ لأختِ كُلَيب : « أخرِجى جليلةَ بنتَ مرّة ، أختَ جسّاس عن مأتمِك ، فإن قيامَها فيه شَماتةٌ وعارٌ علينا عند العرب » ، فقالت لها : « اخرُجى يا هذه عن مأتَمِنا ، فأنتِ أختُ واترِنا ، وشقيقةُ قاتلِنا » . فخرجت وهى تجرُّ أعطافَها . فلقيَها أبوها مُرّة ، فقال : « ما وراءكِ يا جَليلة ؟ » فقالت : ثُكْل العَدَد وحُزنُ الأبد وفقدُ خليل ،

(١) كلام ، زيادة عن الأغانى .

وقَتلُ أخٍ عن قليل ، و بَيْنَ ذَيْنِ غَرْسُ الأحقاد ، وتفتيتُ الأكباد » . فقال لها : « أو يَكُفُّ عن ذلك كَرَم الصَّفح ، وإغلاء الديات ؟ » . فقالت : « أمنيَّة مخدوعٍ وربِّ الكعبة! أبا البُدْنِ تَدَعُ لك تغلبُ دمَ ربِّها ؟» « ولما رحلَت جَليلةُ قالت أختُ كُلَيب : « رِحلةُ المعْتَدِي ، وفِراقُ الشامت ويلٌ غداً لآل مُرَّة ، من الكرَّة بعد الكرَّة » . فبلغ قولُها جليلة ، فقالت : « وكيف تَشْمَتُ الحرَّة بهَتْك سِترها ، وترقُّبِ وِترها ؟ أفلا قالت : « نَفْرَةَ الحياء وخَوفُ الاعتداء » ، ثم أنشأت تقول :

يا ابنةَ الأقوام إن شئتِ فلا ... تَعْجَلى باللَّوم حتى تسألى
فإذا أنتِ تبيَّنتِ الذى ... يوجبُ اللَّوم فلومى واعذُلِى
إن تكنْ أختُ امرىءٍ ليمَتْ على ... شِفْوة أجلت عليه فابتلى
جلَّ عندى فِعلُ جسَّاس فيا ... حَسْرتَا عما انجلت أو تنجلى
فعل جسَّاسٍ على وَجْدى به ... قاطعٌ ظهرى ومُدْنٍ أجلى
لو بِعَيْنٍ فُقِئَت عينى سوى ... أختِها فانفقأت لم أحْفِل
تحمِلُ العينُ قذَى العينِ كما ... تحمِلُ الأمُّ أذى ما تفتَلى
يا قتيلاً قوَّضَ الدهرُ به ... سَقْفَ بيتىَّ جميعاً من عَلٍ
هدمَ البيتَ الذى استحدثته ... وانثَنى فى هَدْم بيتى الأوَّلِ
ورمانى قتلُه من كَثَبٍ ... رميةَ المصمِى به المسْتأصِل
يا نِسائى دونكُنَّ اليومَ قدْ ... خصَّنى الدهرُ برُزْءٍ مُعْضِل
خصَّنى قتلُ كُلَيبٍ بلظًى ... من وَرائى ولظًى مستقبِلى
ليسَ من يَبْكى ليومَيْه كمن ... إنَّما يبكى ليومٍ ينجلى
يشتَفِى المُدْرِكُ بالثأر وفى ... دَرَكِى ثأرِىَ ثُكْلٌ مُثكلى
ليتَه كان دماً فاحتَلَبوا ... دِرَرًا منه دَمِى من أكحَلى
إنَّنى قاتِلةٌ مقتولةٌ ... ولعلَّ الله أن يرتاحَ لى

حرف اللام

ليلى الأخيلية

هى ليلى بنتُ عبدالله بن الرحّال ـ وقيل: ابن الرحّالة ـ بن شداد بن كَعْب بن معاوية وهو الأَخْيَل ، وهو فارسُ الهرّار بن عُبادة بن عُقَيل بن كَعْب بن رَبيعة بن عامر ابن صَعْصعة .

وهى من النّساء المقدّمات فى الشعر من شُعَراء الإسلام .

وكان تَوْبةُ بن الحُمَيِّر يهواها ، ويقول فيها الشعر . وخطَبها إلى أبيهـا فأبى أن يزوِّجه إيَّاها ، وزوَّجها فى بنى الأَدْلَع . وكان تَوْبَةُ إذا أتى ليلى خَرَجت إليه فى برقع فلما شُهِر أمرُه شكَوه إلى السّلطان، فأباحَهم دمَه إن أتاهم فـكمَنُوا له فى الوضِع الذى يلقاها فيه . وكان زوجُها غيوراً ، فحلف إن لم تعلمْه بمجيئِه ليقتلنَّها ، ولئن أنْذَرته ليقتلنَّها . قالت ليلى وكنتُ أعرف الوجْهَ الذى يجىء منه . فلما أقبَلَ لم أقدِرْ على كلامه لليمين[1] فرفعتُ البرقُعَ ورميتُه عن رأسى وأسفَرت . فلما رأى ذلك أنـكرَه، وفَطِن لما أردتُ ، وعلم أنه قد رُصِد ، وأنَّها أسفرت لتحذِّره ، فنجا وفاتَهم وقال :

نأتْكَ بلَيْلَى دارُها لا تزورُها … وشطَّت نواها واستمرَّ مَريرُها
حمامةَ بطنِ الوادِيَيْنِ ترنَّمى … سقاكِ من الغُرِّ العِذاب مَطِيرُها
وكنتُ إذاما جئتُ ليلَى تبرقعَتْ … فقد رابَنى منها الغداةَ سُفورها
علىَّ دماء البُدْنِ إن كان بعلُها … يرى لى ذنباً غيرَ أنِّى أزورها

---

(١) للـكمين : المخطوطتان .

وأنّى إذا ما زُرتُها قلتُ يا اسلمى[1] وما كان فى قولى اسْلَمِى ما يَضيرها

خرج رجلٌ من بنى عَمْرو بن كِلاب، ثم من بنى الصَّمحة ، يبتَغى إبلًا له ، حتى أوحَشَ وأرْمَل وأمْسَى بأرض ، فنظر إلى بيتٍ بوادٍ ، فأقبلَ حتى نزل حَيْث ينزل الضيف ، فأبصَر امرأةً وصِبياناً يدورون بالخِباء ، فلم يكلِّمه أحد ، حتى كان بعد هُدأة من اللّيل ، فسَمِع جَرْجرات الإبل رائحة، وفيها صوتُ رجل، حتّى جاء بها ، فأناخَها على البيت ، ثم تقدَّم ، فسمِعَه الصَّمحى يقول للمرأة : « ما هذا السَّوادُ حِذاءَكِ ؟ » قالت : « راكبٌ أناخ بنا حين غابت الشَّمس ، ولم نكلِّمه » . قال : « كذبتِ ! ما هو إلا بعضُ خلاَّنِك » ونهضَ يضربُها ، وهى تناشِده . قال الصَّمحىّ : فسمعتُه يقول : « واللهِ لا أتركُ ضربَكِ حتَّى يأتىَ ضيفُكِ هذا فيُغيثُكِ » . فلمّا عِيل صبرُها غوَّثت وقالت : « يا صاحبَ البَعير ، يا رجل » . فأخذ الصَّمحى هِرواتَه ثم أقبلَ يُحضِر ، حتى أتاهُ وهو يضرِبُها ، فضربه ثلاثَ ضرباتٍ، أو أربعاً ثم أدرَكتْه المرأةُ، فقالت : « يا عبدَ الله ، ما لَكَ ولَنا ! أعْزِبْ عنّا نفسَك » . فانصرفَ فجلَس على راحِلتَه ، وأدْلَج ليلتَه كلَّها، وظنَّ أنه قتَل الرجل؛ وهو لا يدرى مَن الحىُّ بعدُ، ولا مَن الرجُل . حتى أصبحَ فى أخْبِية ، ورأى غنماً فيها أمَةٌ مولَّدة ، فسألها عن أشياء ، حتى بلَغ به الذكر فقال : « أخبِرينى عن أناسٍ بشِعب كذا » . فضحِكت وقالت : « ذلك خِباءُ ليلى الأخْيَليّة ، وهى أحسَنُ النّاس وجهاً ، وزوجُها غيور ، فهو يبعُد بها عن النّاس ، فلا يحُلُّ بها معهم، ومايقرَبُها أحدٌ ، ولا يتضيَّفها فكيف نزلتَ بها ؟ » قال : « إنَّما مررتُ فنظرتُ إلى الخِباء ، ولم أقْرَبه » . وكتمها الأمر. وتحدَّث الناسُ عن رَجُلٍ نزَلَ بها ، فضربَ زوجهَا ، ولم يُعلم من هو . فلما أُخْبِر باسم المرأة أقرَّ على نفسِه بشِعرٍ قاله . وهو :

ألا يا لَيْلَ أختَ بنى عَقيلٍ أنا الصمْحىُّ إن لم تعرفينى

(١) وإنى إذا مازرت قلتلها : اسلمى « المخطوطتان » .

دَعَتْنِي دَعْوةً فحجزتُ عنها بصُلّبة(١) دَفَعتُ بها يمينى
فإن تكُ غيرةٌ أبرتكَ منها وإن تكُ قد جُنِنْتَ فذُق جُنونى

قال الحجّاج يوماً لليلى الأخيلية : « إنّ شبابك قد مَضَى ، فولّى واضمحلّ أمرُكِ وأمرُ تَوْبة . فأُقسِمُ عليك إلّا صَدَقتِنى ، هل كانتْ بينكما رِيبةٌ قطّ ، أو خاطَبكِ فى ذلك قطّ ؟ » قالت : « لا والله ، إلا أنه قال لى ليلةً ـ وقد خَلَوْنا ـ كلمةً ، ظننتُ أنّه قد خَضَع فيها لبَعْض الأمر ، فقلت له :

وذى حاجةٍ قلنا له لا تبُح بها فليسَ إليها ما حَييتَ سبيلُ
لنا صَاحِبٌ لا ينبغى أن نخونَه وأنتَ لأُخرى صاحبٌ وخليلُ

فلا والله ، ما سمعتُ منه بعدَها ريبةً ، حتّى فرّق بيننا الموت » . فقال لها الحجّاج : « فما كان منه بعدَ ذلك ؟ » قالت : « وجّه صاحباً له إلى حاضِرَتِنا فعَلَا شَرَفاً ، وهتَفَ بهذا البيت :

عفا الله عنها ، هل أبيتَنّ ليلةً من اللّيل لا يسرِى إلىّ خيالُها

فلما فعل الرجلُ ذلك عَرَفتُ المعنى ، فقلتُ :

وعَنْه عفا ربِّى وأحسَنَ حفظَه عزيزٌ علينا حاجةٌ لا ينالُها

ولما أُنشِدَ الأصمعىُّ قولَ تَوْبة :

وإنّى إذا ما زرتُ قلتُ لها اسلَمى وإن كانَ فى قَوْلى اسلَمى مايضيرُها

قال الأصمعىّ : « شكوى مظلوم ، وفعل ظالم » . ولما قُتِل توبة رثَتْه ليلى بأبياتٍ منها :

كم هاتفٍ بكَ من باكٍ وباكيةٍ يا تَوْبَ للضّيف إذ تَدْعُو(٢) وللجار
وتوبَ للخَصْم إن جارُوا وإن عَدَلوا وبَدَّلوا الأمرَ نقضاً بعد إمرار

---

(١) بصلبة : بعلبة ، كبريلى ؛ بعلته ، المخطوطتان .

(٢) تدعى ، الأغانى .

إن يُصدِرُوا الأمرَ تُطْلِعْه مَوَارده   أو يُورِدُوا الأمرَ يُطلِعْه بإصدَار

دخلت ليلى الأخيَلِيَّة على عبدِالملك بن مَروان ، وقد أسنَّت وعَجَزت ، فقال لها: « ما رأَى فيك تَوْبةُ حتى هَـوِيَكِ ؟ » قالت: « ما رأى الناسُ فيكَ حينَ وَلَّوكَ؟» فضحِك عبدُ الملك حتى بدَتْ له سنٌّ سوداء ، كان يُخفيها .

بينا الحجّاج بن يوسف جالِسٌ إذ دَخَل عليه حاجبُه ، فقال : « بالباب امرأةٌ تَهدِر كما يهدِر البعير » ، قال: أدْخِلْها . فلما دَخَلت نَسَبَها فانْتَسَبت له ، فقـال : « ما أتى بكِ يا لَيْلَى ؟ » قالت : « إخلاف[1] النجوم ، وكَلَبُ البرد ، وشدَّة الجهد، وأنت لنا بعـد الله رِدْء » . قال : « أخبريني عن الأرض » . قالت : « الأرضُ مقشَعِرّة ، والفِجاجُ مغبرّة ، وذو الغنى مختَلّ، وذو الحدِّ مُنفَلّ » . قال: « وماسَبَبُ ذلك ؟ » قالت : « أصابتنا سِنُونَ مُجْحِفَةٌ مُظْلِمة ، لم تَدَع لنا فصيلًا ولا رُبَعًا ، ولم تُبْقِ عافِطةً ولا نافِطة ، فقد أهلَكتْ الرِّجال ، وفرَّقت العِيال ، وأبعدَت الأموال » . فقال لها : « يا ليلى أنشِديني من بعضِ شِعرك في تَوْبَة » . فأنشدته :

لعمرُكَ ما بالموتِ عارٌ على الفتَى   إذا لم تُصِبْه في الحيـاةِ المعايِر
وما أحدٌ حيٌّ وإن عاشَ سالِماً   بأخلدَ ممَّن غيَّبته المقـابِرُ
فلا الحيُّ مما أحدَثَ الدّهرُ مُعْتِبٌ   ولا الميتُ إن لم يصبر الحي ناشِر
وكلّ جديدٍ أو شبابٍ إلى بِلًى   وكلّ امرئٍ يوماً إلى الله صائر
قتيـلَ بني عَوْفٍ فيا لهفتى له   وما كنتُ إيَّاهم عليـه أحاذِر
ولـكنني أَخْشَى عليـه قبيلة   لها في دُرُوب الروم[2] بادٍ وحاضِرُ

فقال الحجّاج لحاجبه : اذهبْ فاقطعْ لسانَها . فدعا لها بالحجّام ، ليقْطَع لسانَها . فقالت له : « وَيْلَكَ ! إنَّما قال لك الأمير : اقطَعْ لسانها بالعطاء والصِّلة ، فارجع إليه

(١) اختلاف ، جميع المخطوطات .
(٢) الشام ، الأغاني .

فاسْتَأْمِره » . فرجع إليه . فاسْتَشاط وهمّ بقَطع لسانه ، ثم دعا بها ، فأُدخِلت عليه ، فقالت : « كاد وعهدِ الله أيُّها الأميرُ أن يقطعَ مِقولى » . وأنشدَتْه :

حجّاجُ أنتَ الذى ما فوقَه أحدٌ إلا الخليفةُ والمُسْتَغْفَرُ[1] الصمد
حجّاجُ أنت سِنانُ الحرب إن نُهِجَتْ وأنتَ للنّاس نورٌ فى الدجى يَقِد

وقيل : إنَّ الحجّاج أمرَ لها فى المجلس بمائتَين ، فقالت : « زِدْنى » ، فقال : « اجعلوها ثلاثمائة » . فقال بعضُ جلسائه : « إنها غنم » ، فقالت له : « إن الأميرَ أكرمُ من ذلك ، وأعظمُ قدرا من أن يأمرَ لى إلّا بالإبل » . فاستحيى الحجاج ، وأمر لها بثلاثمائة بعير . وإن الذى أمر لها به أوّلا إنما كان غنما . وقال محمد بن الحجّاج الثقفى : بينا كان الأمير جالساً إذ استُؤْذِن عليه لليلى ، فقال : « ومن ليلى؟ » قيل : الأَخْيليّة ، صاحبةُ توبة » . فأذِن لها ، فدخلت امرأةٌ طويلة ، دَعْجاء العين ، حَسَنة المِشية إلى القوة ما هى ، حَسَنة الثغر . فسلَّمت ، فرحَّب بها الحجَّاج فدَنَت فقال: « ما أعمَلَكِ إلينا ؟ » قالت: « السّلامُ على الأمير ، والقضاء لحقِّه ، والتعرُّض لمعروفه » . فقال : « كيف خلَّفتِ قومَك ؟ » قالت : « تركتُهم فى حال خِصْب وأمْن ودَعة : أما الخِصب ففى الأَموال والكَلأ ، وأمّا الأمنُ فقد أمّنهم الله بك ، وأما الدَّعة فقد خَامَرهم من خَوْفِك ما أصْلَح بينهم » . ثم قالت : « ألا أُنشِدُك أيُّها الأمير ؟ » قال : « إن شئْتِ » . فقالت :

أحجّاجُ إنّ الله أعطاك غايةً يقصِّر عنها من أرادَ مدَاها
أحجّاج لا يُفْلَلْ سِلاحُك إنما الـ منايا بكفِّ الله حيث يراها
إذا هبط الحجّاج أرضاً مريضةً تَتَبَّع أقصى دائِها فشفَاها
شفاها من الدّاء العُضال الذى بها غلامٌ إذا هزَّ القناة سقاها

فقال لها الحجّاج : « قولى : همام ، ولا تقولى : غلام » . فقالت :

---

(١) والمستغفر ، الأغانى : والمستعظم ، جميع المخطوطات .

سقاها دماءَ المارِقينَ وعلَّها إذا جَمَحَتْ يوماً وخِيفَ أذاها
إذا سَمِعَ الحجّاج صوتَ كتيبةٍ أعدَّ لها قبلَ النزال ِقراها
أعدَّ لها مصقولةً فارسيَّةً بأيدى رجالٍ يحسِنُون غِذاها

فقال الحجّاج ليحيي بن منقذ : « لِلّه بلادُها ! ما أشعَرها ! » ، فقال : « مالى بشِعرها من عِلْم » . فقال : علىّ بعُبَيْدةَ بنِ مَوْهَب » . وكان حاجبَه ، فجاءه فقال : « أنشِديه » ، فأنشَدته . فقال عُبَيْدة : « هذه الشاعِرةُ الكريمةُ قد وجَبَ حقّها » . فقال : « ما أغناَها عن شَفاَعَتِك ! يا غُلام ، أعطِها خمسَمائة درهم ، واكسُها خمسةَ أثواب ، أحدها كِساء خزّ ، وأدخِلها على هند بنتِ أسماء ، فقل لها : صِليها » . فقالت : « أصلَح الله الأمير ، أضرَّ بنا العريفُ فى الصدَقة . وقد جَرِبَت إبلنا[1] ، وانكسَرت[2] . فأخذَ خِيار المال » ، فقال : « اكتبوا لها إلى الحكَمِ بن أيّوب ، فليَبْتَع لها خمسةَ أجمال ، وليجعل[3] أحدَها نجيباً . واكتبوا إلى صاحِب اليمامة بعَزْل العَريف الذى شكَته » . فقال ابن مَوْهَب : « أصلح الله الأمير ، أَصِلُها ؟ » قال : « نعم » . فوصلها بأربعِمائة دِرهم ووصلَتْها هندُ بثلاثمائة درهم ، ووصلَها محمد ابن الحجاج بوَصِيفين . ولما فرغَتْ من إنشادِها أقبل الحجّاج على جُلَسائه فقال : « أتدْرُون من هذه ؟ » فقالوا : « لا والله ، ولا رأَيْنَا أفصحَ منها ، ولا أبلغَ ولاأحسنَ إنشاداً » . فقال : « هذه ليلى صاحِبةُ توبة » . ثم أقبل عليها ، فقال لها : « ياليلى ، أرأيتِ من تَوْبة أمراً تكرَهينَه ، أو سألَكِ شيئاً يعاب ؟ » فقالت : لا والذى أسألُه المَغْفِرة ، ما كان ذلك منه قطّ » . فقال : « أمّا إذا لم يكُنْ فرحِمَنا الله وإيّاه » .

---

(١) خربت بلادنا ، الأغانى .
(٢) وانكسرت قلوبنا ، الأغانى .
(٣) وليجعل : زيادة عن الأغانى .

وقيل: إن الحجّاج أمرَ لها بعَشْرة آلاف درهم. وقال لها: «هل لكِ من حاجَة؟» قالت: «نعم، أصْلَح الله الأمير، تحملنى إلى ابن عمِّى قتيبةَ بنِ مُسلم»، وهو على خُراسان يومَئذٍ. فحمَلَها إليه، فأجازَها، وأقبلت راجعةً تريد البادية، فلما كانت بالرىِّ ماتَتْ، فقبرُها هناكَ، كما رواه الأصمعىّ، وهو غلط والصحيح أن ليلى أقبلت من سَفَرٍ، فمرَّت بقبر تَوْبة، ومعها زَوْجُها فى هَوْدَج، فقالت: «والله لا أبرحُ حتّى أسلِّم على تَوْبة»، فجعل الزّوجُ يمنعها من ذلك، وتأبى إلا أن تلِمّ به. فلما كثُر ذلك منها تركَها فصعِدت أكَمَةً على قَبره، فقالت: «السلامُ عليك يا تَوبة». ثم حوّلت وجهَها إلى القَوم فقالت: «ماعرفتُ له كِذبةً قطّ قبل هَذِه». قالوا: «وكيف؟»، قالت: «أليس هو القائل:

ولو أنّ ليلى الأخيلية سلّمت … علىّ ودونى جندَلٌ وصفائِح

لسلّمت تسليمَ البشاشة أو زقَا … إليها صَدًى من جانبِ القبرِ صائحُ

وأُغبَطُ من لَيْلى بما لا أناله … ألا كلُّ ما قرّت به العينُ صالح

فما باله لم يسلِّم علىّ كما قال؟» وكانت إلى جانبِ القبر بُومة كامِنة. فلمّا رأتْ الهَوْدَج واضطرابَه فَزِعت، فطارَت فى وَجْه الجَمَل، فنفَر، فرَمى لَيْلَى على رأسِها، فماتَتْ من وقتِها، فدُفِنَت إلى جانبه.

دخل عبدُ الملك بن مَروان على زَوْجَته عاتكَةَ بنتِ يزيد بن معاوية فرأى عندَها امرأةً بَدَويّة، فأنكرَها، فقال: «من أنتِ؟» قالت: «أنا ليلى الأخْيَليّة»، قال: أنتِ التى تقولين:

أُريقَتْ جِفانُ ابن الخَلِيع فأصبحَتْ … حِياضُ النَّدى زالت بهنّ المراتب

فعُفاتهُ لَهْفَى يَطوفُون حَوْلَه … كما انقضَّ عرشُ البئر والوِردُ عاصِب

قالت: «أنا الذى أقول ذلك». قال: «فما الذى أبقيتِ لنا؟» قالت: «الذى أبْقَى الله لك». قال: «وما ذاك؟» قالت: «نَسَباً قُرَشيًّا، وعيشاً رخيًّا،

وأمْرَةً مُطاعةً » . قال : « أفْرَدته بالكرم » قالت : « أفردْته بما انفَرد به » .
فقالت عاتكة : « إنها قد جاءت تَسْتَمِينُ بنا عليكَ فى عَيْنٍ لتسقيها وتحميها لها ،
لَسْتُ ليزيدَ أن شفعّتها فى شىء من حاجَتِها، لتقديمها أعرابيًّا جلفا على أميرِ المؤمنين » .
قال : فوثبت ليلى ، فجلست على رَحْلها وقالت :

سَتَحْمِلُنى ورَحْلِى ذاتُ وَخْدٍ عليها بنتُ آباءٍ كرام
إذا جعلَتْ سوادَ الشام جَنْباً وأُغلِق دونَها بابُ اللئام
فليسَ بعائدٍ أبداً إليهم ذوو الحاجاتِ فى غَلَسِ الظلام
أعاتِكَ لو رأيتِ غداةَ بِنَّا عزاءَ النفسِ عنكُم واعتزامى
إذاً لعلمتِ واسْتَيْقَنْتِ أنّى مُشَيَّعَةٌ ولم تَرْعَىْ ذمامى
أأجعلُ مثل تَوْبَةَ فى نداه أبا الذِّبّان فُوه الدَّهرَ دامى
معاذ الله ما خَبَّت برَحْلى تُغِذُّ السَّيْرَ للبلدِ الحرام
أقُلتِ خليفةٌ فسواه أحْجَى بإمرَتِه وأوْلَى باللِّئام
لِثامِ الملك حين تُعِدُّ كعبٌ ذَوُو الأخطار والخُطَطِ الجسام

فقيل لها : « أىُّ الكَعْبين عَنَيْت ؟ » قالت : ما إخالُ كَعباً ككَعبي .

لبيـــد

هو لَبيد بن رَبيعة بن مالِك بن جَعفر بن كِلاب بن ربيعة بن عامِر بن صَعْصَعَة ابن مُعاوية بن بَكر بن هَوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس عَيْلان ابن مُضر . كنيتُه أبو عَقيل . وكان يقال لأبيه : ربيع المُقْتِرين ، لجُوده وسَخائه . قتلَه بنو أسَدٍ فى الحرب التى كانت بينهم وبين قومه . وعمُّه أبو بَرَاء عامرُ بن مالِك ، مُلاعِبُ الأسِنَّة ، سُمِّىَ بذلك لقولِ أوسِ بن حجر فيه :

فلاعَبَ أطرافَ الأسِنَّة عامرٌ فراحَ له حظُّ الكتيبةِ أجمعُ

وأمُّ لَبيد تامِر[1] بنتُ زِنباع العَبْسِيَّة ، إحدى بناتِ [2]جذيمة بن رَواحة بن خزيمة بن رواحة ، وهى سبيّة بنى عبس .

ولبيد أحد شعراء الجاهلية[2] المعدودين فيها ، المخضرمين ، ممَّن أدرَكَ الإسلام . وهُوَ من الأَشْراف الشُّعَراء الأجْواد ، الفُرسان ، القرّاء ، المعمَّرين ، يقال إنه عُمِّرَ مائةَ سنةٍ وخمساً وأربعين سنَة .

وكان لَبيد قد قَدِم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى وَفْد بنى كِلاب ، بعد وفاةِ أخيه أربَد وعامرِ بن الطُّفَيل ، فأسلَمَ وهاجَر ، وحَسُن إسلامُه ، ونَزَل الكوفة فى أيَّام عمرَ بن الخطَّاب رضى الله عنه ، ومات هناكَ فى آخر خلافة مُعاوية . عُمِّر تِسعينَ سنةً فى الجاهليَّة ، وخمساً وخمسين سنةً فى الإسلام .

قال الأصمعىّ : وفَد عامِر بن مالك بن جعفر بن كلاب أبو بَراء ملاعبُ الأسنَّة ، وإخوتُه طُفَيل ومُعاوية وعُبَيدة ، ومعهم لَبيد بن ربيعة ، وهو غُلام ، وَفَدُوا على النُّعمان

(١) تماضر ، المخطوطتان .

(٢) جذيمة . . . الجاهلية ، سقط فى المخطوطتين .

ابن المنذر ، فوجدُوا عندَه الرَّبيعَ بنَ زياد العَبْسيّ ، وقد غَلَب على أمره ومنادمته .
فكان يخلُو به على الشَّراب ، هو وسَرْجَون بن توفيل ، رجلٌ تاجرٌ من أهل الشام
أديبٌ حسَنُ الحديث والمنادَمة(١) . وكان الجعفريّون يدخُلون على النّعمان لحاجتهم ،
فإذا خرَجوا من عنده خلابه الرَّبيع ، فطَعَن على الجعفريِّين ، وذكر معايبهم . وكان
بنُو جعفر أعداءَه . فلم يزَلْ بالنُّعمان حتَّى صدَّه عنهم . فدخلوا عليه يوماً ، فرأوا منه
جفاءً ، وقد كان يُكرِمُهم ويقدِّمهم . فخرجوا غِضاباً ، ولبيد متخلِّفٌ في رِحالهم ،
لحفظِ أمتعتهم ، ورعْي إبلهم . فأتاهم ذاتَ ليلةٍ ، وهم يتذاكرون أمرَ الربيع ، فسألهم
فكتَمُوه ، فقال: «والله لا حَفِظتُ لكم متاعا ، ولا سرَّحت لكم بعيرا أو تخبروني»
وكانت أمُّ لبيد امرأةً من بني عَبْس ، وكانت يتيمةً في حِجر الرَّبيع . فقالوا : «خالك
قد غَلَبنا على المَلِك ، وصدَّ عنا وجهَه» . فقال لبيد : «هل تقدرون أن تجمعوا بيني
وبينه ، فأزجُرَه عنكم بقولٍ مُمِضٍّ مؤلم ، لا يلتفتُ إليه النُّعمان بعدَه أبدا ؟» قالوا
«وهل عندَك من شيء ؟» قال : «نعم» ، قالوا : «فإنّا نَبْلوكَ بشيءٍ من هذه
البُقول» . قال : «وماذاك؟» قالوا : «تَشْتُم هذه البَقْلة» ــ وكانت قدَّامَه بقلةٌ
دقيقةُ القُضبان ، قليلةُ الوَرَق ، لاصقة فروعُها بالأرض ، تدعى «بالتَّربة» . فقال :
«هذه التَّرِبَة لا تذكي ناراً ، ولا تُؤْهِل داراً ، ولا تَسُرُّ جاراً ، عودُها ضَئيل ، وفرعُها
ذليل ، وخيرُها قليل ، أقبحُ البقول مَرْعًى وأقصرُها فرعاً ، وأشدُّها قلعا ، فخرباً
لجارها وجَدْعاً ، بلدُها شاسِع ، ونبتها خَاشِع ، وآكِلُها جائع ، والمقيمُ عليها ضائع
ألْقَوا بي أخا بني عَبْس ، أرْجعه عنكم بتَعْس ونَكْس ، وأتركْه من أمْرِه في لَبْس»
فقالوا : «نصبحُ فنرى فيك رأيَنا» . فقال عامر : «انظُروا إلى غلامِكم هذا ــ يعني
لبيدا فإن رأيتُموه نائماً فلبس بصاحبه ، وليسَ أمرهُ بشيء ، وإنما هو يتكلَّم بما جاء
على لسانه ، وإن رأيتُموه ساهِراً فهو صاحبُه» . فرمَقوه بأبصارهم ، فوجدُوه ساهراً ،

(١) والنادرة ، المخطوطتان .

قد ركب رَحْلًا ، وهو يكدِم واسطَته، حتى أصبح ، فقالوا : «أنت صاحبُه». فعمَدوا إليه فحلَقوا رأسَه ، وتركوا ذَوَائبه ، وألبسوه حُلّة ، ثم غدَوْا به مَعَهم حتى دخلوا على النُّعمان ، فوجدوه يتغدَّى ومعه الرَّبيع بن زياد ، وهما يأكلان ، لا ثالثَ معهما ، والدَّار والمجالسُ مملوءةٌ من الوفود . فلما فرغ من الغداء أمر للجَعْفريِّين ، فدخلوا عليه وقد كان تقارَبَ أمرُهم فذكروا للنُّعمان الذى قدِمُوا له من حاجاتِهم . فأعرَضَ عنهم، واعترَضَ الرَّبيع فى كلامِهم ، فقام لَبِيد يَرْتَجِز فقال :

يارُبَّ هَيْجاَ هى خيرٌ من دَعَه ... أكلَّ يومٍ هامَتى مُقَزَّعه

نحن بنو أمِّ البنينَ الأربعــه ... ومن خِيارِ عــامرِ بن صَعْصَعه

المطعِمُونَ الجَفْنــةَ المُدَعْدَعه ... والضَّاربونَ الهامَ تحت الخَيْضَعة

مهلاً، أبيتَ اللعنَ، لاتأكلْ معَه ... إن استَــه من بَرَصٍ ملمَّعه

وإنَّه يدخِل فيهــا إصْبَعَــه ... يدخِلُهــا حتى يُوارِى أشجعه

كأنَّه يطلُب شيئاً ضيَّعه

فالتفت النُّعمان إلى الرَّبيع يرمُقُه شَزْراً ، وقال : « أكذا أنت ؟ » قال : « لا والله ، لقد كذَب علىَّ ابن الحمِق اللئيم » . فقال النعمان : « أفٍّ لهذا الغلام، لقد خبَّث علىّ طعامى » . ورفع النُّعمان يدَه من الطعام . فقال الرَّبيع للنعمان : « كذَب والله، ولقد فعَلتُ بأمِّه» . فقال لَبِيد : « أنتَ لهذا الكلام أهْل، وهى من نسوةٍ غير فُعُل هذا ، وأنتَ المرء فَعَل هذا مع يتيمته التى فى حجره ، والقريبةِ من أهله . وإن أمِّى لم تكن من نِساء تفعلن ما ذكرت » . وأمر النّعمان ببنى جَعفر ، فقُضِيت حوائجُهم من وقتِه ، وصَرَفهم . ومَضَى الربيعُ بن زياد إلى منزله ، فبعثَ إليه النُّعمان بضِعف ما كان يجيزُه ، وأمرَه بالانصراف إلى أهْله . فكتَب إليه الرَّبيع : إنى تخوَّفتُ أن يكون وَقَرَ فى صدركَ ممّا قال لبيد ، وإنى لستُ بارحاً حتى تبعثَ إلىّ من يجرِّدُنى فيعلم مَن حَضَركَ من النّاس أنّى لستُ كما قال لَبيد . فأرسل إليه : « إنّك لستَ

صانعاً بانتفائك مما قال لَبيد شيئاً ، ولا قادِرًا على ردٍّ ما زلَّت به الألسُن ، فالحقْ بأَهلك » . فلحِقَ بأهله . وكتب الربيعُ إلى النعمان :

لئن رحلتُ جِمالى لا إلى سَعَةٍ ما مثلُها سَعَةٌ عرضاً ولا طولا
بحيث لو وَزَنَتْ لَخْمٌ بأجمعِها لم يعدِلُوا رِيشَةً من رِيش سَمويلا
ترعى الروائمُ أحرارَ البُقول بها لا مثلَ رعيِكمُ مِلحاً وغَسْويلا
فاثبُت بأرضِك بعدى واخْلُ متكئاً مع النِّطاسيِّ طورًا وابنِ تُوفيلا

النطاسى مُتَطبِّب النعمان . وابن تُوفيل هو سَرجون التاجر . فأجابه النعمان وكتب إليه :

شَرِّد برحلك عنِّى حيثُ شئتَ ولا تُكثِر علىَّ ودعْ عنكَ الأباطيلا
فقد ذُكِرتَ بأمرٍ لَستُ ناسِيَه ماجاورت مصر أرض الشام والنيلا
فما انتفاؤُكَ منه بعدَ ما جزَعَت هُوجُ المطىِّ به أبناءَ سَمويلا
قد قيلَ ما قيلَ إن حقًّا وإن كذبا فما اعتذارُكَ من قولٍ إذا قيلا
فالحقْ بحيثُ رأيتَ الأرضَ واسعةً وانشُر بها الطرفَ إن عرضاً وإن طولا

وهجا لبيدٌ بعد ذلك الربيعَ بعدَّة أهاجٍ .

وكان لبيدٌ يقول الشعر ويعرضُه على النابغة الذُّبيانىّ ، فيقول : « لا تظهرْه » ، حتى قال :

* عَفَت الدِّيارُ مَحلُّها فَمُقامُها *

وذكر ما صنع الربيعُ بن زِياد وضَمْرةُ بن ضَمْرة ، ومن حَضرَهم من وجوه العرَب ، فقال له : « أظهرها » .

ولم يُسْمَع من لبيدٍ فخر فى الإسلام غيرَ يومٍ واحدٍ ، فإنه كان فى رَحَبة غنىّ ، مُسْتلقياً على ظهره ، قد سجّى نفسه بثوبه ، إذ أقبلَ شابٌّ من غنىّ ، فقال : « قبحَ الله طُفَيلاً حيث يقول :

جزَى الله عنّا جعفراً حين[1] أشرفَت ... بنا نعلُنا فى الواطئينَ فزلّتِ
أبَوْا أن يَمَلّونا ولو أنَّ أمَّنا ... تلاقى الذى يَلْقون منّا لملّتِ
فذُو المال موفورٌ وكلٌّ معصَّبٌ ... إلى حُجُرات أدفأت وأظلّتِ
وقال هلُمّوا الدارَ حتّى تبيَّنُوا ... وتنجلىَ العوراءُ[2] عمّا تجلت

ليت شِعرى ما الذى رأى من بنى جعفر حتّى يقول هذا فيهم ؟ » فكشف لبيدٌ الثوبَ عن وجهه ، وقال : « يا ابنَ أخى ، أدركتَ الناسَ وقد جُعِلَت لهم شُرطة، يَزَعون بعضَهم عن بعض ، ودارُ رزقٍ ، تَخْرج الخادِمُ بجرابها فتأْتِى برِزق أهلِها ، وبيتُ مال يأخذون منه أعطِيتَهم . ولو أدركتَ طُفَيلًا يومَ يقول هذا لبَنِى جعفر لم تَلُمه » . ثم استَلْقى وقال : « أستغفر الله » ، وردَّدها حتى نام .

مرّ لبيد بالكُوفَة على مجلِسِ بنى نَهد ، وهو يتوكّأ على مِحجَن له ، فبعثوا إليه رسولًا يسألُه عن أشعرِ العرب . فسألَه فقال : « الملكُ الضلّيل ذو القُروح » ، فرجَع فأخبرهم فقالوا : « هو امرؤ القيس » . ثم رجع إليه يسأله : « ثم من ؟ » فقال : « ثم الغلامُ المقتول من بنى بكر » . فرجَع فأخبرَهم فقالوا : « هو طرفة » . ثم رجع إليه فقال : « ثم من ؟ » فقال : « صاحب المِحجَن — يعنى نفسَه — حيث يقول :

إن تقوَى ربِّنا خيرُ نَفَلْ ... وبإذن الله ريثى وعَجَلْ
أحمَدُ الله فلا ندَّ له ... بيدَيْه الخيرُ ما شاء فعَلْ
من هَداه سُبُلَ الخير اهتَدَى ... ناعمَ البال ومَنْ شاء أضَلّ »

ثم قال : « أستغفر الله » .

---

(١) حيث ، الأغانى .
(٢) الغماء ، الأغانى .

اجتمع عند الوليد بن عُقبة سمّاره ، وهو أمير الكوفة ، وفيهم لَبيد بن ربيعة . فسأله الوليدُ عما كان بَينه وبينَ الرّبيع بن زِياد عنـد النعمان . فقال لَبيد : « هذا أمرٌ كان فى الجاهليّة ، وقد جاء الله بالإسلام » . فقال له : « عزمتُ علَيك » . وكانوا يرَون لعزْمة الأمراء حقًّا . فجعل يحدِّثهم . فحسَده رجلٌ من غنيّ ، فقال : « ما علمنا بهذا » فقال : « أجل يا ابنَ أخى ، لم يدركْ سنُّك ذلك ، ولا كان أبوك ممّن يشهدُ تلك المشاهدَ فيحدِّثك » .

ولم يقل لبيد فى الإسلام إلا بيتاً واحداً :

الحمـدُ لله إذ لم يأتنى أجَلى حتى لبستُ من الإسلام سِربالا

كان لبيدٌ من أجْوَاد العرب . وكان قد آلى على نَفْسِه فى العرب[1] ألا تهبَّ صَبا إلا أطْعَم . وكانت له جَفْنتان يَغدُو بهما ويَرُوح فى كلّ يوم على مَسْجد قومِه ، فيطعمهم ، فهبَّت الصَّبا يوماً والوليدُ بن عُقبة على الكوفة . فصَعِد المنبر ، فحمِدَ الله ثم قال : « إن أخاكم لبيدَ بن ربيعة نذَر فى الجاهليّة ألا تهبَّ صَباً إلا أطعم . وهذا يَوْمٌ من أيّامه ، قد هبَّت صَبا ، فأعينُوه . وأنا أوّل من فعل » . ثم نزل عن المنبر ، فأرسل إليه بمائة بَكر ، وكتَبَ إليه بأبياتٍ قالها :

أرى الجزّار يشحَذُ شَفرتيه إذا هبَّت رِياحُ أبى عَقيـل
أشمُّ الأنف أصْيَد عامِرىٌّ طويلُ الباع كالسَّيف الصقيل
وَفَى ابن الجعفرىِّ بحَلْفتيهِ على العِلّاتِ والمـالِ القليل
بنَحر الـكوم إذ سُحِبت عليه ذُيولُ صباً تَجاوَبُ بالأصيل

فلما بلغت الأبياتُ لبيدا قال لابنَتِه : « أجيبِيه ، فلعمرى لقد عِشتُ بُرْهة ما أعْـيَي بجواب شاعر » . فقالت ابنتُه :

إذا هبَّت رياحُ أبى عَقيـلٍ دَعَونا عنــد هَبَّتها الوليدا

(١) قد آلى فى الجاهلية ، الأغانى .

أشمَّ الأنفِ أروعَ عَبْشَمِيًّا　　أعان على مُروءته لبيــدا
بأمثالِ الهضاب كأنَّ رَكْبًا　　عليها من بنى حَامٍ قُعــودا
أبا وهبٍ جزاكَ اللهُ خــيراً　　نحرناها وأطْعَمنا الثَّريدا
فعُــد إن الــكريمَ له مَعَادٌ　　وظنِّى بابن أرْوَى أن يعودا

فقال لها لبيد : « لقد أحسنتِ ، لولا أنك استَطْعمته » . فقالت : « إنَّ الملوكَ لا يُسْتَحْيِي من مَسْألتهم » . فقال : « وأنتِ يا بُنَيَّة فى هذه أشعر » .

قدِمَ الفرزدقُ الـكوفةَ فمرَّ بمسجدِ بنى أقيصر[1] ، ورجلٌ ينشِد قولَ لبيد :

وجَلَا السيولُ عن الطّلول كأنها　　زُبُرٌ تُجِـدُّ متونَها أقلامُها

فسجد الفرزدق ، فقيل له : « ما هــذا يا أبا فِراس ؟ » قال : أنتم تعرفون سَجْدَةَ القرآن ، وأنا أعرِف سجدةَ الشعر » .

جلس المعتصمُ يوماً للشّرب فغنّاه بعض المغنِّين :

وبنو العبَّاس لا يدرون « لا »　　وعلى ألسُنِهم خفَّت « نعم »
زينت أحلامُهم أحسابَهم　　وكذاكَ الحلمُ زينٌ للـكرم

قال المعتصم : « ما أعرفُ هذا الشّعر ، فلمن هو ؟ » قيل : « لِلَبيد » . فقال : « وما لِلَبيدٍ وبنى العبّاس ؟ » فقال المغنِّى : « إنما قال لبيد : (وبنو الديَّان) فجعلته أنا : (وبنو العبّاس) » فاستحسَن ذلك ووَصَلَه . وكان يعجبه شعرُ لبيد ، ثم قال : « من منــكم يروى قولَه :

* بلينا وما تبلى النجوم الطوالع * »

فقال بعضُ الجلَساء : « أنا » . فقال : « أنشدنيها » . فأنشده :

بَلِيناَ وما تبلى النجومُ الطوالِعُ　　وتبقى الديارُ[2] بعدنا والمصانعُ

---

(١) قصى ، المخطوطتان .
(٢) الجبال ، الأغانى .

وقد كنتُ فى أكنافِ دار[1] مَضَنَّة ... ففارقَنى جارٌ بأربدَ نافعُ

فبكى المعتصمُ ، حتى جرت دموعُه . وترحَّم على المأمون وقال : « هكذا كان رحِمَه الله » ، ثم اندفَع هو ، ينشد باقيها :

فلا جَزِعٌ إن فرَّق الدهرُ بيننا ... وكلُّ امرئٍ يوماً له الدهرُ فاجِع

وما الناس إلا كالدِّيار وأهلِها ... بها يومَ حلُّوها وغدوًا[2] بلاقع

ويمْضون أرسَالًا ونخلفُ بعدَهم ... كما ضمَّ إحدى الراحَتين الأصابعُ

وما المرؤ إلا كالشِّهابِ وضوئه ... يحورُ رمادًا بعدَ إذْ هو ساطِع

وما البِرُّ إلا مُضْمراتٌ من التقَى ... وما المـالُ إلا عارياتٌ ودائع

أليسَ ورائى إن تراخَت مَنيَّتى ... لزومُ العصَا تُحنَى عليها الأشاجع[3]

أخبِّر أخبارَ القُرون التى مضَت ... أدبّ كأنى كلَّما قمتُ راكع

فأصبحتُ مثلَ السَّيف أخلق جفنَه ... تقادُمُ عهد القَيْن والنَّصْل قاطع

فلا تبعَدَنْ إنَّ المنيَّــة موعِدٌ ... علينـا فدَانٍ للطلوع وطالع

أعاذلُ ما يدريكِ إلا تظنِّياً ... إذا رحل الفتيانُ من هو راجع

أتجزَعُ مما أحدثَ الدهرُ بالفتى ... وأىّ كريمٍ لم تُصِبه القوارع

لعمركَ ماتدرى الضَّواربُ بالحصَى ... ولا زاجراتُ الطير ما الله صانع

قال : فوالله لقد عجِبنا من حُسن ألفاظه ، وصحَّة إنشاده ، وجودة اختياره .

كان عثمانُ بن مَظْعون فى جِوار الوَليد بن المغيرة ، فتفكَّر يوماً فى نفسه ، فقال : « ما ينبغى أن أكونَ فى جِوار كافر ، ورسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم خائِف » . فجاء إلى الوَليد بن المغيرة فقال : « إنِّى أحبُّ أن تبرَأ من جِوارى » .

(١) جار ، الأغانى .

(٢) وتغدو ، جميع المخطوطات .

(٣) الأصابع ، الأغانى .

فقال : « لعلّك رأيتَ ريباً ؟ » (1) قال : « لا ، ولـكنّى أحبُّ أن تفعل » . قال : «فاذهَب حتى أبرأَ منك ، حيثُ أجَرْتُك » . فخرج معه إلى المسجِد الحرَام ، فلما وَقَف على قُريش قال لهم : « هذا ابنُ مَظعون ، قد كنتُ أجَرْته ، وقد سَألنى أن أبرأ منه ، أكذلك تقولُ يا عثمان ؟ » قال : « نعم » قال : « اشهَدوا أنّى منه برىء » . قال : وجماعة يتحدّثون من قريش ، فيهم لَبيد يُنشِدُهم . فجلس عثمانُ مع القَوم ، فأنشدَهم لَبِيد :

* ألا كلّ شىء ما خلاَ اللهَ باطل *

فقال عثمانُ : « صدقت » . فقال لبيد :

* وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائل *

فقال عثمان : « كذَبتَ » . فلم يدرِ القـومُ ما أراد . فأشار بعضُهم إلى لَبيدٍ أن يُعيد ، فأعاد ، فصدَّقه فى النِّصف الأوَّل ، وكذَّبه فى الآخر بنعيم الجنة ، فإنه لا يزول فقال لَبِيد : « يا معشرَ قُريش ، ما كان مثلُ هذا يكونُ فى مجالسِكم » . فقام أُبَىُّ بن خَلَف أو ابنُه . فلطَم وجهَ عُثمان فقال له قائل : «لقد كنتَ فى مَنَعَةٍ من هذا بالأمس» فقال : « ما أحوجَ عينى الصحيحةَ إلى أن يُصيبَها ما أصابَ الأُخرى فى الله عز وجل » .

كتَب عبدُ الملك إلى الحجّاج يأمرُه بإشخاص الشَّعبى إليه . فأشخَصه ، فألزمه وَلَده ، وأمرَه بتخريجهم ومذاكرتهم : قال الشعبى : « فدعانِى يوماً فى علَّة موته ، فغَصَّ بلقمة طويلا ، فتساندَ وأنا بينَ يديه ، ثم قال : « أصبحت كما قال الشّاعر » ثم أنشأ يقول :

كأنِّى وقد جاوزتُ سبعين حِجّة ... خلعتُ بها عنِّى عِـذار لجامى
إذا ما رآنى النّاسُ قالوا ألم يكن ... شديدَ مِحَال البَطْشِ غيرَ كَهام

(١) لعله رابك ريب ، الأغانى .

رمَتْنى بناتُ الدّهرِ من حيثُ لا أرى ... فكيفَ بمَن يُرمى وليس برامِ

ولو أنّنى أُرْمَى بسهمٍ رأيتُهُ ... ولكنّنى أرمى بغيرِ سهامِ

قال الشّعبى : فقلت: إنا لله ، استسلم الرجُل للموت . فقلت له: كلاّ أصلحك الله تعالى . ولكن مثل ما قال لَبِيد ، لما بلغَ سبعاً وسبعين سنة :

باتت تشَكَّى إلىّ الموتَ مُجهشَةً ... وقد حملتكِ سبعاً بعد سبعينا

فإن تُزادِى ثلاثاً تبلغى أملاً ... وفى الثلاثِ وفاءٌ للثمانينا

ثم عاش والله إلى أن بلَغ تسعين ، فقال :

كأنّى وقد جاوزتُ تسعينَ حجّةً ... خلعتُ بها عن مَنكبىّ ردائيا

ثم عاش والله إلى أن بلغ مائة وعشرا ، فقال :

أليسَ فى مائةٍ قد عاشَها رجلٌ ... وفى تكامُل عَشْرٍ بعدها عُمُرُ

فعاش والله إلى أن بلغ مائةً وعشرين سنة ، فقال :

وعَمَرتُ حيناً قبلَ مَجْرَى داحسٍ ... لو كان للنّفس اللجُوج خُلودُ

وعاش والله حتّى بلغ مائةً وأربعين سنةً فقال :

ولقد سئمتُ من الحياةِ وطولِها ... وسؤالِ هذا الناس كيفَ لبيدُ

غلَبَ الرّجَالَ[1] وكان غيرَ مغلَّب ... دهرٌ جديدٌ دائمٌ ممدود

يوماً أرى يأتى علىّ وليلةً ... وكلاهُما بعدَ المضاء يعودُ

وأراه يأتى مثلَ يومِ لقيته ... لم ينتقِض وضَعُفتُ وهو شديد

ففرِح واستبشر ، وقال : « ما أرى بأساً ، ولقد وَجَدتُ خَفًّا » . وأمر لى بأربعينَ ألف درهم ، فقبضتُها وخرجت ، فما بلغتُ البابَ حتّى سمعتُ الواعية[2] عليه .

---

(١) الفراء ، هامش كوبريلى .

(٢) النائحة ، المخطوطتان .

قال عبدُ الله بن قَتَادة المحارِبى : كنتُ مع النَّابغة بباب النُّعمان بن المنذر ، فقال لى النَّابغة : « هـل رأيتَ لبيدَ بن ربيعة فيمَن حضر ؟ » قلت : « نعم » ، قال : « أيُّهم هو ؟ » قلت : « الفتى الذى من حاله كيتَ وكيتَ » . قال : « اجلِسْ بنا حتّى يخرج » . فلما خرج قال له النابغة : « إلىَّ ياابن أخ » . فأتاه فقال : « أنشدنى » . فأنشـده :

ألم تُلْمِمْ على الدِّمن الخـوالى لسَلْمى بالمذَانِب فالقُفال

فقال النابغة : « أنتَ أشعرُ بنى عامر . زدنى » ، فقال :

(١) طَلَلٌ لخولَةَ بالرسَيس قديم فبعَاقِلٍ فالأنعمين رسـوم

فقال له : « أنت أشعر هوازن . زدنى » فقال(١) :

عفت الديار محلها فمقامها بمِنًى تأبَّد غَولها فرِجامها

فقال له النابغة : « اذْهَب فأنتَ أشعرُ العرب » .

لما حضرت لبيدَ الوفاة قال لابنِ أخيه ـ ولم يكن له وَلَدٌ ذكر ـ : « يا بُنَىَّ ، إن أباكَ لم يَمُت ، ولـكنه فَنِىَ ، فإذا قُبِضَ أبوكَ فأَقْبِـلْه القِبلة ، وسجِّه بثوبه ، ولا تصرُخَنَّ عليه صارِخة ، وانظُر جَفْنَتَىَّ اللَّتين كنتُ أصْنَعُهما ، فاصْنَعْهما واحملهُما إلى المسجد ، فإذا سلَّم الإمام فقدِّمهما إليهم ، فإذا طَعِمُوا فقُلْ لهم فليحضُروا جِنازةَ أخيهم » . ثم أنشد :

وإذا دفنتَ أباكَ فاجْـ ـعَلْ فوقَه خشباً وطينا
وسقَائِفاً صمًّا رَوَا سِيها يسـدِّدن الغُضونا
ليقينَ حرَّ الوجهِ سَفْـ سَافَ التراب ولن يَقِينا
أبُنَىَّ هل أبصرتَ أعْـ مامى بَنِى أمِّ البنينا
وأبى الذى كان الأرا مِلُ فى الشِّتاء له قَطينا

(١) طلل . . . فقال ، سقط فى المخطوطتين .

وأبى شَرِيكَ والمبا رك[1] فى المضيق إذا لقينا
ما إن رأيتُ ولا سَمِعْ تُ بمثلِهم فى العالمينا
فبقيتُ بعدهُمُ وكنـ تُ بطول صُحبتِهم ضَنِينا
دَعْنى وما ملكت يميـ نى إن شددت بها شؤونا
فافعَل بمالِكَ مابدا لك مُسْتَعِينا أو مُعِينا

ولما مات قال لابنتيه عند ما احتضر :

تمنى ابنتايَ أن يعيشَ أبُوهما وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضر
فإن حانَ يوماً أن يموت أبوكُما فلا تَخْمِشَا وجها ولا تحلِقا شَعَر
وقولَا هو المرء الذى لا حليفَه أضاعَ ولا خانَ الصّديق ولا غدر
إلى الحولِ ثمّ اسمُ السَّلام عليكُما ومن يَبْكِ حَوْلًا كاملًا فقد اعتذر

فكانت ابنتاه تلبسانِ فى كلِّ يوم ثيابَهما ، ثم تأتيان مجلسَ بنى جعفر بن كلاب ، فترثيانه ، ولا تُعْوِلان ، فأقامتا على ذلك حولًا ، ثم انصرفتا .

---

(١) والمبارك ، كوبريلى ، ساقط فى المخطوطتين : والمنازل ، الأغانى .

لقيط بن يعمر

وقيل لقيط بن معمر ، شاعرٌ قديم جاهليّ مُقِلّ ، ليس يُعرف له شِعرٌ سِوى هذه القصيدةِ التي تُذكر فيه .

وذلك إن إياداً كانت بلادُهم قد أجدَبَت ، فارتحلوا حتى نزلوا بسِنْدار ونواحيها ، فأقاموا دهراً حتى أخصبوا وكَثُروا ، وكانوا يعبُدون صنماً يقال له ذو الكِعاب . وعبدتْه كعبُ بن وائل من بعدهم فانتشروا فيما بين سِنداد إلى كاظِمة ، وإلى بارِق والخَوَرْنق ، واستطالوا على الفرات حتى خالطوا أرضَ الجزيرة ، ولم يزالوا يَغزُون من يَليهم من أرضِ السواد ، ويغزُون مع ملوك آل نصر ، حتى أصابوا امرأةً من أشرافِ العجم ، كانت عَروساً قد أهدِيت إلى زوجِها ، ووَلِيَ ذلك منهم سُفَهاؤهم وأحداثُهم ، فســار إليهم من كان يَليهم من العَجَم ، فانحازَت إياد إلى الفُرات ، وجعلوا يُعبِرون إبلهم في القَراقِر ، ويقطعون الفُرات ، وجعل راجزُهم يقول :

بئسَ مناخُ الحلقــات الدُّهْم   في ساحة القُرقُور وسْط اليمِّ

فعبروا الفراتَ ، وتبعتهم الأعاجم ، فقالت كاهِنة من إياد تسجع لهم :

إن يقتلوا منــكم غلاماً سلمــا   أو يأخذُوا مِنكم شيخاً هِمّا

تخضّبــوا نحورَهم دمــاً   فتروُوا منهم سُيوفاً ظمــا

فخرج منهم غلام يقال له ثوابُ بن مِحْجَن بإبلٍ لأبيه ، فلقيَه الأعاجم فقتلُوه وأخذوا الإبِل ، ولَقِيتهم إيادٌ في آخرِ النهار . فهزمَت الأعاجم . ويقال : إنّ إياداً بيّتَتْ ذلك الجمعَ حين عبروا شطَّ الفراتِ الغربيّ ، فلم يُفلِت منهم أحدٌ إلّا القليل ، وجمعوا الجماجم وأجسادَهم ، فكانت كالتلِّ العظيم ، وكان إلى جانبهم دَيْر ، فسمِّيَ دَيرَ الجماجم وبلغ كسرى الخبر ، فبعث مالكَ بنَ حارثة أحدَ بني كَعْب بن زُهير بن جُشَم

فى آثارِهم ، ووجَّه معه أربعين ألفاً من الأَسَاوِرة . فـكتبَ إليهم لقيطٌ هذه القصيدة :

يا دارَ عَمْرَةَ من مُحتلِّهـا الجَرَعا هاجَت لى الهمَّ والأحزانَ والجزعا
أرْمى بعينى إذا مَالَتْ حُمولهمُ بطنَ السَّلوطح لا ينظرنَ من تَبعِا
طوراً أراهم وطوراً لا أبينهم إذا ترفّع حُدْجٌ ساعةً لمعا

منها :

يا قومُ لا تأمَنُوا إن كنتُم غُيُراً على نسائـكم كسرَى وما جَمَعا
هو الجلاء الّذى تبـقى مذلّتُه إن طار طائرُكم يوماً وإن وَقعا
هو الفنـاء الّذى يجتثُّ أصلكم فمن رأى مثلَ ذا رأياً ومن سَمِعا
فقلِّدوا أمرَكم لله درُّكم رحبَ الذِّراع بأمرِ الحرب مضْطَلِعا
لا مُتْرفاً إذ رَخاء العيش ساعَدهَ ولا إذا حلَّ مكروهٌ به خَشَعا
لا يطعمُ النَّومَ إلا رَيْثَ يبعثُه همٌّ ، يكاد حشاه يقطَع الضِّلَعا
مسهَّد النوم تعنيه أمورُكم يرومُ منها إلى الأعداء مطَّلَعا
ما انفكَّ يحلُب هذا الدهرَ أشطرهَ يكون متَّبِعا يوماً ومتَّبِعَا
فليس يشغَله مالٌ يثمـِّره عنكم ولا وَلَدٌ يبغى له الرفعا
حتى استمرَّت على شَزْر مريرته مستحكِمُ السِّن لا قحْماً ولا ضَرَعَا
كمالكِ بن قَنَانٍ أو كصاحِبه زيدِ الفتى حينَ لاقى الحارِثَين معاَ
إذ عابَه عائبٌ يومـاً فقال له دَمِّثْ لجَنْبِك قبل اللَّيل مضْطَجعا
فشاوروه فألفَوه أخَا عِلَلٍ فى الحرب لا عاجزاً نِكسا ولا فزعا
عبلَ الذِّراع أبيًّا ذا مزابنـةٍ فى الحرب يَحْتَمِل[1] الرئبالَ والسبعا
مستنجداً يتحدّى الناسَ كلَّهم لو صارعوه جميعاً فى الورى صَرَعا
هذا كتابى إليكم والنذيرُ لكم لمن رأى الرأْىَ بالإبرام قد نَصَحا

(١) يختتل ، الأغانى .

وقد بذلتُ لكم نُصحى بلا دَخَلٍ   فاستيقظوا إن خيرَ العلم ما نَفَعا

وجعل عنوانَ الكتاب :

كتابٌ فى الصحيفة من لقيطٍ   إلى مَن بالجزيرة من إياد
بأنَّ الليثَ كسرى قد أتاكم   فلا يشغلكم سَــوقُ النِّقاد

وسار مالكٌ إليهم ، وهم غارُّون ، ولم يلتفتُوا إلى قولِ لَقِيط وتحذيره إياهم ، ثِقَةً بأنّ كسرى لا يقدُمُ عليهم ، فلقيَهم بالجزيرة فى مَرْج الأَجَمة ، فاقتتلوا قتالًا شديدا ، وظَفِر بهم وهزَمهم ، واستنقَذ ما كانوا أصابوه من الأعاجم يومَ الفُرات . ولَحِقَتْ إياد بالشام ، ولم يتوسَّطوها [1]خوفاً من غسّان يومَ الحارثين ، ولاجتماع قضاعة وغسّان[1] خوفاً من أن يصيروا يداً واحدةً عليهم . فأقاموا حتى أمِنُوا . ثم إنهم تطرّفوهم[2] إلى أن لَحِقوا بقومهم فى الرّوم بناحِية أنْقَرة . ففى ذلك يقولُ الشاعر :

نزلوا بأنقَرة يسيلُ عليهم   ماءُ الفرات يَجِيء من أطواد

(١) خوفا من غسان . . . وغسان ، سقط فى المخطوطتين .
(٢) ثم أنهم تطرفوهم ، الأغانى : ثم لم يطرقوهم ، المخطوطات .

حرف الميم

معبـــد

مَعْبَد بن وَهب ، وقيل : ابن قَطَنِىّ ، مولى قَطَن . وقيل : إن قَطَنِىّ مولى العاصى بن وَابِصة المخزُومى ، وقيل : بل مَوْلَى مُعاوية بن أبى سُفيان ، وقيل : بل مولى ابن قطر ، والقطربون موالى معاوية بن أبى سفيان . وكان أبوه أسودَ . وكان هو خِلاسيًّا ، مديدَ القامة أحوَل .

غَنَّى فى دولة بنى أميَّة ، وأصابه الفالج ، وارتعش وبطل صوتُه ـ وقيل : إنّه أدرك بنى العبّاس ـ وكان إذا غَنّى يُضْحَك منه ، ويُهزَأ به . والصحيحُ أنّه مات فى دِمَشق، أيام الوليد بن يزيد وهو عنده . وقال كَرْدَم بن معبد : ماتَ أبى فى عَسْكر الوَليد بن يزيد ، وأنا معه ، فنظرتُ حين أُخرِجَ نعشُه إلى سلّامة القس ، جارية الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وقد أضْربَ الناسُ عنه ينظرُون إليها ، وهى آخِذَةٌ بعمود السَّرير ، وهى تندُب أبى وتقول :

قد لَعَمْرِى بِتُّ ليلى   كأخِى الدّاء الوجيع

ونَجِىُّ الهمِّ منِّى   باتَ أدْنَى من ضَجيعى

كلما أبصرتُ ربعاً   خالياً فاضَت دمُوعى

قد خلاَ من سيِّدٍ كا   نَ لنا غيرَ مُضيع

لاتلُمنا إن خَشَعنا   أو هَمَمنا بالخشوع

قال كَرْدَم ، وكان الوليدُ بن يزيد أمر أبى أن يعلِّمها هذا الصّوت ، فعلّمها إياه ، فندبَتْه به يومئذ . ولقد رأيت الوليدَ بن يزيد والغَمْرَ أخاه متجرِّدين فى قَميصَين

وردَاءَين يمشيان بين يدَى سَرِيره ، حتى أُخْرِج من دار الوَليد ، لأنه تولّى أمرَه ، وأخرجَه من داره إلى قبره .

وكان معبدٌ من أحسنِ النّاس غِناء ، وأجوَدِهم صَنعة ، وأحسَنِهم خُلقًا ، وهو فحل المغنّين ، وإمامُ أهلِ المدينة فى الغناء . وفيه يقول الشاعر :

أجاد طُوَيْسٌ والسُّريجىُّ بعدَه ... وما قَصَباتُ السَّبق إلا لَمعبدِ

وكان صنعتُه التجارةَ فى أكثر أيّام رقّه . وربما رعى الغنَم لمواليه ، واشتهَر بالحذق وطيبِ الصَّوت ، وأجادَ واعتُرِفَ له بالتقدُّم على أهل عَصْره . وقال عنه كثيرٌ من أهل العلم بالصَّنعة: إنّه لم يكن فيمَنْ غَنَّى أحدٌ أعلمُ بالغناء من مَعْبد. وعاشَ حتى كَبِر ، وانقطع صوته فدعاه رجل من وَلَدِ عثمان ، فغَنَّى فلم يطْرَب القوْم ، وكان فيهم فِتيانٌ من ولد أسيد بن أبى العيص بن أميَّة . فضحِكوا منه ، وهزِئوا به . فغَنَّى:

فَضَحتم قُريشاً بالفِرار وأنتُمُ ... قُمُدُّون سُودانٌ عِظامُ المناكب

فأما القتـالُ لا قتالَ لديكم ... ولكنّ سيراً فى عِراضِ المواكِب

وهذا شعرٌ هُجُوا به قديماً . فقاموا إليه ليتناوَلُوه ، فمنعَهم العثمانىُّ وقال : « ضَحِكْتُم منه ، وهزِئتم به ، حتّى إذا أغْظتموه(١) أردتُم أن تتناولوه . لا والله ، لا يكونُ ذلك » . فقال له بعض من رآه ذلك اليومَ على تلك الحالة : « أصرتَ إلى ما أرى؟ » فأشارَ إلى حَلْقه وقال : « إنّما كان هذا ، فلمّا ذَهَبَ ذَهَبَ كلُّ شىء ».

قال مَعبد ـ وقد سَمِع رجلا يقول إنَّ قُتَيبة بنَ مُسلِم فتَح سبعةَ حصون (٢صَعْبةَ المرتقَى والمسالِك لم يُوصَل إليها قطّ ـ فقال : « والله لقد صنعت(٢) سبعةَ ألحانٍ ، كلُّ لحنٍ منها أشدُّ من فَتْحِ تلك الحصون » . وهـذه السبعة الأصوات معروفة له .

(١) أحفظتموه . الأغانى .

(٢) صعبة . . . صنعت ، ساقطة فى المخطوطتين .

قدم ابن سُرَيج والغَريض مكّة ، يتعرّضان لمعروفِ أهلها ، ويزوران من بها من قُرَيش وغيرِهم . فلما شارَفاها تقدّما ثَقَلَهما ، ليَرْتادا منزلًا ، فلما كانا بطرَف المدينة إذا هما بغُلامٍ ملتحفٍ بإزارٍ وطَرَفُه على رأسِه ، بيده حِبالَةٌ يتصيّد بها الطّير ، وهو يُغَنِّى :

القَصْر فالنَّخل فالجَمّاء بينهما أشْهَى إلى القَلبِ من أبواب جَيْرُونِ

وإذا الغلامُ مَعْبَد . فلمّا سَمِع ابن سُرَيج والغريضُ معبدا مَالا إليه ، واستعادَاهُ الصّوت ، فسمعا ما لم يسمعا مثلَه قطّ . فأقبل أحدُهما على صاحبِه وقال : « سمعتَ كاليوم قطّ؟» قال : « لا والله . فما رأيك ؟ » قال ابن سريج : « هذا غناءُ غلامٍ يَصيدُ الطَّيْر ، فكيفَ بمن يكونُ فى الجونة ؟ - يعنى المدينة - أما أنا فثَكلتُ وَالدِى إن لم أرْجع » ، فكرّا راجعَين .

قال معبد : بعث إلىَّ بعضُ أمراءِ الحِجاز - وقد كان جُمِعَ له الحَرَمان - أن أشخص إلى مكّة . فشخصتُ إليها . قال : فتقدّمتُ غلامى فى بعضِ تلك الأيّام ، واشتَدَّ علىَّ الحرُّ والعطَش ، فانتهيتُ إلى خِباء ، وفيه أسْوَدُ ، وإذا حِبابُ ماءٍ قد بُرِّدت ، فمِلْتُ إليه ، فقلت : « ياهـذا ، اسقِنى من هذا الماء » ، فقال . « لا » ، قات : « فائْذَنْ لى فى الكِنِّ ساعةً » فقال : « لا » ، فأنَخْتُ راحلَتى ، ولجأتُ إلى ظلِّها ، فاستَتَرتُ به ، وقلت : لو أحدثت لهذا الأمير(1) شيئًا من الغناء ، أَقْدَمُ به عليه ولعلِّى أيضا إن حَرَّكْتُ لسانى يُبَلُّ حَلْقى برِيقى ، فيخفُّ عنى بعضُ ما أجِد من العطَش : فترنَّمتُ بصوتى : « القَصْرُ فالنَّخل » فلمّا سمعه الأَسْود ما شعرتُ به إلّا وقد احتَملَنى حتّى أدخلنى خِباءه ، ثم قال : « بِأَبِى أنتَ وأمِّى ، هل لكَ فى سَوِيق السُّلت بهذا الماء البارد ؟ » فقلت : « قد منعتَنى أقلّ من ذلك! وشربةُ ماء تُجزِئُنى » فسقانى حتى رَوِيت ، ولحقنى غلامى ، فأقمت عنده إلى وقت الرَّواح . فلما أردتُ الرحلة

(١) الأمير ، الأغانى : الغلام ، المخطوطات .

قال « بأبى أنتَ وأمى ، الحرُّ شديد ، ولا آمَنُ عليك مثلَ الذى أصابَك ، فائْذَنْ لى فى أن أحملَ معك قِربةَ ماء على عنق ، وأسْعى بها معك ، فكلّما عطِشتَ سَقَيتك صَحْناً ، وغنّيتَنى صوتاً » . قال قلت : « ذلك إليك » . فوالله ما فارقنى . يسقينى وأغنّيه ، حتى بلغتُ المنزل .

كان معبد خارجاً إلى مكة ، فسمِع فى طريقه غناءً فى بطن مُرّ ، فقصد الموضع ، فإذا رجلٌ جالسٌ على حَرْفِ بِركة ، فارِقٌ شعرَه ، حسنُ الوجه ، عليه دُرّاعة مصبُوغة بزَعْفران ، وهو يغنّى لابن أبى ربيعة :

حنَّ قلبى من بعدِ ما قد أنابا　　ودعا الهمَّ شجوُه فأجابا

واستثَار المنسِىّ من لَوْعة الـ　　ـحبِّ وأبْدَى الهمومَ والأوصابا

ذاكَ من منزلٍ لسَلْمى خلاء　　لابسٍ من خَلائه جلبابا

عجتُ فيه وقلتُ للركب عوجُوا　　طمعاً أن يردَّ ربعٌ جوابا

فقرَع معبد بعصاه ، وغنّى للفرزدق :

منعَ الرجالَ من الحياة ونفعِها　　حَدَقٌ تقلّبها النِّساء مراضُ

وكأنّ أفئدةَ الرجال إذا رأوا　　حَدَقَ النِّساء لنبلِها أغراضُ

(١) فقال له الرجل : « باللّه أنت معبد ؟ » ، قال « نعم ، أفباللّه أنت ابنُ سُرَيج ؟ » قال : « نعم ، وواللّه لو عرفتك ما غنيت بين يديك » (١) .

كان معبد قد علّم جارية من جوارى الحِجاز ، تُدعى ظَبْيَة ، وعُنِى بتخريجها ، فاشْتَراها رجلٌ من أهل العِراق ، فباعها فى البَصرة ، فاشتراها رجل من أهل الأهواز ، فأُعجِبَ بها ، ثمَّ ماتت بعد أنْ أقامت عنده مدّة ، وأخَذَ جواريه أكثرَ غِنائها عَنْها . وكان لمحبّته إيّاها وتأسّفه عليها لا يزال يسألُ عن أخبارِ مَعْبد ، وأينَ مستقرُّه ، ويُظهرُ التعصُّب له ، والتقديم لِغنائه ، إلى أن بلغ معبداً خبرُه ، فخرج

---

(١) فقال له الرجل . . . يديك » ، ساقط فى المخطوطتين .

من مكّة حتى أتى البَصرة . فلما وردَها صادف الرجلَ وقد خَرَج عنها فى ذلك اليوم إلى الأهواز ، فاكْتَرى سفينةً ينحدِر فيها إلى الأهواز ، فصادف السفينةَ التى اكترى فيها الرجل ، وليسَ يعرف أحدٌ منهما صاحبَه . فأمر الرجُلُ الملّاحَ أن يَجْلِس[1] معه فى مؤخَّر السفينة ، ففعل ، وانحدروا . فلما صاروا فى فم نهر الأُبُلّة ، تغدَّوا وشرِبُوا ، وأمر جَوارِيَه فغنَّين ، ومعبدٌ ساكِت ، وهو فى ثياب السَّفر ، وعليه فَرْوٌ وخُفَّان غَلِيظان ، وزىٌّ جافٍ من زىِّ أهل الحجاز ، فغنَّت إحدى الجوارى فى شِعر النابغة :

بانت سُعاد وأمسَى حَبْلُها انصرَما ... واحتلَّت الغَوْرَ فالأجراعَ من إضَما

فلم تُجِد أداءه ، فصاح بها معبد : « يا جارية ، غِناؤُك ليس بمُسْتقيم » فقال له مولاها ــ وقد غضب ــ : « وأنتَ ما يُدريكَ بالغِناء ما هو ؟ ألَا تُمْسِكُ وتلزَمُ شأنك » . فأمسكَ ، ثم غنَّت :

يا ابنةَ الأزدىِّ قلبى كَئيبُ ... مستهامٌ عِنْدَها ما يُنِيبُ

ولقد قالوا[2] فقلتُ : دَعونى ... إن مَنْ تَنْهَونَ عنه حبيبُ

إنما أبْلَى عِظامى وجِسْمِى ... حبُّها والُحبُّ شىءٌ عجيبُ

أيها العائبُ عندى هَواها ... أنتَ تَفْدى مَن أراكَ تَعيبُ

فأخلَّت ببعضِه ، فقال لها معبد : « يا جارية ، قد أخلَلْتِ بهذا الصَّوت إخلالًا شديداً » . فغضِب الرجلُ وقال له : « ويلكَ ، وما أنتَ ، والغِناء ! ألا تكفُّ عن هذا الفُضول ! » فأمْسَكَ ، وغنَّى الجوارى مليًّا ، حتّى غنَّت إحداهنَّ :

خليلىَّ عوجَا منكما ساعةً معى ... على الرَّبع نقضى حاجةً ونُوَدِّعِ

ولا تُعْجِلانى أن أُلِمَّ بدِمنةٍ ... لعزَّة لاحَت لى ببَيْداءَ بلقعِ

(١) يجلسه ، الأغانى .

(٢) لاموا ، الأغانى .

وقُولا لقلبٍ قد سَلَا: راجع الهوى وللعَيْن :أذْرِى من دُموعكِ أو دَعِى
فلا عيشَ إلا مِثْلُ عيشٍ مَضَى لنا مَصيفاً أقَمْنَا فيه من بَعْدِ مَرْبع

فلم تصنعْ فيه شيئاً . فقال لها معبد : « يا هذه ، أما تقومِينَ على أداء صَوْتٍ واحد ؟ » فغَضِبَ الرجُلُ وقال : « ما أراكَ تَدَعُ الفضُول بوجْهٍ ولا حيلة ، وأقسِمُ إن عاودتَ لأُخرجنَّك من السَّفينة » . فأمسكَ معبد ، حتى إذا سَكَتَ الجوارى سَكْتةً اندفعَ فغنَّى الصوتَ الأوّل حتى فَرَغ منه فصاح الجوارى : « أحسنتَ والله ، أعِدْه» . فقال : « لا والله ، ولا كَرَامة » . ثم غنَّى الثانىَ ، فقُلن لسيِّدهِنَّ: «هذا والله أحسنُ الناس غِناء ، فسَلْه أن يُعيدَه علينا ، ولو مرَّةً واحدةً . لعلّنا نأخُذُه عنه ، فإنّه إن فاتَنا لم نَجِدْ مثلَه أبدا » . فقال : « قد سمعتنَّ سوء ردِّه عليكُنَّ ، وأنا خائفٌ منه ، وقد أسْلَفْناه الإساءة ، فاصبرْنَ حتّى نُدَارِيَه » . ثم غنى الصَّوتَ الثالث ، فتزَلزَلَتْ عليهنّ الأرض، فوثَبَ الرجل، وخرَج إليه وقبَّل رأسَه وقال : «ياسيِّدى أخطَأْنا عليك ولم نعرفْ موضِعَك » ، فقال : « فهبْك لم تعرف موضعى، قد كان ينبغى لك أن تَتَثَبَّتَ ، ولا تسرعَ إلى سوء العِشرة وجَفاء القول » . قال : « قد أخطأتُ ، وأنا أعتذِرُ إليك ممّا جرَى وأسألُك أن تَنْزِل إلى ، وتَخْتلِط بى » . فقال له : « أمّا الآنَ فلا » ، فلم يزل يرفُق به حتى نزَل إليه، فقال له الرجل : « ممّن أخذتَ الغناء؟» فقال : « من بعض أهل الحجاز ، فمن أينَ أخذَه جوارِيك ؟ » فقال : « أخذْنه من جاريةٍ كانت لى ، ابتاعَها رجلٌ من أهل البصرة من مكّة . وكانَتْ قد أخذَتْ من مَعبد ، وعُنِى بتَخْريجها ، فكانت تحلُّ منّى محلَّ الروح من الجسد ، ثم استأثَر الله عزّ وجلّ بها ، وبقِىَ هؤلاء الجوارِى وهنّ تعليمُها ، فأنا إلى الآن أتعصَّب لمعبد وأفضِّلُه وأفضِّل صنعتَه على المغنِّين » . فقال له معبد : « وإنّك لأنتَ هو أفتعرفنى ؟ » قال : « لا » ، فصكَّ معبد بيدَيْه صَلْعَتَه ، ثم قال : « فأنا معبد ، وإليك قدمت من الحجاز ، ووافيت البصرةَ ساعةَ نزلتَ السفينة ، لأقصدَك بالأهواز ، ووالله

لا قصَّرت فى جَوَاريك هؤلاء ، ولأجعلنَّ لك فى كلٍّ واحدة خلَفاً من الماضِية » . فأكبَّ الرجلُ والجوارى على يَدَيه ورِجْليه يقبِّلونها ويقولون : « كتَمْتَنا نفسَك حتى جفونالكَ فى المخاطبة ، وأسَأْنا عِشْرتَك ، وأنتَ سيِّدنا ، ومن نتمنَّى على الله أن نلقاه ثم غيَّر الرجل زيَّه وحالَه ، وخَلَع عليه عدَّة خِلع ، وأعطاه ثلاثمائة دينار وطيباً وهدايا بمثلِها وانحدرَ معه إلى الأهواز ، وأقام عندَه ، حتى حَذِق جواريه ، ثم ودَّعه وانصَرفَ إلى الحجاز .

قال الوليدُ بن يزيد يوماً : « قد اشتقتُ إلى مَعبد » . فوجَّه البريدَ إلى المدينة فأتى معبد ، وأمر الوليدُ ببِركَةٍ قد هيِّئت فمُلئت بالخمر والماء ، وأتى معبد فأُتى به فأجلِس والبركةُ بينَهما وبينهما سترٌ مُرخًى ، فقال : غَنِّنى يامَعْبد :

لَهفى على فِتْيةٍ ذلَّ الزمانُ لهم ... فما أصابهُمُ إلا بما شاءوا
ما زال يعدُو عليهم رَيْبُ دهرهمُ ... حتَّى تفانَوْا وريبُ الدَّهر عدّاء
أبكَى فراقُهم عينى وأرَّقها ... أن التفرُّقَ للأحباب بكَّاء

فغناه إيّاه . فرفعَ الوليدُ السِّتر ، ونزَع مُلاءةً مطيَّبة كانتْ عليه ، وقذف نفسه فى تلك البركة ، فنهل منها نهلة ، وأتى بأثواب غيرها ، وتلقَّوه بالمجامِر والطِّيب ، ثم قال : غنِّنى :

فلو أنَّ دون لقائها ... جَبَلًا مزلَّقة هضابُه
لأتيتُها إن المحبَّ م إذا نأى طال اجتنابه
ولو انّ دونَ لقائِها ... ضِرغامةً كالزجِّ نابُه
لأتيتُها كالسيف صلـ ... ـتاً لا أخافُ ولا أهابُه

فغنّاه ، فرمَى نفسَه فى البِركة ، فنهل نهلةً بان والله فيها النقصان ثم أُتِىَ بأثوابٍ غيرِها ، وتلقَّوه بالمجامِر والطيب . ثم قال : غنِّنى :

ياربعُ مالَكَ لا تجيبُ متيَّما ... قد عاج نحوَك زائراً ومسلِّما

جادَتْكَ كلُّ سحابةٍ هطَّالة حتى تُرى عن زَهْرةٍ متبسِّما
لو كنتَ تَدرِى من دعاكَ أجبتَه وبكيتَ من حُزنٍ عليــه إذاً دماَ

فغنَّاه، فدعا له بخمسةَ عشرَ ألفَ دينار، فصبَّها بين يدَيه، ثم قال: « انصَرِف إلى أهلِك، وا كتُم ما رأيت ». وقيل: إنه قال له يا معبد، من أرادَ أن يزْدَادَ عند الملُوك حُظْوةً فليكتُم أسْرارهم ». فقلت: « ذلك مالا يحتاجُ أميرُ المؤمنين إلى إيصَائى به ».

وقيل لابن عائشة ـ وقد غـنّى صوتاً أحسن فيه ـ: « أصبحتَ أحسَنَ الناس غناءً » قال: وما يمنعُنى من ذلك، وقد أخذتُ من أبى عبَّاد أحدَ عشرَ صوتاً، وأبو عبَّاد مُغَـنِّى أهل المدينة والمقتدَى به منهم ». قال يزيدُ بن عبـدِ الملك يوماً لمعبد: « يا أبا عبَّاد، إنى أريدُ أن أخبرَكَ عن نفسى وعَنك، فإن قلتُ فيه خلافَ ما تعلم فلا تحاش أن تردَّه علىّ، فقد أذنتُ لك ». قال: « يا أميرَ المؤمنين، لقد وضَعَكَ الله بموضعٍ لا يعصِيكَ إلا ضالّ، ولا يردُّ عليك إلا مُخطِىء ». قال: « إن الّذى أجدُه فى غِنائك لا أجدُه فى غِناء ابن سُرَيج، فإنى أجدُ فى غِنائك متانةً، وفى غِنائه انْخِناثةً ولِيناً ». قال: « والذى أكرمَ أميرَ المؤمنين بالخلافة، وارْتَضاه لعِباده، وجعلَه أميناً على أمَّة نبيه صلى الله عليه وسلم[1]، ما عدا صِفَتى وصفَةَ ابن سُريج، وكذا يَقُول وأقول، ولـكن إن رأى أميرُ المؤمنين أن يُعلِمَـنى هل وَضَعنى ذلكَ عندَه فليَفْعل ». قال: « لا والله، ولـكنىّ أوثِر الطربَ على كلِّ شىء ». قال: : « يا سيِّدى، إن كان ابنُ سُرَيج يذهبُ إلى الخفيف من الغناء وأذْهَبُ أنا إلى الـكامل التامّ، فأغرِّبُ أنا ويشرِّقُ هو، فتى نلتَقى؟ » قال: « أفتَقْدِر أن تحكىَ رقيقَ ابن سُريج؟ » قال: « نعم »، فصنعَ من وقتِه خفيفاً وهو:

(١) صلى الله عليه وسلم، زيادة فى المخطوطتين.

ألا لله قـومٌ وَ لَدَتْ أختُ بني سهم
هشامٌ وأبو عَبدِ مَنَافٍ مِدْرهُ الخصم
وذُو الرُمحين أشْبَاكَ على القوَّة والحـزم
فهـذانِ يذُودانِ وذا عن كَثَبٍ يرمي

وغنّاه ، فصاح يزيدُ : « أحسنتَ والله ! أعِدْ » ، فأعاد ، فرد عليه مثل الأول ، وقال : « أعِد » ، فأعاد ، فاستخفَّه الطربُ حتى وثَبَ وقال لجواريه : « افعَلْن كما أفعل » . وجعل يدُورُ في البيت ، ويدُرْن معه وهو يقول :

يـا دارُ دَوِّريـنى يا قَرْقَرُ امسِكيني
آليتِ منـذُ حين حقـاً لتَصْرِمِيني
إلا تُوَاصِليـنى باللهِ فارحميـنى
لم تَذْكُرِي يَميـنى

فلم يزَل يدورُ كما يدورُ الصِّبيان ، ويدُرن معَه ، حتى غُشِيَ عليه ووقَعْنَ فوقَه ، لا يَعْقِل ولا يعقلن . فابتدَرَه الخدم ، فأقامُوا من كان على ظَهره من جَواريه ، وحَمَلُوه وقد كادَتْ نفسُه تذهب[1] .

قال معبد : أرسلَ إليَّ الوليدُ بن يزيد ، فأُشخِصْتُ إليه ، فبينا أنا يوماً في بعض حمَّامات الشَّام إذ دخل رجُلٌ له هَيبة ، ومَعَه غلمانٌ له ، فاشتغل به صاحب الحمّام عن سائر الناس ، فقلتُ : « والله لئن لم أُطْلِـع هذا على ما عندِي لأَكونَنَّ بزجَر الـكلب » ، فاستدبرتُه حيثُ يراني ويسمعُ منِّي ، ثم ترنَّمتُ ، فالتفتَ إليّ وقال للغلمان : « قدِّموا إليه ما هاهنا » . فصار جميعُ ما كانَ بينَ يدَيه عندي ؛ ثم سألني أن أصيرَ معه إلى منزلِه ، فلم يدَعْ من البرِّ والإكرام شيئاً إلا فعلَه . ثم وضَعَ النبيذ ، فجعلتُ لا آتي بحسَنٍ إلا خرجتُ إلى ماهو أحسَنُ منه ، وهو لا يرتاحُ ولا يَحْفل

(١) تذهب ، زيادة في المخطوطتين .

لما يرَى منِّى . فلما طال عليه أمرى قال : « يا غلام ، شيخَنا ، شيخَنا » . فأُتِىَ بشيخ ، فلما رآه هشَّ إليه ، فأخذ الشيخُ العود ، ثم اندفع يغنِّى :

سِلَّوْرُ فى القِدر وَيْلى عَلُوه   جاءَ القِطُّ أكلَهُ وَيْلى عَلُوه

(السِّلَّوْر : السمك) . فجعلَ صاحبُ المنزل يصفّق ، ويضرب برجلَيه طرباً وسروراً . ثم غناه :

وتَرْمِينى حبيبـــةُ بالدُّراقِن   وتَحْسَبُنى حبيبـــةُ لا أَرَاها

(الدُّراقن : نوعٌ من الخوخ) . قال : فـكاد أن يخرُجَ من جلدِه طرباً . قال: فانسلَلْتُ مِنهم فانصرفت ، ولم يُعْـلَم بى ، فما رأيتُ مثلَ ذلك اليومِ غناءً أضيع ، ولا شيخاً أجهل .

مسلم بن محرز

كنيتهُ أبو الخطَّاب ، هو مَوْلى بنى عبد الدّار بن قصىّ . وقيل : اسمُه سَلم ، وقيل : عبد الله . وكان أبوه من سَدَنة الـكعبة ، وأصلُه من الفُرس . وكان أصفر أَجْنَى طويلًا . وقيـل : هو مولى بنى مخزوم . كان يسكن المدينةَ مدّةً ومكّة مدة . وكان يشخَص إلى فارس ، يتعلَّم ألحان الفرس ، وإلى الشام يتعـلَّم ألحان الروم ، ويُسْقِطُ من ذلك ما لا يَسْتَحسن من نَغَم الفريقين ، ويأخذُ محاسِنَها ، يمزِجُ بعضَها ببعض ، ويؤلِّف منها الأغانى ، فأتى بما لم يُسمع مثلُه . وكان يقال له : صنَّاجُ العرب.

وكان ابن محرز قليل الملابسة للنَّاس ، فأخمل ذلك ذِكرَه ، فما يذكَرُ له إلا غِناؤه . ومات بداء الُجذام ، فلم يعاشِر الخلفاء ، ولا خالطَ الناسَ لأجل ذلك .

وهو أوّلُ من غـنَّى بزوجٍ من الشعر . وعمِل بعد ذلك المغنّون اقتـداءً به . وكان يقول : الأفرادُ لا تَتِمُّ بها الألحان .

وقيل : أحسنُ الناس غناءً ابنُ محرز ، كأنه خُلِقَ من كلّ قلب ، يغنّى لـكلّ إنسان ما يشتَهى .

وكان صغيرَ الهمَّة ، لا يؤثِر على الَخلْوَة شيئاً ، ولا يحب معاشرةَ الُملوك ولا الُخلفاء .

محمد بن عائشة

كنيتُه أبو جعفر ، ولم يكن يُعرف له أبٌ ، وكان يُنسَب إلى أمه ، ويلقِّبه من أراد سبَّه ، أو من يُعاديه : « ابنَ عاهةِ الدَّار » . وكان هـو يزعُم أن اسمَ أبيه جَعْفر ، وعائشةُ أمُّه مولاةُ كَثير بن الصَّلت الـكِندىّ حليفِ قُريش . وقيل : هى مولاةُ آل المطَّلب بن أبى وَدَاعَة السّهمى . وقيـل : إنه كان لغير رِشده . وكان إذا أحسَنَ فى غِنائه يقالُ عنه : « أحسَن ابنُ المرأة » قال الوليدُ بن يزيد لابنِ عائشة : « يا محمَّد ، أَلِغيَّةٍ أنتَ ؟ » قال : « كانت أمِّى ماشِطة ، وكنتُ غلاماً ، فـكانتْ إذا دخلَتْ إلى موضع قالوا : ارفعُوا هذا لابنِ عائشة ، فغلَبَتْ على نَسَبى ».

وكان يَفْتِنُ كلَّ من سمِعه . وفَسَدَ فِتيانُ المدينةِ فى زمانه بمحادَثَته ومجالسته . وكان يُضرب المثلُ بابتدائه بالغناء ، فيُقالُ لـكلِّ مبتدئٍ حَسَن * إمّا بقراءةٍ أو غناء : « كأنَّه ابتداء ابنِ عائشة » . وكان أحسنَ الناس ابتداءً وتوسُّطا وقَطعاً ، وكان أحسنَ الناس حلقاً . رأى ابنُ أبى عتيقٍ حَلْقَ ابنِ عائشةَ مخدَّشاً ، فقال : « من فعلَ هذا بك ؟ » قال : « فلان » . فمضى فنزع ثيابَه ، وجلس للرجُلِ على بابه ؛ فلما خرَج أخذ بتلابيبـه وضربَه ضرباً شديداً ، والرجل يقول : « أىَّ شىء صنعتُ بك ؟ » وهو لا يجيبُه ، حتّى بلغ منه وخلّاه ، وأقبل على من حَضَر فقال : « هذا أرادَ أن يكسِر مزاميرَ آل داوُد ، خنَق ابنَ عائشة ، وخدَش حَلْقَه » .

ولم يكن بالمدينةِ بعدَ طُوَيس أعلمَ من ابن عائشة ولا أظرفَ مجلساً ، ولا أكثر طيباً ، وكان يصلُح أن يكونَ نديمَ خليفةٍ أو سميرَ ملك ، وكان غِناؤه أحسنَ من ضَربه ، فـكان لا يمسُّ العود إلا أن يجتمِعَ جماعةٌ من الضرَّاب ، فيضربُونَ عليه ، ويضربُ هو ويغنِّى . فناهيك حسناً .

وكان ابنُ عائشةَ تائِهاً سيِّيءَ الخُلق ، فإن قال إنسان : « تغنَّ » قال : « ألمثلى يُقال هذا ؟ » وإن ابتدأ وقال إنسان : « أحسنتَ » . قال : « ألمثلى يقالُ أحسَنتَ » ، ثم يسكت . فكانَ قليلًا ما ينتفع به . فسال العقيقُ مرَّةً فدخلَ عَرْصةَ سعيدِ بن العاص حتّى ملأها ، فخرج الناسُ إليها ، وخرجَ ابنُ عائشةَ معهم ، فجلس على قَرنِ البئر ، فبينا هم كذلك إذ طَلَع الحسنُ بن الحسنِ بن علىّ ابن أبى طالب عليهم السلام[1] على بَغلة ، وخلفَه غُلامان أسوَدَان ، كأنَّهما من الشياطين، فقال لهما : « امضِيا رويداً حتّى تقفا بأصل القَرن الذى عليه ابنُ عائشة». ففعلا ذلك ، ثم ناداه الحسن : « كيف أصبحتَ يا ابنَ عائشة ؟ » قال:«بخير . فداكَ أبى وأمى » . قال : « انظُر مَن إلى جانبك » . فنظر فإذا العبدان . فقال لـه : « أتعرفهما ؟ » قال : « نعم » ، قال : « هما حرّان لئن لم تغنِّنى مائةَ صوت ، لآمرنَّهما بطرحِك فى البئر ، وهما حرّان لئن لم يفعلا لأقطعنَّ يَدَيْهما » . فاندفع ابنُ عائشة . فكان أوّلُ غنائه فى شعر أبى العِيال الهذلى :

ألا لله درُّك من فتًى قومٍ إذا رَهِبوا
وقالوا : مَنْ فتًى للحربِ يرقُبُنا ويَرْتَقِب
فكنتَ فتاهُمُ فيها إذا تُدعَى لها تَثِبُ

ولم يسكُتْ حتى غنَّى مائةَ صوت . فلم يُسْمَع من ابن عائشة أكثرَ ممَّا سُمِع منه ذلك اليوم ؛ ولا تشاغل أحدٌ من غِنائه بشىء ، ولا انصَرَف أحدٌ لقضاء حاجةٍ حتى فرَغ . وما رُئِىَ يومٌ أحسن منه ، وتبادَر النـاسُ من المدينة وما حَوْلَها ، حين بلغَهم الخبرُ ، لاستِماع غِنائه . فما رُئى جمعٌ فى ذلك الموضع مثلُ ذلك الجمع . وانصَرَفوا حوله ، يزفّونه إلى المدينة زفًّا .

---

(١) رضى الله عنهم ، المخطوطتان .

كان ابنُ عائشةَ يوماً واقفاً فى الموسِم فمرَّ به بعضُ أصحابه ، فقال له « ما يُقيمك هاهنا ؟ » قال : « إنِّى أعرفُ رجلًا ، لو تكلّم لحبس الناس هاهنا ، فلم يذهب أحدٌ ولم يَجِئْ » . فقال له الرجل : « ومن ذاك ؟ » قال : « أنا » . ثم اندفع يغنِّى :

جَرَتْ سُنُحاً فقلتُ لها أجيزِى نوىً مشمولةً فمتى اللقاءُ

بنفسِى مَن تذكّره سَقامٌ أعانيه ومطلبُه عَناءُ

فحُبِسَ الناسُ واضْطَربت المحامِل ، ومدَّت الإبِلُ أعناقها . وكادت الفتنةُ أن تقع . فأُتِىَ به هشام بن عبد الملك ، فقال له : « يا عدوَّ الله . أردتَ أن تفتِن الناس » ، فأمسَك عنه ، وكان تيَّاهاً ، فقال له هِشام : « ارفُقْ » . فقال : « حقٌّ لمن كانت هذه مقدرتُه على القلوب أن يكون تيَّاها » . فضحِكَ منه وخلَّى سبيله .

كتب الوليد بن يزيد إلى يوسف ابن عمر : «أما بعد ، فإذا قرأتَ كتابى فسرِّح إلىَّ حمادَ الرَّاوية على ما أحبَّ من دوابِّ البريد ، وأعطِه عَشْرَة آلافِ درهم ، يتهيَّأْ بها » . فأتاه الكتابُ وحمّاد عنده. قال حمّاد: فنبذَه إلىّ فقلت: « السمعُ والطاعةُ ». فقال : « يا دُكَيْن ، أعطِه عَشْرَة آلاف درهم » ، فأخذتها ، فلما كان اليوم الذى أريدُ الخروج فيه أتيتُ يوسف بن عمر فقال : « يا حمّاد ، أنا بالموضعِ الذى قد عرفتَه من أمير المؤمنين ، ولستُ مستَغنِياً عن ثنائك » . فقلت : « أصلح الله الأمير ، سيبلغُك مَدْحى وثنائى » . فأتيتُ الوليد فاستأذنتُ عليه ، فأذن لى ، وهو على سرير ممهّد ، وعليه ثَوْبان أصْفَران يَقِيئان الزعفران قيئاً ، وإذا عنده معبدٌ ومالك وأبو كامل مولاه ، فتركنى حتى سَكَن رَوْعى . وقال : أنشدنى :

* أمِن المنونِ وريْبها تتوجّع *

فأنشدتُها إلى آخرِها . فقال لساقيه : « اسقِه يا سَبْرة » فسقانى ثلاثَ أكْوُسٍ ، أرعَشَتْ منِّى ما بين الذُّؤابة والنَّعل. ثم قال : « يا مالك ، غنِّنى » :

ألا هل هاجَك الأظعا نُ إذ جاوَزْنَ مطَّلَحا

نَعَمْ وبِوَشْــكِ بيْنهم ... جرى لكَ طائرٌ سُنُحــا

ففعل ثم قال : غنِّني :

جــلا أميَّةُ عنِّي كلَّ مظلمــة ... سَهْلَ الحجاب وأوْفَى بالّذى وَعَدَا

إذا حللتُ بأرضٍ لا أراكَ بها ... ضاقت عليّ ولم أعرِفْ بها أحــدا

ففعل ، ثم قال : غنِّني لجرير :

أتنْسى أن تودِّعنــا سُلَيمى ... بفرعِ بَشامةٍ سُقِيَ البشــام

متى كان الخيــام بذى طلوحٍ ... سُقيتِ الغيثَ أيتها الخيام

بنفسى مَن تجنُّبه عزيزٌ ... عليّ ومِن زيارته لِمَام

ومَنْ أمْسي وأُصْبح لا أراه ... ويطرُقنى إذا هَجَع النيام

فغنّاه فقال: «ياسبرة اسقِني بزُبِّ فِرعون» ، فأتاه بقدحٍ معوَجّ فسقاه عشرين. ثم أتاه الحاجب . فقال : « أصلح الله أمير المؤمنين . الرجل الذى طلبتَه بالباب » . فقال : « أدخِله » . فدخل شابٌّ ، لم أر أحسَنَ منه وجها ، فى رِجله بعضُ الفدَع. فقال : « يا سَبرة ، اسقِه » ، فسقاه كأساً ثم قال : « غنّني لامرئ القيس » :

عَهِدتْني ناشئاً ذا غِــرَّةٍ ... رَجِل الُجمَّة ذا بطنٍ أقبّ

أتْبَعُ الوِلدانَ أُرخى مِئزَرى ... ابنَ عشرٍ ذا قُرَيْطٍ من ذهب

وهى إذ ذاكَ عليهــا مِئْزَرٌ ... ولها بَيْتُ جَوارٍ من لُعَب

فغنّاه ، فنبذَ إليه الثَّوْبَين ، ثم قال : غَنِّني :

طاف الخيالُ فمرحباً ... أهلًا برؤيةِ زينَبا

فغضب معبد وقال : « يا أميرَ المؤمنين ، إنا مُقبلُون عليكَ بأسناننا وأقدارنا ، وإنَّك تركتَنا بمَزْجَر الكلب ، وأقبلتَ على هذا الصبيّ ! » فقال : « يا أبا عبّاد ، ما جهلتُ قدرَكَ ولا سنَّك ، ولكنَّ هذا الغُلام طرَحَنى فى مثل الطناجير ، من حرارة غنائه » . قال حمّاد : فسألتُ عن الغُلام فقيل لى : « هذا ابنُ عائشة » .

حدّث شيخٌ من تَنُوخ قال: كنت صاحبَ سِتْر الوَليد بن يزيد ، فغناه ابنُ عائشة يوماً :

إنى رأيتُ صبيحةَ النَّفْر حُوراً نفَيْنَ عَزيمةَ الصبر
مثلَ الكواكِبِ فى مطالِعِها بعد العشاء أطفْنَ بالبدر
وخرجتُ أبغى الأجرَ محتسباً فرجعتُ موفوراً من الوِزْر

فطرِبَ الوليد حتّى كفر وألحد ؛ وقال : « اسقنى بالسّماء الرابعة ». وكان الغِناء يعمل فيه عملا ضلَّ عنه من بعده . ثم قال : « أحسنتَ والله يا أميرى [1] . أعدْ بحقِّ عبدشمسٍ » فأعاد ، ثم قال : «أعد بحقِّ أميَّة » ، ثم قال : «أعِدْ بحقِّ فلان» ، حتى بلغ من الملوك إلى نفسه فقال : « أعِد بحياتى » ، فأعاد . ثم قام إليه فأكبَّ عليه ، فلم يُبْقِ عضوا من أعضائه حتى قبَّله، وأهوى إلى هَنِه ، فجعل ابنُ عائشة يضمُّ فَخِذيه عليه ، فقال : والله لا تريم [2] حتَّى أقبِّله ، فأبداه له فقبّل رأسه ثم نزَعَ ثيابه وألقاها عليه ، وبقى متجرِّدا حتى أتَوْه بغيرِها ، ووهب له ألفَ دينار ، وحمَلَه على بغلةوقال : « اركبها وانصرف ، فقد تركتَنى على مِثْل المِقلى ، من حرارة غِنائك » . فركبها على بِساطه ، وانصرف .

خرج ابنُ عائشةَ يوماً من عند الوليد بن يزيد ، وقد غنَّاه :

أبعدَكَ مَعْقِلاً أرجو وحِصْنا قدَ اعْيَتْنِى المعاقلُ والحصون

فأطربه ، وأمر له بثلاثين ألف درهم، وبمثل كارةِ القصَّار كُسوةً، فبينا ابنُ عائشةَ يسير إذ نظر إليه رجُلٌ من أهل وادى القُرى ، يشتهِى الغناء ويشربُ النَّبيذ، فدنا من غلامه ، وقال له : « من هذا الراكبُ ؟ » قال : « هذا ابنُ عائشة المغنِّى »، فدنا منه وقال : « جعلت فداك ، أنتَ ابنُ عـائشة ، أمِّ المؤمنين ؟ » قال : « لا ، أنا مَوْلًى

(١) يا أمير المؤمنين ، المخطوطتان

(٢) لا أريم ، المخطوطتان .

لقريش وعائشةُ أمِّى ، وحسبُكَ هذا ، ولا عليك أن تكثر » . قال : « وما هذا الذى أراه بينَ يدَيْكَ من المال والكُسوة ؟ » ، قال : « غنَّيتُ أميرَ المؤمنين صوتاً ، فأطربَه فكفر والحد وترك الصَّلاة ، وأمرَ لى بهذه الكُسوة وهذا المال » . فقال : « جُعلتُ فداك ، فهل تمنُّ علىَّ بأن تُسمِعَنى ما أسمعتَه إيّاه؟ » فقال : «ويلَك! أمثلى[1] تكلم بهذا فى الطريق ! » . قال : « فما أصنع ؟ » قال : « الحقْنى إلى المنزل » ، وحرَّك ابنُ عائشةَ بغلته ، لينقطعَ عنه . فعدَا معه ، حتى وافيا البابَ كفرسَىْ رِهان ، ودخل ابنُ عائشة فمكث طويلا ، طمعاً فى أن يَضْجَر فينصرف ، فلم يفعل ، فلمّا[2] أعياه قال لغلامه : « أدخِله » ، فدخل فقال له : « ويلك ! من أين صبَّك الله علىّ ؟» قال : « أنا رجلٌ من أهل وادى القُرى ، أشتهى الغناء » ، فقال له : « فهل لكَ فيما هو أنفعُ منه ؟ » قال: « وما ذاك ؟ » قال :« مائتا دِينار، وعشرةُ أثواب، تنصرف بها إلى أهلك » . فقال له : «جُعلتُ فداك ! والله لى بُنَيّة ما فى أذنها حَلْقَة فضّة، فضلا عن الذهب وإن الزّوجةَ علم الله ما عليها قميص . ولو أعطيْتَنى جميع ما أمرَ لك به أميرُ المؤمنين على هذه الخلّة والفقر ، وأضعفتَ لى ذلك ، كان الصوتُ أعجبَ إلىّ » . وكان ابنُ عائشة تيّاها ، لا يغنّى إلا الخليفة أو لذى قدر جليل من إخوانه . فعجبَ ابن عائشة منه ، وغنّاه[3] الصوت ، فطرِب طرباً شديداً، وجعل يحرِّك رأسه ، حتى ظنَّ أنَّ عنقَه ستَنْقَصِف ، ثم خرج ولم يَرْزأه شيئاً . وبلغ الخبرُ الوليدَ فسأل ابنَ عائشة عنه ، فجعل يُغيِّب فى الحديث ، فجدَّ الوليدُ به ، فصدَقه عنه ، فأمرَ بطلبِ الرجل ، فطُلِب حتّى أُحضِر ، ووصله صلةً سنية ، وجعله فى نُدمائه ، ووكّله بالسَّقى ، فلم يزل معَه حتّى قُتِل .

---

(١) أمثلى ، المخطوطات .

(٢) حتى لما ، المخطوطات .

(٣) وغناه ، فغناه ، كوبريلى .

كان ابن عائشة إذا غَنَّى فى صوتٍ له من شعر الحطيئة :

عفا من سُلَيمى مُسْحُلانُ فحامِرُهُ تمشَّى بــه ظِلمانُه وجآذره

نظر إلى أعطافه فى كل رنّة ، فسئل يوماً وقد دبَّ فيه الشراب عن ذلك ، فقال: «أنا عاشقٌ لهذا الصوت، وعاشقٌ لقول الحطيئة إن الغناء رقيةُ الزنا ، ويُعجبنى فهمُ الحطيئة ، الغناء ، وليسَ من أهله ، ولا هُو بصاحب طرَب ، وكيف لا أُعجَب به ، ومحلّى منه[1] هذا المحل » . وكان لا يسأله أحدٌ إيّاه إلا غنّاه له ، فمن فَطِن له أكثر سؤاله إياه .

خرج الغَمْر بن يزيد يريدُ الشَّام ، فلما نزل قصر ذى خُشُب شرب بسَطْحه ، فغنَّى ابنُ عائشة صوتاً أطرب الغَمر ، فقال له : « أعِدْه » ، فأبى ، وكان لا يردُّ صوتاً لسوء خُلقه ، فأُمِر به فطُرِح من أعلى السَّطح ، فمات .

وقيل: إنَّ ابن عائشة أقبل من عندِ الوَليد بن يزيد ، وقد أجازَه وأحسَن إليه ، فجاء من عنده بمالم يَأْتِ به أحَد ، فلما قَرُبَ من المدينة نزل بذى خُشُب ، على أربعة فراسخَ من المدينة ، وكان واليها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى ، ولّاه هشامٌ ، وهو خالُه ، وكان فى قَصْره هناك ، فقيل له : « أصلح الله الأمير ! هذا ابنُ عائشةَ قد أقبلَ من عندِ الوليد ، فلو سألتَه أن يقيمَ عندنا اليوم فيُطربَنا ، وينصرفَ من غدا ! » فدعا به فسأله المقام، فأجابه إلى ذلك . فلما أخذُوا فى شُربهم أخرج المخزومىُّ جواريَه، فنظر ابنَ عائشة ، وهو يغمِز جاريةً منهن ، فقال لخادمه : « إذا خرجَ ابنُ عائشةَ يريدُ حاجتَه فارمِ به » . وكانوا يشربون فوق سطحٍ له[2] إفريز، ولا شُرَفات له[3]،

---

(١) ومحله منى ، الأغانى .

(٢) ليس له ، الأغانى .

(٣) وله شرفات ، المخطوطتان ؛ ولا شرفات ، الأغانى .

يشرف على بستان . فلما قام ليبولَ رمى به الخادمُ من فوق السطح ، فمات ، فقبرُه معروف هناك .

وقيل : إنّه لمـا قَدِم من الشام نزل بقصر ذى خُشُب فشربَ فيه ، ثم تطرّقوا إلى ظهر القصر ، فصَعَدوا ، فنظَر فإذا بنسوةٍ يمشِينَ فى ناحيةِ الوادى ، فقال لأصحابه: « هل لـكم فيهن ؟ » قالوا : « وكيف لنا بهنّ ؟ » فنهض فلبِسَ مُلاءةً مدلوكة ، ثم قام على شُرْفَة من شُرَف القصر ، فتغنّى فى شعر ابن أُذَينة ، وهو :

سُلَيمى أزمعت بَيْناً فأينَ تقولُهـا أينا
وقد قالتْ لأترابٍ لهـا زُهْرٍ تلاقَيْنـا
تعالَيْنَ فقـد طاب لنـا العيشُ تعالينـا
وغابَ البَرَمُ الليـ ـلةَ والعَيْنُ فلا عينا
فأقبلْنَ إليهـا مُسْـ ـرِعاتٍ يتعـادينا[1]
إلى مثلِ مهاةِ الرَّمـ ـلِ تكسُو المجلسَ الزّينا
إلى خَوْدٍ منعَّمة حَفَفْن بهـا وفدّينا
تمنَّيْنَ منـاهنَّ فكنّا ما تَمنَّينا

فأقبلْن إليه فطربَ واستدار فسَقط فمات .

وقيل : قَدِم المدينةَ فمات بها . فكان أشْعَبُ يقول : « كم قلتُ لـكم ـ ولـكنْ لا يُغنى حَذَرٌ من قَدَر ـ زَوِّجوا ابنَ عائشة من رُبَيْحَة الشَّمّاسيَّة ، تَخْرج لـكم من بينهما مزاميرُ داود ، فلم تفعلوا » ، وجلسَ يبكى والناسُ يضحكون .

سأل الرشيدُ إبراهيمَ بن سَعْد عمَّن بالمدينة يكره الغِناء ، فقيل له : « مالكُ ابن أنَس » ، فحلف أنه سَمِع مالـكاً يغنى : « سُلَيمى أزمعت بينا » ، فى عُرسِ رجُلٍ من أهل المدينة ، يكنى أبا حَنْظلة .

(١) يتهادينا ، الأغانى .

مرّ ابنُ عائشة بابنِ أُذَينة ، فقال له : « قل أبياتاً هَزَجاً ، أغنّي فيها » فقال له : « اجلِس » ، فجلس ، فقال : « سُلَيمى أزمَعَت بَيْناً » فرواها ابنُ عائشة ، ثم ضَحِك لما سَمِع قوله :

تَمنَّينَ مناهُنَّ فـكنّا ما تمنّينـا

فقال له : « يا أبا عامر ، تمنَّيْنَك لما أقبَل بَخرُك ، وأدبر ذَفَرُك ، وذبُل ذكرك » . فجعل يشتُمه .

كان هشامُ بنُ عبد الملك مكرماً للوليدِ بن يزيد . وكان عبدُ الصَّمد بن عبد الأعلى مؤدِّبا للوليد ، وكان زنديقًا[1] ، فحمل الوليدَ على الشّرب والاستخفافِ بدينه . فاتَّخذ نُدَماء ، وشَرِب وتهتَّك . فأراد هِشامٌ قطعَ النّدماء عنــه فولّاه الموسِمَ سنةَ عَشْرٍ ومائة . فرأى الناسُ منه تهاوناً واستخفافاً بالدين . وأمرَ مولاه عيسى فصلَّى بالنَّاس ، وبعث إلى المغنِّين فغنّوه ، وغنّاه منهم ابنُ عائشة : « سُلَيمى أزْمَعَت بَيْنا » ، فنعرَ الوليد لها نَعْرَةً ، أذِن لها أهلُ مكّة ، وأمر لابنِ عائشةَ بألفِ دينار ، وخلع عليه خِلعاً وحمله ، فخرج من عنــده بأمرٍ أنـكره النّاس ، وأمر للمغنِّين بدونِ ذلك ، فتـكلَّم أهلُ الحجاز فيه ، وقالوا : « هذا وليُّ عهد المسلمين ! » . وبلغ ذلك هشاماً ، فطمِع فى خَلعه ، وأراده على ذلك ، فأبى ، فتنـكَّر هشامٌ للوليد ، فتمادَى الوليدُ فى الشّرب واللّذات ، وأفرط ، وبعث هشامٌ بالوليد وخاصَّته ومواليه ، فنزلَ بالأزْرَق ، على ماء يقال له : الأَغْدَق ، بين أرضِ بَلْقَيْن وفزارة ، حتى مات هشام .

---

(١) مستخفا زنديقا ، المخطوطتان .

محمد بن المولى

هو محمّد بن عبد الله بن مُسلم بن المْوَلَى ، مولى الأنصار ، ثم من بنى عَمــرو ابن عوف . شاعرٌ مقدّم مُجيد ، من مخضرَمى الدّولتين ، ومدّاحى أهْلِهما .

قدِم على المهدىّ ، فامتدحه بعدّة قصائد ، ووصَلَه بصِلاتٍ سنيّة . وكان ظريفاً عفيفاً ، حسنَ الهيئة ، يسكن بقُباَء ، وهو الذى مدح المهدىَّ بقوله :

سَلَا دارَ ليلى هل تُبينُ فَتَنطِق　　　وأنّى تردُّ القولَ بيداءُ سَمْلقُ

وأنى تردُّ القولَ دار كأنّهــا　　　لطول بِلاها والتقادُم مُهْرَق

عفَتْها الرياحُ الرامساتُ مع البِلَا　　　بأذْيَالهــا والرائحُ المتبَعِّق

بكلِّ شآبيبٍ من المــاء خلفَها　　　شآبيبُ ماءٍ برقُها متــألِّق

إذا ريِّقٌ منها هُرِيقَتْ سِجالُه　　　أُعِيدَ لها كَرْفِئٌ ماءٍ وريِّق

فأصبح يَرْمِى بالرَّباب كأنمّا　　　بأرجُلِه فيــه نعـامٌ معلّق

إلى القائم المهدىِّ أعملتُ ناقتى　　　بكلِّ فَلَاةٍ آلُهــا يَتَرَقْرَق

وهى طويلة ، فاستحسنها المهدىُّ ، وأجزل صِلتَه .

وهذه القصيدةُ تُنْسَب للأَعشى ، وهو غَلَط ، وقد التُمِسَت فى شعر كلِّ أعشَى عُرِف من شعراء العرب ، فلم توجــد ، ولا رَوَاها أحدٌ من الرّواة . ووُجِدت لابن المولى .

قال عبدُ الملك بن عبد العزيز : خرجتُ أنا وأبو السّائب المخزومىّ ، وعبيدالله[1] ابن مُسلم ، وابنُ المولى ، وأَصْبَغ بن عبد العزيز بن مروان إلى قُباء ، وابن المولى متنكِّبٌ قَوْساً عربيّة ، فأنشدنا ابن المولى لنفسه :

---

(١) عبد الملك ، المخطوطات .

وأبكِي فلا لَيْلى بكَتْ من صَبَابة　　إلىَّ ولا لَيْلى لذى الوُدِّ تبذُل
وأخْنَع بالعُتبي إذا كنتُ مذنباً　　وإن أذنبتْ كنتُ الذى أتنصّل

فقال له أبو السائب وعبيدُ الله[1] بن مسلم : « من لَيْلى هذه حتى نقودَها إليك ؟ » ، فقال لهما ابنُ المولى : « والله ما هى إلا قَوْسِى هذه ، سمَّيتُها لَيْلى » .

قال المفضَّل الضبّي : وفد ابنُ المولى على يزيدَ بن حاتم بن قبيصة بن المهلّب ، وقد مدّحه بقصيدته التى يقولُ فيها :

يا واحدَ العَرَب الذى　　أمسَى وليسَ له نظيرُ
لو كانَ مثلَك آخرٌ　　ما كان فى الدّنيا فقيرُ

فدعا بخازنه ، فقال : « كم فى بيت مالى ؟ » فقال : « ماقيمته من العَيْنِ والوَرِق عشرون ألف دينار » . فقال : « ارْفعها إليه » ، ثم قال له : « يا أخى ، المعذرة إلى الله وإليك ، والله لوأنَّ فى ملكى أكثرَ منها ما احْتجبتُه عنك » .

وكان ابنُ المولى مدّاحاً لجعفر بن سليمان وقُثَم بن العباس الهاشميَّيْن ، ولكنه استفْرَغ مدحَه فى يزيدَ بن حاتم ، وقال فيه قصيدتَه التى يقولُ فيها :

يا واحدَ العربِ الّذى دانت له　　قَحْطانُ قاطبةً وسادَ نِزارا
رِشْتَ النّدى ولقد تكسَّر ريشُه　　فعلَا النّدى فوق البلادِ وطارا
إنى لأرجو إن لَقِيتُك سالمًا　　ألّا أعالجَ بعدَها الأسفارا

ثم قصدَه بها إلى مصر ، فأنشده إياها ، فأعطاه حتى رَضِى . ومرض ابنُ المولى عندَه مرضاً طويلًا ، وثقُل حتى أشْفَى ، فلما أفاقَ ونَهَضَ دخل عليه يزيدُ متعرِّفاً أخبارَه ، فقال له : « كدتَ والله ألا تعالِجَ بعدَها الأسفار » ، ثم أضعفَ له صلتَه .

---

(١) عبد الله ، المخطوطات .

قال ابنُ المولَى : كنت أمدح يزيدَ بن حاتم ، ولا أعرفُه ولا لقيتُه ، فلما وَلّاه المنصورُ مِصر أخذ على طريق المدينة ، فلقيتُه فأنشدتُه وقد خرج من مسجِد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أن صار إلى مسجد الشجرة ، فأعطانى رِزْمَتَىْ ثياب ، وعشرةَ آلافِ دينار ، فاشتريتُ بها ضِياعاً تغلُّ ألفى[1] دينار .

قال بعضُ موالى الحسَنِ بن زَيْد : قَدِمَ ابن المولى على المهدىِّ ، فمدَحَه بقصيدتِهِ التى يقولُ فيها :

وما قارع الأعداء مثلُ محمَّد ... إذا الحربُ أبدَتْ عن حُجول الكواعِب
فتًى ماجدُ الأعْراقِ من آل هاشمٍ ... تَبَحْبَحَ منها فى الذُّرى والذَّوائب
أشمُّ من الرَّهط الذين كأنَّهم ... لدى حِنْدِس الظَّلماء زُهْر الكواكب
إذا ذُكِرَتْ يوماً مناقبُ هاشمٍ ... فإنَّكم منها بخيرِ المنَاصِب
ومَنْ عِيبَ فى أخلاقه ونِصَابه ... فما فى بَنِى العبَّاس عَيْبٌ لعائب
وإن أميرَ المؤمنين ورهطَه ... لأهلُ المعالى من لُؤَىِّ بن غالِب
أولئك أوْتادُ البلادِ ووارثو ... النبىِّ بأمر الحقِّ غير التَّكاذُب

ثم ذكر آل أبى طالب فقال :

وما نَقَموا إلا المودَّة منهمُ ... وأن غادَروا فيهم جزيلَ المواهب
وأنَّهم نالوا لهم بدمائهم ... شفاءَ نفوسٍ من قتيلٍ وهاربِ
وقامُوا لهم دُونَ العِدَا وكَفوهُمُ ... بسُمر القنَا والمرهَفَاتِ القواضِب
وحامَوْا على أحسابهم وكرائمٍ ... حسانِ الوجوهِ واضحاتِ الترائب
وإنَّ أميرَ المؤمنين لعائدٌ ... بإنعامه فيهم على كلِّ تائبِ
إذا ما دَنَوا أدناهُمُ وإذا هَفَوْا ... تجاوَزَ عنهم ناظراً فى العواقب

---

(١) ألف ، الأغانى

شفيقٌ على الأقصَيْنَ أن يركبوا الأذى[1] فكيفَ به في واشِجاتِ الأقارب

. فوصله المهديُّ صلةً سنيَّة ، وقدِمَ المدينة ، فأنفقَ وبنى دارَه ، ولبس ثياباً فاخرة ، ولم يزَلْ كذلك حتَّى نفِد ما جاء به ، ثم دَخَل على الحسن بن زيد . وكانتْ له عليه وظيفةٌ في كلِّ سنة ، فأنشده قصيدتَه التي يقول فيها ، يمتدحه بها :

ولو أنَّ امرأً ينال خلودًا بمحلٍّ ومَنصِبٍ[2] ومكان
أو ببيتٍ ذُراه تَلْصَق بالنَّجْم قِرانًا في غير بُرج قِران
أو بمَجدِ الحياة أو بسماحٍ أو بحلمٍ أوْفَى على ثَهْلان
أو بفَضْلٍ لنَالَه حَسَنُ الخيْـر بفَضل الرَّسُول ذي البرهان
فضلُه واضِحٌ برهط أبي القا سِم رهطِ اليقين والإيمانِ
هم ذَوُو النّور والهدى وأولو الأمـ ـرِ وأهلُ البُرهان والفُرقان
معدِن الحقِّ والنبوّة والعدلِ إذا ما تَنَازع الخصمان
وابنُ زيدٍ إذا الرجالُ تجارَوْا يومَ حفلٍ وغاية ورِهان
[3]سابقٌ مغلقٌ مُجيزٌ رهان ورِثَ السَّبق من أبيه الهجان[3]

فلما أنشدَه إيّاها دعا به خالياً ، وقال له : « ياعاضَ كذا من أمِّه ، إذا جئتَ الحجازَ تقول هذا ، وإذا مضيتَ إلى العِراق تقول :

وإنَّ أميرَ المؤمنين ورهطَه لأهل المعالى من لؤىَّ بن غالب
أولئك أوتاد البلاد ووارثو النـ ـبي بأمر الحق غير التكاذب

فقال له : « أتُنْصفني يا ابنَ رسول الله أولا ؟ » قال : « بلى » ، قال : ألَمْ أقل (وإنَّ أميرَ المؤمنين ورهطَه) ؟ ألستُم رهطه ؟ » قال : دع هذا ، أنت لم تقدِرْ أنْ

---

(١) الردى ، الأغانى .

(٢) منسب ، المخطوطات .

(٣) سابق . . . الهجان ، ساقط فى المخطوطتين .

يَنْفُقَ مديحُك وشعرُك إلا بتهْجين أهلي[1] ، والطعنِ عليهم والإغراءِ بهم حيث تقول :

وما نَقَموا إلا المــودَّة منهم ... وأن غادرُوا فيهم جزيلَ المواهب

وأنَّهم نالُوا لهم بدمائِهم ... شفاءَ نفوسٍ من قتيلٍ وهارب»

فوجَم ابنُ المولى وأطرق ، وقال : « يا ابنَ رسـولِ الله ، إن الشاعر يقول ويتقرَّبُ بجُهده » ، ثم قام وخرج من عنـده مُنكسِراً . فأمر الحسنُ وكيلَه أن يحمل إليه وظيفتَه ، ويزيدَه مثلَها ، ففعل ذلك ، فقال ابنُ المولى : « والله لا أقبلُها وهو عليّ ساخط ، فأما إن قرَنها بالرِّضا قبلتُها ، وأمّا إن أقام على أمره رَدَدْتُها » . فعاد الرسولُ إلى الحسَن ، فأخبرَه ، فقال له : قل له : قد رضيتُ فاقبلها » . فدخل على الحسن ، فأنشدَه قولَه فيه :

سألتُ فأعطاني وأعطى ولم[2] أسل ... وجاد كما جادت غــوادٍ رَوَاعدُ

فأقسم لا أنفــكُّ أُنشِد مدحَــه ... إذا جَمَعتْني في الحجيجِ المشاهــد

لما انصرف يزيدُ بن حاتم من حرب الأزارِقة وقد ظفر ، خَلع عليه الخليفةُ وعقد له لواءً على كُوَر الأهواز . وسائر ما افتَتَحه . فدخل عليه ابنُ المولَى ، فاستأذَنه في الإنشاد ، فأذن له ،فأنشدَه قصيدته التي يقول فيها من مديحه :

تصدَّى رجالٌ في المعالي ليلحَقُوا ... مَدَاكَ وما أدركتَه فتذَبْذَبُوا

ورُمتَ الذي راموا فأذْلَلْتَ صَعبه ... وراموا الذي أذْلَلْتَ منه فأصْعَبوا

كواكبُ دَجْنٍ كلّما انقضَّ كوكب ... بَدَا منهم بَدْرٌ منيرٌ وكوكب

ومَنْصِب آباءٍ كرامٍ نَمَاهُمُ ... إلى المجــد آباءٌ كرامٌ ومنصِب

---

(١) أهل البيت المخطوطتان .

(٢) ولم ، الأغاني : فلم ، المخطوطات .

فأمر له يزيد بعشرة آلاف درهم وفرسٍ مُلجَم وخلعة ، وأقسم على من بحضرته من أهله أن يُجيزوه بما يُمكن كلّ واحد عنهم ، فانصرفَ بملء يدَيه .

لما قَدِم عبد الملك بن مَرْوان المدينة ، وكان ابنُ المولى يكثر مدحَه ، وكان يسأل عنه من غير أن يكون التقَيا . فلما بلَغَه سؤالُ عبد الملك عنه فى المدينة قَدِمها ، بعد أن رَحَل عبدُ الملك عنها ، فأتبعه فأدركَه بإضَم بذى خُشُب[1] ، بين عَيْن مروان وعَين الحديد ، وهما جميعاً لمروان . فالتفت عبدُ الملك إليه ، وابن المولى على نجيبٍ متنكباً قوساً عربيّة فقال له عبدُ الملك : « ابنُ المولى ؟ » قال : « لبَّيك ياأمير المؤمنين » . قال : « مرحباً بمن نالنا شكرُه ، ولم ينله منا فعلٌ » ، ثم قال : « أخبرنى عن لَيْلى التى تقولُ فيها :

وأبكى فلا لَيْلَى بكت من صَبابَة   إلىّ ولا ليلى لذى الود تبذُل

والله لئن كانَتْ حرّةً لأزوِّجنّكها ، وإن كانت أمةً لأبتاعنَّها لك بما بلَغَتْ »

فقال : « كلّا يا أمير المؤمنين ، والله ما كنت لأبتغِيَ زوجَةَ حرٍّ ولا أمته[2] ؛ والله ما ليلَى إلا فرَسِى هذه ، سمَّيتُها ليلى ، لأنسُبَ[3] بها ، فإن الشاعر لا يستطابُ إذا لم يَنْسُب[4] : فقال له عبد الملك : « ذلك والله أظرفُ لك » . فأقام عنده يومَه وليلتَه ، يُنشده ويسامِره . ثم أمر له بمال وكُسوة ، وانْصرف إلى المدينة .

وقف ابنُ المولى على طريقِ جعفر بن سليمان وقد ركِب فناداه :

كم صارخٍ يدعُو وذى فاقةٍ   ياجعفرُ الخيراتِ ياجعفرُ

---

(١) أو بذى خشب ، المخطوطتان .

(٢) ما كنت متغزلا أبدا فى حرة ولا أمة ، المخطوطتان ؛ ما كنت لأذكر حرمة حر أبدا ولا أمته ، الأغانى .

(٣) لأتشبب ، المخطوطتان .

(٤) يشبب ، المخطوطات .

أنتَ الذى أحْيَيْتَ بذلَ النّدى ... وكان قد ماتَ فـلا يُذكَرَ
(١سَليلُ عباسٍ ولىّ الهـدى ... ومَن بهِ فى المحـل يُسْتَمطر
هذا امتداحِك عقيـد الندى ... أشهد بالمجـد لك الأشقر١)

أربعة أبيات ، فأمر له بأربعة آلاف درهم .

(١) سليل . . . الأشقر ، البيتان ساقطان فى المخطوطتين ، والشطر الأخير غير واضح فى كبريلى .

موسى شهوات

هو موسى بن يسار ، مَوْلَى قُرَيش ، واختُلِف فى وَلائه ، فقيل : إنّه مَوْلى بنى سَهم ، وقيل : مولى بنى تَيْم بن مرّة ، وقيل : مولى بنى عدىّ بن كعب . وكنيته أبو محمد ، وشَهَوات لقبٌ غلب عليه ، لأنه كان سَؤُولا ملحًّا مُلحفاً ، وكان كلَّما رأى مع أحدٍ شيئاً يعجبُه ، من مالٍ أو متاعٍ أو ثوبٍ أو فَرَسٍ يتباكى ، فإذا قيل له : « مالَك ؟ » قال: « أشْتَهى هذا » . فسمِّىَ شَهَوات . وقيل : إنَّه كان من أذْرَبيْجَان ، وأنَّه نشأ بالمدينة ، وكان يجلُب إليها القَنْد والسكَّر ، فقالت امرأةٌ من أهْل المدينة : « ما زال مُوسى يأْتِينا بالشَّهوات » ، فغلبتْ عليه .

عشِق مُوسى شهوات بالمدينة جاريةً ، واستهام بها ، وساوَمَ مولاها فيها ، فاستامَه عشرةَ آلاف درهم، فجمع كلّ ما يمكنه ، واستماحَ إخوانه ، فبلغ كلّ ما جمعه أربعةَ آلاف درهم ، فأتى سَعيدَ بن خالد العُثمانىّ ، فأخبره بحاله ، واستعان به ، وكان صديقَه ، فدافَعَه واعتلّ عليه ، فخرج من عنده ، فلما وَلَّى تمثَّل سعيدٌ بقول الشاعر :

كَتبتَ إلىَّ تَستْهدِى الجوارى   لقد أنْعظْتَ من بلدٍ بعيــــد

فأتى سعيدَ بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أَسِيد ، فأخبره بقصَّته فأمر له بستة آلاف درهم ، فلما قبضها ونهض قال له : « اجلِس . إذا ابتَعْتَها بهذا المال وقد أنْفَذت كلّ ما تملك ، فبأىِّ حال تعيشان ؟ » ثم دفع إليه ألفَى درهم ، وطيباً وكسوة ، وقال: « أصلح بهذا شأنكما» . وقيل إنَّ سعيدَ بن خالد بن عمرو بن عثمان أتى سُليمان ابن عبد الملك فقال : « يا أمير المؤمنين ، أتيتُك مستعْدِياً » ، قال : « ومَنْ بك ؟ » قال : «موسى شهوات » ، قال : « ماله ؟ » ، قال : « سمَّع بى واسْتَطَال فى عرضى» . قال : « يا غلام ، علىّ بموسى » ، فأُتِىَ به ، فقال : « ويلَك ، سمَّعتَ به واسْتَطلت فى عرضه ؟ » ، فقال : « ما فعلتُ يا أميرَ المؤمنين ، ولكنِّى مدحتُ ابنَ عمه ،

فغضِبَ هو » . قال: « وكيف ذلك ؟» «قال» علِقْتُ جاريةً ، لم يبلغ ثمنَها جِدَتى فأتيته وهو صَديق ، فشكوتُ إليه ذلك ، فلم أجد عندَه شيئًا ، وتمثَّل عند خروجى :

كتبتَ إلىَّ تستَهدى الجوارى ... لقد أنعَظْتَ من بلدٍ بعيــد

فأتيتُ ابنَ عمِّه سعيدَ بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فشكوتُ إليه ما شكوتُه إلى هذا ، فقال : تعودُ إلىَّ ، فتركتُه ثلاثًا ، ثم أتيته فسهَّل من إذنى . فلما استقرَّ بى المجلس قال ياغلام .. قل لقيِّمتى هاتِى وديعتى . ففُتح بابٌ بين بيتين[1] ، فإذا أنا بالجارية ، فقال : « هذه بغيتُك ؟ » قلت : نعم ، فِداكَ أبى وأمِّى » . قال . « اجلس » ، ثم قال « يا غلام ، قل لقيِّمتى: هاتى ظَبْيَةَ نفقتى » ، فنثرت بين يدَيْه ، فإذا فيها مائةُ دينار ، وليس فيها غيرها ، فردّت فى الظَّبْية ، ثم قال : « عتيدةَ طِيبى » ، فأُتِى بها ، فقال : « مِلْحَفةَ فِراشى » ، فأُتِى بها . فصيَّر ما فى الظَّبية وما فى العَتِيدة فى حواشى المِلْحَفة ، ثم قال : « شأنَكَ بهواكَ ، واستَعِن بهذا عليه ». فقال له سليمانُ بن عبد الملك : « فذلك حين تقول ماذا ؟ قال : قلت :

أبا خالدٍ أعنِى سعيدَ بن خـالدٍ ... أخَا العرف لا أعنى ابنَ بنتِ سعيد

ولـكنَّنى أعنِى ابنَ عائشةَ الذى ... أبو أبوَيْه خـالدُ بنُ أسِيد

عَقيدُ النَّدى ما عاشَ يرضَى به النَّدى ... فإن ماتَ لم يَرْضَ النــدى بعقِيد

دَعُوه دَعُوه إنَّكم قد رَقَدتمُ ... وما هو عن أحسابِكم برَقود

على وجهــهِ يلقى الأيامِنَ واسمِــه ... وكلُّ جوارى طَـيْرِه بسُعود

أبان وما استَغنى عن الندى[2] خيرُه ... أبان بهِ فى المهد قبل قُعود

ترى الجندَ والسادات[3] يغشَون بابه ... لحـاجـاتِهم مــن سيِّدٍ ومسود

(١) يديه ، المخطوطتان .

(٢) البذل ، المخطوطتان .

(٣) الجنَّاب ، الأغانى.

فيعطِي ولا يعطَى ويُغشَى ويُجتدَى ... وما بابُه للمجتدِى بشديد
قتَلتَ أناساً هكذا فى جلودِهم ... من الغَيْظِ لم تَقْتُلْهم بحديد
يعيشون ما عاشُوا بغيظٍ وإن تحِن ... مناياهمُ يوماً تحِن بحقُود
فقل لبُغاة العُرف : قد مات خالدٌ ... وماتَ الندى إلا فُضُول سعيد

فقال سليمان : « ياغلام . . علىّ بسعيدِ بن خالد » . فجِىء به ، فقال : « أحقّ ما وصفك به موسى ؟ » قال : « وما ذاك ؟ » ، فأعاد عليه . فقال : « قد كان ذلك » . قال : « فما طوّقتك عواقبُ هذه الأفعال ؟ » قال : « دَيْنَ ثلاثينَ ألفِ دينار » . قال : « قد أمرتُ لك بها وبمثلها ومثلها وبثلث مثلها[1] » ، فحملَ إليه مائة ألفِ دينار . فوُجد سعيدُ بن خالد بعد ذلك فقيلَ له : « ما فعلَ المالُ الذى وصلَك به سُليمان ؟ » ، قال: « ما أصبحتُ أملكُ منه خمسين ديناراً » . فقيل : « ما اغتاله ؟ »» ، قال : « خَلَّة من صديق ، وَفاقةٌ من ذى رَحِم » .

أما قولُه «ابن بنت سعيد» فإن أمّ سعيد بنِ خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان آمنةُ بنت سعيد بن العاص ، وعائشةُ أم عقِيد النَّدى بنتُ عبد الله بن خَلَف الخزاعيّة أختُ طلحة الطّلَحات وأمُّها صفيَّة بنتُ الحارث بن طَلْحة بن أبى طلحة ، من بنى عبد الدّار بن قُصَىّ ، وأمّ أبى عقيد النّدى رَملة بنت معاوية بن أبى سفيان .

ولما أنشدَ موسى شهوات هذه الأبياتَ لسليمان قال : « يا أمير المؤمنين اتّفقت أسماؤهما وأسماء آبائهما[2] ، فتخوّفتُ أن يذهَبَ شعرى باطلًا ففرّقتُ بينهما بأمهاتهما[3] ، فأغضبه أن مدحتُ ابن عمِّه ، فقال سليمان : « بلى والله ، لقد هجوته؛ وما خَفِىَ علىَّ ذلك ، ولكنى لا أجد إليك سبيلًا » فأطلقه .

---

(١) بها وبثلاثين مثلها ، المخطوطتان ، بها وبمثلها وبثلثى مثلها ، كوبريلى .
(٢) اتفق اسماهما وأسما أبويهما ، الأغانى .
(٣) بأمهما ، الأغانى .

وكان سعيدُ بن خالد هذا تأخذُه الموتة[1] فى كلِّ سنة ، فأرادوا عِلاجَه ، فتكلَّمت صاحبتُه على لسانه وقالت : « أنا كريمةُ بنتُ مِلحان سيِّد الجنّ ، وإن عالجتموه قتلتُه ، ووالله لو وَجَدْتُ أكرمَ منه لهَوِيتُه » .

قال موسى شَهَوات لمعبَد : « أريدُ أن أمتدِحَ حمزة بنَ عبد الله بن الزبير بأبيات وتغنِّىَ فيها ، ويكون ما يعطيه بينى وبينك » . قال : « نعم » ، قال موسى :

شاقَنِى اليومَ حبيبٌ قد ظَعَن ... ففؤادِى مُسْتَهامٌ مرتهَن
حمزةُ المبتاعُ بالمال الندى ... ويَرَى فى بَيْعه أنْ قد غُبِن
هو إن أعطى عطاءً فاضلا ... ذا إخاء لم يكدِّره بمَنّ
وإذا ما سَنَةٌ مُجْحِفَةٌ ... بَرَت النَّاس كَبَرْىٍ بالسَّفَن[2]
حَسَرَتْ عنه نقيًّا عرضُه ... ذا بلاء عند مُخْناها[3] حسن
نور صدقٍ بيِّنٌ فى وجهه ... لم يدنِّس ثوبه لونُ الدَّرن

كان حمزةُ فتًى جواداً كريماً ، على هَوَج كان فيه . ولاه أبوه العِرَاقيْن وعزل مُصْعَباً .

كانت فاطمةُ بنتُ عبد الملك بن مرْوان تحتَ عمر بن عبد العزيز ، فلما مات عنها تزوَّجها داوُد بن سليمان بن مروان ، وكان قبيحَ الوجه ، فقال فى ذلك موسى شهوات:

أبعد الأغرِّ بن عبد العزيز ... قريعِ قريش إذا يُذكر
تزوَّجتِ داود مختارةً ... ألاَ ذلك الخَلَفُ الأعور

فكانت إذا سخطَت عليه تقول : « صدَق والله موسى ، إنك الخَلَفُ الأعور» ، فيشتمُه داود ، وغلَبَ ذلك عليه ، فصار يعرف بالأعور .

---

(١) الصرع ، المخطوطتان .
(٢) كما يبرى السفن ، المخطوطتان .
(٣) محياها ، المخطوطتان .

وقف موسى شَهَوات ليزيدَ بن خالد بن يزيد بن معاوية على بابه بدمشق ، وكان فتىً جواداً شجاعاً ، فلما ركب وثَبَ إليه ، فأخذ بعنان دابّته ، ثم قال :

قم فصوِّتْ إذا أتيْتَ دمشقاً : يا يزيدُ بنَ خالد بن يزيـــد
يا يزيدُ بنَ خالدٍ إن تُجِبْنِي يلقَنى طائرِى بنَجْمِ سَعيد[1]

فأمر له بخمسة آلاف درهم وكُسوة ، وقال له : كلّما شئتَ نادِنا نُجِبْك .

سأل موسى شَهَوات بعضَ آل الزُّبير حاجةً ، فدفعه عنها . وبلغ ذلك عبدَ الله ابن عمرو بن عثمان ، فبعثَ إليه بمـــا كان التمسه من الزُّبَيرىّ من غير مَسْألة . فوقَفَ عليه موسى وهو جالسٌ فى المسجد فقال :

ليس فيما بدَا لنـــا منكَ عَيْبٌ عابَه النّاس غير أنّك فان
أنتَ نعم المتـــاعُ لو كنتَ تبقى غيرَ أن لا بقاءَ للإنســـان

---

(١) نجم السعود ، الأغانى .

مالك بن أبى السمح

اسمُ أبى السَّمح جابرُ بن ثعلبةَ الطائى ، أحدُ بنى ثُعَل ، ثم أحدُ بنى عمرو ابن دَرْماء ، وكُنْيَتُه أبو الوليد . وأمُّه قُرشيَّة من بنى مَخْزوم ، وقيل : بل أمُّ أبيه ، وهو الصحيح . وقيل : هو مالك بن أبى السَّمح بن سُلَيمان بن سِماك بن أوْس بن سَعد بن أوْس بن عَمْرو بن دَرْماء ، أحد بنى ثُعَل وأم أبيه بنت مدرك بن عَوف بن عُبَيْد بن عَمرو بن مخزوم .

كان أبوه منقطعاً إلى عبد الله بن جَعفر ، ولمـــا ماتَ أوصاه على مالك ، وكان يتيماً فى حجره ، يكنفه[1] ويمونه ، فأدخلَه وسائرَ إخوته فى دِعوة بنى هاشم ، فهم معهم إلى اليوم .

وكان أحْوَلَ طويلًا أجْنَأ[2] . وأدركَ الدولة العباسية . وكان منقطعاً إلى بنى سُليمان ابن علىّ ، ومات فى خلافة أبى جعفر المنصور .

وكان مــالكُ بن أبى السَّمح من طـيِّئ ، فأصابتهم حَطْمةٌ فى بلادهم بالجَبَلَيْن ، فقدمت به أمُّه وبإخوته ، ولا شىء لهم . فـكان يسأل الناسَ على بابِ حمزةَ بن عبد الله ابن الزبير . وكان معبد منقطعاً إلى حمزة ، فسمِع مالكٌ غِناءه ، فأعجبَه واشتهاه ، فـكان لا يفارقُ بابَ حمزة ، يسمع غناءَ معبدٍ إلى اللَّيل ، فلا يطوفُ بالمدينة ولا يطلب من أحد شيئاً ، وينصرفُ إلى أمِّه ، ولم يكسب شيئاً ، فتضربُه أمّه ، وهو مع ذلك يترنَّم بألحان مَعبد ، فيؤديها دوراً دوراً ، فى مواضع صَيحاته وإسجاحاتِه ، ونبراته نَغَماً بغير لفظٍ ولا روايةِ شىء من الشِّعر ، وجعل حمزةُ كلَّما غدا أو راح رآه ملازماً لبابِه ،

---

(١) يكفيه ، المخطوطتان ؛ يكفله الأغانى .

(٢) احنى ، الأغانى .

فقال لغلامه يوماً : « أدخِلْ هذا الغلام » ، فدخل ، فقال له حمزة : « من أنت ؟ » قال له : « غلامٌ من طيٍّ ، أصابتْنا حَطمة بالجبَلَين ، ومعى أمىٍّ وإخوَتى ، وإنّى لزمتُ بابَك ، فسمعتُ صوتاً أعجبَني فلزمتُ بابك من أجله » . قال : « فهل تعرفُ منه شيئاً ؟ قال : أعرفُ لحنه كلَّه ، ولا أعرف الشِّعر » . قال : « إن كنتَ صادقاً إنَّك لفَهِم » . ودعا بمعبد ، فأمره أن يغنِّيَ صوتاً ، فغنّاه ، ثم قال لمالك : « هل تستطيعُ أن تقولَه ؟ قال : « نعم ! » قال : « هاتِه » ، فاندَفع فغنَّاه ، فأدَّى نَغَمَه بغير شِعر يؤدِّي[1] مَدَّاته ، وليَّاته ، وعَطفَاتِه ، ونَبراتِه ، وتعليقاته ، لا يَخرِم منه حرفاً ؛ فقال لمعبد : « خُذ هذا الغلامَ إليك ، وخرِّجْه فليكونَنَّ له شأن » . فقال معبد : « ولِمَ أفعلُ ذلك ؟ » قال : « لتكونَ محاسِنُه منسوبةً إليـك ، وإلا عداك إلى غيرك . فـكانت محاسـنه منسوبة له » . فقال : « صدقَ الأميرُ وأنا أفعلُ » فقال حمزة لمالكٍ يوماً : « كيف وجدتَ ملازمتَك لبابنا ؟ » قال : « أرأيتَ إن قلتُ فيكَ غير الذى أنتَ له مستحقٌّ من الباطل ، أكنتَ ترضى به ؟ » قال : « لا » ، قال : « وكذلك لا يسرُّك أن تُحمَدَ بما لم تفعل » ، قال : « نعم » قال : « والله ما شَبِعتُ على بابك شَبْعةً قطّ ، ولا انقلبتُ إلى أهلى منه بخَير » . فأمرَ له ولأمِّه ولإخوته بمنزل ، وأجرى عَلَيهم رزقاً وكُسوةً ، وأمر لهم بخادمٍ وعبدٍ يَسْقِيهم ، وأجلس مالكاً معَه فى مجالسه ، وأمر معبداً بمُطارَحَتِه ، فلم يلبثْ أن مَهَر وحذِق ، فسمِعَ امرأةً يوماً تنوحُ على زيادةَ الذى قتلَه هُدْبَة بن خَشْرم بشعر أخى زيادة :

أبعدَ الذى بالنَّعفِ نَعفِ كُوَيْكبٍ ... رهينةِ رمْسٍ فى ترابٍ وجَنْدلِ
أذكَّرُ بالبُقيا علـى مَنْ أصابنى ... وبُقيايَ أنِّى جاهدٌ غـيرُ مؤتلى
فلا يَدْعُنى قـومى لزيدِ بن مالكٍ ... لئن لم أعجِّلْ ضَربةً أو أعجَّلِ
وإلَّا أنَلْ ثأرى من اليوم أو غـدٍ ... بنى عمِّنا فالدهرُ ذو متطوَّلِ
أنَختُمْ علينا كلْـكلَ الحرب مرةً ... فنحن مُنيخُوها عليـكم بكلْـكلِ

(١) فودى ، كبرلى .

فغنّى فى هذا الشعر لَحْنَيْن ، أحدُها نحا فيه نحوَ مَعْبد ، ولحناً نحا فيه نحو نَوْح المرأة ورقّقه وأصلحه ، ثم دخل على حمزة ، فقال : « أيها الأميرُ ، قد صنعتُ غناءً فى شعرٍ سمعتُ أهلَ المدينة ينشدونه أعجبَنى ، فإن أَذِنَ الأميرُ غنّيتُه » . قال : « هاتِ » ، فغنّى اللحنَ الذى نحا فيه نحوَ معبد . فطرب حمزةُ (١)وقال : « هذا الغناء غناء معبد بطريقته » ، قال : « لاتعجلْ أيُّها الأمير ، واسمَعْ منى شيئا ليس من غِناء مَعْبد ولا من طريقته » ، فغنّاه اللحن الآخر ، فطرب حمزة(١) وألقى عليه حلّةً كانت عليه ، قيمتها مائة دينار ؛ ودخَلَ معبد ، فرأى حُلّةَ حمزة عليه فأنكَرَها ، وعلِمَ حمزةُ بذلك ، فأخبَرَ معبداً بالسَبَب ، وأمر مالكاً فغنّاه ، فغضب معبدٌ لما سمع الصوتَ الأوّل ، وقال : « قد كرهتُ أن آخذَ هذا الغلام ، فيتعلّمَ غنائى ويدَّعيَه لنَفْسه » . فقال له حمزة : « لا تعجَلْ ، واسمع غناءً ليس من شأنك ولا من غِنائك » . فغنّاه الصوتَ الآخر ، فأطْرَق معبد ، فقال له حمزة : « والله لو انفَرد بهذا لضاهاك ، ثم يتزايَدُ على الأيّام . وكلما كبِر وزاد شخْتَ أنتَ ونقصت ، فلأن يكونَ منسوباً إليك أجمل » ؛ فقال له معبد وهو منكسر(٢) : « صدق الأمير » فأمَر حمزةُ لمعبدٍ بخِلعة من ثيابه وجائزة ، حتى سكنَ وطابتْ نفسُه . فقام مالكٌ على رِجْلَيه ، وقبّل رأسَ معبد ، وقال : « يا أبا عبّاد ، أساءكَ ما سمعتَ منّى ؟ والله لا أغنّى لنفسِى شيئاً أبداً ما دمتَ حيًّا ، وإن غلَبَتْنى نفسى وغنّيتُ فى شعرٍ استحسنْتُه ، لأنسبَنَّه إليك ، فطب نفساً وارضَ عنّى » . فقال له معبد : « أتفعلُ هذا وتَفِى به ؟ » قال : « إى والله وأزْيَد » . فكان مالكٌ إذا غنّى صوتاً وسُئل عنه قال : « هذا لمعبد ، ما غنّيتُ لنفسى شيئاً قطّ ، وإنّما آخذ غِناءَ مَعْبَد ، فأنقلُه إلى الأشعار وأحسّنه .

---

(١) وقال . . . فطرب حمزة ، ساقط فى المخطوطتين .

(٢) متنكر ، المخطوطات .

وفى مالكٍ يقول الحسينُ بنُ عُبَيْد الله بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب :

لا عيشَ إلا بمالكِ بن أبى السَّمح فلا تَلْحَنى ولا تلُمِ
أبيضُ كالبَدْرِ أو كما يلمعُ البا رق فى حالكٍ من الظُّلَمِ
من ليس يَعْصيكَ إن رشَدْتَ ولا يهتِكُ سِتر الإسلام والُحرَم
يصيبُ من لذّة الكريم ولا يجهلُ آىَ الترخيص فى اللَّمَم
يا رُبَّ ليلٍ لنا كحاشية الـ بُرْدِ ويومٍ كذاكَ لم يَدُم
نعِمتُ فيه ومالكَ بن أبى السَّمح الكريمَ الأخلاق والشِّيَم

فقال مالك : « لا والله ، وإن غَوَيْتَ لا أعصيك » . وعارض هذا الشعرَ الوليدُ بنُ يزيد ، فقال فى مالك :

أحْوَلُ كالقِرد أو كما يرقُبُ السَّارقُ فى حالكٍ من الظُّلَمِ

قال ابن عائشة : حَضَرْنا الوليدَ بن يزيد يوم قُتِل ، وكان مَعَنا مالكُ بن أبى السَّمح ، وكان من أحْمَق الَخلق . فلما قُتِلَ الوليد قال : « اهرب بنا » ، فقلت : « وما يريدون منا ؟ » قال : « وما يؤمِّنك أن يأخذوا رأسَيْنا ، فيجعَلوا رأسَه بينهما ، ليحسِّنوا أمرَهم بذلك ؟ » . قال ابنُ عائشة : « فما رأيت منه[1] عقلا قط قبل ذلك اليوم .

قال أبو عبيدة : سمعتُ منشداً يرثى مالكاً :

يا مالُ إنّى قَضَتْ نفسى عليكَ وما بينى وبينَكَ من قُرْبَى ولا رَحِمِ
إلا الّذى لك فى قلبى خُصِصْتَ به من المودّة فى سِترٍ وفى كَرَمِ

(١) منه : زيادة عن الأغانى .

محمد النميرى

هو محمّد بن عبد الله بن نُمَيَر بن خَرَشَة[1] بن ربيعة بن الحارث بن حبيبٍ بن مالك بن حطيط[2] بن جُشَم بن قسيّ ، وهو ثقيف .

شاعر غَزِلٌ ، مولَّد ، ومنشؤه بالطائف ، من شعراء الدّولة الأموية ، كان يهوى زينبَ بنتَ يوسف بن الحكم ، أختَ الحجّاج بن يوسف ، وله فيها أشعارٌ كثيرة ، أمُّهما الفارعَة بنتُ همَّام بن عُروة بن مسعود الثّقفى . وكانت عند المغيرة بن شُعبة ، فرآها يوماً باكراً وهى تتخلّل فقال : « لئن كان من غداء لقد جَشِمتِ ، وإن كان من عَشاء لقد أنتنتِ » ، وطلّقها . فقالت : « أبعدَك الله ، فبئسَ بعلُ المرأةِ الحرّة أنتَ ، والله ما هو إلّا من شَظِيَّة من سِواكٍ ، استَمسَكت بينَ سِنّين من أسنانى » . ووَلدَت الفارعةُ أمُّ الحجاج من المُغيرة بن شُعبة بنتاً ، فماتَتْ فنازَع الحجّاجُ عُروةَ بن المغيرة إلى ابنِ زياد فى مِيراثها ، فأغلظ الحجّاج لعروة ، فأمرَ به ابنُ زياد ، فضُرِبَ أسواطاً على رأسه وقال « ألأبى عبد الله تقول هذه المقالة ؟ » فكان الحجّاج حاقداً على آل زياد ، وينَفيهم من آل أبى سفيان ، ويقول : « آل أبى سُفيان سُتْهٌ حُمْشٌ ، وآل زياد رُسحٌ جُرْد .

وكان قد اعتلّ يوسفُ بن الحكم علّة ، فطالَت علّتُه ، فنذرت زَيْنَب إن عُوفىَ أن تمشىَ إلى بيت الله الحرام . فعُوفىَ ، فخرجت فى نِسْوةٍ ، فقطعَن بَطْنَ وَجّ فى يوم وهو ثلاثمائة ذراع ، جعلَتْه منزلةً ، لثِقَل بدنها ، فلم تقطَع ما بينَ مكّة والطائف إلا فى شهر ، فبيناً هى تسيرُ إذ لقيَها إبراهيمُ بن عبدالله النُّمَيرىّ ، أخو محمّد بن عبدالله

---

(١) حوشب ، المخطوطتان .

(٢) حنظلة ، المخطوطتان .

منصرفاً من العمرة . فلما قَدِم الطائف أتى أخاه محمّداً ، يسلِّم عليه ، فقال له : « ألكَ علمٌ بزينب ؟ » قال : « نعم لقيتها بالهَمَاء فى بَطْن نَعمان » . قال : « ما أحسبك إلا قلتَ فيها شيئاً » . قال : « نعم ، قلت بيتاً واحداً ، وتناسَيْتُه ، كراهةَ أن ينشبَ بيننا وبين إخوتنا شرّ » . فقال محمّد هذه القصيدة ، وهى أوّل ما قاله :

تضوّع مِسْكاً بطن نَعمان إن مَشَتْ ... به زينبٌ فى نِسوة عَطِراتِ

تهادَيْنَ ما بين المحصَّب من مِنًى ... وأقبلْنَ لا شُعْثاً ولا غَبِراتِ

مَرَرْنَ بفخّ ثمّ رُحْنَ عشيَّةً ... يلبِّين للرحمن معتمِرات

يخمِّرنَ أطراف البنَان من التقُى ... ويخرجن جُنْحَ اللَّيل معتجِراتِ

تقسَّمْنَ لبِّى يوم نَعمان إنَّنى ... رأيتُ فؤادى عارِمَ النَّظَراتِ

أعانَ الذى فوق السَّماوات عرشُه ... مواشِىَ بالبطحاء مُؤْتَجِراتِ

ولما رأتْ رَكْبَ النُّميرىِّ أعرضَتْ ... وكنَّ مِن أنْ يلقينه حَذِرات

فأدْنَيْنَ ، حتّى جاوَزَ الرَّكب، دونها ... حجاباً من القسىِّ والحِبَرات

فكدتُ اشتياقاً نحوها وصبابةً ... تقطَّعُ نفسى إثْرها حَسَرات

فبلغت هذه القصيدةُ عبدَ الملك ، فكتب إلى الحجّاج : « قد بلغَنى قولُ الخبيثِ فى زينب ، فالْهُ عن أمره ، واضربْ عن ذكره ؛ فإنك إن عاتبتَه أطمَعْتَه ، وإن عاقبْتَه صدَّقته » . وكان قد هرب من الحجّاج إلى عبد الملك ، واستجارَ به ، فقال له عبد الملك : « أنْشِدنى ما قلتَ فى زينب ، فأنشدَه إلى أن انتهى إلى قوله :

ولمّا رأت رَكبَ النميرىّ أعرضَتْ

فقال له عبدُ الملك : « وما كانَ رَكبُكَ يا نميرىّ ؟ » ، قال : « أربعة أحمِرَة ، كنتُ أجلبُ عليها القَطِران ، وثلاثة أحْمِرة صُحبتى تحمل البعر » ؛ فضحكَ عبدالملك

حتّى استغرب ، وقال : « لقد عظّمتَ أمرَكَ وأمرَ ركبك » . وكتب إلى الحجّاج : « لا سبيلَ لك عليه » فلمّا أتاه الكتاب وضمه ولم يقرأه ، ثم أقبلَ على يزيدَ بن مسلم فقال: « أنا بَرِيءٌ من بيْعةِ أمير المؤمنين ، لئن لم ينشدني ما قال في زينب لآتينّ على نفسه ، ولئن أنشدني لأعفونّ عنه ، وهو إن أنشدني آمِن » ؛ فقال يزيد : «وَيلكَ أنشده »، فأنشده :

تضوّع مِسْكاً بطنُ نَعمان أن مشت ... به زينب في نِسوةٍ خَفِراتِ

فقال له : « كذبتَ والله ، ما كانت تتعطّر إذا خرجت من منزلها » ، ثم أنشدَ حتّى بلغ إلى قوله :

ولما رأت ركبَ النميرى راعها ... وكنّ من أن يلقينَه حَذِرات

فقال حقّ لها أن ترتاع ، لأنّها من نِسوة خَفِراتٍ صالحات ، ثم أنشد حتى بلغ إلى قوله[1] :

مررن بفخ[2] رائحاتٍ عشيّةً ... يلبّين للرحمن معتمرات

فقال : « صدقت ، لقد كانت حجّاجة صوّامة » ، ثم أنشدَه إلى أن بلغ إلى قوله :

يخمّرنَ أطرافَ البنانَ من التّقى ... ويخرجْنَ جُنحَ اللّيل معتجرات

فقال : « صدقت ، هكذا كانت تفعل ، وكذا تفعل المرأة المسلمةُ الصّالحة » ثم قال له: « ويحكَ ! إنّى أرى ارتياعَك ارتياعَ مُريب ، وقولَك قولَ بريءٍ وقد أمَّنتُك » ؛ ولم يعرِض له .

ومما قاله فيها :

طربتَ إلى أظعانِ زينبَ باللّوى ... وأعْوَلتَها لو كان إعوالُها يُغنى

(١–١) ولما رأت ... بلغ إلى قوله ، ساقط في المخطوطتين .
(٢) بفج ، كبريلي ؛ بوج ، المخطوطتان .

فوالله لا أنساكِ زينبُ ما دعت مطوّقةٌ ورقاءُ تشجواً[1] على غُصن
ومرسلةٍ فى السرِّ أن قد فضحتَنى وصرّحتَ باسمى فى النَّسيب ولم تَكْنِ
وأشمتَّ بى أهلى وجلَّ عشيرتى ليهنِكَ ما تهواه إن كان ذا[2] يهنى
وقد لامَنى[3] فيها ابنُ عمِّىَ ناصحاً فقلتُ له خُذْ لى فؤادِىَ أو دَعْنى

فلما بلغ زينبَ هذه الأبياتُ بكَتْ ، فقالت لها خادمتُها : « ما يبكيك ؟ » فقالت : « أخشى أن يسمعَ قولَه هذا جاهلٌ بى لا يعرفُنى ، فيراه حقًّا » .

لما بعث عبدُ الملك بن مرْوان الحجَّاج بن يوسف الثقَفى لحرب ابن الزّبير قام إليه يوسفُ بن الحكم ؛ فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن غلاماً منّا قال فى ابنتِى زينبَ ما لا يزال الرجلُ يقوله فى ابنةِ عمِّه ، وإنّ هذا ـ يعنى الحجاج ـ لم يزل يهمُّ به ، وأنتَ الآن تبعثُه إلى هُناك ، ولا آمَنُ عليه . فدعا الحجَّاج وقال له : « إن محمداً النُّميرىَّ جارى ، ولا سبيلَ لك عليه ، فلا تعرِضْ له » .

وكان الحجّاج قد عرَضَ على زينبَ أن يزوِّجها محمَّد بن القاسم بن الحكم بن أبى عَقِيل ، وهو ابنُ سبعَ عشرةَ سنة ، وهو يومئذٍ أشرفُ ثقفىٍّ فى زمانه ، أو الحكمَ بن أيُّوب بنَ الحكم بن أبى عَقيل ، وهو شيخ . فاختارت الحكَمَ ، فزوَّجها إياه ، فأخرجَها إلى الشّام . وكان الحجّاج قد وجَّه بزينب مع حُرَمه إلى الشّام ، لما خرج ابنُ الأشعث ، خوفاً عليهنَّ ، فلما قُتِل ابنُ الأشعث كتب إلى عبد الملك ابن مرْوان بالفتح ، وكتب مع الرّسول كتاباً إلى زينب ، يخبرها الخبر ، فأعطاها الكتاب ، وهى راكبةٌ على بَغْلةٍ فى هَوْدج ، فنَشَرَتْه تقرؤه[4] ، فسمِعَتْ البغلةُ

(١) بعدما دعت إلفها ورقاء تشجو ، المخطوطتان .
(٢) ذا : ما ، المخطوطتان .
(٣) لام ، كوبريلى .
(٤) لتقرأه ، المخطوطتان .

قَمْقَمَة الـكتاب ، فنفَرَت وسقطت زينب ، فاندقّ عضُدُها ، وتَهرّأ جوفها ، فماتت ، وعاد رسوله بالمتح ، بخبر وفاتها(١) ، ورثاها النميرى .

ولما تأيّمت عائشةُ بنتُ طلحة كانت تقيم بمـكّة سنةً ، وبالمدينة سنة ، وتخرج إلى مالٍ لها عظيم بالطائف ، وقصْرٍ كان لها هناك ، تتنَزّه فيه وتجلسُ بالعشيَّات ، فتناضِل بين الرُّماة ، فمرّ بها محمدُ النميرىّ الشاعر فسألت عنه ، فنُسِبَ لها ، فقالت : « أئتونى به » ، فأتَوْها به ، فقالت : « أنشِدنى ممّا قلتَ فى زينب » ، فامتنع ، وقال : « بنتُ عمِّى ، وقد صارت عظاماً بالية » . قالت : « أقسمتُ عليك إلّا فعلت » ، فأنشدها :

تضوَّع مسكاً بطنُ نَعمان أنْ مشت به زينبٌ مع نِسوةٍ خَفِرات

فقالت : « والله ما قلتَ إلا جميـلا(٢) ، ولا ذكرتَ إلا كرماً وطيبا(٣) ، ولا وَصَفْتَ إلا ديناً وتقى(٤) . أعطوه ألفَ درهم » . فلما كانت الجمعـةُ الأخرى تعرَّض لها . فقالت : « علىّ به » ، فأُحْضِر(٥) ، فقالت : « أنشدنى ممـا قلتَ فى زينب » ، قال : « أَوَ أنشِدُك من شِعر الحارث بن خالد فيك ؟ » ، فوثب مواليها إليه ، فقالت : « دعوه فإنّه أراد أن يستَقِيد لابنةِ عمِّه ، هاتِ ممّا قال الحارثُ فِىَّ » . فأنشدها :

ظعنَ الأميرُ بأحسَنِ الخلق وغدَوا بلُبِّك مطلَعَ الشرق

فى البيتِ ذى الحسَبِ الرفيع ومن أهل التُّقى والبرِّ والصِّـدق

---

(١) رسوله بالفتح فأخبره بوفاتها ، المخطوطتان .

(٢) خيرا ، المخطوطتان .

(٣) ودينا ، المخطوطتان .

(٤) دينا ونقاء ، المخطوطتان .

(٥) زيادة عن الأغانى .

بيضاء من تيم كَلِفتُ بها   هذا الجنونُ وليس بالعِشق
ما صبَّحت زوجاً بطَلْعتها   إلا غدا بكواكب الطلق

فقالت : « والله ما ذكرَ إلا جميلًا ، ذكر أنّى إذا صبَّحت زوجاً غَدوتُ مع أمير تزوَّجنى إلى الشّرق ، وأنّى أحسنُ الخلق فى البيت ذى الحسَبِ الرفيع ، أعطوه ألفَىْ درهم ، واكسوه حُلَّتين ، ولا تَعُد إلى إتياننا يا نميرىّ » .

متيم الهاشمية

صَفْراء من مولَّدات البَصرة ، وبها نشأت وتأدَّبت وغنّت ، وأخـذت عن إسحاقَ وعن أبيه . اشتراها عليُّ بن هشام . وكانت من أحسَنِ النّاس وجْهاً وغِناءً وأدباً ، تقول الشعر ، يُسْتَحْسَن من مِثْلِها ، وحظِيتْ عند عليٍّ بن هِشام حُظوَةً شديدة ، وهى أمُّ وَلَدِه كلِّهم .

كان عند عليٍّ بن هِشام بِرذَوْنٌ أشهبُ قرطاسىّ فى نهاية الحسن والفراهة ، وكان على بن هشام معجباً به ، وكان إسحاقُ بنُ إبراهيم يشتهيه شهوةً شديدة ، وعرّض لعليٍّ بن هشام مِراراً فى طلبه ، فلم يسمح به ، فصار إسحاق إلى علىّ بن هشام يوماً ، وكانت جاريتُه متيَّم قد صنعت لحناً فى هذا الشعر :

فلا زِلْنَ حَسْرَى ظلَّعا لِمَ حَمَلْنَها إلى بلدٍ ناءٍ قليـــلِ الأصادقِ

فاحتبسه علىّ بن هشام ، وبعث إلى متيَّم ، يأمُرها أن تجعلَ صوتَها فى صدر غنائِها ، ففعلت ، فأطربتْ إسحاقَ إطراباً شديداً ، وجعل يسْتَعيده ، ويستَوْفيه ، ليزيدَ فى طربه ، وهو يُصغى إليه ويتَفَهَّمه ، حتى صحّ له ، ثم قال لعلىّ : « ما فعل البِرذَونُ الأشهب ؟ » قال : « على ما عهِدتَ من حُسنه وفراهته » ، قال : « فاخترْ منّى خلَّةً من اثنتين ، إما أن طبت[1] نفساً لى به ، وحملتنى[2] عليه ، وإما أن أبيتَ فأدَّعى والله هذا الصوتَ ، وقد أخذتُه ، أفتُراك تقولُ إنه لمتيَّم ، وأقولُ أنا إنَّه لى ، فيؤخذُ بقولك ويتركُ قولى ؟ » فقال : « لا والله ، ما أظنُّ هذا ولا أراه . يا غـلام قُدِ البِرذَون إلى منزل إسحاق مسرجاً ملجماً[3] ، ولا باركَ الله له فيه » .

---

(١) تطيب ، المخطوطتان .

(٢) وحملتنى ، المخطوطتان .

(٣) مسرجا ملجما ، ساقطة فى المخطوطتين .

غضبت متيّم مرّةً على عليّ بن هشام ، فترضّاها فلم ترضَ ، فكتب إليها : « الإدلال يدعو إلى الملال ، وربَّ هَجر دعا إلى صبر ، وإنما سمِّى القلبُ قلباً لتقلُّبه ، ولقد صدق العبّاسُ بن الأَحنف فى قوله :

ما أُرانى إلّا سأهجرُ من لَيْـ ... سَ يرانى أقوى على الهِجران
ملّنى واثقاً بحسن إخائى[1] ... ما أضرَّ الوفاءَ بالإنسان »

فخرجَتْ إليه من وَقْتِها ، ورَضِيت .

قال علىُّ بن هشام : لما قدِمت جدّتى شاهك من خُراسان قالت : « اعرِض جَواريكَ علىّ » ، فعرضتُهُنَّ عليها ، وجلسنا على الشراب ، فأطالت جدّتى الجلوس، فلم أنْبَسط إلى جوَارِىَّ كما كنتُ أفعل ، فقلتُ هذين البيتين :

أَتَبْقَى على هذا وأنتِ قريبةٌ ... وقد منع الزُّوَّارُ بعضَ التكلّم
سلامٌ عليكم لا سلامَ مُوَدِّع ... ولكن سلامٌ من حبيبٍ متيَّم

وكتبتهما فى رقعة ورميتُها إلى متيّم ، فأخذتْها ونهضَتْ إلى الصّلاة ، ثم عادت وقد صَنعَتْ لحناً ، فغنّته ، فقالت شاهك : « ما أرانا إلا قد ثقّلنا عليكم اليوم » ، وأمرت الجوارىّ فحملوا مِحَفَّتها ، وأمرت بجوائزَ للجوارى ساوَت بينهنّ ، وأمرت لمتيَّم بمائة ألف دِرهم .

قال ميمونُ بن هارون : مرّت متيّم فى نسوة ، وهى مستخفية ، بقصرِ علىّ ابن هشام بعد أن قُتِل ، فلما رأت بابه لا أنيسَ به ، وقد علاه التّراب والغُبْرة ، وقد طُرِحت فى أفْنِيته الزبل وقفت عليه وقالت[2] :

يا منزلاً لم تبلَ أطلالُه ... حاشا لأطلالِكَ أن تبلى
لم أبكِ أطلالَك لكنّنى ... بكيتُ عَيْشى فيكَ إذ وَلّى

---

(١) قد جدا بى إلى الجفاء وفاتى ، الأغانى

(٢) ثم قالت ، المخطوطتان .

قد كان لى فيكَ هوًى مرّةً   غَيَّبه الثُرب وما مُلّا

فصرتُ أبكى جـاهداً فقدَه   عِنْدَ ادِّكارى حيثما[1] حلى

والعيشُ أولى ما بكاه الفـَتى   لابدّ للمحزون أن يَسْـلى

ثم بكت حتى سقطتْ من قامَتِها ، وجعلتْ النسوةُ يناشِدْنها : « الله الله فى نفسِك ، فإنّك الآنَ تؤخذين » . فبعدلأْى مّا احتُملت تتهادى بين امرأتين ، حتى جاوزت الموضع .

(١) حيثما ، الأغانى ، حيث قد ، المخطوطتان .

مسافر بن أبى عمرو

هو مُسافِر بن أبى عَمْرو بن أميَّة ، أخو أبى مُعَيْط ، أبان ، أمُّهما آمِنَةُ بنتُ أَبَان ابن كُلَيب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعة ، وكُنية مسافر أبو أميَّة ، ومسافِر وأبو معيط أبانُ أخوان لأبٍ وأمّ ، وهما أخوا عُمُومتهما أبى العاص وإخوته من بنى أمية ، الذين أمُّهم آمِنة لأنّ أبا عمرو تزوَّجها بعد أبيه . وكان سيِّداً جواداً جميلًا سخياً ، وهو أحدُ أزواد الرّكب ، سمُّوا بذلك لأنّهم كانوا لا يدَعون غريبا ولا محتاجا ولا مارًّا فى طريق يجتازُ بهم إلا أنزلوه وتكفلّوا به ، حتى يظعَن .

وهو أحدُ شُعَراء قريش ، وله شعرٌ ليس بالكثير. وكان يناقِضُ عُمارة بنَ الوليد الذى أمر النجاشيُّ السواحرَ فسحرنه . وكان يهوى هندَ ابنة عُتبةَ بن عبد شمس ، فخطبها إلى أبيها ، بعد فراقِها الفاكِهَ بن المغيرة ، فلم تَرْضَ ثروتَه وماله ، فوفد إلى النّعمان يستعينهُ على أمره ، ثم عاد ؛ فكان أوّل من لقِيه أبُو سفيانَ بن حرب ، فأعلمه بتزويجه هندا ، وكانت قد عَشِقت مسافراً أيضا ، واتُّهم بها ، فحملت منه، فلما بان حملُها أو كاد قالت له: « اخرج» ، فخرج حتى أتى الِحيرة ، فأتى عَمْرو بن هِند ، وكان ينادِمُه وأقبل أبو سفيان ابن حرب إلى الِحيرة فى بعض ما كان يأتيها ، والقى مسافراً فسأله عن حال قُريش ، فأخبرَه وقال له فيما يقول: «وتزوّجتُ هندَ ابنةَ عتبة»، فدخلَتْه من ذلك علّة ، واسْتَسْقى بطنُه ؛ فقال :

ألا إنّ هنداً أصبحتْ منك محرماً ... وأصبحتَ من أدنى حموّتها حما

وأصبحتَ كالمسلوب جَفْن سلاحهِ ... يقلِّب بالكفَّين قوساً وأسهما

فدعا له عَمْرو بن هند الأطبّاء ، فقالوا : « لا دواء له إلا الكيّ » ، فقال له : « ما ترى ؟ » قال : « افعل » ، فدعا الذى يعالجُه ، فأحْمَى مكاوِيَه ، فلما صارت

كالنّار قال : « ادعُ أقواماً يُمسِكُونه » فقال مسافر : « لستُ أحتاجُ إلى ذلك » ، فجعل يضعُ المكاوِيَ عليه ، فلما رأى الطبيبُ صبرَه ضَرَطَ الطبيبُ ، فقال مسافر :

* قد يضرِط العَيْرُ والمكواةُ في النّارِ *

فذهبت مثلًا . ولم يزدَدْ إلا ثِقَلا ، فخرج إلى مكّة ، فلما انتهى إلى موضع يقال له هُبالة مات فدُفِن بها ، ونُعِيَ إلى قريش ، فقال عند ذلك أبو طالب بن عبدالمطلب يرثيه :

ليتَ شِعري مُسافِرَ بنَ أبي عمـ ـرٍ ولَيْتٌ يقولها المحزون
يرجعُ الركبُ سالمين جميعاً وخليلي في مَرْمَسٍ مدفون
بورِكَ الميِّت الغريبُ كما بو رِكَ غصن الريحان والزيتون
ميْت صدقٍ على هُبالةَ قد حا لت فيافٍ من دونه وحُزون
مدرَهٌ يدفع الخصومَ بأيدٍ وبوجهٍ يزينه العِرْنِين
كم خليلٍ رُزِئْته وابنِ عمٍّ وحميمٍ قضَت عليه المنون
فتعزَّيتُ بالتأسِّي وبالصبـ ـرِ وإني بصاحبي لضنين

وقيل : إنَّ البيتين اللذين هما : « ألا إن هندا أصبحت منك محرما » قالهما هِشامُ بن المغيرة . وكانت عنده أسماء بنت مُخرِّمَة النهشليّ ، فولدت أبا جهل والحارث ، ثم غضب عليها هشام ، فجعلها مثلَ ظهر أمِّه ــ وكان هذا أولَ ظِهارٍ في العرب ، فجعلته قريشٌ طلاقا ــ ثم أرادت الانصرافَ إلى أهلها ، فقال لها هشام : « أين الموعد ؟ » قالت : « الموسم » ، قال لها ابناها : « أقيمي معنا » ، فأقامت معهما . فقال المغيرةُ بن عبدالله ــ وهو أبو زوجها ــ : أما والله لأزوجنَّك غلاماً ، ليس بدونِ هشام ، فزوَّجها أبا ربيعة ابنَه الآخر ، فولدت عيَّاشاً وعبدَ الله . فذلك قولُ هشام :

تحدثنا أسماء أن سَوْفَ نلتقي أحاديث طَسْم ، إنمَّا كنت حالما
ألا أصبحت أسماء حِجْراً محرَّما وأصبحتَ من أدنى حُموَّتها حما

وهو أحد من قتله العشق .

وقيل إنه لم يَسْتَسق ، وإنّما لما قَدِم على النعمان أكرمَهَ واستَظْرفه ، ونادَمه وضربَ عليه قبّةً من أدَم حمراء . وكان الملكُ إذا فعَلَ ذلك برجل ، عُرِف قدرُه منه ومكانُه عنده ، ثم قدِم أبو سفيانَ بن حرب فى بعض تجارَته ، فسأله مسافرٌ عن حال الناس ، فعرفه أنه تزوّج هندا . فاضْطَرب مسافرٌ حتى مات .

وأما خبرُ هند وطلاق الفاكِه بن المغيرة لها فإن الفاكِه كان له بيتٌ للضِّيافة بارزٌ مِن البيوتِ يغشاه النّاسُ من غير إذن ، فخلا البيتُ ذاتَ يوم ، فاجتمعَ هو وهندٌ فيه ، ثم نهض لبعض حاجاته ، وأقبل رجلٌ ممّن كان يغْشى البيتَ فولَجَه ، فلما رآها رجع هارباً ، وأبصره الفاكِهُ فأقبل إليها فضربها برجله ، وقال لها : « من هذا الذى خَرَج من عندِك ؟ » قالت : «ما رأيتُ أحداً ، ولاانتبهتُ حتىأنْبهْتَنى». فقال لهـا : « ارجعى إلى أبيك » ؛ وتـكلّم الناس فيها ، فقال لها أبوها : « إن الناسَ قد أكثروا فيكِ ، فأنبئينى نبأَك . فإن يكُن الرجل صادقاً دسَسْتُ إليه من يقتله ، فتنقطعَ القالةُ عنك ، وإن كان كاذباً حاكمْته إلى بعضِ كهّان اليمن » . فقالت : « لا والله ما هو علىّ بصادق » . فقال له : « يا فاكه . . إنّك قد رَمَيت ابنتى بشىء عظيم ، فحاكمْنى إلى بعضِ كهّان اليمن » . فخرج الفاكِهُ فى جماعةٍ من بنى مخزوم ، وخرج عُتبة فى جماعةٍ من بنى عبد مناف ، ومعهم هِند ونسوة فلمـا شارفوا البِلاد قالوا : غداً نردُ على الرّجل ، فتنكَّرت حالُ هند ، فقال لها أبوها : « إنى لأرى ما بكِ من تنكّر الحال ، وما ذاك إلا لمكروهٍ بك » . فقالت : « والله يا أبتِ ما ذاك لمكروهٍ عندى ، ولـكنّى أعرف أنـكم تأتون بَشَراً ، يخطِئ ويُصيب ، ولا آمَنُه أن يَسِمَنى ميسماً ، يكون علىّ سُبّة » . فقال لها : « إنّى سوف أختبره لك » . فصفَر لمُهره حتى أدْلَى ، ثم أدخل فى إحليله حبّة حِنطة ، وأوكأ عليها بَسْير . فلما أصبحوا قَدِموا على الرّجل ، فأكرمهم ونحر لهم ، فلما تغدّوا قال له عتبة : « قد جئناكَ فى أمر ، وقد خبأتُ لك خَبْأً أختبرُك به ، فانظر ما هو »

قال: « ثَمَرَةٌ فى كَمَرَة » . قال : « أريد أَبْيَنَ من هذا » ، قال : « حبَّة بُرٍّ فى إحليل مُهْر » . قال : « صدقتَ ، انظُر فى أمرِ هؤلاء النِّسوة . فجعل يدنو من إحداهُنَّ فيضربُ يدَه على كتِفِها ويقول لهـا : « انهضى » ، حتى دَنا من هند فقال لهـا : « انهَضى غير وسحاء[1] ولا زانية ، ولتلدِنَّ ملـكاً يقال له معاوية » . فنهض الفاكه ، فأخذ بيَدها ، فنترت يدها من يده ، وقالت : « إليكَ عـنِّى ، فوالله لأحرصَنَّ أن يكون ذلك من غيرِك » ، فتزوَّجها أبو سفيان .

(١) كذا فى جميع المخطوطات ، وفى الأغانى : رسحاء .

ميمون الأعشى الأكبر

هو مَيْمون بن قَيْس بن جَندل بن شَرَاحِيل بن عَوْف بن سعد بن ضُبَيعة بن ثعلبة بن الحِصْن بن عُكابَة بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب ابن أفصَى بن دُعْمِيّ بن جَديلة بن أسَد بن ربيعة بن نِزار . كُنيتُه أبو بَصير . وكان يقال لأبيه قَيْس بن جَنْدَل قتيلُ الجوع ، سمِّى بذلك ، لأنّه دخل غاراً استظلّ فيه من الحرّ ، فوقعت صخرةٌ عظيمة من الجبل ، فسدَّت فمَ الغار ، فمات فيه جوعاً. فقال جُهُنّام ــ واسمُه عمرو ، وكان من قومه بنى قَيْس ، يهجوه :

أبوكَ قتيلُ الجوعِ قيسُ بنُ جَنْدَلٍ　　　وخالُكَ عبدٌ من خُماعةَ راضع[1]

وهو أحدُ الأعلام من شُعَراء الجاهليّة وفحولِها ، وممّن تقدّم على سائرهم ، وليس ذلك بمجمعٍ عليه فيه وفى غيره .

قال محمّد بن سلّام : سألتُ يونس النحويّ : « من أشعرُ الناس ؟ » قال : « لا أومِئ إلى رجل بعينه ، ولكنّى أقول : « امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رَهِب ، وزهيرٌ إذا رغِب ، والأعشَى إذا طَرِب » واحتجّ من قدَّمَ شعر الأعشى بكثرةِ طِواله الجِياد ، وتصرّفِه فى المدح والهجاء ، وفنون الشعر ، وليس ذلك لغيره .

وهو أوّل من سأل بشعرِه ، وانتجَع بـه أقاصيَ البلاد . وكان يُغَنى بشعره . وكانت العربُ تسمِّيه صَنّاجة العرب .

وسُئِل مروان بن أبى حفصة : « من أشعرُ الناس ؟ » قال : « شيخا وائل[2]: الأعشى فى الجاهلية ، والأخطلُ فى الإسلام » .

---

(١) واضع ، المخطوطات .

(٢) شيخا وائل ، كبريلى ، ذلك ، المخطوطتان

بعث أبو جعفر المنصور إلى حمّاد الراوية بيحيي بن سُلَيم الـكاتب ، فقال : « إنّ أمير المؤمنين يسألك عن أشعر الناس » ، قال : « نعم ، ذلك الأعشى صَنّاجُها » .

وقال الشَّعبي : الأعشى أغزلُ الناس في بيتٍ واحد ، وأشجَعُ الناس في بيتٍ واحد ، وأخنَثُ الناس في بيتٍ واحد . فأما أغزل الناس في بيت فقوله :

غرّاء فرعاء مصقولٌ عوارضُها تَمْشِي الهُوَيْنا كما يَمْشِي الوجِى الوَحِل

وأما أشجعُ النّاس في بيتٍ فقوله :

قالوا الطِّراد فقلنا تلك عادَتُنـا أو النِّزالَ فإنا معشرٌ نُزُل

وأما أخْنَثُ النَّاس في بيت فقوله :

قالت هُرَيرةُ لمـا جئتُ زائرَها وَيْلي عليكَ ووَيْـلي منكَ يا رجل

هريرة هذه أمةٌ سوداء ، لحسّان بن عبد عمرو بن بِشر بن مِرثد .

وكان الأعشى قدَرِيًّا ، ولبيد مثبتاً . قال الأعشى :

استأثَر الله بالوفاء وبالْـ ـعدْلِ وولَّى الملامةَ الرَّجُلَا

وقال لَبيد :

من هداه سُبُلَ الخيرِ اهتَدَى ناعِمَ البـال ومن شاء أضلّ

وكان الأعشى أخذَ هذا المذهبَ من العِباديِّين ، نصارى من الحيرة ، كان يأتيهم فيشربُ عندهم الخمر ، ويشتَرِيها منهم . لقّنوه ذلك .

كان الأعشى يُوافى سوقَ عكاظ فى كلِّ سنَة . وكان المحلّق الكِلابى مُمْلِقاً مِئناثا ، فقالت له امرأتُه : « يا أبا كلاب ، ما يمنعُك من التعرُّض لهذا الشاعر ، فما رأيت أحداً قَطَعَه[1] إلى نفسه إلا أكسَبَه خيراً » . قال : « ويحَكِ ! ما عندى إلا ناقتى، وعليها ارْتَحِل[2] » . قالت : « إن الله يخلِفُها عليك » قال : « فهَلْ له بدٌّ

(١) اقتطعه ، الأغانى .

(٢) الحل ، كبريلى ؛ الحمل ، الأغانى .

من الشَّراب والصبوح ؟ » ، قالت : « إن عندى ذخيرةً لى ، ولعلّى أن أجمعها » ، فتلقّاه قبل أن يسبِق إليه أحَـــد ، وابنهُ يقودُه . فأخذَ الخطام ، فقال الأعشى : « من هذا الذى غلبَنَا على خِطامنا ؟ » قال : « المحلَّق » ، قال : « شريفٌ كريم »، ثم سلّمه إليه ، فأناخَه عندَه ، ثم نحر له ناقتَه وكشَف له عن سِنامها وكَبِدها ، ثم سَقاه . وأحاطت به بناتُه ، يغمزنه ويمسَحْنَه ، فقال : « ما هذه الجوارى حولى؟ » فقالوا : « بناتُ أخيك ، وهنَّ ثمانٍ شريدَتُهُنَّ قليلة » . قال : وخرج من عنـده ، ولم يقُل فيه شيئاً . فلما وافى المحلَّق سوقَ عُـكاظ إذا هو بسَرْحَةٍ قد اجتمع الناسُ عليها ، وإذا الأعشى يُنشِدهم قوله :

أرِقتُ وما هذا السُّهاد المؤرِّق ... وما بى من سُقمٍ وما بى مَعْشق
ولـكن أرانى لا أزال بحادثٍ ... أغادَى بما لم يمس عندى وأُطْرَق
لعمرى لقد لاحَتْ عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضَوْءِ نارٍ باليَفـاع تحرّق
تُشَبُّ لمقرُورَينِ يَصْطَليـــانها ... وباتَ على النّار الندى والمحلَّق
رَضِيعَىْ لِبانٍ ثَدى أمٍّ تحالفا[1] ... بأسحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لا نتفرَّق

منها :

أبا مالكٍ صار الذى قد صنعتُمُ ... فأنجـــد أقوام بذاك وأعْرَقوا
وإن عتاق العِيس سوفَ يَزورُكم ... ثناءٌ عـلى أعجـازهِنّ معلّق
به تنقض الأحلاسُ فى كل منزلٍ ... وتُعْـقَد أطرافُ الحِبال وتطلقُ

فسلَّم عليه المحلَّق ، فقال الأعشى : « مرحبا بسيّد قومه » . ونادى : « يا معشرَ العرب، هل فيكم مِذكارٌ، يزوِّج ابنَه إلى الشريف الـكريم ؟ » قال : فما قام من مقعده وفيهنّ مخطوبةٌ إلا وقد زوّجها . واسمُ المحلَّق عبدُ العزّى[2] بن حَنْتَم بن شدّاد

---

(١) فأقسما ، المخطوطتان .

(٢) عبد العزيز ، المخطوطات .

ابن رَبيعة بن عبدِ الله بن عُبيد ، وهو أبو بكر بن كِلاب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصعة وإنما سمّى محلَّقاً لأن حصانا له كدمه فى وجهه ، فكان كالحلقة . وأنشد الأعشى قصيدته هذه لكسرى . فلما سَمِعها وفُسِّرت له قال : « إن كان هذا قد سَهِر لغيرِ سُقم ولا عِشق ، فهو لِصّ » .

تزوَّج الأعشى امرأةً من عَنَزة من هِزّان ، وعنزة هو أسَد[1] بن ربيعة بن نزار ، فلم يرضَها ولم يستحسن خُلُقَها ، فطلَّقها وقال فيها :

بِينِى حَصانَ الفَرْجِ غيرَ ذميمةٍ ... ومَوْموقةً فينا كذاك ووامِقَة
وذُوقِى فتًى قومٍ فإنى ذائِقٌ ... فتاةَ أُناسٍ مثلَ ما أنتِ ذائقة
لقد كان فى فِتيانِ قومِك مَنكَحٌ ... وشبّان هزّان الطوال الغرانقة
فبِينِى فإنّ البَيْن خيرٌ من العصا ... وإلّا تَرَىْ لى فوق رأسِكِ بارقة[2]
وما ذاك عندى أن تكونى دنيئة ... ولا أن تكونى جئتِ عندى ببائقة
ويا جارتى بِينى فإنّك طالق ... كذاك أمور الناس غادٍ وطارقة

وقيل : إنّ اللائى تزوّجن عند المحلّق أخواتُه ، فإنه كان له ثلاثُ أخوات وكان أبوهم له شرف ، فمات ، وقد أتلفَ مالَه ، فبقِى المحلّق ، وأخواته الثلاث ولم يترك له إلا ناقةً ، وحلّتى برودٍ حِبَرة[3] ، يشهد فيهما الحقوق ، فأقبل الأعشى من بعضِ أسفاره يريدُ اليمامة ، ونزلَ الماء الذى فيه المحلّق وقَرَاه أهلُ الماء وأحسنُوا قِراه ، فأقبلت عمّة المحلّق عليه وقالت : « يا ابن أخى . . هذا الأعشى قد نَزَل بمائنا ، وقد قَرَاه أهلُ الماء ، والعرب تزعم أنه لم يمدح قوماً قطّ إلا رَفَعهم ، ولم يهجُ قوماً

---

(١) ابن أسد ، الأغانى

(٢) وإن لاترالى فوق رأسى بارقه ، المخطوطات .

(٣) حبرة ، الأغانى : جيدة ، المخطوطات

إلّا وَضَمهم ، فانظر ما أقول لك ، واحْتَلْ زقًّا[1] من خمر من عند بعض التجــار ، وأرسِلْ إليه بهذه النّاقة والزِّقّ وبُردَىْ أبيك . فوالله لئن اعتلج الـكَبِدُ والسَّنام والخمرُ فى جَوْفه ، ونظر إلى عِطفَيه فى البُرْدين ليقولنّ فيك شعرا يرفَعُك به » . قال : « ما أملكُ غيرَ هذه النَّاقة ، وأنا أتوقَّع رِسْلها » . وأقبلَ يدخُل ويخرجُ ويهُمُّ ولا يفعل . فـكلَّما دخل على عمَّته حضَّته ، حتى دخل عليها وقال: « قد ارتحل الرجل ومضى » . قالت : « الآنَ والله أجودُ ما كان القِرى معه . فأرسِلْ إليه ذلك مع فُلانٍ مَوْلَى أبيك فحيثُما لَحِقَه أخبرَه عنك بأنَّك كنت غائباً عن الماء عند نزوله إيّاه ، وأنّك لما وردتَ الماء وعلمتَ أنَّه قد كان به ، كرِهْتَ أن يفوتَك قِراه . فإن هذا أحسنُ لموقعه عنده » ولم تزل تحضُّه حتى أتى بعضَ التّجــار ، فـكلّمه فى أن يُقرِضَه زِقَّ خمر ، وأتاه بمن ضَمِن ذلك عنه ، فأعطاه ، فوجّه بالناقة والزقّ والبُردَين مع مولى أبيه إليه ، فخرج يتبعه ، فـكلّما مرَّ بماء قيل : ارْتَحل أمسِ عنه ، حتّى صار إلى منزله بمنفوحَةِ اليمامة ، فوجد عنده عدّةً من الفِتيان ، قد دعاهُم بغير لحم ، وصبَّ لهم فضيخاً ، فهم يشربُون منه ، إذ قُرِع الباب ، فقال: « انظروا من هذا » ، فخرجوا فإذا رسولُ المحلَّق يقول كذا وكذا ، فدخلوا عليه فقالوا : « هذا رسولُ المحلَّق الـكلابى ، أتاك بكَيْت وكَيْت » ، فقال : « ويحكم أعرابىّ ، والذى أرسلَ لنا لا قَدْرَ له ، والله لئن اعتلَج السَّنام والـكبدُ والخمرُ فى جوفى لأقولَنَّ فيه شعراً لم أقل مثلَه قطّ » . فقال له الفِتيان : « غبت عنَّا فأطَلْتَ الغَيْبَة ، ثم أتيناكَ فلم تُطْعِمْنا لحماً ، وسقَيْتَنا الفَضيـخَ ، واللّحمُ والخمرُ ببابك ! والله لا نرضَى بذا منك » قال : « ائْذَنُوا له » ، فدخل فأدّى الرِّسالة وأناخَ الجَزُورَ بالباب ، ووضع الزقَّ والبُرْدَين بين يَدَيه فقال له : « أقْرِه السَّلام منِّى ، وقُلْ له : وَصَلَتْكَ رَحِم سيأتيكَ ثَنَاؤُها » . فقام الفِتيانُ إلى الجزور فنحروها ، وشقّوا خاصِرَتَها عن كَبِدها ، وكشفوا جِلدَها

(١) فى زق ، الأغانى .

عن سَنامها ، ثم أقبلوا يشتَوُون ويأكاون وصبّوا الخمرَ ، فشرِبوا وأكلَ معَهم وشَرِب ، ولبِسَ البُردَين ، ونظر إلى عِطفيه فيهما فقال :

* أرِقتُ وما هذا السُّهادُ المؤرِّق *

فسار الشعرُ في العرب . فما أتَتْ على المحلّق سنةٌ حتى زوّج أخواته الثلاث ، كلّ واحدةٍ منهنّ على مائةِ ناقة ، وأيسر وشَرُف .

جاءت امرأة إلى الأعشى فقالت : « إن لي بنات قد كَسَدْنَ عليّ ، فشبِّبْ بواحدةٍ منهنّ ، فلعلّها أن تَنْفُق » ، فشبَّبَ بواحدة ، فما شعر إلا بجزُور[1] قد بعثَتْ به إليه ، فقال : « ما هذا ؟ » قالت[2] : « زُوِّجتْ فلانة » . فشبَّبَ بالأخرى ، فأتاه مثلُ ذلك ، فسأل عنها فقيل : « زُوِّجت » . فما زال يشبِّبُ بواحدةٍ واحدةٍ منهن[3] حتى تزوّجن جميعاً .

هجا الأعشى رجلًا من كلب فقال :

بنو الشّهرِ الحرامِ فلستَ منهم ولستَ من الكرام بَني عُبَيد

ولا من رَهط حسان[4] بن قرط ولا من رهطِ حارثةَ بن زَيْد

وهؤلاء من كَلب ، فقال الكلبيُّ : « لا أبالك ! أنا أشرفُ من هؤلاء » ، فسبَّه الناسُ بعدُ بهجاء الأعشى إيّاه ، فكان متغيِّظاً عليه . فاتّفق أنه أغارَ على قوم الأعشى ، وهو لا يعرفه ، فأسَرَ منهم نفراً ، فيهم الأعشى . فلما نَزَل بشُرَيح بن السَّموءل بن عادِيا الغسّاني ، صاحب تيماء بحصنِه الذي يقال له : الأبلق . فمرّ شريح بالأعشى ، فناداه الأعشى من أبيات ذُكِرتْ في ترجمة السَّموءل ، في حرف السين . وهي :

---

(١) بجزور ، الأغاني : بعجز بعير ، المخطوطات .

(٢) قالوا ، الأغاني .

(٣) بواحدة منهن بعد واحدة ، المخطوطتان .

(٤) جبار ، الأغاني .

شُرَيحُ لا تتركَنِّى بعد ما علِقت ... حبالُك اليومَ بعد القدِّ أظفارى
كن كالسَّموءلِ إذ طاف الهُمام به ... فى جَحْفَلٍ كهزيع اللَّيل جرّارِ

فاستخلصه وأطلقه .

دخل الأخطلُ على عبدِ الملك بن مَرْوان ، وقد شَرِبَ خمراً ، وتضمَّخ بلَخَالِيخ . وخَلوق ، وعنده الشَّعبي . فلمـا رآه قال : « يا شَعْبيُّ . » . ناكَ الأخطلُ أمَّهاتِ الشُّعَراء جميعاً » ، فقال له الشَّعبي : « بأىّ شىء ؟ » قال : « حين يقول :

فإذا تعاوَرَت الأكُفُّ زُجاجَها ... نَفَحَتْ فشمَّ رياحَها المزكومُ »

ثم قال الأخطـل : « هل سمعتَ مثل هذا ياشعبىُّ ؟ » قال الشَّعبِيُّ : فقلت : « إن أَمِنتَنِى قلتُ لك » ، قال : « أنتَ آمِن » ، فقلتُ له : « أشعرُ منك الذى يقول :

وأدكنَ عاتق جَحْلٍ رِبَحْلٍ ... صَبَحْتُ براحِهِ شَرْباً كِراماً
من اللائى حُمِلنَ على المطايا ... كريح المسك تستلُّ الزكاما »

فقال الأخطـلُ : « ويحك ! من هذا ؟ » فقلت : « أعشَى بنى قَيْس بن ثَعلبة » ، فقال : « قُدّوسٌ قُدّوسُ ؛ ناكَ الأعشى أمَّهاتِ الشّعراء جميعاً ، وحقِّ الصليب ! » .

امتدح الأعشى الأسودَ العَنْسىّ ، فاستَبْطأ جائزَتَه ، فقال الأسود : « ليس عندَنا عَيْن ، ولـكن نعطيك عَرَضاً ، فأعطاه خمسمائة مثقالٍ دُهْناً ، وبخمسمائةٍ دينار حُلَلًا وعَنْبَراً . فلمّا مرَّ ببلاد بنى عامر ، خافهم على ما معه . فأتى عَلْقَمة بنَ عُلاثة ، فقال له : « أجِرْنى » فقال : « أجرْتُك من الجنِّ والإنس » ، قال : « ومن الموت؟ » قال : « نعم » ، قال : « وكيف تجيرُنى من الموت ؟ » قال : « إن متَّ وأنتَ فى جوارى بعثتُ إلى أهلِكَ بالدية[1] » . قال : « قد علمتُ أنَّك قد أجرتنى من الموت » .

---

(١) بالمدينة بديتك ، المخطوطتان .

فمدح عامراً ، وهجا عَلْقَمة . فقال عَلْقَمة : « لو كنتُ علمتُ الذى أراد كنتُ قد أعطيتُه إيّاه ، ولم يهجُ علقمةَ بأشدَّ عليه من قوله :

تبيتُون فى المَشْتَى مِلاءً بطونُكم وجاراتُكُمْ غَرْثَى يبِتْن خَمائِصا

فرفع علقمةُ يَدَيه وقال : « لعنه اللهُ ؟ إن كان كاذباً ! ، أنحن نفعلُ هـذا بجاراتنا ؟ ! » .

وكان الأعشى قـد وفد إلى النبيِّ صلّى الله علـيه وسلّم ومدحه بقصيدَتِه التى أوّلها :

ألم تغتَمِضْ عيناك ليلةَ أرْمَدَا وعادك ما عاد السَّليمَ المسَّهدا

وما ذاك من عشق ِ النّساء وإنمّا تناسيتَ قبلَ اليوم خُلّة مَهْدَدَا

منهـا :

فآليتُ لا أرثى لها من كلالةٍ ولا من وجًى حتّى تلاقى محمدا

نبيٌّ يرى ما لا ترَوْنَ وذكرُه أغارَ لعَمْرى فى البلاد وأنجدا

متى ما تُناخِى عند بابِ ابن هاشمٍ تُراحِى وتَلْقَىْ من فواضِله يدا

فبلغ خبرُه قريشاً ، فرصَدُوه على طريقه وقالوا : « هذا صنّاجة العرب ، ما مدح أحداً قطّ إلا رفع من قَدْرِه » . فلما وَرَدَ عليهم قالوا له : « أين تريدُ يا أبا بَصِير ؟ » قال : « أريدُ صاحِبَكم هذا لأُسْلِم » . قالوا : « إنّه ينهاك عن خِلال ، ويحرِّمها عليك ، وكلّها بك رافِق ، ولك مُوافِق » قال : « وما هنّ ؟ » قال أبو سفيانَ ابنُ حرب : « الزنا » . قال : « لقد تركَنى الزِّنا وما تركتُه ، وماذا ؟ » ، قال : « القِمار » ، قال : لعلّى إن لقيتُه أصيبُ منه عِوَضاً من القِمار ، وماذا ؟ » ، قال : « الرِّبا » ، قال : « ما دِنتُ ولا ادّنتُ قطّ ، وماذا ؟ » ، قال : « الخمر » ، قال : « أوّهْ ! أرجعُ إلى صُبَابةٍ لى قد بَقِيَتْ فى المِهراس ، فأشربُها » ، قال له أبو سفيان ابن حرب : « هل لك فى خيرٍ ممّا هممتَ به ؟ » قال : « وما هو ؟ » قال : « نحن

وهو الآنَ فى هُدنة ، فتأخذ مائة من الإبل ، وترجع إلى بلدِك سنَتَك هــذه ، وتنظرُ ما يصيرُ إليه أمرُنا ، فإن ظَهَرنا عليه كنتَ قد أخذتَ خَلَفاً ، وإن ظَهَرَ علينا أتيتَه » ، قال : « ما أ كرهُ ذلك » . فقال أبو سفيان : « يا معشرَ قريش ، هذا الأعشى ! والله لئن أتى محمداً واتَّبعه ، ليُضرِمَنَّ عليكم نيرانَ العرب بشعره ، فاجمعوا له مائةً من الإبل » . ففعلوا ، فأخذَها وانطلق إلى بلده ، فلما كان بقاع مَنْفوحة رَمَى به بعيرُه ، فقتله ؛ وقبرُه بمنفوحة . فإذا أراد الفِتْيـانُ أن يشرَبوا خرجُوا إلى قَبْرِه ، فشرِبُوا عندَه ، وصبوا عليه فَضَلاتِ الأقداح ، لأنه كان يقول : « أرجعُ إلى اليمامة ، فأشبعُ من الأطْيَبَيْنِ : الزنا والخمر » .

قال جرير[1] : سافرتُ فى الجاهليّة ، فأقبلتُ ليلةً على بعيرى ، أُريدُ أن أسْقِيَه ، فجعلت أريدُه أن يتقدّم ، فما يتقدم فعقلتُه ودنوتُ من الماء ، فإذا قومٌ مشوّهون عند الماء ، فقعدتُ فبينا أنا عندَهم إذ أتاهم رجُلٌ أشدُّ تشويهاً منهم ، فقالوا : هذا شاعِرُهم ، فقالوا : « يا فلان ، أنشد هذا ، فإنّه ضيف » . فأنشد :

* ودِّع هُرَيرةَ إن الرَّكْبَ مُرْتَحِل *

فأعجبتُ به وقلتُ : « من يقولُ هــذه القصيدة ؟ » قال : « أنا » ، قلت : « لولا ما تقول لأخبرتُك أن أعْشى بنى ثعلبةَ أنشدَنيها عامَ أوَّلَ بنجْران » . قال : « إنّك صادق ، أنا ألقيتُها على لسانِه ، وأنا مِسْحَلٌ صاحبُه ، ما ضاع شعرُ شاعرٍ صنَعَه عند مَيْمونِ بن قَيْس » .

---

(١) هو جرير بن عبد الله البجلى .

محمد المنتصر بالله

هو محمَّد المنتَصِر بالله بن جَعْفر المتوكِّل بن المعتَصِم محمَّد بن الرَّشيد هارون ابن المهدىّ محمد بن المنصور أبي جَعفر عبد الله بن محمّد بن علىّ بن عبد الله بن العبّاس ابن عبد المطلب . وكان طبعه متخلِّفاً فى قول الشعر . وكان متقدِّماً فى كلِّ شىءٍ غيره . ولما وَلِىَ الخلافةَ قطع ذلك كلَّه ، وأمر بسَتر ما تقدَّم منه من ذلك .

ومن شعره :

متى ترفعُ الأيَّامُ من قد وضَعْنَه ... وينقَادُ لى دهرٌ علىَّ جَموحُ

أعلِّلُ نفسى بالرَّجاء وإنَّنى ... لأغدُو على ما ساءنى وأرُوحُ

أراد المنتصرُ أن يشربَ فى الزوْ(1) . فوافى الناسُ من كلِّ وجه ، ليرَوْه ويراهم، ويخدُموه ، فوقف على شاطِئ دِجلة ، وأقبلَ على النّاس وقال :

لعَمْرى لقد أصْحَرت خيلُنا ... بأكنافِ دجــلةَ للملْعَبِ

فمن يَكُ منَّا يَبِتْ آمناً ... ومن يَكُ من غيرِنا يهرُبِ

فعلِمَ النّاس أنه يريدُ الخلوة بالنُّدَماء والمغنِّين ، فانصرَفوا ، ولم يبقَ معه منهم إلَّا من يصلُح للأُنس والخلوة . والشعر أصلُه « بأكناف دِجْلَة للمُصْعَب » ولكنّه غيّره ، لأنه تطيَّر من ذكرِ المُصْعَب .

قال أحمد بن يزيد المهلبي : كان أبى أخصَّ النّاس بالمنتَصِر ، وكان يجالسُه قبل مجالستِهِ المتوكِّل ، فدخل المتوكِّل يوماً على المنتصر على غفلة ، فسمِعَ كلامَــه وأعجبَه ، فأخذَه إليه ، فجعله فى جُلَسائِهِ . وكان المنتصرُ يريد أن يلازمَه كما كان ، فلم يقدِرْ على ذلك ، لملازمتِهِ أباه ، فعتَبَ عليه لتأخّره عنه ، على ثقتِهِ بمودّته وأنسه به . فلما أفضت الخلافة إليه استأذَن عليه ، فحجَبه وأمر بأن يُعتقلَ فى الدار ، فحُبِس أكثر يومه ، ثم أذِنَ له ، فدخل وسلّم ودعا ، وقبّل الأرضَ بين يدَيْه ،

(1) الزورق ، المخطوطتان ؛ الزقاق ، الأغانى .

فأمره بالجلوس ، ثم التفت إلى بَنَان بن عَمْرو ، والعودُ فى يده ، فقال له : « غنِّ :

غَدَرْتَ ولم أغدِر وخُنتَ ولم أخُن ... ورُمْتَ بديلاً بى ولم أتبــدَّل »

والشعر للمنتصر ، فغنّاه ، وعلِم أبى أنّه أراده بذلك ، فقام وقبَّل الأرض وقال : « والله ما اخترتُ خدمةَ غيرِك إلّا بأمرِك ، ولا صرتُ إليها إلا بإذنك » فقال : « صدقتَ إنّما قلت هذا مازحاً ، أترانى أتجاوزُ حكمَ الله عزّ وجلّ فيما يقول : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ » ثم استأذَنَه فى الإنشاد ، فأنشدَه قصيدتَه التى يقول فيها :

ألا يا قومِ قد برِح الخفــاء ... وبان الصــبرُ منِّى والعزَاء

تعجَّب صاحبى لضَيَاع مِثــلى ... وليس لداء محــرومٍ دواء

جَفانِى سيِّدٌ قــد كان بَرًّا ... ولم أذنِبْ ، فما هذا الجفاء

حَللتُ بــداره وعلمتُ أنِّى ... بدار لا يخيبُ بهـا الرجاء

فلمـا شابَ رأسِى فى ذَرَاه ... حُجِبْتُ بُعُقْبِ ما بَعُد اللقــاء

فإن تنأى سُتور الإذن عنـا ... فمـا نأت المحبَّة والثناء

وإن يكُ كادَنى ظلماً عــدوٌّ ... فبعدَ البحثِ ينــكشفُ الغطاء

ألم تر أنَّ بالآفاقِ منَّا ... جماجِمَ حَشْوُ أقــبُرِها الوفاء

وقد وصف الزمانَ لنا زيادٌ ... وقال مقالةً فيها شفــاء

ألا ياربَّ مغمومٍ سيحظى ... بدولتِنا ومسرورٍ يُساء

أمنتصِرَ الخلافة جُدْتَ فينا ... كما جادَت على الأرضِ السماء

وسِعتَ الناسَ عدلاً فاستقاموا ... بأحــكامٍ عليهنّ الضياء

وليس يفوتُنا ما عشتَ خــيرٌ ... كفانا أن يطولَ لك البقــاء

فقال له المنتصر : « إنّك لمن ذوى ثقتى(١) ، وموضعُ اختيارى ، ولك عنــدى الزُّلفى ، فطِبْ نفساً » . ووصله بثلاثة آلاف دينار .

---

(١) ثقتى ، الأغانى : ثقاتى ، المخطوطات .

محمد المعتز بالله

هو أبو عبد الله محمد ، وقيل طلحة ، وقيل الزبير بن المتوكّل بن المعتصم بن الرّشيد هارون ، وأمه قبيحة .

قال أحمد بن يزيد المهلبي : قال أبي : كان المعتزُّ بالله يشرب على بُستانٍ مملوء من النمّام ، وبين النمّام شقائقُ النعمان . فدخل عليه يُونس بن بُغا ، وعليه قَباء أخضر ، فقال المعتزُّ بالله :

شبّهتُ حمرةَ خـدِّه فى ثوبه بشقائقِ النُّعمان فى النمّام

ثم قال : « أجيزوا » ، فبدَر بنانُ المغـنِّى ، وكان ربّما عبثَ بالبيتِ بعدَ البيتِ . فقال :

والقدُّ منه إذا بدا فى قَرْطَقٍ كالغصن فى لينٍ وحسنِ قَوام

فقال له المعتز : « فغنِّ الآنَ فيهما » ، فغنّاه فيهما .

شَرِب المعتزّ يوماً ويونس بن بُغا بين يدَيه يسقيه ، والجلساء والمغنّون بين يدَيه ، وقد أعدّ الخِلَع والجوائز ، إذ دخل بُغا ، فقال : « يا أميرَ المؤمنين ، والدةُ عبدك يونس فى الموت ، وهى تحبُّ أن تراه » ، فأذِن له تخرج ؛ وفَتَر المعتزُّ بعده ونَعَس ، وقام الجُلَساء ، وتفرّق المغنّون ، إلى أن صُلِّيت المغرب ، وعاد المعتزُّ إلى مجلسه ، ودخل يونسُ وبين يدَيه الشُّموع . فلما رآه المعتزُّ دعا برِطلٍ فشربه ، وسقى يونس رطلًا ، وغـنّى المغنُّون ، وعاد المجلسُ أحسنَ ما كان ، فقال المعتز :

تَغيبُ فلا أفْرَحُ فليتَكَ لا تبرحُ
وإنْ جئتَ عذّبتَنى بأنّك لا تسمحُ
فأصبحتُ مابين ذَيْـ ـنِ لى كَبِد تُجْرح
على ذاك يا سيِّدى دنوُّك لى أرْوَح

ثم قال : « غنّوا فيه » ، فجعلوا يفكّرون ، فقال المعتزّ لسليمانَ القصّار الطُّنْبوريّ : « ويحك ! ألحانُ الطُّنبور أمْلَحُ وأخفُّ ، فغنِّ فيه » ، فغنّى فيه لحناً ، فدفع إليه دنانيرَ الخريطة ، وهى مائةُ دينار ، مكتوبٌ على كلِّ دينار منها : « ضُرِبَ هذا الدينار بالجَوْسق ، لخريطةِ أمير المؤمنين المعتزّ بالله » . ثم دعا بالخِلَع والجوائز لسائر الناس . فكان ذلك المجلسُ من أحسنِ المجالس .

قال عبد السميع الهاشمى : لما قُتِل بُغا دَخَلنا على المعتزّ فهنأناه بالظَّفَر والنَّصر ، وعنده يونس بن بغا ، فما رأينا وجهين أحسنَ من وجْهَيهما ، فما مضت ثلاثُ ساعات حتّى سكرا ، ثم خرج علينا المعتزّ فقال :

ما إن ترى منظراً إن شئتَه حسناً ... إلّا صريعاً تهادى بين سُكْرين

سُكرِ الشَّباب وسُكْرٍ من هَوَى رشأٍ ... تخالُه والذى يَهْواه غُصْنين

ثم أمر فغُنِّيَ فيهما :

قال الفضلُ بن العبّاس بن المأمون : كنت مع المعتزّ فى الصَّيد ، فانقطَع عن المواكب ، وأنا ويونس بن بُغا معه ، ونحن بقُرب قَنطرة وَصيف . وكان هناك دَيْر فيه دَيْرانىٌّ يعرِفنى وأعرِفُه ، وهو نظيفٌ ظريف ، مليح الأدب واللفظ ، حلو الحديث . فشكا المعتزُّ العطش . فقلت : « يا أميرَ المؤمنين ، فى هذا الديْر دَيْرانىٌّ أعرفه خفيف الروح ، لا يخلو من ماء بارد ، فترَى أن نميلَ إليه ؟ » قال : « نعم » ، فجئناه ، فأخرج لنا ماءً بارداً ، وسألنى عن المعتزّ ويونس ، فقلت : « فَتَيانِ من أهل الجُند » ، فقال : « بل مُفْلِتان من حُور الجنَّة » ، فقلت : « هذا ليس فى دينك » ، فقال : « هو الآنَ فى دينى » ، فضحك المعتزّ ، وقال لى الدَّيْرانىّ : « أتأكلون شيئاً ؟ » قلنا : « نعم » ، فأخرج لنا شِطراتٍ وخبزاً ، وإداماً نظيفا ، فأكلنا أطيبَ أكل ، وجاءنا بأطراف أشنان[1] ، فاستظرفه المعتزّ وقال : قل له بينك وبينه : « من تحبُّ أن يكون معكَ من هذين

(١) وجاءنا بأطراف أشنان ، ساقطة فى المخطوطتين .

لا يفارقُك » فقلت له ، فقال : « كِلاهُما وتمراً[1] » . فضحك المعتزُ حتّى مال على حائط ، وقال للديراني : « لا بُدَّ من الاختيار » ، فقال : « الاختيارُ والله فى هذين دمار ، وما خلق الله عزّ وجلّ عقلًا يميِّز بين هذين » . ولحقهما الموكب ، فارتاع الدّيْرانيّ ، فقال له المعتزّ : « بحياتى لا تنقطعْ عما كنّا فيه ، فإنّى لِمَن ثَمَّ مَوْلًى ، ولِمَن هاهنا صديق » ، فمزَحنا ساعةً ، ثم أمر له بخمسمائة درهم ، فقال : « والله ما أقبلُها إلّا علىَ شَرط » ، قال : « وما هو ؟ » ، قال : « يُجيبُ أميرُ المؤمنينَ دَعوتى مع من أراد» . قال : « ذلك لك » . فاتّعدناه ليوم جئناه فيه ، فلم يُبْقِ غايةً ، وأقام للموكب كلِّه ما احتاجَ إليه ، وجاءنا بأولاد النّصارى يخدُموننا ووَصَله المعتزّ صِلةً سنيّة ، ولم يزل يعتادُه ويقيمُ عنده .

بويع المعتزُّ بالخلافة وهو ابنُ سبعَ عشرةَ سنةً وأشهر ، فلما انقضت البَيْعةُ قال :

توحّدنى الرحمنُ بالعزِّ والعلا   فأصبحتُ فوقَ العالمين أميرَا

وقيل: إنَّ هذا البيتَ وُجِد فى أغانى بَنَان مرفوعا[2] ، ولعل المعتزّ قاله فأضاف إليه بَنَان بيتاً آخر ، وجعل المخاطبةَ فيه عن نفسِه فقال :

توحّدك الرحمنُ بالعزّ والعلا   فأنتَ على كلِّ الأنام أميرُ
يقاتِل عنك الترکُ والجندُ كلّهم   كأنّهمُ أسْدٌ لهن زئيرٌ

ومن شعر المعتز قوله :

ألا حىِّ الحبيبَ فدته نفسى   بكأسٍ من مُدَامةِ خانقينا
فإنّى قد بقيتُ مع الليالى   أقاسى الهمَّ فى يده سنينا

---

(١) وتمرا ، ليست فى المخطوطتين .

(٢) مرفوع القافية ، الأغانى .

قال حمدون بن إسماعيل : اصطبح المعتزّ فى يوم ثُلاثاء، ونحن بين يديه ، ثم وثَب فدَخل ، فاعترضَتْه جارية كان يحبُّها ، ولم يكن ذلك اليومُ لها ، فقبّلها ، وخرج فحدّثنى بما كان ، وأنشدَنى لنفسه :

إنى قمرتُك يا سُؤلى ويا أمَـلى ... أمراً مطاعاً بلا مَطْلٍ ولا علل
حـتّى متى يا حبيبَ النفس تمطُلنى ... وقد قمَرتُكَ أحياناً فلم تَفِ لى
يومُ الثُّلاثاء يومٌ سوف أشكره ... إذ زارَنى فيه من أهوى على عَجَل
فلم أنلْ منـه شيئاً غيرَ قبلتـه ... وكان ذلك عندى غايةَ الأمل

وعمل فيه لحناً ، وغنّاه سائرَ يومه .

مروان بن أبي حفصة

هو مروان بن سليمان(1) بن يحيي بن أبي حفصة ، وكنيتُه أبو السِّمط ، واسم أبي حفصةَ يزيد . كان يهوديًا فأسلم على يد مَرْوان بن الحكم ، وأهلُه ينكرون ذلك ويقولون : إنَّه من سَبْي اصْطَخر ، وإنَّ عثمانَ بن عفّان اشتراه ووهَبه لمروان ابن الحكم ، وشهِدَ أبو حفصةَ الدّار مع مولاه مَرْوان بن الحكم ، وقاتل قِتالًا شديداً ، وقتل رجلًا من أسلم ، يقال له بَنَان وجُرح مَرْوان يومئذ ، أصابتْه ضربة ، قطعت عِلْبَاوَيه ، فسقط ، فوثب عليه(2) أبو حفصة ، واحتمله ، فجعل يحمِلُه مرّةً على عنقه ، ومرّةً يجرّه ، فيتأوّه ، فيقول له : « اسكُت واصبِر ، فإنّهم إن علموا أنّك حيٌّ قتلُوك ، فلم يزَل حتى أدخلَه دار امرأةٍ من عَنَزة ، فداواه فيها حتّى برِئَ ، فأعتقَه مَرْوان ، ونزل له عن أمٍّ ولد له ، يقال لها سُكر(3) ، ولها بنت ، يقال لها حَفصة ، فحضَنَها . فكُنِي أبا حفصة ، بحفصةَ بنتِ مروان .

وكان مروانُ إذا وَلِيَ المدينةَ وجَّه أبا حفصةَ إلى اليمامة ــ وكانت مضافةً إلى المدينة(4) ــ ليجمعَ ما فيها من المال ، ويحملَه إليه . فمرَّ أبو حفصةَ بقريةٍ من قرى اليمامة ، يقال لها العرض ، فوقف على بابٍ فاسْتَسْقى ماءً ، فخرجت إليه جاريةٌ مُعْصِر ، فسقَتْه فأعجبته ، فسأل عنها ليشتريها ، فقيل : « هي حُرّة » ، فمضى حتّى قدم حجراً ، ثم تتَبّعَتها نفسُه فتزوَّجها ، فلم يخرُج من اليمامة حتى حملت بيحيي بن أبي حفصة ، ثم حملت بمحمّد ، ثم بعبدِ الله ، ثم بعبدِ العزيز ، فلما وقعت فتنةُ ابن الزُّبير خرج أبو حفصة مع مَرْوان بن الحكم إلى الشام .

(1) سليمان ، تصحيح في هامش كوبريلي ، والأصل : عثمان .

(2) ودب عنه ، كوبريلي ؛ ودب عنه ، المخطوطتان ؛ فوثب عليه ، الأغاني .

(3) سكر ، الأغاني .

(4) وكانت مضافة إلى المدينة ، ساقطة في المخطوطتين .

وقيل : إنّ أمّ يحيي بن أبى حَفصة لحناء[1] بنت ميمون ، من ولد النّابغة الجعدىّ ، وإن الشعر أتى آل أبى حفصةَ من ذلك السَّبَب .

وشهِدَ أبو حفصةَ مع مَرْوان يومَ الجمل . فلما ظهر علىُّ بنُ أبى طالب رضوان الله تعالى عليه، لجأ مَرْوان إلى مالك بن مِسْمَع ، فدخل داره ، ومعه أبو حَفْصة ، فقال لمالك : « أغلِقْ بابَك » ، فقال له مالك : « إن لم أمنعكَ والباب مفتوح لم أمنعك والباب مغلق » . وطلب علىٌّ كرّم الله وجهه[2] مروانَ منه فلم يدفَعْه إلا برهينة ، فدفع مالكٌ الرّهينةَ إلى أبى حفصة . ومضى بمَرْوان إلى علىٍّ عليه السلام[3] وقال لأبى حفصة : « إن حدَثَ بصاحبك حَدَثٌ فعليكَ بالرّهينة » . فلما أتى مروانُ عليًّا عليه السلام[3] كساه كُسوةً ، فكساها مَرْوانَ أبا حفصة ، فبلغ ذلك عليًّا عليه السلام[4] ، فغضِب وقال : « كسوتُه كسوةً ، فكساها عبدَه » . وشهد أبو حفص مع مَرْوان مرجَ راهط ، وكان له بلاء .

وكان أبو حفصةَ شاعراً ، فمن شِعره فى يوم الدار :

وما قلتُ يومَ الدّار للقومِ صالِحوا — أجلْ لا : ولا اخترتُ الحياةَ على القتلِ
ولكنّنى قد قلتُ للقوم جالِدوا — بأسيافِكم لا يُخْلَصَنَّ إلى الكهل

وعُكْلٌ تدّعى أن أبا حَفْصةَ منهم ، يقولون : هو من كِنانة بن عَوف بن عبدِ مَناة بن أدّ بن طابِخة بن إليَاس بن مُضَر . وقد كانوا استَعْدَوا عليه مروانَ بن الحكم ، وقالوا : إنما باعَتْه عمّتُه لمجاعةٍ ، فأبَى هُو أن يُقرّ لهم بذلك ، ثم استَعْدَوا

(١) لحناء ، الأغانى : لحا ، المخطوطات .

(٢) رضوان الله عليه ، المخطوطتان .

(٣) رضى الله عنه ، المخطوطتان .

(٤) كرم الله وجهه ، المخطوطتان .

عليه عبدَ الملك بنَ مروان بن الحكم أيضاً ، فأبى إلّا أنّه رجلٌ من العَجَم ، من سَبْيِ فارس ، نشــأ فى عُكْل وهو صغير ، وولَدُ السَّمَوءل بن عاديا يدّعونه ، والسموءل من غسّان . وزعم أهلُ اليمامة وعُكل وغيرُهم أن ثلاثةَ نفرٍ أتوا مروانَ بن الحكم ، وهم أبو حَفْصة ورَجُلٌ من تميم ورجل من سُلَيم ، فباعوا أنفسَهم منه فى مجاعةٍ لحقتهم . فاستعدى أهلُ بيوتاتهم عليهم ، فأقرّ أحدُهم ، وهو السُّلَمىّ أنّه أتى مَرْوان ، فباعه نفسَه ، وأنّه من العربَ ، فدسّ له مَرْوان من قتَلَه ؛ فلما رأى ذلك الآخَران ثبَتا على أنهما مَوْليان لِمَرْوان .

كان لأبى حفصةَ ابنٌ يقال له مَرْوان ، سمّاه مروان بن الحكَم ، باسمه ، وليس بالشّاعر ، وكان شجاعاً مجرِّباً ، وأمدّ به عبدُ الملك بن مروان الحجّاج ، وكتبَ إليــه : « قد بعثتُ إليك مولاى مروانَ ابنَ أبى حفصة ، وهو يعدِلُ ألفَ رجل » . فشهِدَ معه محاربةَ ابن الأشعث فأبلى بلاءً حسناً ، وعُقِرت تحته عدّة خيول ، فاحتَسَبها الحجّاج عليه من عَطائه ، فشكاه إلى عبد الملك ، فعوّضه مكان ما أغرَمَه الحجّاج .

وكان يحيى جدُّ مروان جواداً ممدَّحاً . أراد جريرٌ أن يوجِّه ابنهَ بلالَ بن جرير إلى الشام فى بعض أموره ، فأتى يحيى بن أبى حَفصة ، فأوْدَعه إيّاه ، ثم بلغَ بلالاً أن بعضَ بنى أميّة يريدُ الخروج ، فقال لأبيه : « لو كلَّفتَ هذا القرَشىَّ أمرى » ، فقال جرير :

أزاداً سِوَى يحيى تُريدُ وصاحبا ... الا إنّ يحيى نِعمَ زادُ المسـافر
وما تأمنُ الوَجْناء وقعــةَ سَيفِه ... إذا أنفَضُوا أو قلَّ ما فى الغرائر

كان يحيى قد تزوّج بنتَ زياد بن هَوْذة بن شمّاس بن لأى ، من بنى أنف الناقة ، فاستَعْدى عليه عمّاها عبدَ الملك بن مروان ، فقالا : « أينكِحُ إبراهيم بن عدى[1] » ،

(١) عربى ، المخطوطات .

وهو من بنى كِنانة ، منك وإليك ، قرينتها[1] وينكِح هذا العبدُ هذه ؟ » فقال عبد الملك : « بل العبدُ ابن العبد ، إبراهيم بن عدى ـ وكان مغمورَ النَّسب ـ والله لهذا أشرَفُ منه ، وإن لأبيه من البلاء فى الإســلام ما ليس لأبيها[2] ، ولا لأبيكما ، وما أُحِبُّ أن لى بيحيى ألفاً مثلكما ، والله لو تزوَّج بنتَ قيس بن عاصم ما نزعْتُها منه ؛ ومن زوَّجه فقد زوَّج ابنى هذا » ، وأشار إلى ابنه سليمان . فخرجا وتخلَّف يحيى بعدَهما ، فقال : « يا أميرَ المؤمنين ، إنَّهما قد أنْضَيَا رِكابَهما وأخْلَقا ثيابهما ، والتزما مَؤُونةً فى سَفَرِها ، فإن رأى أميرُ المومنين أن يعوِّضَهما عِوَضا ». فقال : « أبعدَ ما قالا فيك ؟ » ، قال : « نعم يا أميرَ المؤمنين » قال : « بل أُعطيكَ أنتَ ما سألتَ لهما ، وتُعطيهما أنتَ ما شئتَ » . فكساه ووصَلَه وحَمَله ، فخرج يحيى إليهما ، ففرَّق ذلك عليهما ، وزوَّج ابنَه سُلَيمان بنتَ أحدِهما . وولدتْ بنتُ زيادٍ منه أولاداً .

دخل يحيى بن أبى حفصة على الوليد بن عبد الملك لما بويع له بالخلافة بعد أبيه ، فهنَّأه وعزَّاه ، وأنشده :

إن المنايا لا تغادِرُ واحـداً ... يمشى ببزَّته ولا ذا جُنَّـه
لو كان خَلْقٌ للمنايا مُفْلِتاً ... كان الخليفةُ مُفلِتاً منْهُنَّه
بكت المنابرُ يومَ مات وإنَّما ... بكت المنـابرُ فقـدَ فارِسِهِنَّه
لمـا علاهُنَّ الوليدُ خليفةً ... قُلْنَ ابنُه ونظيرُه فسَكَنَّه
لو غـيرُه قرَع المنـابرَ بعدَه ... لنكِرنه[3] وطـرحنَه عنهُنَّه

---

(١) بنتها ، الأغانى .
(٢) لأبيهما ، المخطوطات .
(٣) لنكرنه ، الأغانى . لـكرهنه ، المخطوطات .

وليحيى أشعارٌ كثيرة ، ولم نَذكُرْ هذا منها إلا ليُعْلَمَ إعراق مَرْوان فى الشعر .

وكان مروانُ من أبخل النّاس عـلى يساره ، وكثرة ما أصابه من الخلفاء ، لا سيّما من بنى العباس : فإنّه كان رسمهُم أن يعطوه بـكل بيتٍ يمدحُهم به ألفَ درهم .

كان المهدىُّ يعطى مَروانَ بن أبى حفصة وسلماً الخاسر عطيّةً واحدة . وكان سلمٌ يأتى بابَ المهدىِّ عـلى البِرْذَونِ(١) قيمتُه عَشْرةُ آلافِ درهم ، والسرجِ واللِّجام المقذُوذين ، ولباسُه الخزُّ والوَشْى وما أشبَه ذلك من الثّياب الغاليةِ الأثمان . ورائحةُ المِسك والغاليةِ والطِّيب تفوح منه . ويجىءُ مَرْوانُ بن أبى حَفْصة ، وعليه فَرْوٌ كَـبْلٌ(٢) ، وقميصُ كرابيس ، وكِساءٌ غليظ منتِنُ الرائحة ، وكان لا يأكلُ اللَّحم بخلاً ، حتى يقرَم إليه ، فإذا قرِم أرسل غلامَه ، فاشْتَرى له رأساً ، فيأكله ، فقيل له : «نراكَ لا تأكل إلا الرءوسَ فى الصَّيف والشِّتاء ، فلِمَ تختار ذلك ؟ » فقال : « نعم ، الرأسُ أعرفُ سِعره ، فلا يستطيعُ الغُلامُ أن يغبِنَنى فيه ، وليس بلحمٍ يطبخه الغلام ، فيقدرُ أن يأكلَ منه . إن مسَّ عيناً أو أذُناً أو خدًّا وقفْتُ عليه . وآكل منه ألواناً : آكلُ عينَه لوناً ، وأذُنَه لوناً ؛ وغَلْصَمتَه لوناً ، ودماغَه لوناً ، وأُكْفى مؤونةَ طبخه ، فقد اجتمعتْ فيه مرافِق » .

قال موسى بنُ يحيى : أوصَلْنا إلى مروانَ بن أبى حفصة فى وقتٍ من الأوقات سَبْعين ألف درهم ، فجمع إليها مالًا حتى تمّتْ مائةَ ألفٍ وخمسين ألفَ درهم ، وأودعها يزيدَ بن مَزْيد ، قال : فبينا نحنُ عند يحيى بن خالد إذْ دخل يزيدُ بنُ مزيد ، وكانت فيه دُعابة ، فقال : « يا أبا علىّ ، أودَعَنى مَرْوانُ بن أبى حفصة مائةَ ألفٍ وخمسين ألف درهم ، وهو يشترى الخبزَ من البقّال » . فغضِبَ يحيى ، ثم قال : « علىَّ بمروان» ،

---

(١) برذون ، المخطوطتان .

(٢) كبل ، كوبريلى ؛ كنك ، المخطوطتان ؛ كبش ، الأغانى .

فأُتِيَ به ، فقال له : « قد أخبرنى أبو خالد بما أوْدَعته من المال ، وما تَبْتَاعهُ من البقّال ، ووالله إن البخلَ لأسوأ أثراً عليك من الفقر لو صِرتَ إليه ، فلا تبخَل » .

وقال مروان بن أبى حفصة : ما فرحت بشىء فَرَحى بمائةِ ألف درهم ، وهبها لى المهدىُّ ، فوزنتُها ، فزادت لى درهماً فاشتريتُ به لحمًا .

قال جَهْمُ بن خَلَف : أتينا اليمامةَ ، فنزلنا على مروان بن أبى حفصة ، فقدّم لنا تمراً ، وأرسل غلامَه بفَلْسٍ وسُكُرُّجَة يشترى لنا زيتاً . فلما جاء بالزيت قال : « خُنْتَنِى » ، قال : « مِن فَلْسٍ كيفَ أخونُك ؟ » قال : « أخذتَ الفَلْس لنفسِك ، واستَوْهبتَ زيتاً » .

مرّ مروانُ بن أبى حفصة فى بعض سَفَراته — يريدُ مَعْنَ بن زائدة — بامرأةٍ من العرب ، فنزلَ بها ، فأكرمَتْه ، وأحسنَت ضِيافته ؛ فقال : « لله علىّ إن وَهَب لى الأميرُ مائةَ ألفِ درهم أن أهبَ لكِ درهماً » ، فأعطاه مَعْنٌ ستّين ألفَ درهم ، فأعطاها أربعةَ دوانيق .

قال أبو دِعامة : اشترى مروانُ بن أبى حفصة لحماً بدرهم وطرَحَه فى القدر ، فلما كاد أن ينضَج دعاه صديقٌ له ، فردّه على القصّاب بنُقصان دانِق ، فأخذه القصّاب ، وجعل ينادى : « هذا لحمُ مَرْوان » ، وظنّ أنه يأنف لذلك . فبلغ ذلك الرّشيد ، فقال : «ويلك ! ما هذا ؟ » قال : « أكرهُ الإسراف » .

دخل مَرْوانُ بن أبى حفصة على مُوسَى الهادى ، فأنشدَه قوله :

تشابَهَ يوماً بأسِــــه ونوالِه فما أحدٌ يدرِى لأيِّهما الفَضْلُ

فقال : أيُّما أحبُّ إليك، ثلاثون ألفاً عاجلةً ، أو مائة ألف تدور[1] فى الدواوين؟ فقال له : « يا أميرَ المؤمنين ، أنت تُحْسِنُ ما هو خيرٌ من هذا ، ولكنك أُنْسِيتَه ،

---

(١) تدون ، الأغانى .

أفتأذَنُ لى أن أذكِّرك ؟ » قال : « نعم » ، قال : « تعجِّل الثلاثين ألفاً ، وتدور[1] المائة الألف الأخرى فى الدواوين » . فضحك وقال : « بل يعجَّلان جميعاً » ، فحُمِل إليه المالُ أجمع .

اجتمع مروانُ بن أبى حفصة ، وأبو محمَّد اليزيدىّ عند المهدىّ ، فابتدأ مروان ينشد :

* طَرَقَتْكَ زائرةً فحَىِّ خيالَها *

فقال أبو محمَّد : « لحن والله ، وأنا أبو محمَّد » ، فقال له مروان : « يا ضعيفَ الرأى ، هذا يقالُ لى ؟ » ثم قال :

* بيضاء تخلِطُ بالجمال دلالَها *

فقال بعضُ من حَضَر : « يا أميرَ المؤمنين ، أيتكنّى فى مجلسك ؟ » (يعنى اليزيدىّ) ، فقال : « اعذروا شيخَنا ، فإن له حُرمة » .

جاء مروانُ بن أبى حفصة إلى حَلْقة يونس ، فسلَّم وقال : « أيّكم يونس ؟ » فأُومِئَ إليه ، فقال له : « أصلحك الله ! إنِّى أرى قوماً يقولون الشِّعر [2]لأن يكشفَ أحدُهم سَوْأته ثم يمشىَ كذلك فى الطريق أحسَنُ له من أنْ يُظهِرَ ذلك الشِّعر[2] ، وقد قلتُ شعراً أعرِضُه عليك ، فإن كان جيِّدًا أظهرتُه ، وإن كان رديئاً سترتُه » . فأنشده قوله :

* طرقتكَ زائرةً فحَىِّ خيالَها *

فقال له يونس : يا هذا اذهبْ فأَظْهِر هذا الشِّعر ، فأنتَ فيه أشعرُ من الأعشى فى قوله :

* رَحَلتْ سُمَيَّة غُدوةً أجمالَها *

---

(١) وتدون ، الأغانى .

(٢) لأن يكشف . . . الشعر ، ساقطة فى المخطوطتين .

فقال له مروان: « سَرَرْتَني وسُؤتني، فأما الذى سَرَرْتَني به فارتضاؤُك الشِّعر، وأما الذى سُؤتَني به فتقديمُك إيَّاى على الأعشى ، وأنت تعرف محلَّه » ، فقال له : « إنَّما قدَّمْتُك فى تلك القصيدة لا فى شِعره كلِّه ، لأنه قال فيها :

* فأصاب حبَّة قلبِه وطِحَالها *

والطِّحال لا يدخُل فى شىء إلا أفسدَه . وقصيدتُك سليمةٌ من هذا وشِبهه » .

اجتاز مَرْوان بن أبى حفصةَ برجلٍ من باهلة ، من أهل اليمامة ، وهو يُنشِدُ قوماً ، كان جالساً إليهم ، شعراً مدح به مَرْوان بن محمد . وكان مَرْوانُ بن محمّد قد قُتِل قبل أن يُسْمِعَه ويَلقاه الباهلىّ ، وأوله :

مروانُ يا ابن محمّدٍ أنت الذى زيـــدَتْ به شرفاً بنو مروان

فأعجبته القصيدة ، فأمهلَ الباهلىّ حتّى قام من مجلسه ، ثم أتاه فى منزِله ، قال : « إنى سمعتُك تُنْشِدُ قصيدتَك ، فأعجبتْنى ، ومروان قد مضى ، ومضى أهلُه ، وفات ما قدَّرتَه عنده . أفتبيعُنى القصيدة حتّى أنتحلَها ، فإنه خيرٌ لك من أن تبقى عليكَ وأنت فقير » فقال : « بكم ؟ » قال : « بثلاثمائة درهم » . قال : « قد بِعتُها » . فأعطاه الدراهمَ وحلَّفه بالطلاق ثلاثاً ، وبالأَيْمان المُحرِجَة ألا يَنْسُبَها إلى نفسِه أبداً ، ولا ينشدَها ، وانصرفَ بها إلى منزله ، فغيّر فيها أبياتاً ، وزاد فيها ، وجعلها فى مَعْنٍ ، وقال :

معنُ بنُ زائدةَ الذى زيدَت به شرفاً إلى شَرَفٍ بنو شيبـان

ووفدَ بها علَيه ، فملأ يدَه ، وأقام عنده حتّى أثرى ، واتّسعت حاله ؛ فكان معنٌ أوّلَ من رفع ذِكره ، ونوَّه به .

وكان سببُ اتِّصال مروان بن أبى حفصة بالخلفاء أن جاريةً يمانيّة أُهدِيت إلى أبى جَعفرالمنصور ، فأنشدَتْه شعراً لمروان بن أبى حفصة ، يمدح به السرىَّ بن عبدالله ، فذكر فيه وِراثةَ العبّاس. فسألها لِمَن الشعر، فأخبرته ، فأمر أن يُحمَلَ مروانُ إليه ،

يُحمل إليه ، فوافاه فى الربذة حاجًّا فلقِيَ مروانُ الربيعَ ، والمنصورُ عليلٌ العلَّة التى ماتَ فيها فقال : « كن قريباً منّا حتى يدعوَ بك أميرُ المؤمنين ، فلم تزَلْ العلَّة تشتدُّ به حتى مات بمكّة قبل أن يصل إليه مَرْوان » . فقال له الربيع الحَقْ بالمهدىّ ، ولا تتخَلَّفْ عنه . فانصرفَ مروان إلى اليمامة ، فجعلها طريقاً ، وعليها بشرُ بن المنذر والياً . فأوفد بِشرٌ عَشْرَةً وفداً ، وجعلَ مروانَ فيهم ، وأعطى كلَّ رجلٍ منهم ألفَ درهم . فقدِمَ مروانُ على المهدىّ ، وقد مدَحه بأربعةِ قصائد ، منها قوله :

صحا بعد جهلٍ فاستراحتْ عواذِلُه ... وأقصَرنَ عنه حينَ أقصَر باطلُه

منها :

وإنَّ طليقَ الله من أنتْ مطلِقٌ ... وإن قتيلَ الله من أنتَ قاتلُه
وإنّك بعد الله للحَكَمُ الذى ... يصابُ به من كلِّ أمرٍ مفاصلُه
فلا نَقْضَ للأمر الذى أنتَ مبرِمٌ ... ولا ردَّ للقولِ الذى أنتَ قائلُه

منها :

أمرٌّ وأحلَى ما بلى الناسُ طعمَه ... عِقَابُ أمير المؤمنين ونائلُه
حُتُوفُ العُصاة الناكثين نكالُه ... وغيثُ العفاةِ القاصدين فواضِلُه
كأنَّ أميرَ المؤمنين محمّداً ... أبو جعفر فى كلِّ أمر يحاولُه

ومنها قوله:

طاف الخيالُ فحيِّه بسلامِ ... أنَّى ألمَّ وليس حينَ لِمَامِ
عُقِدتْ لموسى بالرصافة بَيْعةٌ ... شدَّ الإلآه به عُرى الإسلامِ
يا خيرَ من ورثَ النبيَّ محمّداً ... دونَ الأقاربِ من ذوى الأرحام

ومنها قوله :

أعْصِ الهوَى وتعزَّ عن سُعدا كا ... فلَمِثلُ حِلْمِكَ عن هواكَ نهاكا
إن الذى أمسي بمكّة ثاوياً ... حاباهُمُ بكَ لا بِهِم حَابَاكا

فجزى الإله أباك خيرَ جزائِه عنّا ومثــلَ جزائه فجزاكا
لما تيمّم للبريّة خــيرها ولّاك أمرَهم الذى ولّاكا

منها :

حنّت إلى موسى القلوبُ فبايَعت قبل الأكفّ وما ظلمْنَ نداكا
فاعقد لهارونَ المؤمّل عهدَه تظفرْ بعِصمة ديننا وكفاكا

ومنها قوله :

مرى العينَ شوقٌ حال دون التجلُّد ففاضَتْ بأسراب من الدمع حُشَّــد

فأعطاه المهدىُّ ثلاثين ألفَ درهم . فانصرفَ إلى اليمامة ، ثم عاد فى سنة أربعٍ أو خمسٍ وستّين ومائة ، فمدح المهدىّ بقصائد ، وأجزَل جائزته ولم يزَلْ بباب المهدىّ حتى هلَك ، ورثاه بقوله :

لقــد أصبحتْ تختالُ فى كلّ بلدةٍ بقبرِ أمــير المؤمنـين المقـابرُ
ولو لم تسـكّن بابنِــه فى مكانه لـما برِحت تبـكى عليـــه المنابرُ
أتَتْه التى بزّت سليمانَ مُلـكَه وألْوَتْ بذى القَرْنَـيْنِ فيها البوادر
أتَتْه فنالَتْه المنـــايا ، وعدلُه ومعروفُه فى الشّرق والغربِ ظاهرُ
ولو كان تجريدُ السّيوفِ يردُّهـا ثنَتْ حدَّها عنــه السيوفُ البواتر
ولـكنّه لابدّ من وِردِ منْهَلٍ من الموتِ لا عن حَوْمةِ الموت قاصِر

ولما أنشَد المهدىّ :

* صحا بعد جهلٍ فاستَرَاحَتْ عواذلُه *

قال : « ويحَـك يا مروان ! كم بيتاً هى ؟ » قال : « سبعونَ بيتاً » ، قال : « لك بكل بيتٍ ألفُ دِرهم ، ولو زدتَ لزدناك » ، فقال : « يا أميرَ المؤمنين ، اسمع منى أبياتاً حضرت » ، قال : « هاتِ » ، فأنشده :

إليكَ قصَرْنا النِّصف من صلواتِنا مسيرةَ شَهرٍ بعــد شهرٍ نواصلُه

فلا نحن نخشى أن يخيبَ مسيرنا إليك ولكنّ أهنأ البرّ عاجلُه

روى ابنُ شِبل ، وكان عَلّامة من أهل صنعاء ، قال : قال لى معن بن زائدة : «يا ابنَ شِبل ، قد اجتمعَ ببابى شُعراء وزوّار ، وقد أحببتُ أن أقعدَ لهم مقعداً عامًّا ، وأسمع منهم ؛ فتحضرُ وتسمعُ منهم وتقضى» . فقلتُ : « أنا بالله وبالأمير من القضيَّة ، ولكن نحضرُ ونسمع » ، فأمَر بطعامٍ فصُنع ، ثم أحضَرَ الشّعراءَ ، فكانوا أكثرَ من أربعينَ شاعراً ، منهم طريح بن إسماعيل الثّقفى ، وابنُ هَرمة . فلما فرغَ النّاس من الطّعام أمرَ بالشُّعراء فغلّفُوا بالغالِية ، ثم دعا بطريح ، فأنشدَه قصيدةً ، ثم دعا بابن هَرمة ، فأنشدَه قصيدةً ، ثم دعا بمَرْوان بن أبى حَفْصَة ، فأنشدَه :

حــلّ المشيبُ فلن يحوِّل رحلَه عنِّى وبانَ فلن يؤوبَ شبــابى

من مديحها :

مَسَحَتْ ربيعةُ وجهَ معنٍ سابقاً لـمـا جَرَى وجَرَى ذَوو الأحساب
خــلّى الطريق له الجياد قواصراً عن قُرب غايته وهنّ كـــوابى
وجرَتْ بــه غرٌّ سوابقُ زانها كرمُ النِّجار وصحّةُ الأنساب
فرعَتْ بنــو مطرٍ روابىَ وائلٍ متمهِّلين وهنّ خـــيرُ روابى
قـــومٌ رواقُ المكرماتِ عليهمُ عالى العِماد ممدَّد الأطناب

حتى فرغ منها . وكان معنٌ متّـكئاً ، فاستوَى جالساً ، ثم قال : زد ، فأنشده :

بنو مطرٍ يـــومَ اللّقاء كأنهم أسودٌ لها فى غيـل خَفّان أشْبُل
هم يمنعون الجــــارَ حتّى كأنما لجارِهم بين السِّماكين مَنْزِلُ
لهاميم فى الإسلام سَادُوا ولم يكن كأوَّلِهم فى الجاهليّة أوَّلُ
هم القومُ إن قالوا أصابُوا ، وإن دُعوا أجابوا ، وإن أعطَوْا أطابوا وأجزلوا
وما يستطيعُ الفاعلون فَعالَهم وإن أحسَنُوا فى النائباتِ وأجملوا
ثلاثٌ كأمثال الجبـــال حباهم وأحلامُهم منها لدى الرّوع أثقل

لمعنٌ بمــا يعطِى أسرٌ من الذى　　بما نالَ من معروفِه يتموَّل
أيومُ نــدَاه الغَمرُ أم يومُ بأسِه　　فما منهم إلا أغرُّ محجَّل

حتى فرغ منها . وكان مَعْنٌ قد دلىّ رجلَيه عن فِراشه ، فقال : « زِدْ » ، فأنشده قوله :

قُــل للفؤادِ الذى يعتالُه الطرَبُ　　هــل للصِّبا إذ تولَّى عصرُه طلب
ماأصبحَ اليومَ من قومٍ ذوى شَرَفٍ　　إلا على بابِ مَعْنٍ منهمُ عُصَب
شدُّوا الرحالَ إلى مَعْنٍ على ثقةٍ　　طلابُ خــيرٍ فعمُّوا بالذى طلبوا
قل للجوَاد الذى يجرى ليدرِكَه　　أقصِرْ فما لَكَ إلا الغرب والتعب
فمــا الشجاعة إلّا دونَ نَجْدَته　　ولا المواهبُ إلا دونَ ما يهبُ
سيَّان فرعُ نزارٍ فى أرُومَتِهــا　　وأنتَ فرعُ بنى شَيْبانَ إن نُسِبوا
فما بقيتَ أصابَ العرفَ طالبُــه　　وإن ذهبتَ فمــا للعرف مطَّلبُ

حتى فرغ منها ، فانحدرَ مَعْنٌ عن فراشِه ، حتى صار على البِساط ثم قال : « زد » ، فأنشده :

هاجَت هواكَ بواكرُ الأظعانِ　　يوم اللِّوى فظللتَ ذا أحزان

حتى فرغ منها ، فصــبرَ معنٌ للشعراء ، حتى سَمِــع منهم جميعاً ، قصيــدةً قصيدة . فلما خرَجُوا أقبلَ على ابنِ شِبل فقال : « ما سمعتَ وما رأيتَ ؟ » قال : « أصلح الله الأمير ، رأيتُك صرَّحتَ بقضيَّةٍ ، لم يقضِ أحدٌ لأحدٍ بمثلِها » قال : « ولمن ؟ » قال : « لابنِ أبى حَفصة » قال : « يا ابنَ شبل ، لعنةُ الله على من يَرى أنه كافأه » . وكان ممن حضر ذلك اليومَ يحيي بنُ منصور الذُّهلى ، وكان قد تابَ من الشعر ، ولبِسَ المُسوح ، ثم عاوَد الشعر و ومدَح معناً ، فقال مروان :

لا تعدَمُوا رَاحَتى معنٍ فإنَّهما　　بالجود أفْتَنَتَا يحيي بنَ مَنصور
ألقى المُسُوحَ التى قد كان يلبَسُها　　وعاد للشِّعر ذا نَسْجٍ وتحبير

لما رأى راحَتَىْ معنٍ تدفَّقتَا بنائلٍ من جَداه غيرِ منزور

فانصرفَ مروان من اليَمن من عند مَعن فى هذه المرّة ، بألفَىْ دينار ، ورقيقٍ وكُسوة ، وأقام باليمامة .

خرج معنٌ إلى الناس يوماً فقال : سَلُوا حوائجكم ، ولا يمنعنّ أحداً منكم من المسألة أن يقولَ قد سألتهُ فأعطانى ، فإن الشاعرَ يقول :

سألناه الجزيلَ فما تلكّا وأعطى فوقَ منيته فزادا

وأحسَنَ ثم أحسَنَ ثم عُدنا فأحسَنَ ثم عدتُ له فعادا

مراراً ما رجَعتُ إليه إلاّ تبسّم ضاحكاً وثنَى الوسادا

دخل مروان بن أبى حفصة على جعفر بن يحيى فقال : « أنشِدْنى مرثيَّتك لمعن ابن زائدة » . فأنشده من أبيات :

كأنَّ الشمسَ يومَ أُصِيبَ معنٌ من الظلماء مُلبَسَةٌ جلالا

كأن النّاسَ كلَّهم لمعن إلى أن زار حُفْرتَه عِيالا

فقال له جعفر : « هل أثابَك على هـذه المرثيَّة أحدٌ من وَلَده شيئاً ؟ » قال : « لا » ، قال : فقد أمَرْنا لك بأربعمائة دِينار ، فقال مروان فى ذلك :

نفحتُ مكافِئاً عن قبرِ مَعْنٍ لنا ممّا تجودُ به سِجالا

فكافأ عن صَدَى معنٍ جوادٌ بأجودِ راحةٍ بذات نوالا

إذا ما المادحُون عليكَ أثنَوا بفضلٍ فيك قد وجدوا المقالا

بنى لك خالدٌ وأبوكَ يحيَى بناء فى المكارم لن يُنالا

كأن البرمكىَّ وكلَّ مالٍ تجودُ به يداه يُفيد مالا

قال مروان بن أبى حفصة : أنشدتُ الفضلَ بن يحيى بعدَ انصرافِه من خُراسان، وظفرِه بيحيى بن عبد الله بن حسن الطالبى :

للفضلِ يومَ الطالِقانِ وقبلَه يومٌ أناخ به على خاقان

ما مثل يومَيْه اللذَيْن حواهما | فى غير ونى تواليـــنا يومان
سدَّ الثغورَ وردَّ أُلفة هاشـــمٍ | بعد الشّتات فشعبُهــا مُتَدَانِ
عَصَمَتْ حكومتُه جماعةَ هاشمٍ | من أن يجرَّد بينها سَيْفــــان
تلك الحـكومةُ لا التى عن غيها | عَظُم البَلا وتفرّقَ الحـكمـان

فأعطاه الفضلُ مائة ألف درهم ، وحمله وخلع عليه .

كان عبد الله بن أبى فَروة مولَى رسُول الله صلّى الله عليه وسلّم منحرفاً عن وَلَد[1] العبّاس ، مائلًا إلى وَلَد علىٍّ عليه السلام[2] ، فقال فيه بعضُهم :

جحــــدتَ بنى العبّاس حقَّ أبيهم | فما كنتَ فى الدَّعوى رشيدَ العواقب
مـــتى كان أولادُ البنـاتِ كوارثٍ | يحـــوزُ ويُدعَى والداً فى المنـاسِب

فأخذ مَرْوان بن أبى حفصة هذا المعنى فقال :

أنّى يكون وليس ذاك بـكائنٍ | لبـنى البنات وراثةُ الأعمـــام

قال مروان بن أبى حفصة : كان المنصورُ قد طلب معنَ بن زائدة ، طلباً شديداً ، وجعل فيه مالًا ، فحدَّثنى معنُ بن زائدة أنه اضْطُر ، لشدّة الطلب إلى أن أقام فى الشّمس ، حتّى لوّحَت وجهَه ، وخَفّفَ عارضَيه ولحيتَه ، ولبس جبّة صوفٍ غليظةٍ ، [3]وركِبَ جملًا من الجمال النقّالة ، وخرج ليمضِيَ إلى البادية[3] ، ليقيم بها . وكان قد أبلى فى حَرْبِ يزيدَ بن عمر بن هبيرة[4] بلاءً حسناً ، غاظ المنصور ، وجدّ فى طلبه .

قال معن : فلما خرجتُ من بابِ حرب ، تبِعنى أسودُ[5] متقلّدا سيفاً ، حتى إذا

(١) بنى ، المخطوطتان .
(٢) رضى الله عنه ، المخطوطتان .
(٣) وركب جملا وخرج وعليه زى الجمالة النقالة إلى البادية ، المخطوطتان .
(٤) عمرو بن يزيد بن هبيرة ، المخطوطات .
(٥) عبد أسود ، المخطوطتان .

غبتُ عن الحرَس ، قبضَ على خِطام الجمل، فأناخَه وقبضَ عليَّ، فقلت : « ما شأنُك ؟» قال : « أنت بُغيةُ أمير المؤمنين » فقلتُ له : « ومن أنا ، حتّى أكونَ بُغيةَ أمير المؤمنين ، ويطلبُني ؟ » قال : « أنتَ مَعْنُ بن زائدة » . فقلتُ له : « يا هذا ، اتقِ الله ! وأينَ أنا من مَعن ؟ » فقال : « دَع هذا عنك ، فأنا والله أعرَفُ بك منك »، فقلتُ له : « فإن كانت القضيّة كما تقول(١) ، فهذا جَوْهر حملتُه معى، بأضعافِ ما بذَله المنصورُ لمن جاءه بى ، فخذْه ولا تَسْفِك دَمى » ، وقال : « هاته » ، فأخرجتُه له . فنظر إليه ساعةً وقال : « صدقتَ فى قيمته ؛ لستُ قابلَه حتى أسألَك عن شىء ، فإن صدقتَـنى أطلقتُك» ، فقلت : « قل » ، فقال :« إنّ الناسَ قد وَصَفوكَ بالجود ؛ فأخبرنى هل وهبتَ قطّ مالَك كلَّه ؟ » قلتُ : « لا » ، قال : « فنصفَه ؟ » قلتُ : « لا » ، قال : « فثُلُثَه ؟ » قلت : « لا » ، حتّى بلغ العُشر ، فاستَحْيَيْتُ وقلت : « إنّى أظنُّ أنى قد فعلتُ هذا » ، فقال : « ما ذاكَ بعظيم ، أنا والله راجل ، ورِزْقى من أبى جعفر عشرونَ درهماً ، وهذا الجوهرُ قيمتُه ألوفُ دنانير ، وقد وهبتُه لك ، ووهبتُكَ نفسَك لجودِكَ المأثور بين الناس ، ولِتَعْلَمَ أنّ فى الدنيا من هُو أجودُ منك ، ولا تعجبك نفسُك ، ولتحتقرَ بعد هذا كلَّ شىء تفعلُه ، ولا تتوقَّفَ عن مكرمة » ، ثم رمى بالعِقد ، وخلَّى خِطام النّاقة ، وانصرف ، فقلتُ : « يا هذا ، قد والله فضَحتنى ، ولَسَفْكُ دمى أهونُ مما فعلتَ بى ، فخذْ ما دفعتُه إليك ، فإنّى عنه فى غِـنًى » ، فضحك ثم قال أتريدُ أن تـكذّبنى فى مَقامى هذا ، والله لا آخذُه ولا آخذُ لمعروفٍ ثمناً أبدا » ، ومضى . فوالله لقد طلبتُه بعد أن أمِنْتُ ، وبذلتُ لمن جاءنى به ما شاء ، فما عرفتُ له خبراً ، فكأنّ الأرضَ ابتلعته .

وكان سببُ رضاء المنصور عن مَعن أنّه لم يزلْ مستَتِرًا ، حتّى كان يومُ الهاشميّة. فلما وثب القومُ على المنصور ، وكادوا أن يقتلوه وثبَ معنٌ وهو متلثّم ، وانتضَى

(١) قلت ، المخطوطتان .

سيفَه ، وقاتلَ فأبلَى بلاءً حسناً ، وذبَّ القومَ عنه ، حتى نجا ، وهم يحاربونه بعدُ . ثم جاء والمنصورُ راكبٌ على بَغلة لجامُها بيد الرَّبيع ، فقال له : « تنحَّ ، فإنِّى أحقُّ بلجام بَغلَتِه منك فى هــذا الوقت ، وأعظَمُ منك غَناء » . (١)فقال له المنصور : « صَدَق ، فادفعه إليه » ؛ ولم يزل يقاتل حتى انكشفت تلك الحال(١) . فقال له المنصور : « من أنت ؟ لله أبوك ! » فقال له : « أنا طِلبَتُكَ يا أميرَ المؤمنين ، مَعْنُ ابن زائدة » . فقال : « قد أمَّنك الله على نفسِك ومالِك ، ومثلك يُصْطَنع » . ثم أخذَه معه ، وخَلَع عليه وحمَلَه وحَباه ، ثم دعا به يوماً فقال : « إنِّى قد أهَّلتُك لأمرٍ ، فكيفَ تكونُ فيــه ؟ » قال : « كما تحبُّ يا أميرَ المؤمنين » . قال : « قد ولَّيتُكَ اليمن ، فابسُط السيفَ فيهم ، حتى يُنقَضَ حِلفُ ربيعة واليمن » . قال : « أبلغُ من ذلك ما يحبُّ أميرُ المؤمنين » ، فولّاه اليمن. وتوجّه فبسط فيهم السَّيف .

وقدِم مَمن بعَقِبِ ذلك على المنصور ، فقال له بعــد كلامٍ طويل : « قد بلغ أميرَ المؤمنين عنك شىءٌ ، لولا مكانُك عندَه ، ورأيُه فيك ، لغضِب عليك » . قال : « وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ما تعرضتُ له منكَ(٢) منــذُ وَليتُ ! » فقال : « إعطاؤك مَرْوان بن أبى حَفصة ألفَ دينار ، لقولِه فيك :

معنُ بن زائدةَ الذى زيدت به ... شرَفاً إلى شرَفٍ بنو شيبان

إن عُدَّ أيامُ الفعَــال فإنّما ... يَوْماه يَوْمُ ندًى ويومُ طِعانِ »

فقال : « يا أمير المؤمنين ، ما أعطيته ما بلغكَ لهذا ، ولـكنّى أعطيتُه لقوله :

ما زلتَ يومَ الهاشميَّة مُعْلَماً ... بالسَّيف دون خليفــةِ الرحمن

فمنعتَ حَوْزَتَه وكنتَ وِقاءَه ... مِن وَقع كلِّ مهنَّد وسِنان »

فاستَحْيِي المنصورُ ووصَلَه ، وقال : « إنّما أعطيتَه ما أعطيتَه لهذا القول ؟ »

---

(١) فقال له المنصور صدق ... الحال ، ساقطة فى المخطوطتين .

(٢) لمنكر ، المخطوطتان .

قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، والله لولا مخافة الشُّنعة عنـدَك لأمكنتُه من مفاتيحِ بيـوتِ الأموال ، وأبحتُه إياها » ، فقال له المنصور : « لله درُّك من أعرابيّ ! ما أهونَ عليك ما يعزُّ على الرجال وأهل الحزم ! » .

قال الفضلُ بن الرَّبيع : رأيتُ مروان بن أبي حفصة ، وقد دخل على المهديّ بعد وفاة مَعْن بن زائده ، في جُملة الشعراء ، فأنشدَه مديحاً فيه ، فقال له : « من أنت ؟ » قال : « شاعرُك يا أميرَ المؤمنين وعبدُك مروانُ بن أبي حفصة » ، فقال له المهديُّ : « ألستَ القائل :

أقمنا بالمدينةِ بعدَ مَعْنٍ ... مُقاماً لا نُريد بـه زوالا

وقلنا أينَ نرحلُ بعدمَعْنٍ ... وقد ذَهبَ النَّوالُ فلا نوالا

قد ذهب النَّوالُ فيما زَعَمت ، فلم جئتَ تطلبُ نَوالاً ؟ لا شيء لك عندَنا ، جرُّوا[1] برجلِه » ، فجرّوا[1] برجله حتّى أُخرج . فلما كانَ من العامِ المقبل[2] تلطّف حتّى دخَلَ مع الشعراء ـ وإنّما كانت الشُّعراء تدخُل على الخلفاء في كلّ عام مرّة ـ فمثَلَ بين يديه ، وأنشدَه بعد رابعٍ أو خامسٍ :

طرقتكَ زائرةً فحيِّ خيالَها ... بيضاءُ تخلطُ بالجمال دلالها

قادَت فؤادكَ فاستَقادَ ومثلُها ... قاد الفُؤادَ إلى الصِّبا فأمالها

قال : فأنصت له حتى بلغ إلى قوله :

هل تطمِسُون من السَّماء نجومَها ... بأكفِّكم أو تسترون هِلالهــا

أو تجحدون مقـالةً من ربِّكم ... جبريلُ بلَّغها النبيّ فقالها

شهدت من الأنفال آخرُ آيـةٍ ... بتُراثِهم فأرَدْتُم إبطالها

قال : فرأيتُ المهديّ قد زَحَف من صدر مصلّاه ، حتى صار على البِساط إعجاباً

---

(١) جروه ... فجروه ، المخطوطتان .

(٢) الثاني ، المخطوطتان .

بما سمع ، ثم قال : « كم قصيدتُك؟ » قال : « مائة بيت » ، فأمر له بمائة ألفِ درهم . فكانت أوّل مائةِ ألفِ درهم أعطيها شاعرٌ ، فى أيام بنى العباس .

قال : ومَضَت الأيّام ، ووَلِىَ هارونُ الرشيد الخلافة ، فدخلَ إليه مَرْوَان ، فرأيتُه واقِفاً بينَ الشعراء ، ثم أنشده قصيدةً امتدحه بها ، فقال له « من أنت ؟ » قال : « شاعرُك وعبدُك يا أمير المؤمنين ، مروانُ بن أبى حفصة » . فقال له : « ألستَ القائلَ فى مَعْن بن زائدة .

* أقمنا بالمدينةِ بعدَ مَعْن *

وأنشده البيتين خذوا بيده فأخرجوه فلا شىء لك عندنا » ، فأخرج فلما كان بعد ذلك بزمن[1] تلطّف[2] ، حتّى دخل ، فأنشده قصيدة :

لعمركَ ما أَنْسَى غداةَ المحصَّبِ إشـارةَ سَلْمَى بالبنان المخضَّبِ

وقد صدَرَ الحجَّاج إلا أقلَّهم مصادرَ شـتّى موكباً بعدموكبِ

قال فأعجبَتْه فقال : « كم قصيدتُك ؟ » قال : « ستّون بيتاً أو سبعون » ، فأمر له بعددِ أبياتها ألوفاً .

وكذلك كان رسمُ مَرْوانَ عندهم حتى مات فى سنة إحدى وثمانين ومائة ودُفِن فى بغداد فى مقبرة نصر بن مالك الخُزاعىّ .

مر مروان بن أبى حفصة برجلٍ من بنى تَيْم اللاتِ بن ثَعلبة ، يعرف بالجِنِّىّ ، فقال له مروان : « ما أنتَ والشِّعر ! ما أرى ذلك من طريقتك ولا مَذهَبِك ولا تقولُه » فقال له الجِنِّىُّ : « اجلسْ واسْمَع » . فجلس . فقال الجنىُّ يهجوه :

ثوى اللؤمُ فى عجلانَ يوماً وليلةً وفى دارمَرْوانٍ ثوى آخرَ الدهرِ

---

(١) بعد ذلك بزمن : العام القابل ، المخطوطتان .

(٢) برز بلطف ، المخطوطتان .

غدا اللؤمُ يبغى مطرَحاً لرِحاله فنقَّبَ[1] فى برِّ البلاد وفى البحر
فلما أتى مروانَ خيَّم عنــده وقال رَضينا بالمُقام إلى الحشر
وليس لمروانٍ على العِرْس غَيْرَةٌ ولـكنَّ مروانًا يغارُ على القِدر

فقال له مروان : « نشدتُك بالله ، إلا كففْتَ ، فأنتَ أشعرُ الناس » ، فحلف الجنىُّ بالطلاق ثلاثًا ألا يكُفَّ ، حتى يصيرَ إليه بنفَرٍ من رؤساء اليمامة ثم يقولَ بحضرتهم : « قاق فى استى بيضة » ، فجلَبهم وفعل ذلك بحضرتهم . فانصرفوا يضحكون من فِعله .

قال مروان بن أبى حفصة : وفدتُ فى ركبٍ إلى الرشيد ، فسرنا فى أرضٍ موحِشَة قفر ، وجَنّ علينا الليل ، فسِرنا لنقطَعَها . فلم نشعُرْ إلا بامرأةٍ تسوقُ بنا ، وتحدُو فى آثارنا ، وإذا هى الغول . فلمّا لاح الفَجْر عدَلت عَنّا ، وأخذت عُرْضاً ، وجعلت تقول :

يا كوكبَ الصّبح إليك عنّى فلستُ من صبــح وليس منّى

فما أذكر أنّى فزِعت من شىء قطّ ، فزَعى ليلتئذ .

(١) فنقب ، الأغانى : فقلب ، المخطوطتان .

مروان الأصغر بن أبي حفصة

هو مَرْوان الأصغَر ابن أبي الجنوب بن مَرْوان الأكبر بن أبي حفصة . وكنيته أبو السِّمط ، وقد تقدَّم نسبُه في ترجمة أبيه . وكان مَرْوانُ هذا آخِرَ من بقِيَ منهم يُعَدّ في الشّعراء ، وبَقِي منهم بعدَه متوِّج . وكان ساقطاً باردَ الشِّعر . قال أبو هفّان: شعرُ آل أبي حفصة بمنزلةِ الماء الحارّ ، ابتداؤه في غاية الحرارة ، ثم تلينُ حرارتُه ، ثم يفتُر حتّى يبرد ، وهكذا كانت أشعارُهم ، إلا أنّ ذلك الماء الحارّ لما انتهى إلى متوِّج جَمَد .

كان المنتصرُ قد أقصَى مرْوان وجَفاه ، لنَصْبه ، وأخرجَه عن جلسائه . وكان المنتصرُ أيضا قد خالف أباه في سائرِ مذهبه ، حتى في التشيُّع .

استأذن أبو السِّمط مَرْوانُ على المنتصر ، لما وَلِيَ الخلافة ، فقال : « والله لا أذِنتُ للكافِر ابن الزّانية ، أليسَ هو القائل :

وحكّم فيها حاكمين أبُوكم ... هما خَلَعاها خَلْعَ ذي النَّعل للنَّعلِ

قولوا له : « والله لا وصلتَ إليه أبداً » ، فلما بلغَه هذا القولُ قال هذه القصيدة:

لقد طالَ عهـدي بالإمام محمَّدٍ ... وما كنتُ أخشى أن يطولَ به عهدي

فأصبحتُ ذا بعـدٍ وداري قريبةٌ ... فوا عجباً من قُربِ داري ومن بُعدي

فياليتَ أنّ العيـدَ لي عادَ مرّةً[1] ... فإنّي رأيتَ العيدَ وجهَك لي يبدي

رأيتُك في بُردِ النبيِّ محمّدٍ ... كبدر الدُّجى بين العِمامة والبُرد

وسأل بُنانَ بن عمرو أن يصنعَ فيه لحناً ، فصنعه وغنَّى فيه بين يَدَيْ المنتصر فلما سمِعَه سأل عن قائله ، فأخبرَه به ، فقال : « أمّا الوصولُ إليّ فلا ولكن أعطوه عشرةَ آلافِ درهم ، يتحمَّلُ بها إلى اليمامة .

(١) يومه ، الأغاني .

قال أبو السِّمط مروان الأصغر : لما دخلتُ على المتوكِّل مدحتُه ومدحتُ ولاةَ العهود الثلاثةَ ، وأنشدتُه :

سقى الله نجداً والسلامُ على نَجْد ... ويا حبَّذا نجدٌ على النأيِ والبُعد

نظرتُ إلى نجدٍ وبغدادُ دونَها ... لعلِّى أرى نجداً وهيهاتَ من نجدِ

ونجدٌ بها قومٌ هواهم زيارَتِى ... ولا شىءَ أحلَى من زِيارتِهم عندى

فلما فرغْتُ منها أمرَ لى بمائةٍ وعشرينَ ألف درهم ، وخمسين ثوباً وثلاثة من الظهر[1] : فرسٍ ، وبَغلةٍ وحِمار ، ولم أبرحْ حتّى قلتُ قصيدتى التى أشكُرُه فيها وأقول :

تخيَّر ربُّ الناس للنّاس جعفراً ... وملّكه أمرَ العباد تخيُّرا

فلما صِرتُ إلى هذا البيت :

فأمسِك ندَى كفَّيكَ عنِّى ولا تزِدْ ... فقد كدتُ أن أطغَى وأن أتجبَّرا

قال : « والله لا أمسِكُ حتّى أغرقَك بجُودى ، ولا تبرحُ والله أو تسألَنى حاجة » . فقلت ياأمير المؤمنين ، الضيْعة التى أمرتَ أن أُقْطَعَها باليمامة ذكر ابنُ المدبِّر أنها وَقْفُ المعتصِم على وَلَده » . فقال : « قد قبَّلتُك إيّاها مائةَ سنةٍ بمائةِ درهم » ، فقلتُ : « لا يحسُن أن تُضْمَن ضَيْعةٌ بدِرْهمٍ فى السّنة » ، فقال ابن المدبر فبألف درهم فى السنة » فقلت : « نعم » فأمر ابنَ المدبِّر أن يُنْفِذَ ذلك له ولعقِبه . فقال « ليستْ هذه حاجةً ، هذه قَبالة ، فبحياتى سَلْنى حاجةً » ، فقلت : « ضيعةٌ يقال لها السيوح ، أمر الواثقُ بإقطاعى إيّاها ، فمنعَها ابنُ الزيّات ، لعلمِه بخِدمتى أميرَ المؤمنين ، وحالَ بينى وبينَها إلى هذا الوقت » ، فقال : « يُجدَّد إقطاعُه إيّاها الساعةَ ويردُّ عليه ما ارتفع منها ، منذ أقطعه الواثق إيّاها إلى السّاعة ، من بيت المال » ، ففُعِل ذلك .

---

(١) وثلاثة أظهر ، المخطوطات .

كان عليُّ بن الجهم يطعَنُ على مَرْوان بن أبي حفصة، ويثلُبه جداً حسداً على موضعه من المتوكل . فقال المتوكِّل : « يا عليّ ، أيُّما أشعَر أنتَ أو مَرْوان ؟ وأغْرَى بينهما ، فقال عليّ : « أنا يا أمير المؤمنين » . فأقبل المتوكِّلُ على مروان ، فقال له: قد سمعتَ ، فما عندَكَ ؟ » قال : « كلُّ أحدٍ أشعرُ منِّي يا أميرَ المؤمنين ، وما أصِفُ نفسي ولا أزكِّيها . وإذا رَضِيَني أميرُ المؤمنين فما أبالي من زيَّفني » ، فقال المتوكِّل : هذا نُكولٌ عن الجواب ، وزعم أنَّه أشعَرُ منك ، فإن كان كما يقول قدَّمناهُ عليك، وإلَّا فأفصِح عن نفسِك » . فالتفتَ إليه مَرْوان فقال له : « يا عليّ أنتَ أشعَر منِّي ؟ » قال : « أوَ تَشُكُّ في ذلك ؟ » قال : « نعم ، أشُكُّ وأشُكُّ ، وهذا أمير المؤمنين يحكم بيننا » . فقال له عليّ : « إنَّ أمير المؤمنين يُحابيكَ ، لميله إليك». فقال له المتوكِّل: « هذا عيٌّ منك يا عليّ » ؛ ثم قال لابن حَمدون : « أحكُم بينهما » قال : « طرحتَني يا أميرَ المؤمنين بينَ أنيابٍ ومخالبَ من أسَدين » ! قال : « والله لتحكمَنَّ بينهما »، فقال له : « أمّا إذا حلفتَ يا أميرَ المؤمنين ، فأشعرُهما عندي أعرقُهما في الشِّعر » . فقال له المتوكِّل : « قد سمعتَ يا عليّ ؟ » فقال: «قد عرَفَ ميلَكَ إليه ، فمالَ معه» ، فقال : « دَعْنا منك ، هذا كلُّه عيٌّ . عليك لعنةُ الله ! ما أعنَتَك وأعياكَ ! فإن كنتَ صادقاً فاهجُ مروانُ » . قال : « قد سكِرتُ ، ولا فضلَ فيَّ » ، فقال المتوكِّل لمروان: « اهجُهُ أنتَ ، وبحياتي لا تُبقِ غاية » ، فقال مروان :

إن ابنَ جَهْمٍ في المَغيبِ يَعيبُني ... ويقولُ لي حَسَناً إذا لاقاني
فإذا التقَيْنا ناكَ شِعري شِعرَه ... ونزَا على شيطانِه شَيْطاني
صَغُرت مَهابتُه وعُظِّم بطنُه ... فكأنَّما في بطنِه وَلَدان
ويحَ ابنِ جَهمٍ ليس يرحمُ أمَّه ... لو كان يرحَمُها لما هاجاني[1]

---

(١) عاداني ، الأغاني .

فضحك المتوكِّل والجلساء ، وانخزلَ ابنُ الجهم ، فلم يُجب ، فالتفت المتوكِّل إلى عليٍّ وقال : بحياتى إن حَضَرَكَ شىءٌ فهاته ولا تقصِّر » فقال :

بنتَ جَهْمٍ يا عليّة صرتِ بعدى قُرَشيّة
قلتِ ماليسَ بحقٍّ فاسكُتِى يا حَلَقِيّه
اسكُتى يابنتَ جَهْمٍ اسكُتى يا نَبَطيّه

فضحِك المتوكِّل وضربَ برِجله الأرضَ ، وأخذ عبّادةُ الأبيات فغنَّاها على الطَّبل ، فقال علىّ : إنَّ هذا الشِّعر لَيُشبهك(١) ، ماهذا من الشِّعر ، ويلك ! » فقال: « صدقتَ ، إنه لهَزْل ، ولكنّى سأجِدُّ بكْ » ، ثم قال :

لعمركَ ما الجهمُ بن بدرٍ بشاعرٍ وهذا علىٌّ ابنُه يدَّعى الشعرا
ولكنْ أبى قد كان جاراً لأمِّه فلما ادَّعى الأشعارَ أوْهَمَنى أمرا

ففَضَحه فى المجلس ، ولم يُحِرْ جواباً ، وبقى علىّ مطرقاً كأنَّه ميت ، ثم قال : « علىَّ بالدَّواة » فأُتِىَ بها ، فكتبَ فيها :

بلاءٌ ليس يشبهُه بلاءٌ عداوةُ غيرِ ذى حَسَبٍ ودين
يبيحُك منه عِرضاً لم يصُنه ويرتَعُ منك فى عِرضٍ مصون

دخل مروان الأصغرُ على أَشْناس ، وقد مَدَحه بقصيدةٍ ، فأنشدَه إيّاها ، فجعل أشناسُ يحرِّكُ رأسَه ، ويومِىء بيدَيْه ، ويظهرُ طرَباً(٢) وسروراً ، وأمرَ له بصِلَة . فلما خرَجَ قال له كاتبهُ : « رأيتُ الأميرَ قد طَرِب ، وحرَّكَ رأسَه ويدَيْه ، لما كان يسمعُه ؛ وقد فهم ؟ » فقال : « نعم » ، قال : « فأىَّ شىء كان يقول ؟ » ، قال : « ما زال يقرأُ علىَّ رُقْيَةَ الخُبْزَ حتّى حصَّل ما أرادَ وانصرف » .

---

(١) اسهل ، المخطوطتان .

(٢) فرحا ، المخطوطتان.

قال إبراهيمُ بن المدبِّر : قرأتُ فى كتابٍ قديم ، قال عَوْف بن محلِّم لعبد الله بن طاهر فى عِلة اعتلّها :

فإن تَكُ حمّى الرِّبْع شَفَّك وِرْدُها فعُقباكَ منها أن يطولَ لك العُمر
وَقَيْناكَ لو نُعطَى المُنَى فيك والهوَى لكانَ بنا الشكْوَى وكان لك الأجر

قال : ثم حُمَّ المتوكِّل حمَّى الرِّبع ، فدخل عليه مَرْوانُ بن أبى الجنوب ، فأنشدَه قصيدةً عَلى هذا الروىّ ، وأدْخَل البيتَين فيها ، فسرَّ بهما المتوكِّل ، فقال له علىُّ بن الجهم : « يا أميرَ المؤمنين ، هذا شعرٌ مقول » ، والتفَتَ إلىَّ وقال : « هذا يعلم » . فقال المتوكِّل : « أتعرِفُه ؟ » فقلتُ : « ما سمعتُه قبلَ اليوم » . فشتم المتوكِّلُ علىَّ بن الجهم ، وقال : « هذا من حَسَدِك وشرِّك وكذِبِك » . فلما خرجنا قال علىُّ بن الجَهم : « ويحكَ ! مالَكَ جُنِنْت ! أما تعرفُ هذا الشِّعر ؟ » قلت : « بَلَى » وأنشدتُه إيّاه ، فلما عدنا إلى المتوكِّل من غدٍ قال : « ياأميرَالمؤمنين ، قد اعترَف بالشِّعر وأنشدَهُ لى » ، فقال لى : « أكذاك هو ؟ » ، فقلتُ « كَذَب يا أمير المؤمنين ، ما سمعتُه قطّ » ، فازْداد عليه غيظاً وشتماً . فلما خَرَجْنا قالى لى : « ما فى الأرضِ شرٌّ منك » . قلت له : « أنتَ أحمَق ، تريدُ منِّى أن أجىءَ إلى شِعرٍ قاله فيه شاعرٌ يحبُّه ، ويعجبُه شعرُه ، فأقولَ له إنى أعرفُه ، وأُوقِع نفسى وعِرضى فى لسان الشُّعراء ، لترتفِعَ أنت عندَه ، ويسقُطَ ذلك ويبغِضُنى أنا . لستُ أفعلُ شيئاً من ذلك » .

كان أبو السِّمط يتشبّه بجدِّه فى شعره ، ويتقرّب إلى المتوكِّل بهجاء آل أبى طالب ، رضوانُ الله عليهم ، فتمكّن عنده ، وكسَب منه مالاً عظيما . وبهذا السبَب جفاه المنتَصِر وأقصاه لما كان يسمَع منه فى على بن أبى طالب رضوانُ الله عليه :

دخل مروان يوماً على المتوكِّل ، فأنشده :

سلامٌ على جُمْلٍ وهيهاتَ من جُمْلِ ويا حبَّذا جُملٌ وإن صرمَت حَبْلى

وهى من جيِّد شعره ومشهورة ، يقول فيها :

أبوكم علىٌّ كانَ أفضلَ منكُمُ ... أباهُ ذَوُو الشُّورى وكانوا ذَوِى عَدْلِ

وساءَ رسولَ الله إذ ساءَ بنتَه ... بخطبته بنتَ اللَّعينِ أبى جهلِ

أرادَ علىٌّ بنتَ الرَّسول تزوُّجاً ... ببنتِ عدوِّ الله يالكَ من فِعْلِ

فذمَّ رسولُ الله صِهرَ أبيكم ... على منبرٍ بالمنطقِ الصَّادق الفَصْلِ

وحكَّم فيها حاكِمين أبوكُم ... هما خَلَعاهُ خلعَ ذى النعل للنعلِ

وقد باعَها من بعده الحسَنُ ابنه ... فقد أبطلَا دعواكم الرَّثَّةَ الحبلِ

وخلّيتمُوها وهىَ فى غيرِ أهْلِها ... وطالبتمُوها حين صارت إلى الأَهْلِ

فأعطاه المتوكِّل مائةَ ألف درهم .

قال خالدُ بن يزيد الكاتب : حضَر مروانُ بن أبى حفصة عندَ المتوكِّل ليلةً فقال له : « أتقولُ على البديهة ؟ » فقلت له : « هو يا سيِّدى شيخُ الشُّعراء ، ومادحُك ، وآباؤه مُدَّاح آبائك » . فقال :

ياليتَ لى ألفَ عَيْن ... عينانِ لا تكفِيانى .

فقلتُ له : « تبخَّسْتَ عينَك ، أنا لى عَيْنٌ واحدةٌ ، أدعُو الله عليها بالعمى منذ ستِّين سنة ، أقول :

يا عين أنت بليَّتى ... فأراحَنِى الرحمنُ منكِ

وأنت تتمنَّى ألفَ عين ! » ثم قال لى المتوكِّل : « اهجُه » . فقلت : إنّ الرجلَ لم يعرِض لى فأقبلَ هو علىَّ وقال : « قل ماشئتَ ، وما عَسى أن تقول ؟ » فقلت :

زاد البردُ يوْمَين ... فقال النّاس : ما القصَّة ؟

فقلنا : أنْشَدونا شعرَ مروانَ بنَ أبى حَفْصة

فتًى من شهوة النيك ... بحُلقوم استِه غُصَّة

فضحِك المتوكِّل حتى فَحَصَ بِرجليه الأرض . وأُفحِمَ مَرْوان . ثم أمرَ لى بجائزةٍ فأخذتُها وانصرفت .

ودخل مروان على المتوكِّل مرة ، فأنشده :

الصِّهر ليس بوارثٍ والبنتُ لا تَرِثُ الإمامة
لو كانَ حقُّهمُ لهم قامَتْ على النَّاس القِيامة
أصبحتُ بينَ محبِّكم والمبغضينَ لكم علامة

فحشى المتوكِّل فاه جوهراً لا تُدرى له قيمة .

لما قال علىٌّ بن الجهم فى المتوكِّل قصيدته التى أولها :

اغتنِم لذَّة الزمانِ الجديد واجعل المهرجانَ أيمنَ عيدِ

أنشدها وأبو السِّمط حاضِر ، فغمزه المتوكِّل على ابن الجهم وأمرَه أن يُمابثه فقال له : « يا علىّ أخبرنى عن قولك (واجعل المهرجان أيمنَ عيد) ، المهرجان يومُ عيدٍ أو يومُ لَهْو ، إنّما العِيدُ ما تَعَبّدَ الله فيه النّاس ، مثلَ الفطر والأضحى ، ويوم الجمعة ، وأيّام التّشْريق ، وأما المهرجان والنَّوْرُوز فإنّهما من أعْيَاد المجوس ، لا يجوزُ أن يقالَ لخليفةِ الله فى عبادِه ، وخليفةِ رسول الله فى أمَّته : اجْعَل المهرجان عيداً » فلم يلتفِت إليه . ومرّ فى إنشادِه حتى بلغ إلى قوله :

نحن أشياعُكم مِنَ آل خُراسانَ أولُو قوَّةٍ وبأسٍ شديدِ
نحن أبناءُ هذه الخِرَق السُّودِ وأهلُ التشيُّع المحمود

فقال له مروان : « لو كنتُم من أهْلِ التشيّع المحمود ماقتل قحطبةُ جدّكَ وصلبَه فى عداوَةِ بنى العبّاس ؟ » فقال له المتوكِّل : « ويلك ! أقتلَ قحطبةُ جدَّك؟» قال : لا والله ياأميرَ المؤمنين » . فأقبل المتوكِّل عَلَى محمد بن عبد الله بن طاهر ، فقال له : « بحياتى ، الأمرُ على ماقالَ مروان؟» فقال له محمّد : فإن كان الأمر على ما قال « فأىُّ ذنبٍ

لعلىّ ؟ قد قتل الله أعداءكم ، وأبقى أولياءكم ». فضحك المتوكل وقال : « شهدتَ والله بها عليه » . فقال مروان فى ذلك :

غضب ابنُ الجهم من قَوْلى له ‏ ‏ إنَّ فى الحقِّ لقومٍ مَغْضَبه
يا ابنَ جَهمٍ كيف تَهوَى معشراً ‏ ‏ صَلَبوا جدَّك فوق الخَشَبه
يا إمامَ العَدْلِ نُصحى لكُمُ ‏ ‏ نصحُ حقٍّ غيرُ نصح الكَذَبة
إن جدِّى من رفعتُمْ ذكرَهَ ‏ ‏ بكراماتٍ لشُكرى موجِبه
وابنُ جَهمٍ من قتلتُم جدَّه ‏ ‏ وتولَّى ذاك منه قَحْطبه
بخراسانَ رأتْ شيعتكم ‏ ‏ أنَّه أهلٌ لضربِ الرقبة
أتُراه بعد ذا ينصَحُكم ‏ ‏ لا وربِّ الكعبةِ المحتَجِبه

وكان ابنُ الجَهم يسترذِلُ مَرْوان ، ويحْتقِرُه ولا يجيبه

المــرّار

هو المرّارُ بن سَعيد بن حَبيب بن خالد بن فَضْلة بن الأَشْيم بن جَحْوان بن فَقْعَس ابن طَرِيف بن عَمْرو بن قُعَين بن الحارث بن ثَعْلبة بن دُودَانَ بن أسَد بن خُزَيمة ابن مُدرِكة بن إلياس بن مُضر بن نزار . وأمُّ المرّار بنتُ مَرْاون بن مُنْقِذ الذى أغارَ على بنى عامِر بثهلان(١) فقتَل منهم مائةً بحبيب بن مُنْقِذ عمّه ، وكانوا قتلوه .

وكان المرّارُ قصيراً مُفْرِط القِصَر ، ضئيل الجسم ، وكان يهاجى المساوِرَ بنَ هِند ابن قَيْس بن زُهَير بن جَذِيمة العَبْسىّ ، وفيه يقول :

شَقِيتْ بنوأسَدٍ(٢) بشعرمُساوِرٍ ... إن الشقىَّ بكل حَبْــلٍ يُخْنَق

والمساوِرُ هو القائل فى المرّار :

ما سرّنى أنّ أمّى من بـــنى أسَدٍ ... وأنّ ربِّـىَ يُنْـجِيـــنى من النـار
لو أنَّهم زوّجونى من نِسَائِهم(٣) ... وأنَّ لى كلَّ يوم ألفَ دينـــار

والمرار من مخضرمى الدولتين . وقيل إنه لم يدرك الدولة العباسية .

وكان المرّارُ بن سَعيدوأخوه بدر لِصَّين . وكان بدرٌ أشهرَ منه بالسَّرِقَة ، وأكثرَ غاراتٍ على النّاس .

وكان المرّار قد أتى حَصُيْنَ(٤) بن ربّاق ، من بنى عَبْس ، فوقفَ عـــلى بعضِ بيُوتهم ، فجعل يحدِّثُ نِساءَهم ، وينشدهنّ الشِّعر ، فنظروا إليـــه ، وهم مُجتَمِعون عند الماء ، وظنُّوا أنّه بعضُهم . ثم انصرَفَ من عند النِّساء حتى وَقَفَ على الرِّجال ، فقال له بعضُهم : « أنتَ يا مرّار تقِفُ على أبياتِنا وتُنْشِدُ نساءَنا الشِّعر ؟ » قال :

(١) بن نهلان ، المخطوطات .
(٢) سعد ، الأغانى .
(٣) بناتهم ، الأغانى .
(٤) غصين ، المخطوطات .

« إنَّما كنتُ أسألُهنَّ » وجرى بينه وبينهم كلامٌ طويل ، فوثَبوا عليه وضربوه ، وعَقَروا بعيرَه ، فانصرَف من عندهم إلى بنى فَقْعَس ، من بنى عبس (١ فأخبرهم الخبرَ ، فركبوا معه إلى بنى عَبْس وقاتلوهم فهزموهم ، وفَقَأَتْ بنو فقعس من بنى عَبس ١) عَيناً ، وقتلوا رَجُلًا ، وانصرفوا . فحمل أبو شدَّاد النَّصرى مائتَىْ بعيرٍ لبنى عَبْس ، وغلَّظوا عليهم فى الدِّية ، ثم إنَّ بدرَ بنَ سعيدٍ أخا المرَّار قال له : « قد استَوْفَتْ عبسٌ حقَّها ، فعلام أترُكُ ضربَ أخى وعَقْر جمله ؟ » فَخَرج (٢) حتى أتى خيلًا (٣) لبنى عَبْس فى المرعى ، فرَمى بعضَها فعَقَره وانصرف ، فقال المرَّار : « والله ما يُقْنِعُنى هذا . ولكن اخرُج بنا » فخرجا فأغارا على إبلٍ لبنى عَبْس فطردَاها وتوجَّها بها نحو تَيْماء ، فلما كانا فى بعض الطَّريق انقطَع بِطانُ راحِلة بَدْر ، فندَرَ عن راحِلَته فقال له المرَّار : « يا أخى أطِعْنى وانصَرِف ، ودَع الإبلَ فى النَّار » ، فأبَى عليه ، ثم سارا فعرض لهما ظبىٌ أعضَبُ أحدِ القرنين ، فقال المرَّار : « قد تطيَّرتُ من هذا السَّفَر ، ولا والله ، لا نَرجِعُ من هذا السَّفَرَ أبدا » . فأبَى عليه بدر . ثم تفرَّقت عَبْسٌ وقَيْسٌ فى طَلَب الإبل . فعمدَت فِرقةٌ إلى وادى القُرى ، وفِرقةٌ إلى تَيْماء (٤) فصادفوا الإبلَ بتيماء تُباع . فأخذوا المرَّارَ وبدراً ، فرَفعوهما إلى الوَالى . وعُرِفَتْ سِماتُ عَبْس على الإبلِ ، فدُفِعَت إليهم ، وحُبِس المرّار وأخوه بالمدينة ، وضُرِبا ، فمات بَدْرٌ فى الحَبْس ، واجتمع عدَّة من قُريش ، فكلَّموا زيادَ بن عبد الله النَّصْرى فى المرّار ، فخلَّاه ، وقال يرثى أخاه بدراً .

ألا يا لقومى للتَّجَلُّد والصَّبر ... وللقدَر السَّارى إليكَ وما تدرى

(١–١) فأخبرهم الخبر . . من بنى عبس ، ساقط فى المخطوطتين .


(٢) فخرج ، الأغانى : فجمع ، المخطوطات .


(٣) جمالا ، الأغانى .

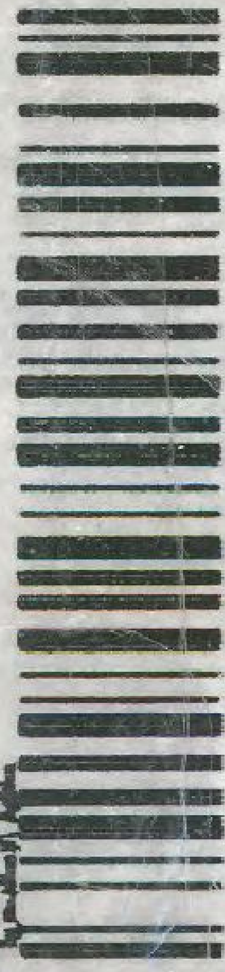
(٤) وادى تيماء ، المخطوطتان .

وللشَّيء تَنْساه وتَذْكُر غـــيرَه ... وللشَّى لا تنســاه إلا عــلى ذُكْرِ
تذكَّرتُ بدراً بعد ما قِيــل عارِفٌ ... لمــا نَابَه ، يا لهفَ نفسى على بَدْرِ
إذا خَطَرت منه على النَّفس خَطرةٌ ... مَرَتْ دمعَ عينى فاستَهلّ على نحرى
وما كنتُ بطَّاء ولــكن تَهِيجُنى ... على ذكرِه طيبُ الخلائق والُخــبْر

فهرست تراجم الكتاب






Bibliotheca Alexandrina
0615085